وزارة التعليـم العالـي والبحـث العلمي
جـــامعـــة يحي فـارس بالمديـــة
كليـــة الآداب واللغات
قســـم اللغة والأدب العربي





تلقي الخطاب السيميائي في النقد العربي المعاصر
-الاتجاه الفرنسي أنموذجا-

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدوكتوراه (ل.م.د)

تخصص : نظريات الإيقاع وتحليل الخطاب.

إعداد الطالبة :
* كوشيدة زينب.

تحت إشراف الأستاذ:
أ.د صادق خشاب.

السنة الجامعية: 2023 - 2024

وزارة التعليـم العالـي والبحـث العلمـي
جـــامعـــة يحي فـارس بالمديـــة
كليـــة الآداب واللغات
قســـم اللغة والأدب العربي





تلقي الخطاب السيميائي في النقد العربي المعاصر
-الاتجاه الفرنسي أنموذجا-

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدوكتوراه (ل.م.د)

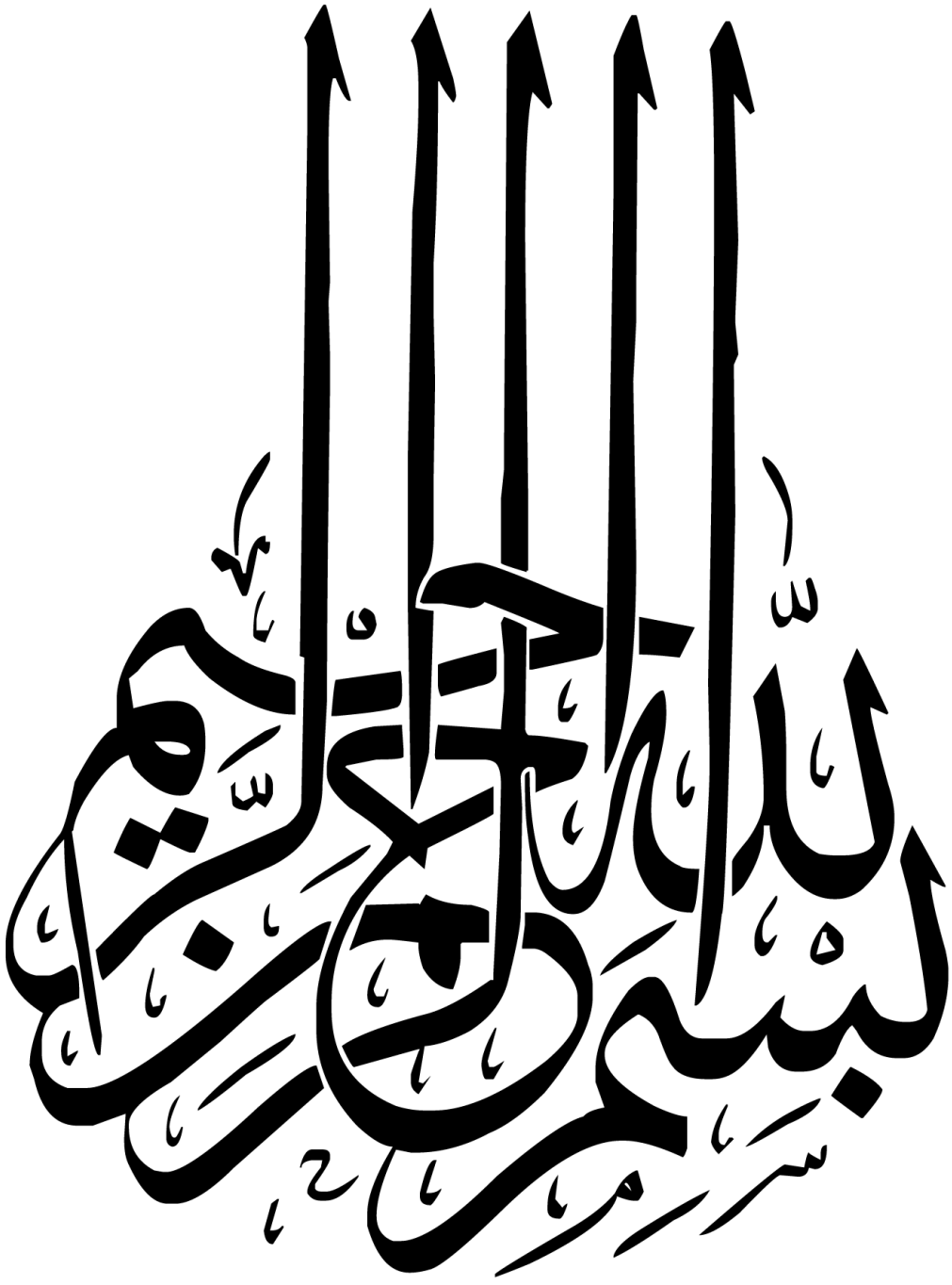
تخصص : نظريات الإيقاع وتحليل الخطاب.

إعداد الطالبة :
* كوشيدة زينب

تحت إشراف الأستاذ:
أ.د صادق خشاب.

الإسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة
أ د بولمعالي نذير	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة المدية
أ د خشاب صادق	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة تلمسان
أ د حيولة سليم	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة المدية
أ د مدقدم مولاي	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة المدية
أ د مداني علي	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة تيارت
أ د سعيد تومي	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة البليدة02

السنة الجامعية: 2023 - 2024


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

أهدي ثمرة جهدي إلى أمي حفظها الله وأبي رحمه الله.

وإلى كل من زرع في نفسي كل معاني الحب والوفاء، وأورث في نفسي

كل دوافع التضحية والعطاء وإلى من علموني أن أرتقي سلم الحياة بحكمة

وصبر إلى من يجري حبهم في عروقي: عائلتي

وإلى كل من لم يدخر جهدا في مساعدتي وساهم في تعليمي ولو بحرف في حياتي الدراسية

وإلى كل أساتذة معهدنا من كانوا لنا عوناً في هذا البحث.

وإلى كل من يعرفني...

إلى كل هؤلاء أسمى عبارات الشكر والامتنان.

زينب كوشيدة

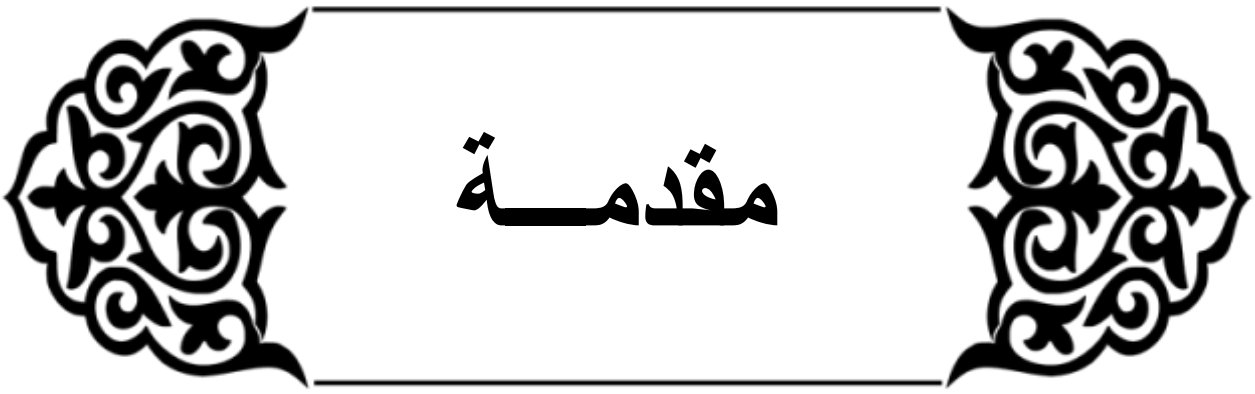
الشكر والعرفان

الحمد لله والشكر لله حمداً ي ليق بجلاله وعظيم سلطانه الذي وفقنا في هذا العمل المتواضع، ولرسوله الكريم الذي غرس في قلوبنا حب العلم والإيمان، ومن تمام شكره تعالى أن نشكر لأهل الفضل فضلهم وجهدهم لقوله صلى الله عليه وسلم : "من لم يشكر الناس لم يشكر الله، ومن أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له"، وتطبيقاً لهذا الحديث الشريف يسرنا أن نتقدم في البداية بجزيل الشكر وخالص التقدير والإحترام إلى أستاذي المشرف "أ.د خشاب الصادق" الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث والذي لم يبخل علينا بنصائحه وتوجيهاته السديدة فيسر لنا السبيل لإتمام هذا البحث منذ أن كان مجرد فكرة حتى خرج إلى النور، وإلى الأيادي المخلصة التي كانت لنا عونا لإتمام هذه المذكرة ولو بالكلمة الطيبة. وإلى أساتذتنا الكرام بجامعة الدكتور يحيى فارس بالمدية وأخص بالذكر "د.مولاي متقدم"، "د.عبد الكريم شرفي"، "د.العربي حسين"، "أ.د بولمعالي نذير"، "أ.د ناجي شنوف"، "د. سليم حيولة"،"د(ة) مدان حورية"، "د.بلخير دوالي"...إلخ

كما نتقدم بجزيل الشكر إلى أعضاء لجنة المناقشة الموقرة، وإلى كل من علمنا حرفا...

إلى كل هؤلاء دعاء من القلب بأن يجازيهم الله غنا كل خير.

زينب كوشيدة


مقدمـــة

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين وهو خير معين، وصلي اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

يعتبر "المنهج السيميائي" من أهم الاهتمامات الأساسية التي كرست لها الدراسات النقدية كل جهودها، وبهذا شهد الخطاب النقدي الحديث والمعاصر تحولات كبرى وعميقة جعلت "النقد الأدبي" يتميز بالحركية؛ ويعود هذا لتعدد مشاربه ومقارباته، ولكن حتى وإن اختلفت مواقف النقاد ووجهات نظرهم ودوافعهم إلا أن القاسم المشترك لهذه التعددية والاختلافات واحد ألا وهو "النص الأدبي" الذي كان ولا يزال محور اهتمام النقاد على اختلاف مشاربهم الفكرية، وهذا ما تجسده كثرة "المناهج النقدية"، التي حاولت مساءلة "النص الأدبي" نذكر منها:

"**المنهج البنوي**"، "**المنهج الأسلوبي**"، "**المنهج السيميائي**"

ويعد هذا الأخير من بين المناهج النقدية التي لا يمكن الاستغناء عنها، كيف ولا والسيميائية اخترقت كافة ميادين الحياة وبهذا كانت العلامات بمختلف تمظهراتها محور اهتمام الإنسان الذي ترجمه في تأملاته وقلقه وحيرته الدائمة وتساؤلاته الكثيرة حول دلالات هاته العلامات.

وانطلاقا من هذه الأهمية البالغة "للعلامة" كانت موضوعا للدرس والبحث من قبل الفلاسفة والمفكرين القدامى، وهذا ما نجده في الفكر اليوناني مع **أفلاطون** و**أرسطو** و**الرواقيين** وحتى في "التراث العربي" لتستمر أهمية "السيميائية" حتى في الحقل النقدي الحديث والمعاصر.

ويتفق جل الباحثين أن مع نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين ارتبط ظهور "علم العلامة" بوجود عالمين يرجع لهما الفضل في ظهوره، وهما **فرديناند دي سوسير** F.Desaussure و **شارل بيرس**

.sh.s pearce

وبالرغم من تقارب زمن ظهورهما وعدم معرفة كل منهما بالآخر، إلا أنهما ينتهيان إلى علم واحد بمصطلحين شائعين هما: السيميولوجياsémiologie والسيميوطيقاsemiotics.

ولهذا استوجب من الباحثين المهتمين بهذا الحقل العودة دائماً إلى ما قدمه **دي سوسير** و**بيرس** باعتبارهما من رواد هذا العلم، حيث بشر بالمشروع السيميولوجي اللغوي السويسري **فرديناند دي سوسير** (1857-1913) في كتابه "محاضرات في اللسانيات العامة" فقد حصر **دي سوسير** هذا العلم الذي سماه sémiologie في دراسة العلامات في دلالاتها الاجتماعية، أما الفيلسوف **شارل سندرس بيرس** (1839-1914) فقد جعل العلامة تدرس منطقياً وأطلق على هذا العلم بالسيميوطيقا semiotics.

وإذا كانت نظرية **دي سوسير** و**بيرس** قد شكلت اللبنات الأولى لظهور معالم "البحث السيميائي" فإن ما لحقها من اسهامات وإضافات وتحليلات قد هيأ السبيل أمام "السيميائية" كي تفرض نفسها في الساحة النقدية بقوة.

وأمام هذه التغيرات الحاصلة في عالم "النقد الغربي" لم يكن "النقاد العرب" بمعزل عن هذا التطور البارز الذي تشهده الحركة النقدية الغربية، فرغم تأخر استقبال "النقاد العرب" لهذا المنجز الغربي إلا أنهم حاولوا فرض أنفسهم في الساحة النقدية، ولم يتأتى لهم ذلك إلا عن طريق الاحتكاك بالغرب الذي تمظهر في المثاقفة والترجمة والتناول النقدي.

والأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع الموسوم بـ: "تلقي الخطاب السيميائي في النقد العربي المعاصر" الاتجاه الفرنسي انموذجا؛ فهي تتراوح بين الذاتية والموضوعية؛ فالأولى تتمثل في رغبتي خوض غمار البحث في حقل "النقد" لأنني منذ دخولي إلى الجامعة وأنا يوما بعد يوم أكتشف ميولاتي النقدية، وهذا راجع للحيوية والحركية التي يمتاز بها هذا الحقل، أما الثانية فتعود لأهمية "السيميائية" نفسها، وهذا لا يقتصر فقط على أهميتها في الدراسات النقدية بل تمتد أهميتها حتى في حياتنا، كيف لا وهي تهتم بكل مجالات الفعل الإنساني، ولئن كان البعض يعتبرها مجرد موضة من الموضات، فإن هذا الوصف لا ينقص

من قيمتها كمنهج علمي واجرائي في الدراسات الأدبية بالدرجة الأولى، بل ولم يزد المشتغلين بها إلا اهتماما بهذا المنهج النقدي الذي أفرز الكثير من التساؤلات، وهاته التساؤلات احتضنها "النقاد" بغية فهم "السيميائية" وحل الإشكالات التي أفرزتها.

وإيمانا منا بأن "البحث العلمي" عمل متكامل تتظافر فيه الجهود السابقة واللاحقة من أجل الوصول إلى نتائج وأحكام من شأنها خدمة المسار العلمي، حاولنا الرجوع إلى الدراسات والبحوث التي كتبت حول الموضوع سواء من حيث التعريف بالنظرية وعرض لأهم مبادئها ومنطلقاتها أو التعريف بأدواتها التحليلية في مقاربتها للنصوص، لأن التأريخ "للحركة السيميائية" بوصفها مشروع بحث في طور الإنجاز ضروري لفهم السياق التاريخي الذي ظهرت فيه، ومن ثم فهم الأصول المعرفية التي ساهمت في نشأتها، وضبط معالمها الأساسية وأدواتها الإجرائية بعيدا عن ما يسمى "بالمغامرات السيميائية"" لمن ادعى فهمها والتي تضع "السيميائية" في فوضى مصطلحية ينجم عنه تضارب واضطراب في الأفكار والمفاهيم؛ لأن المعرفة تحيا بتجاوز الأخطاء لا بإثبات الحقائق فقط، انطلاقا من هذه القناعة حاولنا غربلة المؤلفات والدراسات العربية المتعلقة "بالمنهج السيميائي" لوضع رؤية واضحة لتصور النقاد العرب لهذا المنهج، وما يؤكد ذلك هو اعتماد هذا المنهج في الدراسات الأكاديمية (دراسة علي العشي) وكذلك ظهور أول كتاب نقدي عربي يحمل اسم "السيمياء"، وهو كتاب (في سيمياء الشعر القديم دراسة نظرية تطبيقية) **لمحمد مفتاح** 1982، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على بداية تقبل النقد العربي للمنهج السيميائي.

والملاحظ أيضاً أن "الاتجاه الفرنسي" عرف حضوراً كبيراً لدى "النقاد المغاربة" خاصة على عكس "الاتجاه الأمريكي" الذي ترأسه **بيرس**، وقد مثل الاتجاه الفرنسي **دي سوسير** ومن سار على دربه مثل **جورج مونان**، **رولان بارت**، وهناك اتجاه فرعي انبثق عن هذا الاتجاه وهو ما يعرف "بالمدرسة الباريسية" ويمثلها **غريماس وجوزيف كورتيس** الخ.

والمتأمل للنقد العربي المتعلق بهذا المنهج على وجه الخصوص، يلمح ذلك التأثر البالغ "بالاتجاه الفرنسي" وهذا ما توضحه أعمالهم النقدية، ولذلك حاولنا تسليط الضوء على هذا الاتجاه الذي تلقفه "النقاد العرب" كمحاولة منهم لفهمه ودراسته.

ومن الأسماء البارزة التي وضعت بصمتها في هذا المجال والتي اعتمدتها في هذا البحث **سعيد بنكراد** في كتابه " السميائيات السردية " مدخل نظري" 2001، ومن الكتب المهمة أيضا في هذا المجال نجد كتاب **محمد فليح الجبوري** المعنون بـ: " الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث "2013، كما برز نقاد آخرين تناولوا هذا المنهج بالدراسة ولكن لا يسعنا المقام إلى ذكرهم جميعاً...الخ.

لا أحد يستطيع أن ينكر مدى تضخم وتراكم المعرفة السيميائية تنظيراً وتطبيقاً في العالم العربي، وهذا يستلزم من الناقد الواعي مراجعة هذه المعرفة ضمن بحوث ودراسات في إطار ما يسمى "بنقد النقد" من خلال جعل "النقد" موضوعا للتفكير والدراسة بغية فهم المنظومة النقدية العربية من خلال تقييم وتقويم منجزاتهم النقدية.

وأمام هذا الزخم المعرفي الذي تعرفه الساحة النقدية العربية لفهم هذا الحقل المعرفي إلا أنني وجدت قلة في الدراسات التي تهتم بقراءة هذه الجهود قراءة نقدية وتفحصية لهذه الأعمال وهو ما يعرف "بنقد النقد" وهذا ما توضحه الإشكالية المحورية المراد طرحها، والمتمثلة في معرفة كيفية تلقي الناقد العربي "للنظرية السيميائية" وكذا كيفية تعامله مع هذا الإجراء النقدي الجديد وما نتج عنه من ممارسات وتطبيقات واستنتاجات هامة، وبصيغة أخرى كيف استقبل الناقد العربي "السيميائية" هل اكتفى بالوصف فقط أم تجاوزه إلى التحليل والنقد؟ وهل كتاباتهم تعبر بالفعل وتنقل مفاهيم هذه النظرية بوعي وإدراك تام؟ وما مدى حضور "الاتجاه الفرنسي" في أعمالهم النقدية؟

ومن هذا المنطلق الإشكالي الهام يتبادر إلى أذهاننا مجموعة من الأسئلة الفرعية وهي كالآتي:

ماهي مرتكزات السيميائية المنهجية ومرجعياتها الفلسفية ومنطلقاتها الفكرية؟ ماهي اتجاهاتها؟ وماهي تجلياتها في الساحة النقدية العربية على مستوى التنظير والتطبيق؟ وإلى أي مدى حقق البحث السيميائي نجاعته وفعاليته في مقاربة النصوص وتحليلها؟

ولتحقيق الغاية التي يتوخاها هذا البحث للإجابة عن الإشكالات المطروحة سابقاً اعتمدنا على خطة موزعة على ثلاث فصول بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة، حيث تناولنا في الفصل الأول: "السيميائية: المفهوم النشأة والتطور"، وينطوي تحت هذا الفصل ثلاث مباحث؛ حيث عالجنا فيها: "الخطاب السيميائي" من حيث أصوله التاريخية والفلسفية مع الحديث عن اشكالية المصطلح التي رافقت نشأته ومازالت هاته الإشكالية مطروحة إلى يومنا هذا، فالأوروبيون مثلاُ يفضلون مصطلح "السيميولوجيا" تأثراً بالتسمية السويسرية، أما الأمريكيون فيفضلون مصطلح "السيميوطيقا" التي جاء بها المفكر والفيلسوف الأمريكي **بيرس** أما العرب فقد ترجموها خاصة المغاربة "بالسيمياء" كمحاولة منهم لتعريب هذا المصطلح... كما تناولنا بعض الدراسات السيميائية والترجمات السيميائية.

ويندرج تحت الفصل الثاني مبحثين؛ حيث حاولنا من خلالهما عرض اتجاهات السيميائية وعلاقتها بالعلوم الأخرى.

أما الفصل الثاني فقد خصصناه للحديث عن التناول التطبيقي للخطاب السيميائي عند النقاد العرب والمعنون بـ: "تطبيق المنهج السيميائي عند النقاد العرب" ويندرج تحت هذا الفصل مبحثين؛ حيث حاولنا من خلالهما عرض بعض الدراسات التي تناولت "الخطاب السيميائي" وآليات تطبيقه مع ابراز وضع وخصوصية المشروع النقدي العربي...إلخ.

أما الخاتمة فقد تضمنت مجموعة من النتائج التي توصلنا إليها بعد هذا الجهد المتواضع الذي نأمل أن يكون بذرة خير لطلبة العلم والباب الذي سيطرقه كل باحث أراد الخوض في هذا المجال، فاسحين المجال لغيرنا من الباحثين والدارسين المهتمين "بالسيميائية"، فكلما قمنا بمراجعة حصيلة تراكماتنا النقدية استطعنا أن نحدد رؤية واضحة لمشاريعنا المستقبلية.

أما عن الصعوبات التي اعترضت مسار بحثنا أثناء انجاز هذا العمل المتواضع تتمثل في طبيعة إشكالية الموضوع ذاتها كونها إشكالية معقدة تتناول حقلاً معرفياً لا يزال مفتوحاً على مختلف الاجتهادات، حيث يعد هذا البحث حلقة ضمن سلسلة طويلة من البحوث التي خرجت إلى النور في اطار ما يسمى "بنقد النقد". الذي نرجو من وراءه مساءلة المدونة النقدية للخطاب السيميائي العربي وهذه المساءلة من شأنها أن تقدم صورة عن حيوية وفاعلية هذا الخطاب.

وما ينبغي توضيحه أن الهدف المرجو من هذه الدراسة هو تقديم نظرة عن الدراسات والابحاث التي ساهمت في نقل "السيميائية" إلى القارئ العربي سواء عن طريق المثاقفة والتناول النقدي... أو من خلال اللجوء إلى تطبيقات محددة على النصوص الأدبية، ثم معرفة مستويات هذه الدراسة من الناحية العلمية والمعرفية، وذلك بالرجوع إلى أقلام مختصة في هذا الميدان، مع تحديد أهدافها ومجال بحثها وإظهار قيمتها الفعلية بين الدراسات النقدية والعالمية، ولذلك حاولنا جمع وتحليل القضايا المتناثرة في مؤلفات النقد العربي والمتعلقة "بالخطاب السيميائي" معتمدة في ذلك على "المنهج الوصفي التحليلي"، أي من خلال وصف الآراء النقدية المتعلقة بالخطاب السيميائي عند النقاد العرب مع الوقوف على تلك الآراء النقدية بالدراسة والتحليل مستفيدة من "المنهج التاريخي" عن طريق وضع تلك الأفكار النقدية في إطارها الزمني.

ولا يسعني في الأخير إلا أن أتقدم بأسمى عبارات الشكر والامتنان إلى كل أساتذة معهدنا بدون استثناء وأخص بالذكر أستاذي المشرف: "أ.د.خشاب الصادق"، فما كان لمذكرتنا أن تخرج إلى النور لولا رعايته وتوجيهاته وسعة صدره، وإلى كل من أنار سبيلنا بنور العلم وعلمنا حرفاً.

فلهم منا جميعا فائق التقدير والاحترام

الفصل الأول:

السيمائية: المفهوم، النشأة ، التطور

المبحث الأول: الخلفيات المعرفية للنظرية السيميائية

إن الحديث عن خطاب التأصيل والتأسيس والتعريف للحقل السيميائي يتطلب تتبع نشأة السيميائية منذ مخاض ولادتها وتوقيع شهادة ميلادها إلى نموها وتطورها، فإذا نظرنا إلى مرحلة المخاض بعين ناقدة فإننا نجدها صعبة جداً كمحصّلة طبيعية لتراكم جملة من المؤثرات والأصول الفلسفية والمعرفية التي ساهمت في نشأتها، ويعود الفضل إلى توقيع شهادة ميلادها حسب جل الباحثين والدارسين إلى العالمين: **فرديناند دي سويسر** (1857-1913) الذي بشّر بميلاد علم جديد سماه sémiologie؛ حيث حصر دراسة حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية.

و**تشارلز ساندرس بيرس** (1839- 1914) الذي جعل العلامة تدرس منطقيا، وأطلق على هذا العلم semiotics وبهذا شكلت أفكارهما اللبنات الأولى أي اتكأ عليها المنشغلون بالدراسات السيميائية ويعد كتاب **الجيرداس جوليان غريماس** (1917 - 1992) (علم الدلالة البنوي) sémantique structurale الإنطلاقة الأولى للدرس السيميائي اللساني باعتباره شكّل قفزة نوعية في تاريخ الفكر النقدي.

وقد كف تلاميذ "غريماس" ومن تأثر به على توسيع حقل المعرفة السيميائية مثل **جان كلود كوكي، جوزيف كورتيس وكلود بريمون آن اينو**،... وغيرهم ولكن وسط هذا الكم المعرفي الهائل لا يمكن أن نصور في كل الأحوال الناقد العربي بمنظر المصفق المنبهر بالغرب أو المتفرج الذي ينتظر استقبال المعلومات دون وعي، ولا بمنظر الباكي على الأطلال سجين أمجاد الماضي المتخوف من كل جديد؛ لأن اطلاق الأحكام الإسقاطية على النقاد، والتي تجعلهم في كفة واحدة مجانب للصواب؛ لأن هذا إجحاف في حق بعض الجهود العربية التي حاولت مساءلة "المنهج السيميائي" وفهمه ونقله للمتلقي العربي، وهذا ما سنحاول توضيحه مبرزين كيف تعامل الباحث والناقد العربي مع هذا الإجراء الجديد وما نتج عنه من استنتاجات وتطبيقات واشكاليات..إلخ.

إن الناقد العربي في محاولته لإسماع صوته ومواكبته التطور الحاصل في الفكر الأدبي والنقدي اتخذ طريقا صعبا، ولكن هذه الصعوبات التي تعتري طريقة هي حتمية تفرضها متطلبات البحث، فالصعوبات والتحديات لا مفر منها، خاصة إذا كان الطموح كبيرا، وهو اثبات الوجود، ووضع بصمة في تاريخ الفكر الأدبي والنقدي، ومسايرة تطورات الفكر الإنساني التي تسعى لفهم النصوص والخطابات على اختلاف أنواعها، حيث ظهرت "**السيميائية**" في التسعينات لتتأسس منذ بداية الثمانينات من بوابة المغرب العربي لتشمل باقي دول العالم العربي، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: **محمد مفتاح، محمد السرغيني، صلاح فضل، سعيد بنكراد، رشيد بن مالك، عبد المالك مرتاض...إلخ.**

وأمام هذا الطموح قد تتلاشى الصعوبات، ولكن هذا لن يتحقق إلا بمواجهتها وليس بالهروب منها، وهذا استلزم تتبع المسار التاريخي الذي رافق نشأة "السيميائية"، فالصعوبة لم تقتصر فقط في مرحلة المخاض والولادة بل رافقتها أيضا في مرحلة نموها وتطورها، بدءً بالبحث والتنقيب عن الاصول الفلسفية والخلفيات المعرفية للسيمائية مروراً بإشكالية المصطلح، كما نلمس تطورها في بعض الدراسات السيميائية والترجمات السيميائية، كما نلاحظ اتساع مجال السيميائية من خلال اهتمامها بكل مجالات الفعل الإنساني، وبهذا تشعبت السيميائية، مما زاد من تفاقم أزمة المصطلح وهذا ما سنحاول توضيحه في هذا الفصل المعنون بـ "السيميائية : المفهوم، النشأة، التطور"، والقصل الثاني المعنون بـ: اتجاهات السيميائية وعلاقاتها بالعلوم الاخرى.

1- الخلفيات المعرفية:

1-1-الأصول الفلسفية القديمة:

إن رغبة التواصل وروح الاكتشاف دفعت الإنسان منذ القدم إلى تأمل "العلامات" من حوله محاولاً اكتشافها وتفسيرها، وبهذا كان "الإهتمام العلاماتي" مرافقاً للإنسان منذ

وجوده، وهذه المرافقة تحتم عليه أن يجعل "العلامات" بمختلف تمظهراتها من أولويات اهتماماته منذ القدم، وقد تزايد هذا الإهتمام وهذا راجع لمختلف التغيرات التي طرأت على حياته مع مرور الزمن والتاريخ يشهد على ذلك.

مما لا شك فيه أن "السيميائية" ارتبطت بمفهوم العلامة الضارب بجذوره في تاريخ التفكير الفلسفي بجميع مشاربه الثقافية، فهو قديم في الفكر الفلسفي، حديث في الفكر النقدي[1].

1-1-1-العلامة في فلسفة أفلاطون وأرسطو:

لقد اشاد **محمد فليح الجبوري** بإسهامات الفلسفة اليونانية في اظهار أهمية العلامات وتجلى ذلك في آراء **أفلاطون** و**أرسطو** الفلسفية حيث وقفت الفلسفة اليونانية طويلا أمام ماهية الوجود بغية كشف الحقيقة ولنظرية المعرفة النصيب الأوفر في ذلك ولا سيما عند **أفلاطون** و**أرسطو**، فكنا الأبرز في تناول هذا الموضوع وإن كان **أرسطو** الأكثر حضوراً لأمرين: الأول يتمثل في وصول معظم كتبه مقارنة بما وصل **لأفلاطون**، والآخر لما يمتلكه من ذكاء وفطنة فضلاً عن تلمذته **لأفلاطون** نفسه مما جعله يتمكن من هضم أفكار سقراط و**أفلاطون** معاً.[2]

اللغة هي الميدان الذي جال فيه الفيلسوفان كونها الحجر الأساس في نظرية المعرفة، فهي أداة الاتصال، وقد بلغ بهما البحث إلى التمييز بين دلالة الأسماء والطبيعة التداولية أي ثمة دلالة تتكون من دال ومدلول وهناك طبيعة تداولية مرجعية.[3]

---

[1]- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، منشورات ضفاف منشورات الاختلاف دار الأمان. الربط. ط1 1434هـ.2013م. ص23. 24.

[2]- - المرجع نفسه ص 24.

[3]- نفسه، ص 24.

ويذهب **امبرتوايكو** إلى أن الفهم الدلالي لدى **أفلاطون** و**أرسطو** قابل بين تداولية الأقوال ودلالة الوحدات السيميائية أي تحويل الإهتمام من أنظمة الدلالة إلى عمليات التواصل فـ **أفلاطون** و**أرسطو** تجاوزا التحليل الدلالي للعلامة من حيث هي علامة الصورة الصوتية، والشيء العياني إلى مرحلة التوظيف التداولي بقصد التواصل، ويتضح أن ما توصل إليه كل منهما قد استوعبه **الرواقيون** فيما بعد، ولا سيما في تقسيمهم الثلاثي للعلامة: العبارة، المضمون والمرجع، فنظرية المعنى لم تغب عن **أفلاطون** و**أرسطو** ولم تتجاوز النموذج المنطقي الذي يربط بين مقولات اللغة ومقولات الفكر، فدراستهما للغة تتركز على ادراكها الفعلي[1] ومدى ارتباط هذا الإدراك بالمقولات الفلسفية في ادراك ماهية الوجود، ويمكن تقسيم أثر **أرسطو** في ميدان البحث العلاماتي إلى قسمين الأول في حديثه عن "اللفظة المفردة"، والثاني في حديثه عن "العبارة"، فالقسم الأول من اهتمامه يخص المعرفة اللغوية، وقد جاء مضطربا إذ تأرجح بين اثبات علاماتية الكلمات والأسماء أو نفيها، وقد استقرأ **امبرتوايكو** هذا الموقف فذهب إلى أن **أرسطو** يقول: إن الكلمات هي علامات مبرهنا على ذلك بقوله " إن الألفاظ هي رموز دالة على المعاني التي في النفس، كما أن الحروف التي تكتب هي دالة (رموز) على هذه الألفاظ" ثم خلص "ايكو" إلى استدلال استنبطه عن طريق حديث **أرسطو** عن الكلمات والحروف والأسماء مفاده أن **أرسطو** يؤكد بطريقة تكاد تكون عفوية أن الكلمات والحروف هي بلا شك وقبل كل شيء علامات للمعاني التي في النفس[2].

إن عدم وضوح موقف **أرسطو** من نفيه علاماتية الأسماء والكلمات وتناثر آرائه، كانت من اهم الأسباب التي أربكت النقاد في فهم وجهة النظر الأرسطية الأنطلوجية للفظة المفردة، أما القسم الآخر من أثر **أرسطو** فقد حصه في الحديث عن "العبارة" وهو حديث

[1]-- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث ص 24.

[2] – المرجع نفسه، ص 25.

اكثر وضوحاً من سابقه وكان ذلك في كتابه "الخطابة" ويبدو أن **أرسطو** كان يعي جيداً أهمية" الخطابة" بوصفها موضوعا شاملا يتناول عن طريقه موضوعات شتى ليكون مدخله الأساس، فالخطابة تجمع بين ثلاثية شاملة الخطيب (المؤلف) والمخاطب (الجمهور) والنص الخطابي[1].

ويقف **أرسطو** عند المادة الخطابية، فيرى أنها تتكون من احتمالات ترتبط بالعموم القابل للإمكان والتغير وعلاقته بما هو محتمل اتجاهه هي علاقة الكلي بالجزئي، وتتكون هذه المادة أيضا من العلامات ويقسمها على قسمين: الأول هو العلامات الضرورية ويسميها "تقمريون" وعرفها بأنها تلك العلامات التي يمكن فيها تأليف قياس منطقي، وعلل سبب تسميتها "تقمريون" بقوله "لأن الناس حين يظنون أن حججهم لا تقبل التفنيد، فإنهم يظنون أنهم يوردون تقمريون أي شيئا برهن عليه وثبت"، ويتضح من هذا التعريف أن العلامة الضرورية هي تلك العلامة التي ترد إلى سياق منطقي غير قابل للتفنيد لتعارضه مع المنطق العقلي، فالإنسان المصاب بالحمى هو مريض وليس العكس.[2]

أما النوع الآخر من العلامات فهو العلامات غير الضرورية، ولم يضع لها **أرسطو** اسما، ويمكننا استقراء تعريفها من كلام **أرسطو** على أنها تلك العلامات التي تحتمل التفنيد، وإن صحت الواقعة، وقد قسمها **أرسطو** إلى قسمين: علامات علاقاتها كعلاقة الجزئي بالكلي كحكمنا بعدالة سقراط باعتباره حكيماً، فإنه لا يصح اعمامه على كل الحكماء، وإن صحت عدالته، وهناك علامات علاقاتها كعلاقة الكلي بالجزئي، اذ تقول أن رجلا مصاب بالحمى لعسر تنفسه، فهذا يمكن تفنيده وإن صحت المقولة الواقعية اذ ليس من الضروري أن يصاب بالحمى من تعرض لعسر التنفس.[3]

---

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ، ص 25.

[2]–المرجع نفسه، ص 26.

[3]– نفسه، ص 26.

إن الإشارات الواردة في كلام **أرسطو** لا تتناول الدلالة اللفظية على أنها علامات بل تتناول الدلالة العامة للنص المحمل بالعبارة، وكأننا نستنتج عن طريق هذه النصوص أن **أرسطو** قد سبق كلا من **امبرتو ايكو** في النص المفتوح، والنص المغلق، و**بارت** في النص المقروء والنص المكتوب؛ إذ أشار إلى تعدد المدلولات للدوال بل حاول أن يمنح المتلقي حرية التأويل وهذا من صميم الدرس السيميائي بوصفه منهجاً نقدياً [1].

ومن خلال هذا العرض لأفكار **أرسطو** يؤكد **محمد فليح الجيوري** على أن آراء **أرسطو** تدخل ضمن سيمياء اللفظة والعبارة؛ حيث جمع بين علاماتية اللفظة المفردة الأنطلوجية، وهيرمينوطيقنية العبارة عن طريق اخضاعها للتأويل والنأي بها عن العلامة الفردية التي تمنع تعدد المدلولات.[2]

يعد كتاب **أحمد يوسف** الموسوم بـ "السيميائيات الواصفة" الصادر سنة 2005 من بين أهم الكتب التي تتناول بالتفصيل اسهامات المناطقة القدامى في نشأة "المنطق السيميائي" حيث أفرد فصلاً كاملاً يتحدث فيه عن النسقية الأرسطية وتمفصلاتها ودورها في تكوين "السيميائيات الواصفة" ومن هنا نجد حضور "اللغة الواصفة" التي جاء بها المناطقة القدامى واضحاً في الفكر السيميائي.

لقد أشاد **أحمد يوسف** في هذا الكتاب بدور المهاد الاغريقي واليوناني والفكر الرواقي والموروث العربي في تكوين الخطاب السيميائي وتطوره، وسنحاول الوقوف عند بعض القضايا في هذا الكتاب لتوضيح مدى تأثر السيميائيين المحدثين بأفكار القدماء، فلم تنشأ أفكارهم من العدم، وهل يمكننا أصلا أن نتصور وجود أفكار دون الرجوع إلى جذور ضاربة في القدم؟

---

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 26–27

[2]– المرجع نفسه ص 27.

لقد كان لنظرية "الحكم الأرسطية" حضور في النظرية العاملية لـ **غريماس** وهذا ما وضحه **أحمد يوسف**؛ حيث تعتبر نظرية الحكم الأرسطية ببعديها النفسي والمنطقي وبطبيعتها الجدلية العلمية التي تتمثل في وحدة التركيب والتحليل اللذين لا يكادان ينفصلان في أثناء عملهما، ولا سيما اذا كان مجردين، وترتبط بالخطابات التي تتوافر على خبر؛ فالأقوال الانشائية ليست حكماً على أساس أن الأحكام سواء أكانت مثبتة أم منفية فهي عملية تركيبية مختلفة للتمثلات الناتجة عن فعل ذاتي من جملة أفعال الفكر التي لا نظير لها في الواقع، بخلاف إذا صدر عن النفس تركيب يعكس الروابط الواقعية[1].

ويستند إلى فكرة الانفصال ليجعل منها مقدمة، وتلك غاية مادة الفكر التي ينبغي أن تكون منفصلة عن الإدراك الحسي والتصورات وإذا رمنا الحديث عن العلاقات التي تتحكم في عناصر الحكم فهي قائمة على علاقات وجودية متضايفة بين المتصل بوصفه حكما اثباتاً conjonction والمنفصل بوصفه حكماً منفياً disjonction التي سيكون لهذه العلاقات حضور متميز في النظرية العاملية لـ **غريماس** لا تنسب أخطاء الأحكام إلى الإدراكين الحسي والحدس العقلي، ولكنها ناتجة عن النشاطين التحليلي والتركيبي في أثناء تحويل المادة المجردة إلى حكم ينتمي مجاله إلى الفكر الاستدلالي، فصدق العلامات حاصل مالم يتعارض هذا الفكر الاستدلالي مع الواقع الذي له وجود فعلي في الاحاسيس والحدوس العقلية، وينبغي التنبيه مع **ماكوفلسكي** إلى أن "النسقية الأرسطية" التي لا تلتفت إلا إلى الاحكام الحملية التي تتفرع إلى: الكيف والكم والجهة؛ إن هذه الثنائية التي تنتظم فيها الأحكام وترتكز على التقابل بين الإثبات والنفي.[2]

[1]– أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة المنطق السيميائي وجبر العلامات منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2005، 1426هـ، ص 20.

[2]– المرجع نفسه، ص 20.

ومن هذه الثنائية ينبثق مبدأ التناقض إذ ولا وجود لتناقض ما لم يكن هناك تطابق بين الإثبات والنفي، ومن هنا تتبين لنا الأصول المنطقية "للمربع السيميائي" أو "المربع الدلالي" الذي يعد من أبرز معالم التفكير السيميائي لدى **غريماس** الذي يقيمه على ثلاث علاقات: التناقض والتضمن والتضاد، على الرغم من أن **غريماس** و**كورتاس** يعيدانه إلى أصول لسانية وتحديد لدى **بروندال** ذي النزعة المنطقية الذي يقر بوجود بنيات متعددة الأقطاب في حين يدافع **ياكبسون** عن الطبيعة الثنائية[1].

في حين نجد **أرسطو** أيضاً كان يطبق على الأحكام مبدأي التناقض وقانون الثالث المرفوع، ويسمى هذه القضايا بـ "مربع التقابل" وهي: الحكم المثبت الكلي والحكم المنفي الكلي، والنسبة بينهما هي التقابل بالتضاد، في حين ان النسبة بين الحكم المثبت الكلي والحكم المنفي الجزئي، وكذلك بين الحكم المنفي الكلي والحكم المثبت الجزئي وهي التقابل بالتناقض[2]، وبهذا كان **أرسطو** أول من قام بتفرقة بين علاقتي التضاد والتناقض.

لقد وضع **أرسطو** أسساً لأشكال "الفكر" التي ضمنها نظريته في الحقيقة، ثم مالبث أن حصر قوانين الفكر في ثلاثة مبادئ: التطابق أو مبدأ الهوية و"التناقض" والثالث "المرفوع" وسيحتفظ مبدأ التناقض بأهميته في التفكير المنطقي على مر العصور، فلقد حلل **أرسطو** الخطابات القديمة وذلك بالدخول في الاستعمالات نفسها؛ حيث لاحظ بأن الوجود يقال بطرق عديدة، يكاد كل التفكير الغربي يرتكز على الإعتباطية.

وبهذا كانت "مقولات أرسطو" فاتحة للتفكير السيميائي لدى الإغريق، وبخاصة أنه استوحى هذه المبادئ من خصائص اللغة اليونانية كما أشار إلى ذلك كل من **اميل بنفيست وامبرتوايكو**[3].

---

[1]– أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة المنطق السيميائي وجبر العلامات ، ص 21.

[2]– المرجع نفسه ، ص21–22.

[3]– نفسه ، ص22.

ومن خلال ما سبق نجد أن تصور "العلامة" في الفكر اليوناني القديم خاصة من خلال آراء **أرسطو** الفلسفية كان له تأثير كبير في نشأة "المنهج السيميائي" ومازالت أفكاره إلى يومنا هذا محل دراسة ونقاش وجدل من قبل الباحثين والنقاد، وهذا راجع لعمق أفكاره، وبعد نظره وتفكيره المنطقي الذي يخاطب فيه العقول الواعية.

1-1-2 العلامة في الفكر الرواقي:

لقد ساهم "الفكر الرواقي" في نشأة "المنهج السيميائي" وهذا ما يؤكد عليه **أحمد يوسف**، ويظهر ذلك من خلال استعراضه "لفلسفة الرواقيين" والتي تتقاطع في بعض فلسفتها مع ما جاء به **دي سويسر** و**بيرس** فكان بهذا "الفكر الرواقي" احدى المنابع التي استقى منها التفكير السيميائي الحديث أطروحاته ومعارفه؛ حيث جمعت "الفلسفة الرواقية" بين المنطق والأخلاق والعلم الطبيعي، كما تفردت في ضم المنطق إلى مباحث "اللغة" و"الدلالة" ولهذا كله كانت لها فضل السبق في ان تكون لها قدم راسخة في تاريخ التفكير السيميائي القديم، وعلى الرغم من أنهم اصطنعوا بعضا من عناصر "التحليل الارسطي" إلا انهم جمعوا بين نظرية العلامة ونظرية البرهان.[1]

وإذا ربطنا ميلاد مصطلح "السيميائيات" بـ **جون لوك** الذي يمكن ارجاع بعض ينابيع تصوراته الفكرية والفلسفية إلى "الرواقيين" فيمكننا القول أن أصول السيميائيات إذا توخينا التتبع التاريخي تعود إلى التفكير الرواقي ومنطقهم الذي لم يكن بعيداً عن المتصورات الأولى لما يمكن أن نطلق عليه اليوم "بفلسفة اللغة".[2]

[1]– أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة المنطق السيميائي وجبر العلامات، ص28.

[2]– المرجع نفسه، ص28.

ويعد القديس **أوغسطين** (357- 430هـ) هو الآخر حسب **محمد فليح الجبوري** علامة بارزة في تاريخ الفكر الفلسفي بشكل عام وتاريخ العلامة بشكل خاص ونظرته العامة تحمل طابعاً ايمانياً؛ لأنه يعتمد على تفسير النص المقدس.[1]

جاءت "فلسفة الرواقيين" بعد الفلسفة اليونانية في أرض اليونان من غير اليونانيين، لكنهم استوعبوا الفلسفة اليونانية بشكل جيد وتأثروا بما ألمح اليه كل من **أفلاطون** و**أرسطو** في ثلاثية الماهية اللغوية القائمة على ثلاثة عناصر "العبارة والمضمون والمرجع"، إلا ان ما يميزهم هو الدقة النظرية التي أولوها للغة، واطلقوا كلمة (قولا) على العلامة اللغوية وعرفوا القول على أنه: "تلك الكلمة المنطوقة التي ليست فحسب اصدار الصوت بل بالإمكان ادراك معناها والتعرف عليها لأنها مرتبطة بكلمة العقل أو القلب"[2].

فالتعريف يركز على الجانب المعنوي وليس المادي على الرغم من أن الميتافيزيقية الرواقية كانت مادية، فالرواقيون يربطون القول المنطوق الذي يمثل الصوت بالإدراك العقلي والقلبي وليس العياني الحسي الذي قالت به الفلسفة التجريبية ابتداء من **كانط** إلى **بيرس** صاحب الفلسفة البرغماتية، فهم يتناولون ماهية اللغة على أنها ادراك جواني (داخلي) يتم هضمه داخل بوتقة العقل والقلب، وقد طغى هذا الفهم على تفسير الدلالة اللغوية لديهم، إذ أخرجوا الأقوال ومدركاتها من الدلالات المادية وربطوها بالإدراك العقلي على الرغم من أن مفهوم "المضمون" يوحي بماهيته المادية[3].

يصنف الرواقيون الأشياء إلى مادية وغير مادية، وينطلقون في أبحاثهم اللغوية من العبارة وليس من الكلمة، ويسمون "العبارة قولاً" ويجعلونه من الأشياء غير المادية، ثم يصنفون الأقوال إلى تامة وغير تامة، فالتامة هي التي تكون لدينا في اللحظة التي يتلفظ

[1]- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 30.

[2]- المرجع ، ص27.

[3]- نفسه ، ص28.

بها قولاً وتسمى قضية، أما غير التامة فهي ما يخص العبارة من الجانب المعجمي والنحوي؛ أي ما يخص الموضوع والمحمول، إلا أن **امبرتوايكو** يعترض على اعتبار أن الأقوال غير التامة تعبر عن المعجم والنحو، ويرى أنها تقابل المضمون وليس المعجم أو النحو.[1]

إن اعتراض **ايكو** هو اعتراض له ما يسوغه اذ يرى أن "الرواقيين" يعدون النفس جسداً ماديا، ولذا فسر **ايكو** الأقوال غير المادية على أنها: "مضمون معبر عنه أو يمكن التعبير عنه" وهذا القول يدفع الفهم الرواقي إلى حيز الادراك العقلي بل يجعله معلقاً عليه، فضلاً عن ذلك فإن اعتبار الأقوال غير المادية على أنها معجم ونحو يفقد الثلاثية اللغوية أحد مكوناتها وهو المضمون، فالمضامين عند الرواقيين حسب **ايكو** (عناصر غير مادية يتم البيان عنها بعبارات لغوية تترابط لتنتج أقوالاً تعبر عن قضايا)؛ فالمضامين حسب هذا التعريف هي عبارة عن عناصر غير مادية، وهذه العناصر لا تمثل العبارات اللغوية ولا تمثل العناصر التركيبية ولا الترابطية فهي تمثل ما ينتج عن صهر هذه العلامات وتركيبها الذي يؤدي إلى انتاج الأقوال[2].

ويبدو أن تعبير **ايكو** الذي يقول فيه "ينتج أقوالاً تعبر عن قضايا" يعوزه شيء من الدقة، لأن الأقوال لا تعبر عن قضايا؛ لأنها تمثل اللفظ المنطوق فقط من دون المضمون، ومتى ما تحقق القول والمضمون يمكن للعبارة أن تعبر عنه القضية والدليل على ذلك هو قول **ايكو** إن عبارة "زيد يمشي" هي قضية لتحقق الجانب الصوتي المتولد من العبارة وكذلك المضمون.[3]

لقد ارتكز "الاستدلال الرواقي" على "نظرية العلامات" بالمفهوم الأعراضي الطبي، فالعلامات بوصفها ظاهرة ترتبط بظواهر أخرى من الناحية المنطقية، فهي كذلك ترتبط

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص28.

[2]– المرجع نفسه، ص28.

[3]– نفسه، ص 28.

بالكلمات، وما ينبغي توضيحه أن السيميولوجية الطبية وسيلة الحكيم من أجل تشخيص المرض، من داء في داخل الجسد العليل أومن بوادر أعراضية مرضية تتطلب التدخل السريع بغية استئصال العلة، ومن هنا استفاد المنطق في بناء أحكامه من هذا التشخيص السيميلوجي لإدراك الظواهر الغابرة والحاضرة والمستقبلة؛ بيدا أنها أحكام يعتريها النقص، وليست قائمة على ادراكات علمية صلبة ودقيقة.[1]

ولهذا جردها الرواقيون من ان تكون منطلقاً للاستدلال، فالحمى عرض دال على علل مرضية مختلفة والعرق دال على وجود مسامات في الجلد، فلا يستطيع الحكيم أن يتنبأ بمرض بعينه بمجرد أن يتعرف إلى حالة العليل حتى يحدد داءه، وفي مقابل العلامات الكلية هناك علامات خاصة وهي في نظر الرواقيين كما يرى **فيلودام** philodéme تتمتع بالقدرة على الدلالة، وعليه استند كل من الرواقيين والأبيقوريين على العلامات في بناء نظريتهم الإستدلالية، ومن الواجب أن نتساءل عن علاقة الفكر الرواقي والأبيقوري بالفكر السيميائي الحديث تحديداً لدى **ش.س.بيرس**؛ لأن ذلك مرده إلا أن الرواقية والأبيقورية والسيميائيات تلتقي عند مسألة أن المنطق ليس سوى الوجه الآخر لعلم العلامات، وأن العلامة تنزاح هنا من دلالتها التعينية إلى دلالتها الفكرية والمنطقية والعلمية، لا تحركنا رغبة في التقصي التاريخي للبحث عن هذه[2] العلاقة وانما يكفينا أن ندرك الأصول الفلسفية للسيمائيات الضاربة في القدم، على الرغم من التباين الواضح في تأويل العلامات واصطناعها في استدلالاتهم.[3]

يفرق الرواقيون بين ماهية اللغة والعلامة، فالعلامة عندهم حسب فهم **ايكو** (شيء واضح بصيغة مباشرة يؤدي إلى استنتاج وجود شيء غير واضح مباشرة)؛ فالإدراك اللغوي

[1]– أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة المنطق السيميائي وجبر العلامات، ص 34–35.

[2]– المرجع نفسه ، ص 35–36.

[3]– نفسه، ص 36.

يتم أولا، ويقود إلى معنى مباشر، وهذا المعنى المباشر يمكن أن يقود إلى معنى آخر، فالعلامة هي ما يمكن أن يحمل أكثر من دلالة مع وجود المعنى المباشر.[1]

ويرى **سكستوس أمبريكوس** (فيلسوف وفيزيائي يوناني عاش في حدود سنة 200-250م) أن العلامة عند الرواقيين لا تمثل الحدث المادي، انما تمثل القضية (الأقوال) التي يعبر بها عن الحدث المادي، وهي المقدمة في فرضية كبرى صحيحة تسمح بكشف التالي، فالعلامات عند الرواقيين هي الأقوال وليس الأحداث المادية، فتختص بإمكانية وجود علاقة بين حدثين متعاقبين وبذلك قد وضعوا نظرية شاملة إذ ميزوا بين الدال والمدلول والشيء.[2]

إن ما يمكن تسجيله على نص **امبريكوس** وعلى من يتبنى هذا الرأي هو أن مصطلحي الدال والمدلول لم يقل بهما الرواقيون، وانما جاءا متأخرين، والنص يوهم أنهما من مقولاتهم، بل أنهم اصطلحوا على الدال قولاً، وعلى المدلولات مضامين، وفي هذا الصدد يرى **ايكو** أن "السيميائية الرواقية" تربط نظرية العلامات بنظرية اللغة، ولكي تتحقق العلامات فلا بد من تحقيق تنوع العلامة، فالعلامة عند الرواقيين هي شيء غير مادي بل يخضع لما يمكن أن نطلق عليه باطنية العقل البشري، ومن ثم يخرج الإدراك العقلي بنتائج هذا التعريف ثم يعود العقل مرة أخرى فيتعامل مع هذه النتائج ليصل إلى نتائج أخرى أكثر تخصيصية ودقة، وبذلك تتعرض العلامات داخل العقل إلى عمليتين احداهما لغوية وأخرى دلالية فتكون العلامة المرحلة الأكثر ادراكاً من قبل العقل[3].

كثيراً ما تقرب كتب "تاريخ المنطق" بين "الرواقيين" و**جون ستيورات ميل** في كثير من المسائل المنطقية مثل: التعريف والاجناس وتفاضل الأنواع، وبخاصة أن **ستيورات ميل** و**هويز** يلتقيان في النسقية الإسمية التي لا تناصر ما انتهى إليه المنطق الأرسطي، ولكن

[1]- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 29.

[2]- المرجع نفسه، ص 29.

[3]- نفسه، ص 29.

من الشطط بمكان أن ينسب إلى الرواقيين الإهتمام بالإستقراء الذي كان يمثل المنطق الأبيقوري، ولعل ذلك ما يقرب بـ **ستيوارت ميل** من الأبيقوريين وعلماء الأصول المسلمين في هذه الناحية بخلاف المنطق الرواقي، كما حاولت الكانطية أن تطور مفهوم القبلية في الفلسفة الرواقية، لا تعني القبلية بالضرورة الأفكار الفطرية التي نقدتها الرواقية نقداً قاسياً، وان ارتبطت بتصوراتهم للنفس تصوراً مادياً واسمياً.[1]

يشير **رولان بارت** إلى الرواقيين في أثناء تناوله لمفهوم "المدلول" الذي لا ينظر إليه على أنه شيء وانما تمثل نفسي، وهو ما أكده **دي سوسير** نفسه حينما أسماه "مفهوما"؛ فإن كلمة ثور مثلاً لا تدل على الحيوان ذاته وإنما تدل على صورته النفسية الموجودة في الذهن[2].

وفي معرض حديث **عادل فاخوري** على أمثلة من الدلالات الطبيعية فهي ترجع من وجهة نظر حديثه إلى صنف القرائن وعلى وجه التخصيص إلى علاقة أثر بمؤثر، كذلك من وجهة تاريخية، التقسيم الثنائي للدلالة عند **أرسطو** إلى وضعية thesei وطبيعية physie يجمل تحت هذه الأخيرة مفهوم كل من الدلالتين العقلية والطبيعية عند العرب.

أرسطو	Physei		Thesei
العرب	طبيعية	عقلية	وضعية

لكن يبدو أن التقسيم الثلاثي عندهم هو مزيج مقتبس عن تصنيف **أرسطو** وتصنيف الرواقيين معاً[3].

[1]– أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة المنطق السيميائي وجبر العلامات، ص 40.

[2]– المرجع نفسه، ص 40.

[3]– أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة المنطق السيميائي وجبر العلامات ، ص40–41.

وبالفعل يميز الرواقيون حسب **سكستوس أمبريقوس** s.E.mpiricus العلامات إلى صنفين، استناداً إلى تمييز صنفين من الأمور: الأمور الغامضة لفترة والأمور غير المتيقنة بطبيعتها، ولكن من الصعب التعويل على **سكستوس أمبير يقوس** المعادي للرواقيين في اضهار جوهر معرفتهم حول "العلامة" التي لا تخلو من تعقيد نظراً لأنه لم يصلنا من كتاباتهم إلا شذرات قليلات قدمها أحد خصومهم كما أومأنا إلى ذلك، ومهما يكن فإن منطق الرواقيين إذا انضاف إلى حوارات **سقراط** ومنطق **أرسطو** وفلسفة **دونس سكوت** ستكون المنطلقات الأولى لبراغماتية **بورس** التي تكتسي خصيصة منطقية، وليست فلسفية خالصة اصطنعها في بلورة نظريته حول العلامات.[1]

1-1-3-العلامة في فكر جان لوك (1632- 1704)

انعطفت الفلسفة على يد **جان لوك** انعطافة كبيرة، ولا سيما في فكرة التحصيل المعرفي، فبعدما دام التفكير المثالي في تحصيل المعرفة ردحاً طويلاً جاء **جان لوك** بالنظرية التجريبية المادية وأعلن أن التجربة هي المصدر الوحيد لكل الافكار، وأن الأفكار هي منتج يخرج إما عن طريق تأثير الموضوعات الخارجية على الحواس أو عن طريق الانتباه (التأمل)[2].

لقد حصر **لوك** فلسفة "المعرفة الإنسانية" في ثلاثة علوم وهي: الفيزياء والأخلاق والسيميائية، وبهذا يكون أول من أورد اشارة بينة للسيمائية بوصفها فرعاً من فروع الفلسفة، فهو إذن أول من قدم المصطلح (سيميولوجيا) او السيميائيات لكن الدراسة السيميولوجية في عصره لم تخرج عن اطار النظرية العامة للغة وفلسفتها النظرية؛ وسبب ذلك يعود إلى "التفكير الفلسفي الجديد" الذي جاء به **لوك** ولا تتم هذه المعرفة إلا في مضمار "اللغة"

[1]- المرجع نفسه ، ص41.

[2]- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص32.

بوصفها أداة للإتصال سواء كان على مستوى الاستقبال الذاتي الفردي بين الفرد وما حوله أوبين المجموعة الإجتماعية باعتبار التداولية اللغوية والمعرفية[1].

ولهذا فإن مفهومه "للسيمائية" لا يخرج عن كونه العلم الذي يهتم بدراسة الطرق والوسائط التي يحصل عن طريقها على معرفة نظام الفلسفة والاخلاق وتوصيل معرفتهما، فالسيميائية عند **لوك** هي أداة اتصال بوصفها أدوات علاماتية تعتمدها اللغة ويستوعبها الفكر الانساني، فترجمة هذه العلامات تحدث بين الحواس والفكر، وليس كما يعتقد قبل **لوك** أن المعرفة هي معرفة مثالية صوفية.[2]

ومهما تكن أهمية الطرح الفلسفي الذي جاء به **لوك** ومدى تأثره بنظرية المعرفة والفلسفة عموماً فإن أهميته في "التفكير السيميائي" لا تتعدى وضعه للمصطلح، وأن ماهية "السيميائية" من حيث كونها منهجاً لا تجد لها في الواقع بعداً، بقدر ما يتعلق الأمر بنظرية المعرفة بوصفها كيفية لإستقبال الأفكار، وكيفية لإستيعاب المحسوس القائم على التجربة المادية وعلاقة الفكر بالحواس ومصداقاً على ذلك ما ذهب إليه **مارسلو داسكال** في تعريفه للسيمائية من وجهة نظر **لوك** المتقدم وحصره للسيمائية بالطرق التي بإمكانها نقل المعرفة من الحواس إلى العقل، فهذه المعرفة السيميائية هي معرفة ذهنية تحدث بين الحاسة والعقل داخل الفرد نفسه، وهي لا تخضع للشعور وليست معرفة تداولية اجتماعية فهو يتحدث على ترجمة العلامة والشيء العيان ومن ثم العقل بوصفها عملية مادية تجريبية تخضع لمعيار العقل.[3]

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث ، ص33.

[2]– المرجع نفسه، ص 33–34.

[3]– نفسه، ص 34.

1-1-4- دافيد هيوم (1711- 1776):

إن المعرفة عند **هيوم** لا تكمن في فهم الوجود بل في قدرتها على أن تكون دليلاً للحياة العملية، فشكك بهذا بقدرة البراهين المنطقية وبقدرة التجارب في تغطية جميع الموضوعات، وذهب إلى أن العلاقة بين العلة والمعلول لا يمكن معرفتها معرفة أولية؛ أي العلاقة بينهما ليست علاقة علية، وأنه ليس من الضروري أن يكون المعلول مضمناً في العلية أو مرتبطاً بها ارتباطاً ضرورياً، ولا يمكن استخلاص هذه العلاقة بالحدس أو البراهين[1].

يرد **هيوم** علاقة "العلة بالمعلول" إلى "العادة" التي تأتي من "تكرار التجربة" ونقصد "بالعادة" هو دمج الحالات المتماثلة في المخيلة، "لتتحول المعرفة الفردية إلى معرفة تداولية داخل المحيط الاجتماعي، فعمومية التجربة بعموديتها وفوقيتها هي التي تحدد علاقة العلة بالمعلول"، إذ أن العمومية المعرفية تمنح الإنسان اليقين في فهم الأشياء، لكونها تجربة سابقة لفعل الاستدلال عليه عن طريق التجربة، ولذا نجد **هيوم** يذهب إلى "أن مصدر اليقين ليس المعرفة النظرية بالإيمان"؛ فالإيمان بمفهومه الضيق يرتبط بتوافق الأحاسيس داخل النفس الإنسانية فيجعلها تتبنى أفكاراً يتوهمها يقيناً.

أما المعنى الأكثر اتساعاً فهو "الإيمان الجماعي" ضمن اطار ظاهرة اجتماعية كاللغة مثلاً، فإيمان الأشخاص بسلامة العلاقة بين الدوال والمدلولات هو الذي يمنحها الشرعية التداولية داخل المحيط الإجتماعي، وهذا ما قاله **هيوم** في قضية العلة والمعلول وربطهما بتكرار التجربة[2] فالعلاقة بين الدال والمدلول ليست اعتباطية أو أولية أو برهانية،

[1]- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 34-35.

[2]- المرجع نفسه، ص35

وإنما هي علاقة مرجعية اعتادها جمع من الناس ولمدة طويلة ولا سيما في ظاهرة اجتماعية "كاللغة".

إن قضية "العلة بالمعلول" لـ **هيوم** تحيلنا إلى علاقة الدال والمدلول بالمرجع الذي أشار إليه تلميحاً قبل **هيوم أفلاطون** و**أرسطو** وتصريحاً الرواقيون.[1]

إن استقرار المفاهيم في ذهنية المرجع لا يمكن ان تتم في مدة وجيزة، بل أنه ياخذ مدة طويلة كي تتحول العلاقات بين الموضوعات إلى قوانين يقرها "المجتمع" وتصبح جزء من تكوينه المعرفي، فمنح هوية "الدوال" يستغرق مدة طويلة جداً كي تتحول إلى "عادة" كما يسميها **هيوم** أو "قانون" كما يسميها **بيرس** وبهذا عالج **هيوم** العلامة بشكل متميز عن طريق تناوله الفلسفي لقضية العلة والمعلول والحالة الخارجية[2].

ومن خلال كل ما سبق نجد أن العلامة في فكر **أفلاطون** و**أرسطو**، وفي الفكر الرواقي، وفي كل من **جان لوك** و**دافيد هيوم** قد استفاد منه التفكير السيميائي الحديث، وهذا ما حاول كل من **أحمد يوسف** و**محمد فليح الجيوري** توضيحه ونقله للمتلقي العربي ليعرفه بالأصول الفلسفية القديمة للسيمائية.

ويعد التراث العربي هو الآخر محطة تاريخية بارزة في تاريخ الفكر الانساني فلا ينبغي المرور عليها مرور الكرام، فهي محطة هامة تستدعي منا التوقف عندها والتأمل فيها، وهذا راجع لغنى موروثنا العربي الذي يزخر هو الآخر بكنوز معرفية كثيرة، وهي في اعتقادي لم تكتشف بعد ولم تأخذ حقها بالدراسة والبحث، فلا يمكننا الحفاظ على هذه الكنوز المعرفية بالتفرج عليها بل بإحياءها، أي عن طريق بعثها للحياة الفكرية والمعرفية مرة أخرى، وهذا لعظمة هذه الكنوز التي لا تقدر بثمن فهي تتعدى في كثير من المعارف حدود الزمان

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث ، ص36.

[2]– نفسه، ص 36.

والمكان، فالعلامة مثلا في التراث العربي هي نقطة من بحر وسط تلك الكنوز المعرفية المحمل بها موروثنا، ولعل المتصفح المتأمل لتراثنا العربي يلاحظ مدى اهتمام العرب القدامى بالعلامة وهذا يوحي بفطنة وعمق أفكار العرب القدامى وبعد نظرهم، وهذا ما سأحاول توضيحه فيما سيأتي:

1-1-5-العلامة في التراث العربي:

لقد أشاد **أحمد طالب** في كتابه المنهج السيميائي من النظرية إلى التطبيق بدور العرب القدامى في إثراء الدرس السيميائي من خلال اهتمامهم بالدراسات الدلالية، فلا يمكن أن ننكر ما للعرب القدامى من فضل السبق والريادة، فقد أثروا الدراسات الدلالية بشكل مستفيض، إذ تناولوا بالتحليل والدرس جملة من المفاهيم من عدة أوجه فكرية مختلفة منها: النظم والسياق، واللفظ، والمعنى والمفهوم والصورة الذهنية والمرجع والمدرك والدال والمدلول أي المعلول والعلة ودراسة علاقتها التماثلية، وفق مختلف[1] مستوياتها الصوتية والنحوية والدلالية، فالتاريخ المبكر للبحوث والدراسات الدلالية العربية، يعني نضجاً أحرزته العربية وأصله الدارسون في جوانبها[2] .

لقد أسهمت الفلسفة منذ نشأتها مروراً بمناطقة العرب، إلى العلماء المحدثين، في بلورة مفهوم الدلالة، بغرض تحديد دور العلامة وخصوصا دور اللغة في المعرفة وقد يعود الفضل لدى **دي سوسير**في فتحه الآفاق أمام الابحاث السيميائية العلمية المتنوعة، التي شاعت في الألسنية الأوروبية التي يعدها **سوسير** سوى فرع من علم العلامات العام، بينما يتبنى **بارت** وجهة نظر مخالفة عندما اعتبر علم السيميائية المنشود فرعاً من علم الألسنية.[3]

---

[1]– أحمد طالب المنهج السيميائي من النظرية إلى التطبيق، منشورات دار الغرب للنشر والتوزيع وهران د/ط، 2005 ص15.

[2]– المرجع نفسه، ص15.

[3]– نفسه، ص 14

وما ينبغي تأكيده أن الكثير من الآراء والمقولات التي جاء بها العرب القدامى تتقاطع مع ما جاء به **دي سوسير** و**بيرس** خاصة في مفهوم العلامة وسنجملها في النقاط التالية –أبرزها–:

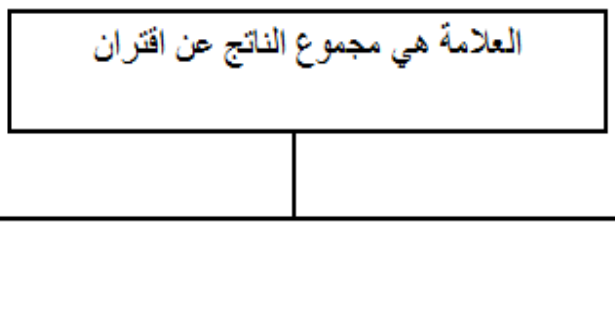
- **طبيعة العلامة وأصنافها في التراث:**

لقد تناول **قادة عقاق** العلامة وطبيعتها في التراث العربي الإسلامي في مقال له بعنوان "ملامح الدرس السيميائي في الموروث العربي الفكري واللغوي" وقد حاول في هذا المقال اظهار اسهامات العرب القدماء في اشتغالهم العلاماتي الذي تظهر فيه ملامح الدرس السيميائي، فالمتأمل لمفهوم **ابن سينا** لدلالة اللفظ يلاحظ أنه لا يختلف كثيراً عن تصور **سوسير** للعلامة اللغوية فبالإضافة إلى أن كليهما يعتبر العلامة اللغوية وحدة نفسية مزدوجة تتركب من :

1– مسموع أو صورة سمعية

2– مفهوم أو معنى أو تصور

بالإضافة إلى هذا الإتفاق حول تركيبها فإنهما يستعملان المصطلحات نفسها تقريباً ولعل الأمر يتضح أكثر من خلال المقابلة التالية[1].



لقد صنف العرب القدامى الدلالة (العلامة) إلى ثلاثة أصناف بغض النظر عن كونها لفظية أو غير لفظية، وهي عقلية وطبيعية.

أ- **العقلية:** عند **التهانوي** لما تعرض لها في كشافه هي كون العقل يجد بين الدال والمدلول علاقة ذاتية ينتقل لأجلها منه إليه، والمطلوب بالعلامة الذاتية استلزم تحقق الدال الأمر نفسه في تحقق المدلول فيه مطلقاً، سواء كان استلزم المعلول للعلة كاستلزام الدخان للنار أو العكس باستلزام النار للحرارة، أو استلزام أحد المعلولين للآخر باستلزام الدخان للحرارة.

فالدلالة العقلية بحسب هذا التعريف تنحصر في العلاقة "السببية" أو العلاقة "العلية" بين الدال والمدلول؛ أي أن العقل يحدد علاقة ذاتية بينهما من خلال دلالة الأثر في المؤثر، كدلالة الدخان على النار، يتقاطع هذا التعريف مع تحديد **بيرس** للمؤشر والإشارة، فالمؤشر عنده هو علامة تحيل الشيء الذي يشير إليه بفضل وقوع هذا الشيء عليها في الواقع، ومن هنا يمكن القول بأن الدلالة العقلية كما تم تحديدها في الاصطلاح العربي، والمؤشر كما حدده **بيرس** الأمريكي هما مصطلحان مختلفان لمفهوم واحد[1].

ب- **الطبيعية:** ويدخل تحت نطاقها كل أصوات الطبيعة كأصوات البهائم والصيحات المرافقة للانفعالات والتغيرات الفيزيولوجية، وتبدل ملامح الوجه وغيرها، وهذا الأمر قد تحدث عنه العرب القدامى، وهذا يتقاطع مع ما جاء به **بيرس** عن الأيقونة في كونها قائمة

[1]- بن علي خلف الله، النقد السيميائي في الجزائر اتجاهاته وأصوله رسالة الماجيستر في النقد الجزائري المعاصر، جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس، السنة الجامعية 1428- 1429هـ 2007 – 2008، ص 60.

على الخصائص المشتركة بين الدال والمدلول، وفي كون الشيء يكون أيقونة لشبيهه عندما يستخدم كعلامة له.[1]

ت- **الدلالة الوضعية:** هي دلالة عرفية وضعية ويدخل في نطاقها كل العلامات اللفظية المتعارف والمتواضع عليها، فالألفاظ هي نوع من الكيفيات المسموعة، والمعنى الذي جعل اللفظ بازائه، واضافة عارضة بينهما هي الوضع؛ أي جعل بازاء المعنى، على أن المخترع قال: إذا أطلق اللفظ فافهموا المعنى.

بناءً على هذا فإن الدلالة الوضعية حسب تعريف **الرازي** لا تتحقق في العلامة اللفظية إلا بتوافر العناصر التالية:

1- اللفظ: الذي هو نوع من الكيفيات المسموعة.

2- المعنى: الذي جعل اللفظ (بإزائه).

3- الوضع: وهو العارضة التي تضاف بين المعنى واللفظ، لكي يكون اللفظ موضوعاً بإزاء المعنى ملازماً له، وانطلاقاً من هذا التحديد نلاحظ التداخل بين تعريف الفلاسفة العرب لهذا النوع من العلامة وما أتى به الفيلسوف الأمريكي **بيرس** حول مفهوم الرمز smbol[2]؛ لأن الرمز هو علامة تشير إلى الموضوعة التي تعبر عنها عبر عرف غالباً ما يقترن بالأفكار العامة التي تدفع إلى ربط الرمز بموضوعة، فالرمز إذن نمط عام أو عرف، أي أنه العلامة العرفية ولهذا فهو يتصرف عبر نسخة مطابقة، وهو ليس عاماً وفي ذاته فحسب وانما الموضوعة التي تشير اليها تتميز بطبيعة عامة أيضاً.[3]

[1]- بن علي خلف الله، النقد السيميائي في الجزائر اتجاهاته وأصوله ، ص60.

[2]- المرجع نفسه، ص 60-61.

[3]- نفسه، ص61-62.

ومن بين القضايا التي اهتم بها العرب القدامى –دلالة الالفاظ ومستوياتها– وهذا ما يشير إليه **عبد القادر سلامي** في مقال له بعنوان "أصول التفكير الدلالي عند العرب".

فإذا سلمنا بأن الألفاظ لم توضع، ولم تستعمل لتعيين الأشياء بذواتها، فهذا يعني أنها محركة للمعاني الرمزية، والإنسان يمتلك من تجاربه ومن تجارب أترابه رصيداً هائلاً من الصور الذهنية الكامنة، فعندما يقول نهر لا يمكن أن يثير هذا اللفظ في نفوسنا شيئاً مالم يكن في ذهننا صورة للنهر اللفظ رمز لها ومحرك، وتحرك الصورة شيء بالغ التعقيد، وكل معنى حادث عن تداخل دائم بين سلسلة من العلاقات أو على علاقات بشرية يحملها ما نسميه المعنى ولم يكن ما قاله الأصوليون والمناطقة عندنا ضرباً من التعقيد اللغوي، حين قسموا دلالة الألفاظ إلى أربعة مستويات هي: **دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة الإلتزام والدلالة الوضعية**[1]؛ فالدلالة المطابقة هي أن يدل اللفظ على تمام ما وضع له كدلالة لفظ الإنسان على معناه أي على الحيوان الناطق، وسميت بذلك لمطابقة الدال والمدلول، وكل دلالة كاملة هي مطابقة بين اللفظ ومدلوله، أما دلالة التضمن فهي أن يدل اللفظ على جزء ما وضع له كدلالة الإنسان على ما في معناه من الحيوان، أو الناطق فكلمة إنسان وإن دلت على بعض ما يتضمنه المدلول عليه، كأن تدل على ما فيه من حيوانية أو على لازم معناه الذهني لزم مع ذلك في الخارج أم لا أو على ما فيه من ميزة النطق، فهي عندئذ دلالة تضمين وأن ظلت لفظية، وقد زاد **فخر الدين الخطيب**(ت 606 هـ) قيداً في دلالة التضمن، وهو أن يقال على جزء مسماه من حيث هو جزء تحرز من دلالة اللفظة بالمطابقة على معنى مطابقة.[2]

[1]– عبد القادر سلامي، من أصول التفكير الدلالي عند العرب، بحوث سيميائية، مجلة علمية محكمة،ع5و6 ماي، 2009 جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، ص185.

[2]– المرجع نفسه، ص 185–186.

أما دلالة الإلتزام فهي أن يدل اللفظ على ما هو خارج عن معناه ولكنه لازم له، ومستتبع له كدلالة الإنسان على قابل العلم والكاتب والضاحك أو دلالة السقف على الجدار، فيظل اللفظ معنى لازماً من الخارج وعند فهم مدلول اللفظ من اللفظ ينتقل الذهن من مدلول اللفظ إلى لازمه،ولو قدر عدم الإنتقال الذهني لما كان ذلك اللازم مفهوماً.[1]

ومن الممكن أن نضرب مثلاً بلفظ العقل بمعنى القيد، أي عملية العقال ثم بمعنى الشائع بعد تخليصه من الارتباط بالمعنى الأول، وذلك التخليص عملية ذهنية قد تحدث بمجردات عن نوع من التشبيه بين فعل القيد وفعل العقل.

وتشترك دلالة المطابقة ودلالة التضمن في أن كل واحد منهما ليس دلالة على أمر خارج عن الشيء، وتشترك دلالة التضمن ودلالة الالتزام في أن كل واحد منهما مقتضى الدلالة الأصول.

كما عرفت الدلالة اللفظية الوضعية، بكونها اللفظ حيث متى أطلق أو تخيل معناه للعلم بوضعه نحو دلالة الألفاظ الموضوعة على مدلولاتها، والواقع أن إطلاق لفظ الوضعية على دلالة التضمن ليس دقيقا،[2] والأفضل الاقتضاء في اطلاقها على الدلالة المطابقة، لأنها هي المعتبرة في التفاهم ولأن الواضع إنما وضع اللفظ لتمام المعنى، على أن تسمي دلالتا التضمن والالتزام بالدلالة العقلية؛ لأن دلالة اللفظ على كل من الجزء والخارج إنما هي من جهة حكم العقل بأن حصول الكل أو الملزوم يستلزم حصول الجزء أو اللازم، أما الدلالة اللللفظية غير الوضعية، فهي الدلالة اللفظية الطبيعية كدلالة (أه) على الوجع، والدلالة اللفظية العقلية كدلالة تكلم الشخص من وراء جدار، وجعل **شهاب الدين القدافي**

[1]– عبد القادر سلامي، من أصول التفكير الدلالي عند العرب، ص 186.

[2]– المرجع نفسه، ص186.

المالكي (ت684هـ) الدلالة قسمين دلالة اللفظ وهي ماذكرنا، والدلالة باللفظ: وهي استعمال المتكلم اللفظ في حقيقته أو مجازه.[1]

وقد طال الجدال في أمر الدلالة أهي توقيف (الهام) أم اصطلاح (تواضع وعرف)؟

فأسهب **السيوطي** (ت911هـ) في المزهر حين عرض الآراء التي تناولت مسألة دلالة الألفاظ على معانيها... [2]

إن اهتمام العرب القدامى بقضية المرجع نفسه في تصورين وهذا ما أكد عليه **عقاق قادة** وهما:

أ-إلغاء المرجع من مفهوم العلامة:

إن **ابن سينا** لا يشير إلى الواقع الخارجي أو المرجع في مفهومه العلامة، وهذا ما نجده أيضاً عند **دي سوسير** فهو يفعل الشيء نفسه في تحديده لمفهوم الدليل اللغوي أو الألسني le signe linguistique ، حينما يقرر بأنه مفهوم مركب من مظهر حسي فيزيائي، تدركه العين كتابة ويدركه السماع ملفوظاً ويسمى الدال signifiant، ومظهر مجرد هو الصورة الذهنية التي يدلنا عليها ذلك الدال، ويسمى المظهر المدلول signifié وتسمى العملية الناتجة عن اقتران الدال بالمدلول "**دلالة**"، فالدليل لا يوحد الشيء والاسم بل يوحد الشيء والاسم بل يوحد المفهوم والصورة ويقرنهما.[3]

وهذا الموقف المعبر عنه بهذه الكيفية هو نفسه محور الموضوع الذي دارت حوله أبحاث **أولمان ulmann** في المعنى، حينما راح يعالج العلاقات القائمة بين الأشياء والمفاهيم والتسميات الألسنية حيث يقرر بأن البحث عن العلاقة بين مفهومنا عن الشيء

[1]- نفسه، ص 187.

[2]- عبد القادر سلامي، من أصول التفكير الدلالي عند العرب، ص 187.

[3]- قادة عقاق، ملامح الدرس السميائي في الموروث العربي الفكري واللغوي، ص 120.

والشيء نفسه ليست بذات أهمية من الناحية الدلالية، ذلك لأن عالم المعاني لا تهمه الكلمات نفسها في علاقتها بالموجودات في الواقع، بقدر ما يهمه بشكل أساسي ما تعبر عنه كلمات اللغة من مفاهيم، وعليه فـ **دي سوسير** ومن بعده **أولمان** يقصيان في هذا السياق من خلال هذا الموقف الأمر الخارجي من الاعتبارات الدلالية، وهما بذلك يتقاطعان مع **ابن سينا** في إلغائه للأمر الخارجي أو المرجع من مفهوم العلامة، ويلتقيان في الوقت نفسه مع **الفخر الرازي** الذي يرى بأن المعنى اسم للصورة الذهنية لا للموجودات الخارجية، لأن دلالة الألفاظ على مدلولاتها ليست ذاتية حقيقية، كما يتجهان أيضاً اتجاه **يحي العلوي** الذي يرى أن الحقيقة في وضع الألفاظ، انما هو للدلالة على المعاني الذهنية دون الموجودات الخارجية وهي ترى تحديدات وتقسيمات تقوم على فهم عميق وتحليل دقيق قام به علماء العربية منذ وقت مبكر[1].

ب- المرجع باعتباره طرفاً أساسياً في العلامة:

إن الموقف الذي يلغي "الواقع الخارجي" أو "المرجع" من مفهوم العلامة يكاد يكون موقفاً استثنائياً في الدراسات العربية القديمة، التي اشتغلت في مجال الدلالة ذلك لأن هناك مجموعة كبيرة من الدارسين العرب القدامى يعتبرون المرجع أو الأمر الخارجي طرفاً أساسياً في العلامة ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر **الامام أبو حامد الغزالي** الذي يقول: **(**إن للشيء وجوداً في الأعيان ثم في الألفاظ ثم في الكتابة، فالكتابة دالة على اللفظ واللفظ دال على المعنى الذي في النفس، والذي في النفس هو مثال الوجود في الأعيان**)**.[2]

فالعلامات الدالة في نظر **الغزالي**_ بغض النظر عن الكتابة _من أطراف أساسية ثلاثة هي :

[1]- قادة عقاق، ملامح الدرس السيميائي في الموروث العربي الفكري واللغوي ص120-121.

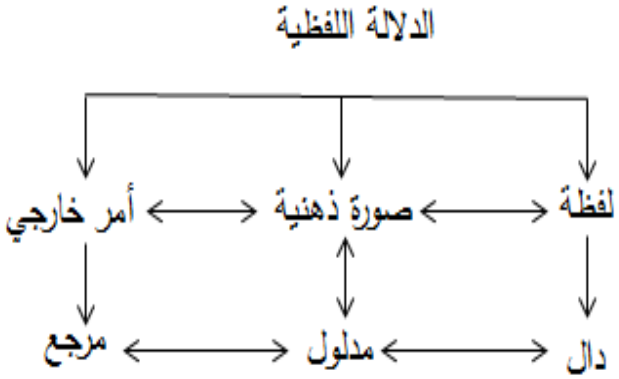
[2]- المرجع نفسه، ص121.

- الموجود في الأعيان ويقابله ⟵ الأمر الخارجي

- الموجود في الاذهان ويقابله ⟵ الصورة الذهنية

- الموجود في الألفاظ وتقابله ⟵ اللفظية

أو بعبارة اخرى، تتألف الدلالة اللفظية (اللغوية) أو العلامة اللسانية عند **الغزالي** من ثلاثة تركيبات أساسية هي[1]:



ولعله من اللافت للإنتباه أن هذه التركيبات نفسها، وإن اختلفت المصطلحات نجدها هي مركز الاستقطاب في النظرية الدلالية التي قدمها الانجليزيان **أوجدن** و**ريتشاردز** ogden et richards في كتابهما معنى المعنى the meaning of meaning الصادر عام 1923 والذي يدرسان فيه مشكلة (المعنى) من جميع جوانبها المختلفة، ويوردان ضمن ذلك اثنين وعشرين تعريفاً للكلمة، ويشيران إلى أهمية التحليل المزدوج، الذي يتطرق إلى العلاقة بين الكلمات والأفكار من جانب والأشياء المشار إليها من جانب آخر، كما يتساءلان عن ماهية العلامة أو الدلالة من حيث هي ناتج عن اتحاد المكونات الآتية[2].

[1]– قادة عقاق، ملامح الدرس السيميائي في الموروث العربي الفكري واللغوي، ص 121.

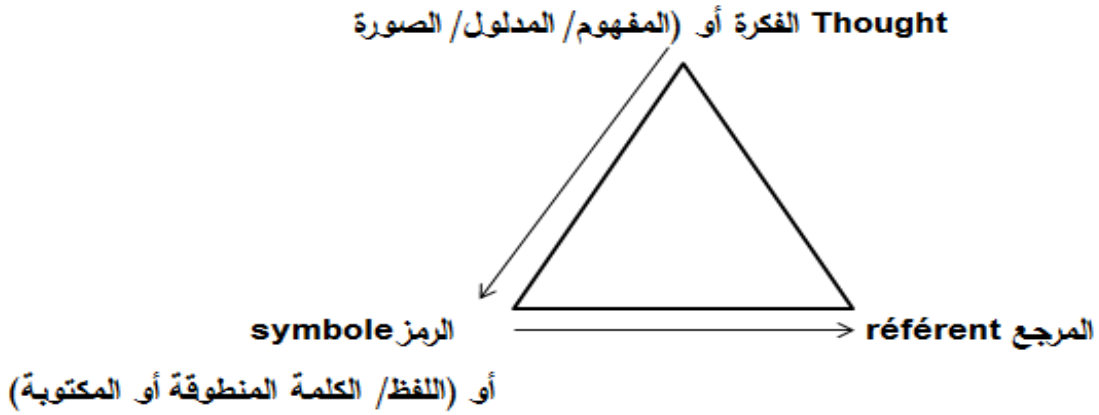
[2]– المرجع نفسه، ص 122.

– الرمز symbole وهو الكلمة المنطوقة المكونة من مجموعة صوتية.

– المفهوم أو المدلول thoughtor refernce وهو الصورة الذهنية.

– الشيء أو الواقع غير الألسني référent.

وكان الباحثان قد اختصر فكرتها في شكل مثلث اشتهر كثيراً في الدراسات الدلالية المعاصرة[1] :



فهناك علاقة مباشرة بين (الرمز) والمرجع أي الواقع الخارجي الذي يحيل اليه هذا الرمز، وقد دلل الباحثان على ذلك بالخط المتقطع، حيث تبدأ العملية من الصورة الذهنية أو الفكرة أو المفهوم /المدلول الذي يستدعيه اللفظ الرمز ليحيل أو يومئ هذا الأخير إلى الشيء المراد التعبير عنه، لأن الدال يستدعي في ذهن المتلقي المدلول، كما أن المدلول يستدعي في ذهن المتكلم الدال الملازم له.

ولعل الأمر يتضح أكثر اذا ما قارنا بين المصطلحات التراثية بما في ذلك مصطلحات **الغزالي** – والمصطلحات المعاصرة التي أتى على ذكرها **أوجدن وريتشاردز** في هذا المجال:

[1]– قادة عقاق، ملامح الدرس السيميائي في الموروث العربي الفكري واللغوي، ص 122.

أوجدن وريتشارد		الغزالي	التراث العربي عموماً
1-الفكرة	تقابل	-الموجود في الأذهان	-المدلول
2-الرمز		-الموجود في الألفاظ	-اللفظ
3-المرجع		-الموجود في الأعيان	-الشيء الخاجي[1]

إن قضية البحث في "معنى المعنى" لم تكن مقتصرة على العالمين **ريتشارد** و**أوجدن** فهي حاضرة أيضاً في فكر العملاق **الجرجاني** حيث ميز بين نوعين من الدلالة، فيقول أن نقول المعنى و"معنى المعنى" نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير وساطة وبمعنى المعنى، أن تعقل من اللفظ معنى يفضي بك ذاك المعنى إلى معنى آخر.

لا شك أن **الجرجاني** قدم جهداً معرفياً معتبراً عندما أثار قضية البحث في معنى المعنى وهذه القضية أحدثت ضجة بإصدار كل من **ريتشاردز** و**أوجدن** كتابهما معنى المعنى وفيه يتساءل العالمان ليس عن التطور المعنى كما كان سائداً أنذاك في الدرس الألسني التاريخي، وإنما عن ماهية المعنى.[2]

لقد أسس **الجرجاني** نظرية معنى المعنى في الكلام، ذلك بأن قولك قرأت كتاباً لا يعني إلا معنى ظاهراً واحداً وهو قراءتك الكتاب في حين اذا قال قائل عن امرأة نؤوم الضحى فإن القائل يقصد أولاً إلى أن هذه المرأة هي فعلاً كثيرة النوم في الضحى، وهذا

[1]- قادة عقاق، ملامح الدرس السيميائي في الموروث العربي الفكري واللغوي، ص 123.

[2]- بن علي خلف الله، النقد السيميائي في الجزائر اتجاهاته واصوله، ص 66.

هو المعنى الأول كما يقصد في الوقت ذاته وهو الاهم والمراد في قوله: إن هذه المرأة ميسورة الحال مخدومة لا تحتاج إلى الابكار للقيام بشؤون البيت وهذا هو معنى المعنى أو (المعنى الثاني).[1]

إن أصناف العلامة وطبيعتها في التراث العربي تبرز ملامح الدرس السيميائي، وهذه القفزة النوعية التي عرفها النقاد العرب القدامى في عالم الفكر توحي أن أفكارهم سبقت زمنهم، وهذا ناتج عن وعيهم وفلسفتهم التي تؤمن ببعد النظر وتحكيم العقل، ولكن للأسف هذه القفزة لم تجد فيما بعد من يكمل المسير ويحمل المشعل من خلال مناقشة تلك الأفكار لدى القدماء وتطويرها، ليفجر فيما بعد الرائدين دي **سوسير** و**بيرس** طروحاتهم الفكرية ليترأسا زعامة الحقل السيميائي لتصبح أفكارهما من أهم المرتكزات التي يستند عليها الباحثون لفهم السيميائيات، وبهذا انتشرت أفكارهما، ووجدت محيطاً يسمح بهذه الشهرة العالمية، حتى أن الكثير من النقاد الغرب واصلوا مسيرة **دي سوسير** و**بيرس** من خلال مناقشة أفكارهما وتعميقها، وهذا التعامل الذي حظيت به طروحات **دي يوسير** و**بيرس** لم يحظى بها مورثنا العربي، فلم يتبع العرب خطى القدماء ولم يكملوا المسيرة بل مشوا بخطى متثاقلة لا تليق بقيمة هذا التراث المعرفية والفكرية، –ماعدا البعض من النقاد العرب الذين حاولوا احياء هذا التراث–.

إن اهتمام **أرسطو** بعلاقة اللغة بالمنطق جعلته يضع قدمه في التفكير السيميائي منذ القديم، ولكن هذه العلاقة التي تحدث **عنها أرسطو**، كانت حاضرة أيضاً في الثقافة العربية الاسلامية وهذا ما يؤكد عليه **أحمد يوسف**، ف**الفارابي** مثلا ينزلها منزلة الأولى في احصاء العلوم، ويقول "...إن نسبة المنطق إلى العقل والمعقولات كنسبة النحو إلى اللسان والألفاظ، فكلما يعطينا علم النحو من القوانين في الألفاظ، فإن المنطق يعطينا نظائرها في المعقولات"؛ فإذا كان النحو لغة واصفة خاصة فإن المنطق لغة واصفة عامة، وعليه فإن

[1]– بن علي خلف الله، النقد السيميائي في الجزائر اتجاهاته واصوله، ص 66 –67.

علم النحو انما يعطي قوانين تخص ألفاظ أمة ما، وعلم المنطق منها مفردة ومنها مركبة، ومثل هذا ما أشار إليه **أبو حيان التوحيدي** في "الامتاع والمؤانسة" بخصوص مناظرة **بن يونس** و**أبي سعيد السيرافي**، واذا وقفنا على دلالة فن المنطق وحده لألفيناه مأخوذا من المنطق اذ يطلق على النطق الخارجي الذي هو اللفظ وعلى الداخلي وهو ادراك الكليات وعلى مصدر ذلك الفعل، وبذلك ستكون العلاقة بين المنطق والمعنى جوهر التصورات القديمة، وسرعان ما يمتد البحث إلى ربط المنطق بموضوع الألفاظ ليرتكز على التركيب المنطقي للغة، ومن هنا نجد هذه العلاقة التي تربط بين "اللغة" "والمنطق" تحيلنا إلى ما يسمى باللغة الواصفة، وهذا ما تطرق له أعلام السيميائيات.[1]

- **مفهوم (العلامة) يقابل مفهوم (الدلالة) في التراث:**

"يشير **قادة عقاق** إلى أهمية الدرس اللغوي العربي القديم من خلال دراساته الدلالية التي تقترب من التفكير السيميائي؛ فمصطلح "الدلالة" في التراث العربي يقابله مصطلح "**العلامة**" في التفكير السيميائي الحديث، فمصطلح "**الدلالة**" ينتشر في مصنفات عربية قديمة تتصل بمجالات تقترب كثيراً من ماهية هذا العلم علم العلامات أو السيميولوجيا في صورته المعاصرة، حيث[2] نجد دارسين دلاليين محدثين، ومنهم على سبيل المثال **جورج مونان** george mounin **وجان مارتيني** jeanne martinet ينبهون إلى ضرورة تحديد المصطلح وتأطيره بالدلالة اللغوية، ذلك أن الدلالة دخلت مجالات عديدة فيها عموم قد يجعل الباحثين يحملونها إلى اللغة وهو ألصق بعلم الرموز sémiologie وهذا التحديد يقترب من مفهوم **ابن خلدون** عن علم أصول الفقه وما يلزم دراسيه حيث يقول "يتعين النظر في دلالة الألفاظ، ذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الاطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة... ثم إن هناك استفادات

[1]– أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة المنطق السيميائي وجبر العلامات، ص 22.

[2]– قادة عقاق، ملامح الدرس السيميائي العربي الفكري واللغوي، ص 111.

أخرى خاصة من تراكيب الكلام، فكانت كلها من قواعد هذا الفن، ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية.[1]

بالإضافة إلى أن مفهوم "الدلالة" في التراث يقابله مفهوم "العلامة" فإنه أيضاً يتجاوز مفهوم "السيمة والأمارة والدليل" وهي كلها أمور تتعلق بمفهوم المسلمين للعالم بوصفه دلالة على وجود الخالق، وهذا أمر يؤكد امكانية تفسيرنا لمفهوم الدلالة في الفكر الاسلامي بما يوازي العلامة في المفهوم السيميوطيقي، والتي هي في تصورهم: " كون الشيء يلزم من العلم به، العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو "الدال" والثاني هو المدلول، وكيفية دلالة اللفظ على المعنى – باصطلاح علماء الأصول– محصورة في عبارة النص واشارة النص واقتضاء النص."[2]

ولذلك كانت (الدلالة) وركناها (الدال) والمدلول والعلاقة بينهما من أهم القضايا التي شغلت حيزاً كبيراً من اهتمام علماء المسلمين منذ وقت مبكر، من ذلك ما عرضه **التهانوي** حول مفهوم هذا المصطلح الدلالة عند الأصولين والبلاغيين واللغوين، فقال: الدلالة بالفتح هي ما اصطلح عليه أهل الميزان والأصول العربية والمناظرة – أن يكون الشيء بحالة يلزم من العلم به العام بشيء آخر... والشيء الأول يسمى دالاً، والشيء الآخر يسمى مدلولاً والمطلوب بالشيئين ما يعم اللفظ وغيره"[3].

ليتطرق بعدها **التهانوي** إلى صور الدلالة وأنواعها من لفظية وغير لفظية وعقلية وطبيعية ووضعية.[4]

---

[1]– قادة عقاق، ملامح الدرس السيميائي العربي الفكري واللغوي، ص111–112.

[2]– المرجع نفسه، ص112.

[3]– نفسه، ص 112– 113.

[4]– نفسه، ص 113.

كما نجد **عبد القاهر الجرجاني** هو الآخر اهتم بالدلالة ويظهر ذلك جليا من خلال نظريته في النظم وهذا الاهتمام الدلالي **لجرجاني** جعل بعض النقاد العرب يلاحظون ذلك التقاطع بين فكر **الجرجاني** و**دي سوسير** لخصوه في النقاط التالية:

1- إن مصطلح التأليف عند **عبد القاهر** يقابله مصطلح التركيب عند **دي سوسير**.

2- إن الكلمة بمفردها عند **عبد القاهر** لا فائدة لها في تأدية المعنى إلا بضمها إلى أخواتها التي تكون مجموعة الكلم أو البناء، وهذا ما يقابله عند **دي سوسير** أن الكلمات المتفرقة لا تعني شيئاً في التركيب إلا إذا كانت مجتمعة داخل وحدات متداخلة.

3- لا تفاضل للفظة على لفظة أخرى في رأي **عبد القاهر** مالم تكن هناك دلالة تربط المعنى بمدلوله وتفسير هذا عند **دي سوسير** لا معنى للعلامة إلا بعلاقاتها بما ترتبط من معنى كلي.

4- إن الصورة الكلامية عند **عبد القاهر** تحددها الوظيفة التعبيرية التي تؤديها الجملة إن كانت اخباراً، وهو التقرير، أو استخباراً (وهو الاستفهام) أوكل ما يخدم ويوضح نوعية النسق، ويقابل كل هذا في رأي **دي سوسير** بصريح اللفظ، أن الجمل كذلك لها دورها في خدمة نظام الكلام الذي يحدد النسق على قدر المعنى الوظيفي في الجملة الاخبارية ومثالها: الأرض تدور la terre tourne [1] والاستخبارية ومثالها: "ماذا يقول لك" que vous " dit-il فليس من باب الصدفة أن تتوافق هذه الآراء بهذا الشكل الموضوعي المتسلسل المتطابق.

أما **ابن فارس** (ت395)، تحدث عن مادة (دل) فيقول: "الدال واللام أصل يدل على ابانة الشيء بأمارة تتعلمها والدليل الأمارة في الشيء" ولكن على الرغم من هذا الاتفاق

[1]- بن علي خلف الله، النقد السيميائي في الجزائر اتجاهاته وأصوله، ص63.

الواضح بينهم حول مفهوم "**الدلالة**"[1] إلا أنهم يختلفون بعض الاختلاف في وجوب توفر "المقصدية" في العلامة أو عدم توفرها، أي تركها لأفق انتظار القارئ ومقدرته التأويلية، وفق السياق الذي قيلت فيه.[2]

إن اهتمام العرب القدامى بفكرة "المقصدية" في "العلامة" جعلهم يهتمون بالدلالة والتبليغ بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حسب **بن علي خلف الله** إلى ربط الخطاب بكفاءة المتلقي، وفي هذا الصدد يرى **ابن قيم الجوزية** دلالة النصوص نوعان حقيقية واضافية؛ فالحقيقة تابعة لقصد المتكلم وارادته وهذه الدلالة لا تختلف والإضافية تابعة لفهم السامع وإرادته وجودة فكره وقريحته، وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها، وهذه الدلالة تختلف اختلافا متباينا بحسب تباين السامعين في ذلك، وهذا تقريباً ما ذهب إليه العالم النمساوي **ليوسبيتزر** في دراسته الاسلوبية النفسية حينما يستعين بعلم الدلالة التاريخي ويتتبع من خلاله التطور التاريخي للكلمة ليستقي منها معلومات تسهم في إنارة البؤر المظلمة في النص؛ لأن الكلمة عنده في السياق الأدبي قد تأخذ دلالة معينة في النص، وقد تتعدد دلالاتها بحسب السياق والقدرة التأويلية للمتلقي.[3]

إن فهم دلالات الخطابات يتوقف على كفاءة المتلقي وهذا ما نجده في موروثنا العربي، وهذا ما أشاد به **قادة عقاق**؛ حيث لاحظ أن اشكالية القصدية والتأويلية في فهم العلامات قد شغلت الكثير من الباحثين العرب القدامى؛ حيث انقسموا إلى فريقين، منهم من يقول بالقصدية ويرى ضرورة توفرها في الدلالة، ومنهم من لا يهتم بها، بل ويركز على قابليتها للتأويل، ولتوضيح أكثر آراء هذين الفريقين قام **قادة عقاق** بعرض أفكار الفريقين وأدلتهما محاول كشف نقاط التقاطع بين هذين الفريقين واتجاهي السيميولوجيا وهما:

---

[1]– قادة عقاق، ملامح الدرس السيميائي العربي الفكري واللغوي، ص 113.

[2]– المرجع نفسه، ص113.

[3]– بن علي خلف الله، النقد السيميائي في الجزائر اتجاهاته وأصوله، ص64.

سيميولوجيا الاتصال والدلالة: يتزعم الفريق الأول **القاضي عبد الجبار** الذي يركز كثيراً على اعتبار قصد المتكلم في عملية التبليغ، بغض لنظر عن المواضعة التي[1] لابد من توفرها، ذلك لأن الكلام في رأيه **القاضي عبد الجبار** قد يحصل من غير قصد فلا يدل، ومع القصد فيدل ويفيد، فكما أن المواضعة لا بد منها، فكذلك المقاصد التي بها يصير الكلام مطابقاً للمواضعة ومن هنا نجد أن **القاضي عبد الجبار** كما هو ملاحظ يركز على قصد المتكلم، ولا يرى بدونه الكلام أي دلالة، ولذلك نراه يضيف في موضع آخر بأن الخبر انما يدل على المخبر عنه من حيث قصد به الأخبار كما هو خير عنه، ومن هنا يصبح القصد في نظر **القاضي عبد الجبار** شرطاً أساسياً لوقوع الدلالة[2].

أما الفريق الثاني الذي لا يعتبر توافر القصدية أمراً ضرورياً، فيتزعمه **أبو هلال العسكري** (ت400هـ)، والذي نجده في سياق حديثه عن العلامة أو الدلالة، بما في ذلك العلامة غير اللغوية يقول "... ويمكن أن يستدل بها سواء أقصد فاعلها ذلك، أو لم يقصد، والشاهد أن أفعال البهائم تدل على حدثها، وليس لها قصد إلى ذلك... وآثار اللص تدل عليه، وهو لم يقصد ذلك، وما هو معروف في عرف اللغويين يقولون استدللنا عليه بأثره وليس هو فاعل لأثره عن قصد"

ومن خلال طرح أفكار هذين الفريقين نجد ان كلمن **القاضي عبد الجبار وأبو هلال العسكري** ومن يتبعهما في طرحهما هذا يتقاطع مع قضية تعد الآن موضوع جدل كبير بين أقطاب الفكر السيميائي المعاصر؛ حيث أن هناك اتجاهاً يؤكد الطبيعة التواصلية للعلامة باعتبارها تتكون أساساً من دال ومدلول وقصد، والمسمى باتجاه سيميولوجيا الاتصال في

[1]– قادة عقاق، ملامح الدرس السيميائي العربي الفكري واللغوي، ص113.

[2]– المرجع نفسه، ص113.

حين يركز الاتجاه الآخر على الطبيعة التأويلية للعلامة، وهذا من حيث قابليتها للتأويل من جانب المتلقي وهو ما يسمى باتجاه سيميولوجيا الدلالة[1].

- **الدلالة اللغوية والدلالة غير اللغوية:**

ان اهتمام العرب القدامى بالدلالة اللغوية وغير اللغوية يبرز ملامح الدرس السيميائي في الموروث العربي، وهذا الطرح التراثي للعلامة والذي يلتقي في بعض جوانبه مع بعض ما يذهب اليه البحث السيميائي، لا ينفرد به **أبو هلال** و**القاضي عبد الجبار** وحدهما من بين الدارسين القدامى، بل نجد ما يشابهه عند **الراغب الأصفهاني**، مع بعض التوسع حيث نجده يقول الدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالات الاشارات والرموز والكتابة، وسواء أكان ذلك بقصد مما يجعله دلالة، أم لم يكن يقصد، **فالراغب الأصفهاني** بهذا التصور يوسع من المدلول الادراكي والمجال الاجرائي للعلامة، بحيث لا يقصرها على العلامة اللسانية فحسب، بل يجعلها تشمل أنماطاً سيمائية أخرى غير لسانية (كالإشارة، والرموز والكتابة)، مؤكداً في ذات الوقت الخاصية التواصلية للعلامة،[2] سواء أقصد ذلك أم لم يقصد، مادام المحيط الطبيعي والظروف الاجتماعية والتوجهات الثقافية والاطار المعرفي العام مساعداً على ذلك، فتسويتهم بين دلالة (العلامة اللسانية) وغيرها من العلامات الأخرى نجده عند **أبوهلال العسكري** و **الأصفهاني**، كما نجد ما يشبه هذا الطرح عند **ابن سينا، الغزالي، والجاحظ والباقلاني** الذي يقول: "إن حقيقة الكلام على الاطلاق... انما هو المعنى القائم بالنفس، لكن جعل لنا دلالة عليه تارة بالصوت والحروف نطقاً، وتارة بجمع الحروف بعضها إلى بعض كتابة دون الصوت ووجوده، وتارة اشارة ورمزاً دون الحروف والأصوات ووجودهما"[3].

---

[1]– نفسه، ص 114.

[2]– قادة عقاق، ملامح الدرس السيميائي العربي الفكري واللغوي، ص114.

[3]– المرجع نفسه، ص 114–115.

إن هذا التصور حسب **قادة عقاق** يؤكد على ارتباط العلامة (الدلالة) اللغوية في التراث بغيرها من أنواع العلامات (الدلالات) الأخرى، وتعالقها معها، كما يؤكد في الوقت نفسه ارتباطها الوثيق بالاطار المعرفي العام الذي دار في فلكه الفكر التراثي في نظره إلى العلامة، باعتبارها دلالة، أو شيئا حاضراً يعلمك عن الشيء غائب، ومن أجل هذا جاء المعنى المعجمي للفظ (دلالة أو علامة) مرتبطا عندهم بلفظ (علم) و(اعلام) و(عالم) ...الخ.[1]

إن مفهوم الدلالات اللغوية وغير اللغوية قارب ما جاء به **الجاحظ** بطريقة معرفية مكتملة وشاملة، وهذا ما أكد عليه **بن علي خلف الله**، حيث عد **الجاحظ** خمسة أصناف من العلامة هي: اللفظ، الاشارة، العقد، الخط، الحال أو النصبة، وهذه الخماسية وردت في كتاب "البيان والتبيين"، يقول **الجاحظ** "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا "ولا تزيد أولها اللفظ، ثم الاشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى النصبة هي الحالة الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقتصر عن تلك الدلالات، ولكل واحدة من هذه الخمسة صورة بائنة عن صاحبتها مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني ثم عن حقائقها في التفسير"، واذا شرحت هذه المصطلحات فلا نجد اختلافاً كبيراً بين ما ذهب اليه **الجاحظ** وما ذهب اليه أساطين السيميائية في العصر الحديث، وهذا ما أكد عليه **بن علي خلف الله:**

أ- **اللفظ :** هو التعبير عن المعاني بوساطة الصوت، أو هي تلك العلامة اللغوية التي يتواضع عليها أفراد المجتمع اللغوي الواحد، والتي تتكون من دال ومدلول؛ أي من صورة سمعية، وصورة ذهنية أو مفهوم ذهني يقترن بتلك الصورة السمعية.[2]

[1]- بن علي خلف الله، النقد السيميائي في الجزائر اتجاهاته وأصوله، ص115.

[2]- المرجع نفسه ، ص 58.

ب- **الاشارة** : فيقصد بها "الجاحظ" تلك الاشارات أو الحركات أو الايماءات الدالة، وتكون باليد والرأس والعين والحاجب، وقد تصاحب الكلام فترتبط دلالتها بدلالة الملفوظ اللغوي؛ حيث يرى **الجاحظ** أن الاشارة تكون شريكة اللفظ، وقد يكون أحيانا مبلغ الاشارة أبلغ من مبلغ الصوت، ولكنها قد تنفصل عن الكلام، فتكون دلالة بذاتها نظراً لطبيعتها الدلالية وقدرتها على التوصيل.[1]

ث- **العقد:** المقصود به عند **الجاحظ** هو حركة تتم بأصابع اليد، تعني الاتفاق والموافقة على أمر ما، أوهي الحساب بدون اللفظ والخط، وسواء أكان العقد مجرد حساب بسيط بالأصابع أم كان يتمثل في أقصى ما وصلت اليه البشرية من تجريد وترميز في العلوم الرياضياتية على الخصوص، فإن الحساب يظل وسيلة من وسائل الابلاغ المتنوعة التي ابتدعها الانسان للتعبير عن مقاصده، والاتصال ببني جنسه.

د- الخط: هو الآلة البيانية الرابعة في ترتيب **الجاحظ** أصناف الدلالة على المعاني، وتكمن فاعليته في قدرته على تجاور المكان والزمان، فإذا كان الإبلاغ مقصوداً على ابلاغ الحاضر في الزمان، والقريب في المكان، فإن الخط مطلق يستطيع اعلام الغائب في المكان والمسبوق في الزمان[2].

هـ- النصبة: هي هيئة دالة على نفسها، من غير وسيلة ولا وساطة، فهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد.[3]

رغم أن **الجاحظ** لا يتوقف طويلا أمام الفروق التي توقف أمامها التفكير السيميائي الحديث، إلا أن مجرد تفطنه إلى هذا التصنيف، ومجرد ربطه بين وظيفة اللغة وبين المعرفة

[1]- بن علي خلف الله، النقد السيميائي في الجزائر اتجاهاته وأصوله، ص 58-59.

[2]- المرجع نفسه، ص 59.

[3]- نفسه، ص 59.

العقلية من جهة، وبين هذه الأخيرة وبين قدرة الانسان واستطاعته ادراك الدلالات الأخرى، كانت مقدمة جد مهمة، أتاحت لمن جاءوا بعده أن يعمقوا من هذا الربط[1].

كما أن الجذر اللغوي لمصطلح علامة علم، يؤكد ذلك الارتباط الدلالي الوثيق بينها وبين العلم والعالم في كل المعاجم العربية، وهو ارتباط يمكن ملاحظة وجوده حين مقارنتنا بين اللغة والمعرفة من جهة وبينها وبين وضعية الانسان من جهة أخرى، وهذا الطرح يبرر القول بأن وضع اللغة باعتبارها علامة دالة– بين أنواع الدلالات العقلية الأخرى وهذا ينبئ بأن العقل العربي لم ينظر إلى اللغة بمعزل عن نظم الدلالات الأخرى، وهي نظرة نجدها عند كل المفكرين المسلمين، على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم، فنجدها عند أهل السنة كما عند المعتزلة والأشاعرة، وكذلك عند الفلاسفة والمتصوفة، وهي نظرة تؤكد في مجملها حسب **قادة عقاق** على القيمة الدلالية للعلامة اللغوية وطابعها التواصلي[2].

- **الطابع التواصلي للعلامة اللغوية وقيمتها الدلالية:**

إذا كانت الوظيفة الأساسية التي أقيمت من أجلها اللغة هي التواصل بين أفراد المجتمع، من حيث كونها أي اللغة أصواتاً يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، كما يقول **ابن جني** أو هي البيان كما يعبر **الجاحظ** أو الإنباء والاخبار كما يذهب إلى ذلك المعتزلة بشكل عام، مع ما يعينه الإنباء أو البيان من القدرة على التواصل والتوصيل ونقل المعرفة من جيل إلى جيل ضمن المجتمع الواحد أو من مجتمع إلى مجتمع آخر، فإن هذا النظام التواصلي قد حظي بقسط وافر من الاهتمام من لدن أسلافنا، حيث ما انفكوا يعمقون البحث فيه ويتدارسونه تدارسا شاملاً، مصرحين في خضم ذلك بأهميته وضرورته في الحياة الإنسانية، وفي هذا الصدد يقول **ابن سينا** "... ولما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمجاورة، انبعثت إلى اختراع شيء يتوصل به إلى

[1]– نفسه، ص 59.

[2]– قادة عقاق، ملامح الدرس العربي الفكري واللغوي، ص 116.

ذلك... فمالت الطبيعة إلى استعمال الصوت ووقفت من عند الخالق بألات تقطيع الحروف وتركيبها معاً، ليدل بها على ما هو في النفس من أثر، ثم وقع اضطرار ثان إلى اعلام الغائبين من الموجودين في الزمان، او المستقبلين اعلاماً بتدوين ما علم... فاحتيج إلى ضرب آخر من الإعلام غير النطق، فأخترعت أشكال الكتابة"[1].

فالنظام التواصلي وطرائقه أو وسائله التي تكون إما (فعلا) أو (صوتياً) أو (الأشكال كتابية)، يحقق تلك النزعة الاجتماعية التي يتميز بها الانسان عن غيره، ويحقق بها ذاته ووجوده في هذا الكون، وينقل بها خبراته إلى الأجيال اللاحقة، باعتباره كائناً متكلماً أولاً، ومكلفا ثانيا، ضمن المنظور الإسلامي، لرسالته في الوجود، وغني عن البيان، لأن حجر الزاوية والعنصر النواة في هذا النظام التواصلي كله هو "العلامة"، بما تحمله من دلالة وما تتميز به من إبلاغية،[2] ويقول الامام **أبو حامد الغزالي** في هذا الشأن: لا متكلم إلا وهو محتاج إلى نصب علامة لتعريف ما في ضميره"

إن هذه الإشارة التي يوردها **الغزالي**، تنبئ على وعيه العميق بأهمية العلامة في النظام التواصلي، هي إشارة لا يتركها عبد **القاهر الجرجاني** دون التطرق إليها، حيث نجده يقرر بأن الكلمة التي تتكون منها اللغة تجري بمجرى العلامات والسيمات، ولا معنى للعلامة والسيمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلا عليه وخلافه، وتجدر الإشارة إلى أن هناك نصوصاً كثيرة يتضمنها التراث العربي الإسلامي في هذا المجال، تتعلق بخاصية التواصل لدى الانسان، وحاجته الملحة إلى ذلك فضلا عن قضية التكليف في المنظور الإسلامي، مما جعل العلامة تصطبغ بصبغة دينية في كثير من الأحيان.[3]

[1]– قادة عقاق، ملامح الدرس العربي الفكري واللغوي، ص116 –117.

[2]– المرجع نفسه، ص 117.

[3]– نفسه، ص 118.

إن هذه الرؤية التي طرحها **قادة عقاق** وغيره – توحي بأهمية الموروث العربي وغناه الفكري واللغوي من خلال ابرازه ملامح الدرس السيميائي العربي الفكري واللغوي وتحديده لطبيعة العلامة في تراثنا، وهذه الإلتفاتة الطيبة تبين ذلك التقارب بين ما جاء به العرب القدامى من أفكار فيما يخص العلامة وبين ما جاء به أقطاب السيميائيات وعلى رأسهم **دي سوسير وبيرس** وهذا ما لخصناه في النقاط السابقة الذكر.

وتجدر الإشارة أن موروثنا العربي لم يأخذ حقه بعد بالدراسة وهذا لما يحمله من كم معرفي هائل، البعض منه رأى النور، بفضل اجتهادات البعض من النقاد والباحثين العرب الذين أدركوا عظمة موروثنا والبعض الآخر لم يصله النور، ومازال مهمشا تراكم عليه غبار السنين في جميع المجالات لذلك وجب علينا إزاحة ذلك الغبار عن طريق احياء تلك الأفكار والرؤى المحمل بها تراثنا ومناقشتها وتعميقها وتقديمها للمتلقي العالمي بصورة تليق بعظمة موروثنا.

وما ينبغي تأكيده أن الأصول الفلسفية والفكرية القديمة ساهمت بشكل كبير في نشأة التفكير السيميائي الحديث، وهذا ما حاولنا توضيحه فيما سبق.

- **اعتباطية الدال والمدلول في الدلالة:**

يشير **عبد القادر سلامي** إلى أن اعتباطية الدال والمدلول تظهر في جانبين من البحوث اللغوية القديمة أولهما أن الرموز اللغوية اللفظية كانت أم كتابية لا صلة بينها وبين مدلولها، لأنها بشكلها العادي أو الطبيعي، وإنما تكمن الصلة على أساس العرف

الاجتماعي، وقد أورد **عبد القاهر الجرجاني** (ت471هـ) عبارة في هذا المجال عندما قال: فلو أو واضع اللغة كان قد قال ربض مكان ضرب لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد.[1]

ومعنى هذا أن العلاقة بين الدال والمدلول لا تخضع إلى تعليل، كما أنها لا يمكن أن تفسر، فهي علاقة كيفية، واللفظ عبارة عن مجموعة من الحروف منظومة ونظماً لا يعبر عن الدلالة الحقيقية المستقاة منها بالوضع أو الاصطلاح[2]، ومن هذا المنطلق ينكر **عبد القاهر الجرجاني** مبدأ التفاضل بين الألفاظ؛ لأن اللفظ لا يحمل دلالة طبيعية أو ذاتية من تركيب حروفه، وإنما الدلالة التي يحملها هي دلالة وضعية، فهل يتصور أن يكون بين اللفظ تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه اللفظة أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبتها على ماهي موسومة به حتى يقال إن رجلاً أدل على معناها من "فرس" على ما سمي به وحتى يتصور في الاسمين الموضوعين لشيء واحد أن يكون هذا أحسن نبأ عنه وأبين كشفاً عن صورته من الآخر، فيكون الليث مثلاً أدل من السبع المعلوم من "الأسد" وحتى ولو أردنا الموازنة بين اللغتين كالعربية والفارسية ساغ لنا أن نجعل لفظة "رجل" أدل على الآدمي الذكر من نظيره في الفارسية، ويدعم هذا ما انتهى إليه البحث عند الدارسين المعاصرين الذين حاولوا تفسير العلاقة بين اللفظ والمعنى لتصاغ على يد **دي سوسير** de sausaure الذي قال باعتباطية الدليل اللساني والرابط بين الدال signifiant والمدلول signifie هو رابط غير معلل immotivé ففكرة أخت sœur غير مرتبطة بأي علاقة قرابة داخلية مع تتابع الأصوات التي تتكون منها الكلمة s–o–r التي تقوم بوظيفة الدال في اللغة الفرنسية[3].

[1]– عبد القادر سلامي، من أصول التفكير الدلالي عند العرب، ص 191.

[2]– عبد القادر سلامي، من أصول التفكير الدلالي عند العرب، ص 191–192.

[3]– المرجع نفسه، ص 192.

وثانيهما: أن أخذ الباحثين بمفهوم الاعتباطية أدى بهم إلى رفض مقولة **عباد الصيمري** وردهم إياها؛ لأن السبب الذي ذكره لا يسوغ له تعميم الحكم على ألفاظ اللغة كلها، على أن جهود العرب القدماء في مجال الدلالة تصب في مسارين كبيرين هما:

– المعجم العربي الذي بدأ برسائل ذات موضوعات دلالية، هي أشبه ما تكون بالحقول الدلالية champs sémantiques المعروفة حديثاً وقد حفل هذا الجانب بالكثير من مسائل الدلالة الحقيقة والمجاز والعام والخاص والمشترك والتضاد والمترادف ونحو ذلك، وكانت معاجم المعاني ثمرة لهذا التطور في التصنيف المعجمي.

– وثمة مسائل دلالية أخرى درست درسا نظريا على نحو مغاير لما مر بنا آنفا، فقد عني **إبن جني** في الخصائص و**إبن فارس** في الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، و**الثعالبي** في فقه اللغة وسر العربية و**السيوطي** في المزهر بالعديد من تلك المسائل كالحديث في نشأة اللغة ودلالة ألفاظها والكلام على أنواع اللغة من حيث المعنى، وبحثوا في مصادر هذه المعاني المشتركة والمترادفة والمتضادة، وفطنوا إلى عمل الزمن في اكتساب ألفاظها معانيها الثانوية، كما درسوا العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى من حيث الأصوات والأبنية الصرفية وشغلوا بدراسة الإشتقاق وأنواعه، وتوسعوا فيه وتناولوا أقسام الكلام، وأنواع كل قسم ووظيفة كل نوع وأثر أجزاء الجملة بعضها ببعض (العامل) وترتيب أجزاء الجملة (التقديم والتأخير، والصدارة في الكلام) وما إلى ذلك من ميادين علم النحو فكان لهم فضل السبق في التنبيه على ما تعارف عليه المحدثون من أنواع الدلالات: الصوتية، الصرفية والنحوية والمعجمية والاجتماعية والدلالة السياقية، والتمييز بين الدلالة المركزية والدلالة الهامشية، كما تضمنت بحوثهم أفكار مبتكرة كمعنى المعنى والسياق والمقام وأثر المشاعر النفسية في تغيير المعنى[1].

[1]– عبد القادر سلامي، من أصول التفكير الدلالي عند العرب، ص192– 193.

وعلى العموم، فإن للغويين العرب القدماء جهوداً صبت في مسارين كبيرين:

1-معجم العربي بقسميه اللفظي والمعنوي، والمخصص **لإبن سيده** واحد من هذه المعاجم اللغوية التي عنيت بتصنيف الألفاظ حسب معانيها.

2-علم المعاني وقد درسه باستفاضة البلاغيون في شروح الشعر والنقد والإعجاز والبلاغة، ففي شروح الشعر اهتم الشراح بقضية اللفظ والمعنى، كما تطرقوا إلى بحث الحقيقة والمجاز وغيرهما، وتضم الكتب التي تناولت الاعجاز القرآني الكثير من المسائل الدلالية كالترادف والفروق وصفات الألفاظ، ونحوها كما نجد ذلك عند **الرماني** (ت384 ه) والنكت في اعجاز القرآن وعند **الخطابي** (ت388ه) في بيان اعجاز القرآن وعند **الباقلاني** (ت403ه) في اعجاز القرآن، غير أن أبرز دارس لعلم المعاني هو **عبد القاهر الجرجاني** (ت471 ه) ولا سيما في كتابه "دلائل الاعجاز" فقد تعرض للعلاقة بين الدال والمدلول وانتهى إلى أن الصلة بينهما اعتباطية غير معللة، ونظر في معاني المفردات ومعاني التراكيب والنظم، وفطن إلى دور السياق والمقام في الوقوف على الاعجاز القرآني، وفهم النصوص الأدبية اعتماداً على أن اللفظة وحدها ليست ذات قيمة إلى أن يأتي التركيب أو الأسلوب بتحديدها.[1]

وعلى ضوء ما سبق نؤكد على ما قاله **عبد القادر سلامي** في ظهور قضية اعتباطية الدال والمدلول في الدلالة في الدراسات اللغوية القديمة.

[1]- عبد القادر سلامي، من أصول التفكير الدلالي عند العرب، ص 193-194.

2-الخلفيات المعرفية الحديثة:

2-1- الإرث الألسني (السوسيري):

لقد أشاد **بشيرتا وريريت** بدور الإرث الألسني في نشأة النقد السيميائي؛ حيث لا يمكن لأي أحد أن ينكر أثر المد الألسني في الاتجاهات النقدية المعاصرة سواء كانت بنوية أو سيمائية أو أسلوبية أو تفكيكية، والذي يعنينا هنا هو الأثر "الألسني في الدائرة السيميائية المعاصرة فترى إلى أي مدى كانت السيميائية وريثة شرعية للحقل الألسني؟[1]

إن النقد السيميائي كنشاط فكري خاص، يسعى دوماً إلى تعزيز أرضيته تعزيز ألسنياً، وذلك بهدف انتاج معرفة جمالية عن طريق تخصيصها بموضوعها الذي هو نصوص أدبية، وبيد أن هذا التخصيص يبقى متحجماً ومتقزماً إن لم يتخذ من الدرس الألسني دعامة له، ويتمظهر ذلك نظرياً وعملياً في تأثر الدرس السيميائي بالنظرية اللغوية السوسيرية، حيث أضحى حديث **سوسير** عن ثنائية "الدال والمدلول" والعلاقة بينهما، وكذا خطية الدال والآنية (الوصفية) ومهمة اللساني في اعتماده على مبدأ الثنائية للظاهرة اللغوية(لغة /كلام)، (اختيار/ تأليف)، (داخل/ خارج)، (صوت / معنى)، (واقع/ خيال) ، (حضور / غياب)، وكذا المحايثة، كل هذه المسائل كانت بمثابة المقدمات النظرية التي استثمرتها المناهج النصانية في رحلتها وترحالها إلى العوالم الداخلية للنص الأدبي، والسيميائية تأتي في طليعة المناهج النقدية المستثمرة، ويتجلى ذلك في تركيزها على القطب الداخلي للنص، فلاريب إذن من اضفاء صفة الألسنية على هذا النقد.[2]

---

[1]- بشير تاوريريت، أبجديات في فهم النقد السيميائي مفاهيم واشكالات محاضرات الملتقى الوطني الثاني، السيمياء والنص الأدبي جامعة محمد خيضر بسكرة 15- 16 أفريل 2002، ص193.

[2]- بشير تاوريريت، أبجديات في فهم النقد السيميائي مفاهيم واشكالات محاضرات الملتقى الوطني الثاني، السيمياء والنص الأدبي جامعة محمد خيضر بسكرة 15- 16 أفريل 2002، ص 194.

لا يختلف اثنان على أن **دي سوسير** هو مؤسس العلوم اللسانية الحديثة وهذا ما يؤكد عليه **محمد فليح الجبوري**؛ حيث عد أباً لها دون منازع، وعلى يده وصل الدرس الألسني إلى أوج نضجه، وما المحاضرات التي تركها بين يدي طلابه إلا عصارة جهد على مدى طويل، ونشرت بعد وفاته في كتاب حمل عنوان "علم اللغة العام" وغدا مرجعاً لكثير من الباحثين في مختلف الاختصاصات سواء أكانت لغوية أم أدبية، بل حتى اجتماعية ونفسية.[1]

ولعل سبب ذلك يعود إلى أن **سوسير** تناول اللغة بوصفها أداة اتصال فحاول الوقوف على ماهية تكوين العلامة اللغوية، وعلى ماهية تكون اللغة ذاتها وفقاً للثنائيات المطروحة في نظريته، فجاء البحث الألسني واسعا ومرنا يسمح بتوظيفه في دراسة الميادين الأخرى، والأمر الآخر هو سعي النقاد إلى شرعنة هذه المناهج عن طريق اعتمادها ما توصل إليه دي **سوسير** من نتائج، ولو كان ذلك يتطلب لي أعناق النص، فجل المناهج النقدية الحديثة تعتمد أطروحات **سوسير** في البحث الألسني سواء وافق ذلك النص السوسيري أم لا، وسنعرض ما أفاد به **سوسير** حقل السيميائية.[2]

يذهب جل النقاد إلى أن **سوسير** أول من تنبأ بعلم العلامات عندما قال ويمكننا أن نتصور علما موضوعه دراسة حياة الإشارات في المجتمع، مثل هذا العلم يكون جزءاً من علم النفس الاجتماعي، وهو بدوره جزء من علم النفس العام، وسأطلق عليه علم الإشارات sémiologie ويوضح علم الاشارات ماهية مقومات الإشارات، وماهية القواعد التي تتحكم بها، ولما كان هذا العلم لم يظهر إلى الوجود إلى حد الآن، لم يمكن التكهن بطبيعته وماهيته، ولكن له حق الظهور إلى الوجود، فعلم اللغة هو جزء من علم الإشارات العام،

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في النقد السرد العربي الحديث، ص52.

[2]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في النقد السرد العربي الحديث ، ص52.

والقواعد التي يكتشفها هذا العلم يمكن تطبيقها على علم اللغة... وتقع على علماء النفس مسؤولية تحديد الموضع الدقيق لعلم الإشارات[1].

قبل تناول النص السوسيري يجب التنبيه على أن اتفاق أغلب النقاد على أن **سوسير** أول من تنبأ بالسيميولوجيا، أمر به حاجة إلى النظر لسببين: الأول أن أغلب الفلاسفة قد تناولوا العلامة من وجهة النظر الفلسفية في نظرية المعرفة، فكل كتاب في الفلسفة لا يخلو من فصل في العلامة، ولعل التاريخ الفلسفي زاخر في تناول العلامات ابتداء من **أفلاطون** وصولاً إلى **كانط**، والأخر أن الفيلسوف الأمريكي **ساندرس بيرس** وضع صياغته الأولى لنظرية في العلامات في عام (1867- 1868) في حين أشار **سوسير** إلى موضوع العلامة في الدرس الثاني من دروس علم اللغة العام عامي (1908- 1909)[2] رغم أن الفكرة كانت سابقة على ذلك التاريخ، ويمكن القول قبل عام 1901، اذا نحن أخذنا برأي **أدريان نافيل** adrian naville ومن ثم فإن سبق سيميوطيقا **بيرس** على سيميولوجيا **سوسير** شيء لا يناقش[3].

وإذا لم يكن هناك من اتصال بين فكر الرجلين، فهذا لا يعطي الحق أن تطلق الأحكام دون تدبر واستقراء دقيق لتاريخ العالمين.[4]

أما **عبد القادر بلعباس** يرى أن **دي سوسير** (1857، 1913) رغم كونه لم يوظف السيميائية في كتاباته إلا أننا نستشف ايحاء الرجل، بظهورها كمنهج نقدي سيكتب له النجاح والتفوق مستقبلاً، وذلك حين أشار إلى السيميولوجيا أثناء تعريفه للسان قائلاً: "إن اللسان نسق من العلامات المعبرة عن أفكار، وهو بذلك شبيه بأبجدية الصم والبكم، وبالطقوس

---

[1]- المرجع نفسه، ص 52-53.

[2]- نفسه، ص 53.

[3]- جيراردولودال، بالتعاون مع جووبل ريطوري، السيميائيات أو نظرية العلامات ترجمة عبد الرحمان بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع ط2، سوريا، 2011، ص42.

[4]- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في النقد السرد العربي الحديث، ص53.

الرمزية وبأشكال الآداب والإشارات العسكرية، إلا أنه يعد أرقى هذه الأنساق، ومن هنا تأتي امكانية البحث عن علم يقوم بدراسة هذه العلامات داخل الحياة الاجتماعية، ويمكن أن نطلق على هذا العلم السيميولوجيا وستكون مهمته هي التعرف على كنه هذه العلامات، وعلى القوانين التي تحكمها، وبما أن هذا العلم لم يوجد بعد، فإننا لا نستطيع التنبؤ بالشكل الذي سيتخذه، إننا سنجد فقط حقه في الوجود، ولن تكون اللسانيات سوى جزء من هذا العلم، وسنطبق قوانينه التي سيتم الكشف عنها على اللسانيات"[1].

نستشف من هذا القول بأن: **سوسير** سيبشر بعلم جديد، أطلق عليه السيميولوجيا، سيتولى دراسة حياة العلامات، داخل الحياة الاجتماعية، ويمكن من تحليل أنساق ليست بالضرورة من طبيعة لسانية.

وبالتالي سيتسم بالشمولية، ولن تشكل اللسانيات إلا فرعاً من فروعه عكس ما ذهب إليه **بارث** حين اعتبر فضاءها أي "السيميولوجيا" أضيق من اللسانيات.

لقد ركز **سوسير** على اللسان، وعده أرقى شكل داخل العلامات على الاطلاق، وأنه الأداة الوحيدة لفهمها وتأويلها، ومعرفة طرق اشتغالها لذا وضعه في أعلى هرم التواصل، وتبادل الخبرات الإنسانية، والكشف عن قوانينه، واعتبرها هي نفسها التي تقود إلى معرفة قوانين الأنساق الأخرى وذكر من هذه الأنساق، الإشارات العسكرية، أبجدية الصم والبكم، وأشكال الآداب، والطقوس الرمزية.

"إن اللسان في نظر **سوسير** ليس كلمات تناسب وواقع الأشياء في العالم الخارجي، أي مجرد مدونة وكفى، إنما هو مؤسسة اجتماعية كالمؤسسات الأخرى، التي ابتكرها

[1]– بلعباس عبد القادر، بين سوسيرا وبورس، بحوث سيميائية مجلة علمية محكمة، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، ع5 و6 ماي 2009، ص 227–228.

المجتمع، فأودعها قيمة وأخلاقه، وفكرة وحضارته تختلف عنها، فقط في كونها سيرورة اجتماعية يصعب تحديد بدايتها ولا يمكن تصور نهايتها"[1]

لقد اعتبره تعاقداً اجتماعياً، وهذا ما جعله يشبه العلامة اللسانية بالقطعة النقدية، التي تسمح لنا من جهة، باقتناء بضائع ما، ومن جهة أخرى، بتحديد قيمتها داخل النظام النقدي الذي ينتمى إليه.

وفي سياق حديث **سوسير** عن اللسان، اعتبر العلامات أداة رئيسية في تحديد جوهره، وموقعه من الفعل الفردي والجماعي، بيد أنها لا تملك معنى بقدر ما تملك استعمالاً، ولا تربط بين اسم وشيء، بل تربط بين ما يطلق عليه الدال والمدلول.[2]

أما النص السوسيري المتقدم فهو ينطوي حسب **محمد فليح الجبوري** على جملة من الأمور:

– يذهب **سوسير** إلى امكانية تأسيس علم يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، فموضوع هذا العلم هو دراسة حياة العلامات، بشكل عام ومحيط هذا العلم هو الحياة الاجتماعية.

– يحدد **سوسير** هوية هذا العلم وانتماءه إذ جعله جزءاً من علم النفس الاجتماعي، الذي هو جزء من علم النفس العام، وقد اسند لعالم النفس مهمة تحديد المكانة الحقيقية لعلم الاشارات، وهذا يعني أن العالم الذي يختص بعلم النفس هو الذي يتبنى هذا العلم ويحدد معالمه وليس عالما آخر.[3]

– يتوقع **سوسير** من هذا العلم من أنه يمكننا من معرفة ماهية العلامة عن طريق الخوض في مكوناتها واستنباط القوانين التي تضبط علاقاتها ببعضها، وإن هذه القوانين ستكون قابلة

[1]– عبد القادر بلعباس، بين سوسير وبورس بحوث سيميائية، ص228.

[2]– المرجع نفسه، ص 229.

[3]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في النقد السرد العربي الحديث، ص53.

للتطبيق على علم اللغة اعتماداً على تصوره الذي يرى أن العلامة اللغوية هي النموذج المثال لعلم الإشارات.[1]

– ويرى **سوسير** أن هذا العلم لم يوجد بعد، وعدم وجوده يعني غياب التصور التام عن كينونته بوصفه علماً، إلا أنه يعطي شرعية وجوده كعلم وأن مكانه قد عيين بكونه جزءاً من علم النفس الاجتماعي، ويذهب إلى أن علم اللغة لا يعدو أن يكون جزءاً من هذا العلم العام (السيميولوجيا).

– ويبدو من التعريف أن **سوسير** يحق السيميولوجيا بعلم النفس الاجنتماعي وأنه يعترف بعدم وجوده، ولذلك قال يتعذر عليه أن يحدد ما سيكون مستقبلا، وأن القوانين التي سيكشفها هذا العلم يمكن أن يطبقها على اللغة، وستكون ذات فائدة له.[2]

وكان **دي سوسير** يتوقع أن السيميائية تسير باتجاه ضم اللسانيات حيث تصبح اللسانيات نطاقا فحسب، وهو نطاق جزئي هام، ولكنه نطاق ينتمي إلى علم أشمل هو علم العلامات العام.[3]

ووجد فريق آخر من الدراسين الذين رأوا أن مجال السيميائية هو دراسة العلامات التي تؤدي مهمة التواصل غير اللساني، وعلى رأس هؤلاء **اريك بويسنس** E.bwysness وجان **لويس بريتو** j.L.Priéto.

ورأى آخرون أن السيميائية تجمع بين دراسة أنظمة العلامات المختلفة اللسانية وغير اللسانية من حيث أن جميعها ينتهي إلى شكل تواصلي ذو وظيفة اجتماعية، مثل الشعائر والحفلات وصور آداب السلوك، وهذا بشكل من الأشكال هو اتجاه **ش.س.برس**؛ فهو الذي

---

[1]– المرجع نفسه، ص53–54.

[2]–نفسه، ص 54.

[3]– عبد المالك قجور، مبادئ في السيميائية، ط1، د/ن الجزائر 2013، ص16.

وسع من ميدان السيميائية التي رأى أنها تشمل كل ماله ارتباط بالنظرية العامة للعلامات، وهو لا ينظر إلى العلامات سوى من جانب وظيفتها المنطقية، فكل علامة تحيل على علامة ثانية، وهذه تحيل على علامة ثالثة وهكذا دواليك، في تسلسل لا نهائي للإحالات.

أما في فرنسا فقد تأسس المشروع السيميائي أصلا على رؤية سوسيرية، وكان في بداية الأمر منحصراً في اللغة لا يتجاوزها إلى للنطاق المعرفي للعلوم الإنسانية.

وقد دعا **رولات بارث** R.barthes سنة 1964 إلى ادماج السيميائية في اللسانيات العامة في مقال له بعنوان "عناصر السيميولوجيا"[1].

ولعل السؤال الذي يفرض نفسه أين السيميولوجيا في المنجز السويسري؟

إذا كان نفسه ينفي وجود هذا العلم ويلحقه بعلم النفس، ويحمّل عالم النفس مهمة إكتشاف حقيقته ويبدوا أن **سوسير** يفرق بين السيميولوجيا بوصفه علما مستقلا، وعلم اللغة، وإذا كانت مهمة كشف حقيقة السيميولوجيا تقع على عاتق عالم النفس حسب **سوسير** فإن مسؤولية اكتشاف سيميولوجية العلامة اللغوية تقع على عالم اللغة، وعليه أن يستفيد مما توصل إليه كشوفات عالم النفس الاجتماعي، وعلى هذا الأساس يمكننا تفسير قلة اشارات **سوسير** إلى السيميولوجيا في كتابه، ولعله يعتقد في داخله أنه يبحث في السيميولوجيا إلا من حيث علاقتها بعلم اللغة، فضلاً عن ذلك، أن هذا العلم الذي تنبأ **سوسير** بوجوده لم يكتشف بعد كي يوفر لعالم اللغة القوانين التي يستطيع عالم اللغة تطبيقها على البحث الألسني[2].

إن اعتراض **بيرس** على علم النفس هو السبب غير المباشر الذي دفعه إلى نوع من السوسيولوجيا يرتبط بالسيميوطيقا، كما ترتبط الذرائعية بالنقد الديكارتي، ولأن نظرية **بيرس**

[1] – المرجع نفسه، ص17.

[2]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في النقد السرد العربي الحديث، ص 54.

ليست نظرية نفسية ولأنها ترفض فاعل الخطاب le sujet duscours فإنها اجتماعية [1]. ولتوضيح ذلك، فقد دافع **بيرس** عن الطبيعة الإجتماعية للعلامة دائماً، ليس كما كان يفعل **سوسير** بمعارضة اللغة والكلام، بل بإقصاء فاعل الخطاب ببساطة، إن الأنا (le je) هي التي تتكلم لكن ما تقوله ليس ولا ينبغي أن يكون ذاتياً، إن الأنا هي مكان العلامات وهي بالأخص مكان المسؤولين، وهي مكان معزول بل بالعكس، هي مكان في حالة وكل حالة هي حالة اجتماعية.

وبمقابل نظرية **سوسير** فإن نظرية **بيرس** حول العلامات هي نظرية جمعية وملتزمة، وهذا التصور الجمعي والملتزم للعلامة يرجع _ إلى طبيعة نفسها للعلامة في سيميوطيقا **بيرس**.[2]

وهذا يفسر قلة ورود الإشارات إلى السيميولوجيا في النص السوسيري، مع توفر يقينية **سوسي**ر من أن (المشكل اللساني هو قبل كل شيء مشكل سيميولوجي) وأن اللغة هي ظاهرة سيميولوجية، لكن بها حاجة إلى من يكتشفها.

يذهب النقاد إلى أن **سوسير** هو صاحب نظرية في السيميولوجيا اعتماداً على تلك الإشارات القليلة التي وردت في كتابه، وسوف نقف على الهيكل العام الذي نعتقد أنه قدم للدرس السيميائي انجازاً في ميدان السيميولوجيا الألسنية.

وإذا كان **سوسير** قد بشر بميلاد علم جديد سماه بالسيميولوجيا أو الاعراضية في الستينات من هذا القرن دالاً في الوقت نفسه عن الفضاء الذي يتحرك فيه هذا العلم وهو دراسة حياة الرموز في رحاب الحياة الاجتماعية معرباً عن القوانين العامة التي تتحكم في هذه الرموز، ومشيراً في الوقت نفسه إلى أن موضوع اللسانيات الوحيد هو دراسة اللغة في

[1]– جيرار دولودال بالتعاون مع جوويل ريطوي، السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة عبد الرحمان بوعلي، ص 46–47.

[2]– جيرار دولودال بالتعاون مع جوويل ريطوي، السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة عبد الرحمان بوعلي، ص47.

ذاتها ولذاتها، هذه الإشارة السوسيرية تحولت في كتابات النقاد السيميائيين إلى موقف تبناه النقاد السيميائيون، ويتضح ذلك في دراستهم للأحداث اللغوية للنص وما تسخر به من عطاءات جمالية في سياق من العلاقات الإعتباطية والتي تفرض دلالات لا نهائية[1].

لعل النقاط السالفة الذكر قد أسهمت في اماطة اللثام على مجمل التداخلات الموجودة بين الحقل اللسني والحقل السيميائي، مما يؤكد للعيان ان السيميائية بتصوراتها المختلفة هي أطروحة ألسنية.[2]

لقد عاش كلا من **دي سوسير** و**بيرس** في نفس الفترة التاريخية تقريباً، ورغم أنهما لم يلتقيا، ولم يدرس أحدهما عن الآخر، إلا ان جل الباحثين، يجمعون أن معطياتها كانت متقاربة، ومنسجمة في الكثير من الأحيان، فكلاهما أسس لعلم السيميائية، انطلاقاً من الحديث عن العلامة وتصنيفاتها وميادين تنظيرها وتطبيقها، وكلاهما أسهم في انعاش الحركة النقدية والمعرفية في الغرب.[3]

أما جهود العلماء في مجال العلامات، فهي تنصب عامة في اتجاهين:

- المستوى الأنطولوجي ويعني بماهية العلامة أي بوجودها وطبيعتها وعلاقاتها بموجودات تشبهها أو تختلف عنها.[4]

- المستوى البرجماتي ويعني بفاعلية العلامة وبتوظيفها في الحياة العملية وقد برز في هذا الاتجاه الأمريكي **تشارلز بيرس** في حين برز في الاتجاه الأول **فرديناند دي سوسير**[5].

---

[1]– بشير تاوريريت، أبجديات في فهم النقد السيميائي، ص195.

[2]– بشير تاوريريت، أبجديات في فهم النقد السيميائي، ص 195.

[3]– عبد القادر بلعباس، بين سوسير وبورس، ص 227.

[4]– صالح مفقودة، السيميولوجيا والسرد الادبي محاضرات الملتقى الوطني الاول السيمياء والنص الادبي جامعة محمد خيضر بسكرة 7 – 08 نوفمبر 2000، ص320.

[5]– المرجع نفسه، ص321.

- فالعلامة إذن كلفظة موجودة منذ القديم وهناك إشارات لها في علوم اللغة والأدب والفلسفة... اما علم العلامات فهو حديث الظهور، وكان **دو سوسير** قد نبه إلى هذا العلم وبين أهميته حين قال يمكن أن نؤسس علماً يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، فيشكل هذا العلم جزءاً من علم النفس الاجتماعي وبالتالي جزءاً من علم النفس العام، وسنطلق عليه اسم علم العلامات او السيميولوجيا ... وسيمكننا علم العلامات من معرفة ماهية العلامات والقوانين المسيرة لها، ولا يعدو علم اللغة أن يكون قسماً من هذا العلم العام[1].

يتضح من خلال هذا القول ان **دي سوسير** تنبأ بالسميولوجيا ووضح الهدف من هذا العلم كما أشرنا سابقاً وهو دراسة حياة العلامات، واعتبر هذا العلم جزءاً من علم الاجتماعي، وبالتالي جزءاً من علم النفس العام، وقد عدد **دي سوسير** علم اللغة جزء أو قسما من هذا العلم العام ولكن الفرسي **رولان باث** قلب هذا التصور في ما بعد حيث اعتبر السيميولوجيا جزءاً من علم اللغة[2].

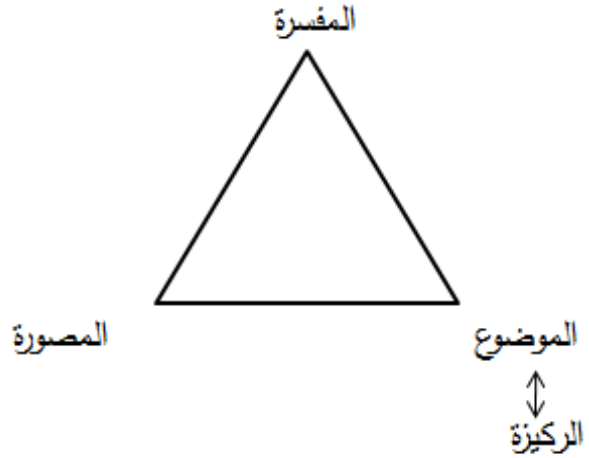
وسنعرض فيما يلي تصور العلامة عند مؤسسي السيميائية في العصر الحديث **دي سوسير وبيرس.**

1- تصور بيرس:

يقدم **ش.س.بيرس** وصفه للعلامة أيا كان نوعها، لغوية أو غير لغوية ضمن نموذج ثلاثي او لنقل في شكل ثلاثي، رغم أنه لم يقترح رسما بيانيا لذلك، فالكتاب هم الذين مثلوا

[1]- صالح مفقودة، السيميولوجيا والسرد الادبي محاضرات الملتقى الوطني الاول السيمياء والنص الادبي، ص 319.
[2]- صالح مفقودة، السيميولوجيا والسرد الادبي، ص 319.

لتصوره برسم شكل ثلاثي، ونحن نعيد تقديمه كما أورده **دانيال شاندر** مع استعمال المصطلحات العربية[1]:



إن العلامة كما تصوره **بيرس** وحدة ثلاثية المبنى غير قابلة للاختزال في عنصرين كما هو الشأن عند **دي سوسير**.

وتقوم العلامة من هذا المنطق، على التفاعل بين العناصر الثلاثة المكونة لها، وهذا التصور يقوم على الربط مع الظاهراتية كما يلاحظ **محمد السرغيني** الذي يوضح:

فالمصورة تتناسب مع المقولة الأولى (عالم الممكنات أو الكائن فلسفيا) والموضوع يتناسب مع المقولة الثانية (عالم الموجودات أو الوجود) والمفسرة تتناسب مع المقولة الثالثة (الفكر في محاولته تفسير الأشياء)[2].

[1]– عبد المالك قجور: مبادئ في السيميائية، ص 37.

[2]– عبد المالك قجور، مبادئ في السيميائية، ص 37–38.

والظاهراتية بمفهومها العام "هي مذهب من يحصر الواقع في الظواهر كما تحصل في التجربة الادراكية، وينكر أن يكون لها عماد يسمى الشيء في ذات الذي لا يمكن إدراكه، وهذا ما جعل **سعيد بنكراد** يقول إن الحقل الأساسي لتطبيق نظرية المقولات هو السيميائيات، فإذا كان الأول يحيل على الثاني عبر الثالث (النوعيات والأحاسيس تتجسد في وقائع عبر القانون أو قاعدة تسمح بذلك) فإن العلامة عند بورس تشتغل وفق نفس المبدأ: فالمثول يحيل على موضوع عبر مؤول."[1]

إن التفاعل بين عناصر العلامة الثلاثة يصنع ما أطلق عليه **بيرس** "السيميوزيس" semiosis أو "السمطقة" التي تعني سيرورة انتاج الدلالة أو ما يطلق عليه **امبرتو ايكو** u.eco عملية "توليد السيميائي"[2]

تحدث الفيلسوف الأمريكي **شارل ساندرس بيرس** (1839- 1914) عن "السميوز" واعتبره سيرورة تؤدي إلى انتاج الدلالة، ونسيجاً من العلامات يحدد هويتها مفهوم العلامة.[3]

لقد اعتبر **بورس** السيميائيات منطقاً، لكونها تتبنى طرقا استدلالية يستند إليها في الحصول على الدلالات وتداولها، وتبحث في الأصول الأولية للمعنى الصادر عن الفعل الإنساني كما ربطها بعمليات الإدراك التي تدفع بالإنسان إلى التحليق في عالم خارجي مليء بالمفاجآت، وألحق جميع أفعاله إلى احدى المقولات التالية[4] ويسمى **أحمد يوسف** هذه المقولات بمراتب الوجود.

المقولة الأولانية: وتشير إلى امكانية الفعل فقط، أي إلى حالة شعورية محتملة التحقق، فالإنسان السعيد كانت سعادته حالة شعورية محتملة قبل حدوثها.

---

[1]- المرجع نفسه، ص 38-39.

[2]- عبد المالك قجور، مبادئ في السيميائية، ص39.

[3]- عبد القادر بلعباس، بين سوسير وبورس، ص230.

[4]-المرجع نفسه، ص231.

المقولة الثانيانية: وتشير إلى التحقق الفعلي، أي ترجمة الأحاسيس إلى واقع ملموس.

المقولة الثالثانية: وتتمثل في القوانين التي يستند إليها في التعرف على الوقائع، وتجعلنا نؤول سلوكاً ما، باعتباره دالاً على السعادة، لا على التعاسة.

إن هذه المقولات الثلاث، تشير إلى سيرورة إدراكية غير مرئية، صاغها **بيرس** على النحو التالي : "أول يحيل على ثان عبر ثالث"[1] أي أن الأحاسيس تتجسد في واقع عبر قانون أو في قاعدة تسمح بذلك.

إذا كان **سوسير** يستبعد المرجع في تعريفه للعلامة، ويعتبره معطى غير لساني فإن **بورس** يعتبرها وحدة ثلاثية المبنى، تجسد ما تراه العين، ويتصوره الذهن، وينطق به اللسان، أي أنها تعبر عن تجربة انسانية شاملة متضمنة للأفعال والمعتقدات، والشكوك واليقين ولا تختصر في اللسان فقط[2].

ويوضح **عبد القادر بلعباس** الماثول والموضوع والمؤول، حيث يرى أن الماثول يقوم بنفس وظيفة الدال في المنظور السوسيري، أي تمثيل الشيء واعطائه مفهوما معينا وبدونه لا يمكن أن يتحول الشيء إلى علامة، فالمتوالية الصوتية ش/ج/ر/ة هي ماثول يحيل على المؤول /شجرة/ أي على مفهوم الشجرة، وأما الموضوع فهو الشيء الممثل سواء كان هذا الشيء واقعياً، أو صورياً أو قابلاً للتخيل، ويلخص **بورس** هذه الملاحظة قائلاً إن موضوع العلامة هو المعرفة التي تفترضها العلامة، لكي تأتي بمعلومات اضافية، تخص هذا الموضوع".

[1]– عبد القادر بلعباس، بين سوسير وبورس، ص 231.

[2]– المرجع نفسه، ص 232.

ويوضح هذا التعريف بقوله إذا كان هناك شيء يحدد معلومات دون أن تكون لها أدنى علاقة بما يعرف الشخص لحظة بثها، فإن الأداة الحاملة لهذه المعلومات، لا تسمى علام".

أما المؤول فهو الصورة الذهنية التي نملكها عن الشيء الموجود في العالم الخارجي، فهو شبيه المدلول في تصور **سوسير** أنه هو الذي يرسخ العلامة، ويحدد صحتنا، ويجعل الانتقال من الماثول إلى الموضوع أمراً ممكناً، أي أنه عنصر توسطي بينها، وهو ما يعني أن العلاقة بين الانسان ومحيطه معرفة مسبقة[1].

وبناء عليه يمكن تحديد المؤول، بأنه تكثيف للممارسات الإنسانية أو مجموعة الدلالات المنتجة، من خلال سيرورة سيمائية سابقة، ومثبتة داخل النسق أو ذاك.

ويميز **بيرس** بين ثلاثة مستويات للمؤول، أما الأول، فيطلق عليه المؤول المباشر، وهو معنى العلامة في حد ذاته، وما تدل عليه وعناصر تأويله لا تعدو أن تكون ضمنها بشكل مباشر، وأن وظيفته الانسانية هي اعطاء نقطة الانطلاق لكل دلالة، فالجملة الآتية بحيرة عظيمة، تدرك باعتبارها إحالة على أرض منخفضة شائعة، تجمعت بها كمية هائلة من المياه، تصدر عن روافد وهي موصوفة بالعظمة.

أما المستوى الثاني، فيطلق عليه المؤول الدينامي أي المستوى الذي يأخذ فيه التأويل كل أبعاده، ويتحول إلى سيرورة لا متناهية من الدلالات فالعالم بأشيائه الصوري منه والواقعي يشتغل في نظره كعلامات وأنه لا يدرك إلا باعتبار سلسلة من الأنساق المتداخلة بينها.[2]

[1]– عبد القادر بلعباس، بين سوسير وبورس، ص 232.

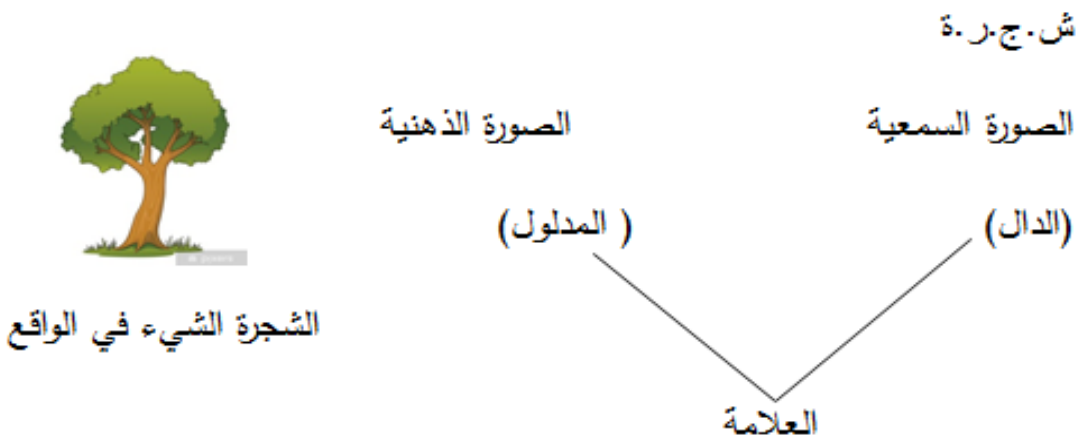
[2]– المرجع نفسه، ص233.

أما المستوى الثالث تتمثل وظيفته الأساسية في التخفيف من حدة القوة التأويلية للمؤول الدينامي، وكبح جماحها، فإذا كان هذا الأخير يتصرف بنوع من الفوضى، بإدخال الدلالة داخل سيرورة اللامتناهي، وكان ولابد من الاستنجاد بمنطق آخر للتدليل، يرسي تقليد الحذف والانتقاء، فإن المستنجد به هو مؤول المستوى الثالث، وقد أطلق عليه **بورس** المؤول النهائي، وهو الذي يتحول من خلاله اللامحدود إلى حركة محكومة بقوانين محدودة، تجعل كل إحالة مندرجة ضمن منطق خاص للإحالة[1].

2- تصور دي سوسير:

عرف **دي سوسير** العلامة اللغوية بكونها وحدة مكونة من حدين مترابطين متلاحمين يشبهان في ترابطهما، وجه الورقة وقفاها، بحيث لا يمكن تصور حضور أحدهما دون حضور الثاني، أما أحدهما فهو صورة سمعية تحدثها في دماغ المستمع المتوالية من الأصوات التي تلتقطها أذنه، وقد اطلق عليه الدال signifiant وأما الآخر، فهو صورة ذهنية (مفهوم) تستدعيها إلى ذهن هذا المستمع الصورة السمعية، وقد أطلق عليه المدلول signifie [2].

على هذا الأساس يمكن ملاحظة أن العلامة كما تصورها **دي سوسير** حقيقة نفسية بحديها الاثنين الصورة السمعية أو الدال والصورة الذهنية أو المدلول وها هو رسم بياني لنموذج العلامة لديه كما قدمته **سيزا قاسم** مشكلة إياه انطلاقاً من الرسمين اللذين قدمها **دي سوسير** ذاته في سبل توضيح تصوره لكيان العلامة اللغوية.



يتبين من هذا الشكل أن **دي سوسير** في تصوره للعلامة اللغوية لم يهتم سوى بالحدين الوسطين المكونين للعلامة من حيث كيانها من بين العناصر الأربعة المقدمة فيه، وبذلك يكون **دي سوسير** قد استبعد ما تحيل عليه العلامة (العلاقة بين الصورة السمعية والصورة الذهنية) في العالم الخارجي.[1] وسبب هذا الاستبعاد برأيه أن العلامة لا تربط بين الشيء والإسم، ولكنها تربط بين لصورة الذهنية والصورة السمعية، ثم إن الصورة السمعية برأيه ليست المتوالية الصوتية في العالم الخارجي (التي لها كيان فيزيائي) ولكنها الأثر النفسي لها.

إن **دي سوسير** حينما يفصل بين العلامة بحديها الاثنين المذكورين وما تحيل عليه في العالم الخارجي، إنما يخط خطا شبه فاصل بين عالم العلامات وعالم الموجودات في الواقع، ويحصر عمليات تولد الدالة في الربط داخل النطاق النفسي بين الدال والمدلول.[2]

ولقد ولد استبعاد **دي سوسير** المرجع في تصوره للعلامة ردود أفعال مؤيدة وردود أفعال منتقدة (معارضة)، واتجه النقاش حول هذا الموضوع إلى مسألة الحقيقة والبطلان، فنضرب مثالاً واحد عن ردود الأفعال المؤيدة لموقف دي سوسير ومثالاً آخر عن ردود الأفعال المنتقدة له[3].

[1]– عبد المالك قجور، مبادئ في السيميائية، ص 27.

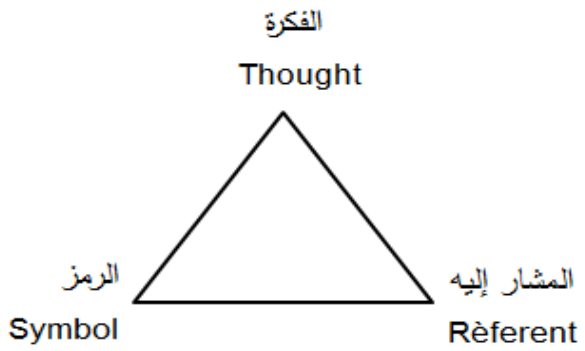
[2]– المرجع نفسه، ص 28.

[3]– نفسه ، ص 29.

من الكتاب الذين أيدوا **دي سوسير** في استبعاده المرجع في تصوره للعلامة **امبرتو ايكو** u.ECO الذي رأى في مضمار حديثه عن العلامة وعلم العلامات أن عالم السيميوطيقا لا تهمه مسألة الصدق والكذب أو مسألة الحقيقة، وهو لأجل تبرير موقفه يعمد إلى ضرب مثال بشخص يتلقى خبراً مؤداه أن داره تحترق، حيث أن رد فعله سيكون الإنطلاق نحو داره للتحقق من صحة الخبر، وهذا برأي **ايكو** ليس للسيميائي شأن به، فما يهمه هو: هل فهم الشخص قول المخبر، وما هي الشروط التي تتوفر ليفهم قوله؟ ومن هذه الشروط الشفرة التي ينبغي أن تكون مشتركة بين المرسل والمرسل إليه[1].

ومن الكتاب الذين خالفوا **دي سوسير** في مسألة استبعاده المرجع في تصوره للعلامة الكاتبان **إيفور أرمسترونغ رتشاردز** richards.L.A و**شارل كي أوجدن** C.K.Ogden في كتابيهما "معنى المعنى" the meaning of meaning فلقد اعترض هذان الكاتبان على حصر **دي سوسير** إطار العلامة في كونها حقيقة نفسية، تحدث بين الصورة السمعية والصورة الذهنية عازلا إياها عن العالم الخارجي، وهما يقولان: إن نظرية العلامات عندما أغفلت تماماً الأشياء التي تحل العلامات محلها قطعت أواصرها بمناهج الإثبات العلمي" ثم يقولان "اننا في حاجة إلى نظرية تربط بين الكلمات والأشياء التي ترمز إليها هذه الكلمات من خلال وساطة الأفكار بمعنى أننا في حاجة إلى تحليلين منفصلين تحليل يتناول العلاقة بين الكلمات والأفكار، وتحليل يتناول العلاقة بين الأفكار والأشياء"[2].

وقد قدم الكاتبان تصورهما للعلامة اللغوية في هذا الشكل الثلاثي:



[1]– عبد المالك قجور،

[2]–المرجع نفسه، ص (

وقد أبرز الكاتبان في تصورهما للعلامة ضمن نموذج ثلاثي نوع العلاقة التي تربط بين العناصر الثلاثة: الرمز الدال عند **دي سوسير**، والفكرة المدلول عند **دي سوسير**، والمرجع أو المشار إليه لا يوجد في نموذج **سوسير**.[1]

بهذا يكون الكاتبان في تصورهما للعلامة اللغوية قد أخذا في الحسبان ما تحيل عليه العلاقة بين الرمز والفكرة في العالم الخارجي أو في الواقع، ذاك الذي أطلقا عليه المرجع أو المشار إليه.

لقد أكد **دي سوسير** في حديثه عن العلامة اللغوية على مبدأ الاعتباطية، فقد آمن بهذا المبدأ ودافع عنه بشدة حيث يلح في كلامه عن اللغات الطبيعية على عدم وجود رابط طبيعي بين الصورة السمعية والصورة الذهنية أوبين الدال والمدلول، إنه يشدد في كلامه عن اللغات الطبيعية على أنه لا يوجد ارتباط فطري أو أساسي أو شفاف بين الدال والمدلول بين الصوت أو شكل الكلمة والمفهوم الذي يرجع إليه، فالعلاقة بين الدال والمدلول خاضعة لإتفاق المجموعة الإجتماعية لكل لغة، من حيث ينشأ مفهوم الشفرة التي هي نظام ترميزي ناتج عن الاصطلاحات أو التواضع، وإذا كان الأمر غير ذلك برأي **دي سوسير** لتساوت تسميات الأشياء في جميع اللغات، أي لما كانت فوارق في تسمية الأشياء، واختلاف اللغات.[2]

[1]– عبد المالك قجور، مبادئ في السيميائية، ص30–31.

[2]– المرجع نفسه، ص 31.

ومع ذلك، فهو يعترف بوجود نوع من التبرير في العلاقة بين الدال والمدلول في بعض الأمثلة التي منها الأعداد المركبة مثل العدد تسعة عشر حيث يرى **دي سوسير** أننا إذا اعتبرنا تسعة لوحدها وعشرة لوحدها في العدد "تسعة عشر" فإنهما يتساويان في الاعتباطية المطلقة مع مائة مثلاً أما إذا أخذناهما معاً "تسعة عشر" فإن سنكون أمام اعتباطية نسبية[1].

لأنها توحي إلى الذهن بالعنصرين اللذين تتكون منهما، كما توحي إلينا بعناصر أخرى مرتبطة بهما مثل تسعة وعشرة وثمانية عشر وغيرها وهذه حالة من حالات التبرير النسبي، وهو الحال ذاتها إزاء الكلمة الفرنسية poirier (شجرة الاجاص) التي تذكرنا بالكلمة البسيطة poire اجاص" كما تذكرنا اللاحقة اللسانية "ier" التي تدل على الشجرة (شجرة الكرز) cerisier (شجرة التفاح).

أما بخصوص الكلمات المحاكية للصوت الحقيقة التي قد يتحجج بها البعض للقول بعدم اعتباطية العلامة اللغوية مثل: (glou–glou) (tac–tac) (غر–غر) (بق–بق) وغيرها، فيرى **دي سوسير** إنها ليست قليلة العدد فحسب بل إن اختيارها أمر اعتباطي بمقدار فهي آخر المطاف، ليست سوى محاكاة تقريبية، ومن ثم شبه تواضعية لبعض الأصوات.[2]

ويؤكد **سوسير** أن العلاقة بين الدال والمدلول هي علاقة اعتباطية غير قائمة على منطق عقلي، وأن اختيار الأصوات لا تفرضه مقتنيات المعنى، وإنما يفرضه العرف، وثقافة المجتمع، ففكرة ليث لا تربطها أية علاقة داخلية مع المتوالية الصوتية / ل، ي. ث التي تعتبر دالا لها، فبالإمكان التمثيل لها بأية متوالية صوتية أخرى.[3]

---

[1]– عبد المالك قجور، مبادئ في السيميائية، ص 32.

[2]–المرجع نفسه، ص32.

[3]– عبد القادر بلعباس، بين سوسير وبورس، ص229.

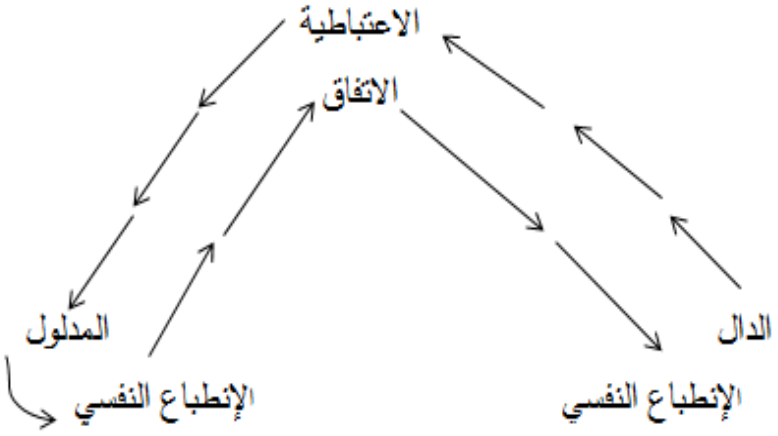
إن مفهوم الإعتباطية عن **دي سوسير** من المفاهيم الأساسية التي أقرها في دروسه وأولاها أهمية خاصة، فلقد دافع دفاعاً شديداً عن هذا المبدأ الذي قال به في اللغة التي هي في تصوره– كما عبر عن ذلك **دانيال شاندلر** الذي يأخذ الفكرة عنه "عقد نمضيه عند الولادة دون مناقشة بنوده".

إن العلاقة بين الدال والمدلول هي علاقة اعتباطية حسب **دي سوسير**، أي أنها علاقة لا تخضع للعلية أو السببية بل تقوم على تصور أن الاشارات جزء من الحياة الإجتماعية، إذ تتفق أمة ما فيما بينها على أن هذه المسميات هي لتلك الموجودات من غير وجود علاقة رابطة بين الدال والمدلول، فدلالة القمر هي دلالة اتفقت عليها الجماعة فأصبح هذا المكون الصوتي يدل على ذلك الموجود في السماء من دون أن تكون هناك علاقة بين الحروف "ق. م.ر" والشيء المادي الموجود في كبد السماء، ولعل من نافلة القول: إن سوسير عندما يصف علاقة الدال والمدلول بالإعتباطية إنما يتحدث عن السواد الأعظم من العلامات وليس كل العلامات[1].

فبعضها بخضع للعلاقة الطبيعية والسببية وغيرها، بيد أن هذه العلاقة تحتل نسبة قليلة جداً مقارنة بالعلامات التي تخضع للإعتباطية، ويبدو أن ثمة علاقة بين اعتباطية الدال والمدلول والسيميولوجيا، بل نجد أن **سوسير** يذهب إلى أن الموضوع الأساس للسميولوجيا سيكون دراسة الأنظمة التي تقوم على اعتباطية العلامة، فإذا ما توفرت هذه الإعتباطية فإنها سوف تحقق الحالة المثالية للعملية السيميولوجية لأنها ستكون قائمة على عادات جماعية متفق عليها، وإذا كان هذا الإسرار من قبل **سوسير** على العلاقة الإعتباطية، فإن اللافت للنظر أن نجده يغيب الجانب الاجتماعي الذي يوفر اعتباطية العلامة من تقسيمه، فيقتصر على التقسيم الثنائي ولا نجد مبرراً حقيقياً لهذا التغييب المتعمد لعنصر

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص56.

الحالة الخارجية[1]، ولعل سبب ذلك يعود إلى تأكيده على الجانب النفسي الذي يقوم عليه كل من الدال والمدلول، وربما ظن أن التعارض سيكون قائماً إذا ما تجرأ وأدخل عنصراً ثالثاً هو المرجع، سواء رضي **دي سوسير** أم أبى فإن حقيقة فهمه للعلامة اللغوية تقوم على ثلاثة جوانب: الدال والمدلول والمرجع، والمرجع هنا يمثل اعتباطية العلامة، لأن خلق الإنطباع النفسي سواء كان للدال أو المدلول لا يمكن لأي طرف أن يقوم به سوى العرف الإجتماعي اللغوي، وبذلك يتم الفهم الحق لطبيعة العلاقة بين مكونات العلامة عن طريق التقسيم الثنائي، ويمكننا رسم خطاطة تمثل علاقة الدال والمدلول والمرجع (الإعتباطية).



فالدال يرسل إلى المدلول عن طريق اتفاق الجماعة، وكذلك المدلول يرسل إلى الدال عن طريق اتفاق الجماعة أيضاً اللذي يولد اعتباطية العلامة فيكون للبعد الثالث أهمية كبيرة في نظرية **دي سوسير**[2].

وإذا كان **دي سوسير** قد قال بمبدأ اعتباطية العلامة اللغوية فإن بعض الكتاب قالوا بغير ذلك، من هؤلاء الكاتبان **رتشاردرز وأوجدن** اللذين سبق ذكرهما؛ فلقد رأى هذان الكاتبان

[1]– المرجع نفسه، ص56.

[2]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 57.

أن العلاقة بين الرمز (الدال عند دي سوسير) والفكرة (المدلول عند دي سوسير) هي علاقة سببية وليست اعتباطية كما أقرها **دي سوسير** – ودليلهما في ذلك أن الفكرة تمثل العلة في وجود الرمز، فلولا الأفكار لما كانت الرموز كما ان الرمز بعلاقة عكسية يثير الفكرة في الذهن، ذهن من توجه إليه العلامة، وبهذا يكون منطلق الكاتبين في تحججهما على وجود علاقة سببية تذهب في اتجاهين متعاكسين بين العنصرين، الرمز والفكرة (من الرمز إلى فكرة ومن الفكرة إلى الرمز) منطلقا سيكولوجيا، بمعنى أننا نضع الرموز للأفكار لأننا نريد أن نؤثر على الآخر.[1]

كما رآى الكاتبان أن العلاقة بين المرجع أو المشار إليه (الشيء الموجود في الواقع) والفكرة هي أيضاً علاقة سببية، بمعنى أن الشيء الموجود في الواقع هو الذي يستدعي الفكرة في الذهن، وهذا يلتقي مع تصور علماء اللغة العرب القدماء الذي بموجبه أننا نضع الرموز للأشياء بعدما ندركها، أي أننا ندرك الشيء أو نكوّن عنه تصوراً ثم نضع له إسماً.[2]

وقد اتخذ بعض الكتاب موقفاً توفيقياً من مسألة الإعتباطية هذه منهم **كلود لينفي شتراوس** L.Strauss الذي يقول: "تكون العلامات فلا يمكن تغيير العلامة اعتباطياً بعد أن تدخل الوجود التاريخي" ولا ريب ان **ليفي شتراوس** C.L.Strauss يكون قد راعى في اتخاذه هذا الموقف البعد الاجتماعي الثقافي للعلامة اللغوية، إذن اللغة التي كما يقول **دي سوسير** "لا توجد إلا بمقتضى نوع من التعاقد يتم بين أعضاء المجموعة البشرية الواحدة" وهذا يعني أن الفرد الواحد غير قادر على أن يخلقها أو على أن يحورها"[3].

ويمكن حصر أهم أفكار **سوسير** حول السيمياء بكون العلامة اللغوية لا تقرن شيئاً باسم، وإنما تقرن مفهوماً بصورة سمعية، والمقصود بالصورة السمعية ليس الصوت المسموع،

[1]– عبد المالك قجور، مبادئ في السيميائية، ص33.

[2]– المرجع نفسه، ص 33–34.

[3]– نفسه، ص34–35.

أي الجانب المادي، بل الأثر النفسي الذي يتركه الصوت في المتلقي، ومن جهة أخرى فإن اللغة منظومة من العلامات تعبر عن فكر ما، أما الكلام فهو عمل فردي للإرادة والعقل، كما ينظر إلى أن الدليل يفهم داخل تصور عام، وهو النظام (system) الذي يتضمن مفهوم الكل والعلاقة، حيث لا يمكن فهم وظيفة الأجزاء، إلا في علاقتها الاختلافية مع الكل.[1]

ولعل أهم ما نبه إليه **سوسير** هو ان السيميائية منهج شامل للغويات، وجميع أنواع التعبير، وجعلها أصلاً للسانيات، الإشارة في النموذج السوسيري هي الكل الذي ينتج من الجمع بين الدال والمدلول، فكان ذلك مصدر إشارات تعجب وتساؤل لدى من عاصره من النقاد وتبعه، وهو ما أثار الكثير من المقالات والأبحاث النقدية التي حاولت تفسير تنبه **سوسير** لهذه الأهمية، وشرح حقيقة شمولها، أو اقتصارها على أن تكون فرعاً من اللسانيات، كما حصل مع **بارث** الذي اندفع إلى قلب المعادلة التي جاء بها **سوسير** ليؤكد أن السيميولوجيا كيفما كانت قوتها وشموليتها لا يمكن أن تكون سوى جزء من اللسانيات لا العكس، كما تصور **سوسير**، فالأساس في الوجود هو اللسان ولن يكون في مقدورنا أن نقوم بأي شيء خارج اللسان.[2]

ومن المهم الإشارة إلى أن العلامة في مفهومها لدى **سوسير** و**بارث** لا تفارق انتماءها اللغوي اللساني، بسبب تركيزهما على البنية التركيبية للجملة والمستوى السطحي، وبالتالي فإن السيميائية لديهما دلالية تقوم على العلاقة بين العلامة والدال والمدلول[3].

[1]– آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية منشورات ضفاف منشورات الاختلاف دار الأمان الرباط، ط1 1433 هـ، 2012 م، ص 32-33.

[2]–المرجع نفسه ، ص 33.

[3]–نفسه، ص 33.

فالعلامة مكونة من دال ومدلول، يشكل صعيد الدوال صعيد العبارة وبشكل صعيد المدلولات صعيد المحتوى[1].

في حين ان **بيرس** أضاف للدال والمدلول البعد الثالث المرجع فانتقلت السيمياء لدراسة العلامة بصفتها علامة ثقافية، لكن معظم طروحاته بقيت ذات طابع نظري، إلى أن جاء **غريماس** وفريقه، فطوروا مقولات **بيرس** و**سوسير** معاً.[2]

ومما أقره **دي سوسير** بخصوص العلامة اللغوية أنها تتميز بالإحتلاف أو التباين فلقد أضاف **دي سوسير** ميزة أخرى إلى العلامة اللغوية فضلاً عن ميزتها الاعتباطية، إنها ميزة الاختلاف أو التباين، الميزة المتعلقة بمفهوم القيمة اللغوية، أي ما يمنح العلامة اللغوية القدرة على تأدية وظيفتها الدلالية، فهل القيمة هي الدلالة؟ وإذا لم تكن كذلك فأين تكمن هذه القيمة؟[3].

إن القيمة ليست الدلالة ولكنها هي التي تنتج الدلالة، ولكن أين تكمن القيمة؟ هل تكمن في الدال أم في المدلول، أم أنها لا تكمن في هذا ولا في ذلك، وإنما تكمن في شيء آخر؟

في مناقشته لهذه المسألة، مسألة القيمة اللغوية، رأى **دي سوسير** أن للعلامة اللغوية مظهرين: مظهر مادي الدال ومظهر مفهومي المدلول ورأي أن الدال لا يكتسب دلالته من قيمته المادية وإنما يكتسبها من قيمتها التمييزية، أي من الفروق التي يقيمها بتقابله مع دوال أخرى، بمعنى آخر: إن قيمة الدال ليست في جوهره، أي ليست قيمة داخلية في ذاته وإنما هي تنتج عن تقابله مع دوال أخرى، ولأجل توضيح هذه الفكرة يعمد **دي سوسير** إلى ضرب مثال **بالر**يال الفرنسي القديم (ecu)، فيرى أن قيمة هذا الريال هي خمسة (05)

[1] – آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 33.

[2]– المرجع نفسه، ص33.

[3]– عبد المالك قجور، مبادئ في السيميائية، ص 34–35.

فرنكات، بينهما هو لا يحتوي من معدن الفضة التي صنع انطلاقا منها سوى نصف هذه القيمة.[1]

وقيمته في التعامل تزيد وتنقص بحسب الصورة المنقوشة على العملات الأخرى، وهذه هي حال الدال اللغوي الذي هو في جوهره ليس أمراً مادياً وإنما هو أمر مجرد لا يتجسد، وهو لا يتكون من جوهره وإنما من الفروق التي تميزه بوصفه صورة سمعية عن سائر الصور السمعية الأخرى.[2]

كما رأى **دي سوسير** أن القيمة اللغوية لا تكمن في المظهر المفهومي للعلامة، فهي ليست المفهوم ولا تتحدد به، وإنما تتحدد بما يقيمه المفهوم من علاقات اختلافية مع بقية المفاهيم من هنا يتبدى كيف يشدد **دي سوسير** على الفروق السالبة التقابلية بين العلامات التي تمنحها القدرة على تأدية وظيفتها الدلالية ويقول **دي سوسير** فقولنا إن القيم توافق متصورات ذهنية قول تقديره إن تلك المتصورات تخالفية محضة، لا تعرف ايجابياً بمحتواها بل تعرف تعريفاً سلبياً بمالها من علاقات مع بقية عناصر النظام الأخرى، فأدق خصائص المتصور الذهني كونه يمثل ما لا تمثله المتصورات الذهنية الأخرى، وهذا هو المقصود من الفكرة الجوهرية التي تركها لنا **دي سوسير** التي مفادها أن الكلمة لا توجد وحدها أبداً وبعبارة أخرى فكما يقول **دانيال شاندلر** الذي يأخذ الفكرة عن **دي سوسير**: "من المؤكد أن الدلالة ما يحمله المدلول مرهونة بالعلاقة بين جزئي الإشارة بين ما تتحدد قيمة الإشارة بالعلاقات بينها وبين الإشارات الأخرى المنظومة ككل"[3].

وقد جاء **اميل بنفنيست** E.banveniste ليعمم هذه الميزة على جميع الأنظمة السيميائية على اختلافها، حيث رأى أن قيمة العلامة تكمن في اختلافها الوظيفي ضمن

[1]– عبد المالك قجور، مبادئ في السيميائية ، ص 35.

[2] –المرجع نفسه، ص 35.

[3] –نفسه، ص 36.

النظام الذي تنتمي إليه، ولتوضيح هذه الفكرة أكثر يضرب مثالاً بنظام علامات المرور الضوئية، فيرى أن اللون الأحمر في هذا النظام ليست له علاقة باللون الأحمر في علم ثلاثي الألوان، أي ليس لهما نفس المدلول، كما أن اللون الأبيض في هذا العلم ليست له علاقة باللون الأبيض الذي يدل على الحداد أو الحزن في الصين.[1]

إن المفاهيم التي استند إليها **سوسير** في تعامله مع الأنساق اللسانية كاللسان والكلام والدال والمدلول والاعتباطية والتوزيع والاستبدال هي نفسها التي تبناها في السيميولوجيا، وهو العلم الذي افرده لدراسة العلامات غير اللسانية، التي تخلت عن وظيفتها الأصلية إلى حامل مادي لدلالات هي وليدة الممارسة الإنسانية، وثقافة المجتمع.[2]

إن الثنائيات الكثيرة التي نجدها في نظرية **دي سوسير** لا تدخل في ماهية التفكير السيميولوجي للعلامة، بل نجدها تخص البحث الألسني، ولهذا السبب فإن الباحث لا يريد أن يقع فيما وقع فيه الآخرون في اعادة هذه النظرية في كل موضوع يتناولونه ولا أجد موضوع العلامة السيميولوجية يخرج عن الموضوعات التي تناولناها عند حديثنا عن **دي سوسير** وهذا ما يشير إليه **محمد فليح الجبوري** [3].

كما أن **دي سوسير** وهو يقرر اعتباطية العلامة اللغوية لم ينج من بعض الانتقادات **فبنفينست** اعتقد أن **سوسير** خانته الصلابة والتماسك في شأن اعتباطية العلامة بوصفها النقطة الجوهر في صلب النظرية السوسيرية يقول **بنفنيست** "إن الاعتباط يقع بين العلامة (دال ومدلول) والشيء الذي تعنيه وليس بين الدال والمدلول خصوصا إنها من طبيعة نفسية

[1]– عبد المالك قجور، مبادئ في السيميائية، ص36–37.

[2]– عبد القادر بلعباس، بين سوسير وبورس، ص 229.

[3]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 57.

.. إن الاعتباط" يكمن بين اللسان والعالم، ليست العلاقات داخل اللسان باعتباطية وإنما هي ضرورية"[1].

كما أن إلغاء المرجع عن **دي سوسير** جعل من النص بنية لغوية مغلقة بعيداً عن العالم الخارجي، ولكن هل يمكننا فعلاً النظر إلى النص باعتباره منتوج انساني على أنه بنية لغوية مغلقة؟

إن هذا التساؤل يجرنا إلى أفكار **مصطفى ناصف** الذي ناقش هذه المسألة في كتابه "اللغة والتفسير والتواصل"، حيث وضح في ثنايا هذا الكتاب مخاطر النظام اللغوي المغلق، وهذه إشارة صريحة من **مصطفى ناصف** تدل على انتقاده لدى **سوسير** وفي هذا الصدد يرى أن تجاهل التمييز بين الموقف واللغة يظهر من خلال زعم بعض اللغوين المحدثين، حيث يعتبرونه أن وصف المعنى مرتبط بالقوالب الداخلية للغة وحدها بعزل عن مواقف خارجها، فحسب **ريتشاردز** نحن محتاجون إلى ثورة جديدة في الدراسات اللغوية، وينبغي النظر بعناية إلى العلاقة بين الداخلي في اللغة والخارجي عن اللغة، نأخذ مثلا التباين بين الضمير المفرد الغائب "هو" وضمير المفردة الغائبة "هي" فهل نستطيع أن نذهب بعيداً إذا اعتمدنا على مقاييس من داخل اللغة؟ ربما يعول اللغوين على مجموعات من الكلمات تتعامل مع كلا الضميرين أو تنسجم معه من مثل: أسماء الأولاد في مقابل أسماء البنات[2]، وبعض ملابس البنات في مقابل ما يرتديه الأولاد... كل هذا لا يدرك فيما يقال من خلال الأطر الداخلية، وهكذا نفهم ما يصنعه هو وما تصنعه هي لنا في الحياة بحجة أن هذا أمر يقع في خارج اللغة إن اللغويين المحدثين البعض يرون أن اختيار كلمة وترك كلمة يعتمد على سعة الاستعمال والتي ترجع في نفسها إلى الفائدة التي تحققها الكلمات على

[1]– بشير تاوريريت، أبجديات في فهم النقد السيميائي، ص 194.

[2]– مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل سلسلة عالم المعرفة، ع 193، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب د/ط، الكويت، 1995، ص 238.

نحو ما قال **أوجدن** منذ وقت بعيد، ولكن كيف نقضي في أمر هذه الفائدة من خلال الارتباط بما هو داخلي محض؟ !"[1]

إن شعور **مصطفى ناصف** بمخاطر النظام اللغوي المغلق جعله يدعوا إلى ضرورة أن نستفيد من خبراتنا وتجاربنا في فهم اللغة التي تتداولها، فإذا حاولنا أن نفهم لفظا ما علينا أن نعود للتجربة لتصححه وتنقحه، أو تلغيه أو تضبطه أو تكبح جماحه، فهي أفكار لا بد منها، فإذا لم نهتم بالمواقف التي أحاطت باللفظ فلم نفرق بين اللفظ والموقف فإن ذلك سيؤدي لا محالة إلى غموض الفكر، وحتى الناقد نفسه إذا لم يعط اهتماماً للموقف سيكون نقده سطحيا ولا يمكن أن يكون هناك نقد للفكر دون أضواء لغوية مفيدة.[2]

ولم يعرف حسب **مصطفى ناصف** نقد الفكرة أو نقد اللغة طريقه غلى حياتنا الثقافية حتى الآن والنقد الفكري اللغوي ليس هو بداهة النقد الأدبي، وإن كانت المسافة الشاسعة بينهما أدل على أننا نعيش في ظلام مرده الاعتقاد السائد بأن اللغة يمكن أن تفحص فحصاً كافياً من خلال ما يسمونه "بالاتجاهات الداخلية" التي تهتم بدراسة اللغة من الداخل فقط؟"[3]

ورغم كل هذه الانتقادات إلا أنها لا تنفي بتاتاً أثر الدرس السوسيري في أطروحات السيميائية وأكثر ما يتجلى ذلك في تصور اللسانيات للرسالة اللغوية بوصفها منظومة من العلامات اللغوية وأن العلامة هي التي تتكون من دال ومدلول، والدال هو تلك الصورة الصوتية والمدلول هو ما تثيره تلك الصورة في ذهنية المتلقي، هذا الطرح وما يعج به من مصطلحات ومفاهيم كان قد غزا دنيا "النقد السيميائي" فيما بعد، فأحادية النظر تكمن في التصور الأحادي والواحدي للغة أي التركيز على فعالية الوحدات والعناصر اللغوية في استنطاق المكامن الجمالية للرسالة النصية.

---

[1]– مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، ص 239.

[2]– المرجع نفسه، ص 243–244.

[3]– نفسه، ص244.

إن التزام **دي سوسير** بضرورة إدراك اللغة إدراكاً ذهنيا ثم إن مهمة الألسني عنده تنحصر في وصف النظام اللغوي وصفاً آنياً، هذه الأصداء السوسيرية نجدها في أطروحات السيميائيين في القراءة النصية للنصوص، يضاف إلى ذلك تركيز اللسانيات على العلاقة بين العلامات داخل النسيج النصي، هذا التركيز استفادت منه السيميائية في قراءة للنصوص الأدبية.[1]

كما نجد أن العلامة عند **بيرس** قد أخذت جل إهتمامه؛ حيث نجده يضع نظرية متكاملة في علم العلامات عن طريق تناول بعدها الأنطلوجي، ويعمم الفهم السيميائي على كل المفاهيم المكونة للوجود، فهو بحق صاحب الإنجاز الأكبر في ميدان السيميائية بوصفه علما مستقلا طغت عليه الصبغة الفلسفية والمنطقية، ولو كان **سوسير** قد إطلع على نتاج **بورس** لأفاد منه كثيرا ولاسيما نظرته بربط السيمولوجيا بعلم النفس الإجتماعي، لكون نظرية **بورس** إشتملت على عدد كبير من المفاهيم وقوانين التي كانت لها أهمية كبيرة في فهم العلامة اللغوية القائمة على الإتفاق الإجتماعي.[2]

أما **سوسير** فلا نجده صاحب نظرية في السيميولوجيا بقدر ما هو عالم لساني حاول أن يدخل إلى سيميولوجية العلامة اللغوية باعتبار أن اللغة هي النموذج الأفضل من بين الأنظمة السيميولوجية، إلا أن غياب القانون السيميولوجي الذي حمل **سوسير** عالم النفس مسؤولية اكتشافه حال دون وصول **سوسير** إلى مرحلة أبعد مما ذكرناه في بحثه عن العلامة اللغوية[3].

تشغل السيميائية في أطروحات **بيرس** فضاء أوسع من النطاق الذي تشغله النظرية السوسيرية، إنها نظرية سيميوطيقية نظرية جمعية، أشمل من الأولى، لأن صاحبها جعل

---

[1]– بشير تاوريريت، أبجديات في فهم النقد السيميائي، ص 195.

[2]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص57–58.

[3]– المرجع نفسه، ص 57–58.

فاعليتها خارج علم اللغة، وأعطاها تحديدا أشمل وأكثر عمومية، فهي علم الإشارة، الذي يشمل جميع العلوم الإنسانية والطبيعية الأخرى، وفي هذا الصدد يقول "ليس بإستطاعتي أن أدرس أي شيء في الكون كالرياضيات والأخلاق والميتافيزياء، والجاذبية الأرضية والديناميكية الحرارية والبصريات والكيمياء وعلم التشريع المقارن وعلم الفلك وعلم النفس، وعلم الصوتيات وعلم الإقتصاد وتاريخ العلم والكلم... إلى أنه نظام سيميولوجي"[1]

وما نلحظه نحن على نظرية **بيرس** هو أنه عمل على توسيع الفضاء المعرفي الذي تشغله السيميائية، وذلك بعقد صلة جوهرية بينها وبين مختلف العلوم والمعارف، وقد تجلى ذلك في علاقتها وتواشجها مع الحقول اللسانية والأسلوبية والشعريات، والبنوية وعلم النفس، إلى جانب اسرافها في استخدام أدوات هذه العلوم، ومفاهيمها الإجرائية.

بيد أن تداخلها مع فصائل العلوم الأخرى غير الألسنية لا ينفي انتماءها إلى مملكة النقد الألسني والبنوي، ولعل هذا ماجعل أحد النقاد المعاصرين المهتمين بها يذهب إلى وصفها بأنها "الوريث الشرعي للسانيات البنوية مقدمة في شكل تقليعة جديدة[2]"

وما ينبغي توضيحه حسب **عبد القادر بلعباس** أن العلاقة عند **سوسير** كما عند **بورس** حصيلة لعلاقة بين الحدود، تعود في أصلها إلى محاولة استيعاب المعنى التجريبي، ونقله إلى عالم المفهمة التي يصوغ حدودها اللسان الطبيعي.[3]

إن هذا التناغم الموجود بين العالمين، فرض رغم تباين اختصاصهما واختلافه **فسوسير** كان ألسنيا بالدرجة الأولى أما **بورس** فكان فيلسوفا، ودليل ذلك ورود سيمائيته مطابقة لعلم المنطق[4].

---

[1]– بشير تاوريريت، أبجديات في فهم النقد السيميائي، ص 196.

[2]– المرجع نفسه، ص 197.

[3]– عبد القادر بلعباس، بين سوسير وبورس، ص 234.

[4]– عبد القادر بلعباس، بين سوسير وبورس، ص 234.

2-2- الإرث الشكلاني:

لقد حظيت الأشكال السردية في النصف الثاني من القرن الماضي بكثير من العناية والاهتمام، الشيء الذي جعلها تحتل مكان الصدارة داخل ميدان أصبح، منذ فترة قصيرة، من أغنى الميادين داخل العلوم الإنسانية: السيميائيات بل يمكن القول إن السميائيات جربت أولى أدواتها (المستمدة أساساً من اللسانيات)، وتحسست أولى خطواتها داخل ميدان السرديات بالذات.

وربما يعود السبب في ذلك إلى اختلاف الخطاب السردي عن أشكال الخطاب الأحرى (الخطاب الشعري مثلا)، من حيث إنه يمتد بجذوره في تربة خصبة تشتمل على الكثير من الأنواع بدءا من الأسطورة وانتهاء بالمطبخ مروراً بكل الأشكال التعبيرية ذات البعد التصويري.

وعلى خلاف الشعر مثلا فإن "الحكي يمكن أن يظهر من خلال اللغة المتمفصلة، المكتوبة او الشفاهية، كما يمكن أن يظهر من خلال خليط منظم من كل هذه المواد[1]، إن الحكي حاضر في الأسطورة وفي الخرافة وفي حكايات الحيوانات والحكاية الشعبية، والقصة الصغيرة والملحمة والتراجيديا والدراما والكوميديا والتعبير الجسدي، كما لو أن كل مادة صالحة لأن يودعها الإنسان حكايته".

وبالرغم من هذا الغنى وهذا التنوع، فإن الخطاب السردي على عكس الخطاب الشعري مثلاً الذي عرفت قوانينه وقواعده منذ مدة طويلة لم يعرف أي دراسة جدية تهدف

[1]- سعيد بنكراد، السيميائيات السردية مدخل نظري، منشورات الزمن الدار البيضاء، المغرب، د/ط 2001، ص16.

إلى الكشف عن أسلوب بنائه وعن نمط اشتغاله إلا في فترة متأخرة وبالتحديد مع بداية القرن الماضي.

ويعود الفضل في ذلك إلى الباحث الروسي **فلادمير بروب** الذي سيخضع الخطاب السردي (الحكايات العجيبة) لأول مرة، لدراسة لا تقف عند حدود تعيين مواضعيه أوتصنيف وحداته المضمونية، بل تهدف إلى مساءلة النص في ذاته ولذاته من خلال بنيته الشكلية، فقد كانت محاولته تهدف إلى الكشف عن الخصائص التي تميز الخطاب السردي (الحكاية الشعبية بالتحديد) عن غيره من الخطابات، ولقد كانت دراسته الشهيرة "مورفولوجيا الحكاية العجيبة"، الصادرة سنة 1928 معلمة بارزة في تاريخ السيميائيات السردية، فعلى أي أساس قامت هذه الدراسة[1].

لقد كان طموح **بروب** هو الوصول إلى الكشف عن العناصر المشتركة المشكلة للمتن المدروس، أي الوصول إلى عزل العنصر الدائم والثابت، عن التجليات المختلفة التي لا تشكل وفق تصوره، سوى تنويعات لبنية واحدة، ولتحقيق هذا الهدف، كان عليه أن يرفض التصنيفات المستندة إلى المواضيع والموتيفات.

كما كان عليه أن ينبذ المقاربة التاريخية التي ينحصر همها في البحث عن الجذور التاريخية للأشكال الفلكلورية، فهذه المقاربات، لا يمكن أن تشكل نموذجاً علمياً قادراً على المضي بالباحث إلى تحديد ماهية الحكاية.[2]

والخلاصة، حسب **بروب**، أن كل تصنيف قائم على المواضيع تصنيف فاسد، لأن الحكاية لا تنفرد بموضوعات خاصة بها، لا تتقاطع ولا تتداخل مع أشكال أدبية أخرى، وهو ما يصدق أيضا على التصنيف القائم على الموتيفات، فالقول بأن هناك حكايات للجن

[1]– سعيد بنكراد، السيميائيات السردية مدخل نظري، ص 16–17.

[2]– المرجع نفسه، ص 17–18.

وحكايات للحيوانات يفترض أن كل حكاية لا تعالج إلا موتيفا واحد ووحيدا، وليست سوى تحقق خاص له، والحال أن الممارسة التحليلية تبرهن على عكس ذلك، فقد تتعايش داخل الحكاية الواحدة مجموعة من الموتيفات.

وبناء عليه، لكي تتحقق العودة إلى الجذور التاريخية للحكايات، لا بد من تحديد الخصائص الحقيقية (الشكلية) للحكاية "فالتحليل البنيوي لكل مظهر من مظاهر الفلكور هو الشرط الضروري لدراسة مظاهره التاريخية، ودراسة القواعد الشكلية هي المدخل لدراسة القواعد التاريخية "[1].

إن التصنيف على هذا الأساس، يجب ان ينطلق من وصف شامل يستند إلى قواعد علمية، وليس إلى الحدس والاعتباطية واستناداً إلى هذه القواعد يمكن الوصول إلى تصنيف تمييزي وتمثيلي، فأين يكمن العنصر الدائم والثابت الذي يجب أن يكون منطلقاً لأي تصنيف؟

لقد كان على **بروب** أن يبحث عن هذا العنصر في مستوى آخر، هو مستوى الوظائف وليس مستوى الشخصيات، وبهذا يمكن طرح إمكانات توليدية جديدة، فالتحليل الشكلي يمكننا من الوصول إلى شيء آخر، يمكن تحديده في الشكل الأصلي للحكاية.

وللوصول إلى استخراج مجموعة من القواعد القابلة لأن تشتغل كنموذج عام، انطلق **بروب** من الفرضيات التالية:

أ- إن العناصر الدائمة والثابتة داخل الحكايات هي وظائف الشخصيات "كيفما كانت طبيعة هذه الشخصيات، وكيفما كانت الطريقة التي تمت وفقها هذه الوظيفة" والوظيفة حسب **بروب** "هي فعل تقوم به شخصية ما، من زاوية دلالته داخل البناء العام للحكاية[2]" والقول إن

[1]- سعيد بنكراد، السيميائيات السردية مدخل نظري، ص 18.

[2]- سعيد بنكراد، السيميائيات السردية، مدخل نظري، ص 18- 19.

الوظيفة هي العنصر الدائم والثابت معناه القول، بصيغة أخرى، إن الوظائف هي الخالقة للشخصيات وليس العكس، كما قد يوهم بذلك خلال المعطى الظاهري للنص. ومن هنا فإن الوظيفة لا تكترث للشخصية المنفذة لها، علينا الإكتفاء فقط بتعيينها من خلال اسم يعبر عن الفعل.[1]

ب- إن عدد الوظائف داخل الحكاية محدود، إنه لا يتجاوز واحداً وثلاثين وظيفة، وهذا لا يعني أن كل حكاية يجب أن تكون تحققاً كاملاً لهذا العدد من الوظائف، فقد يحصل (وهذا حاصل فعلاً) أن لا تحتوي الحكاية إلا على عشرين وظيفة او أقل أو اكثر. وما هو جدير بالتسجيل يكمن في نظام هذه الوظائف، فتتابع الأحداث له قوانينه الخاصة، والحكي الأدبي يملك قوانين مشابهة، إن السرقة لا يمكن أن تحدث قبل تكسير الباب.

ج- إن التتابع الذي يميز هذه الوظائف تتابع واحد، فالوظائف تسير وفق نمط معين في كل الحكايات، وإذا كانت هذه الوظائف لا تتحقق باستمرار بنفس العدد في كل الحكايات، فإن هذا لا يغير من القانون الذي يحكم تتابعها. ذلك أن غياب بعض الوظائف لا يغير من وضعية الوظائف الأخرى".

د- تنتمي كل الحكايات العجيبة إلى نفس النوع من حيث بنيتها، ويمكن ترجمة هذه الفرضية في صيغة أخرى، إننا أمام حكاية واحدة وأشكال متعددة للتحقق، إن هذا التشابه بين الحكايات معناه أن هناك مجموعة من الظواهر النصية التي لا يمكن أن تفسر إلا من خلال ربط بعضها ببعض، وهذا الربط هو الذي يكشف لنا عن البنية الشكلية التي تقع في أساس تشكل كل الحكايات.[2]

[1]- المرجع نفسه، ص 19.

[2]- نفسه، ص 20.

وعلى هذا الأساس يمكن إعتبار كل الحكايات الروسية المشكلة للمتن المدروس تنويعاً لحكاية واحدة، وهذه الفرضية الأخيرة هي التي دفعت باللذين جاءوا بعد **بروب** إلى مقابلة البنية بالشكل. فالشكل يعين قصة وحيدة، أما البنية فهي نسق تأليفي أكثر استقلالية في علاقته بالشكل الثقافي الخاص بالحكايات الروسية.[1]

إن الوظائف في تتابعها وترابطها لا يلغي بعضها بعضاً، ولا تتقابل فيما بينها، إنها لا تخضع لعملية تصنيف تجعل منها قصة واحدة متواصلة، ولعل هذا التحديد هو ما يسمح بالقول إن **بروب** يتعامل مع هذا النظام باعتباره أشكالاً كونية منظمة للفعالية السردية بشكل سابق (أو يتعلق الأمر، على الأقل بالحكايات العجيبة)، ووجود هذه الأشكال، هو ما يسمح بالحديث عن امكانية بناء نموذج نظري عام يستوعب في داخله كل التنويعات التي تتوفر عليها الحكايات من خلال تحققاتها المختلفة.

وبعد هذا التحديد العام للوظائف، وتعيين موقعها داخل بنية الحكاية يشير **بروب** إلى عناصر أخرى لا تملك، في رأيه، نفس أهمية الوظائف، ولا تأثير لها على سير الحبكة، ولكنها بالرغم من ذلك، تعد عنصراً أساسياً في تشكيل البناء الحكائي في كليته[2].

إن ترابط الوظائف وتتابعها واستبعاد الشخصية كعنصر غير تمييزي لا يعني أن هذه الوظائف تشكل كلا لا يخضع لإمكانية تقليصه، ذلك أن تصنيف الوظائف ضمن مجموعات صغيرة محددة على أساس وجود تشابه بين هذه الوظائف أمر ممكن، **فبروب** يعمد بعد تحليله للوظيفة إلى تحديد ما يسميه بـ "دائرة الفعل" فبإمكاننا ضم مجموعة من الوظائف إلى بعضها البعض لخلق دائرة فعل محددة لشخصية بعينها، وعدد هذه الدوائر يتناسب مع عدد الشخصيات الفاعلة داخل الحكاية، وهذا العدد محدود، فهو لا يتجاوز سبع

[1]– سعيد بنكراد، السيميائيات السرديةم، دخل نظري، ص 20–21.

[2]– المرجع نفسه، ص 21.

دوائر، وكل دائرة تحدد فعلاً معيناً تقوم به شخصية معينة، ويحدد **بروب** هذه الدوائر من خلال الثيمات التالية:

1-دائرة فعل المعتدي.

2-دائرة فعل الواهب.

3-دائرة فعل المساعد.

4-دائرة فعل الأمير (أو الشخصية موضوع البحث).

5-دائرة فعل الموكل.

6-دائرة فعل البطل.

7-دائرة فعل البطل المزيف.

إن هذا النموذج الخاص بالشخصيات يمكن التعامل معه باعتباره نسقاً عاماً، فقد تتغير أسماء الشخصيات، وقد تتغير تجليات الأفعال، لكن المضمون المحدد لكل دائرة سيظل واحدا[1].

وبعد ذلك، يتحدث **بروب** عن عناصر تعد في نظره عناصر ثانوية (وهي ليست كذلك كما سنرى لاحقا)، ويمكن تحديد بعض هذه العناصر في:

- العناصر، التي تقوم بربط الوظائف إلى بعضها البعض، فالوظائف قد لا تسير وفق خط متواصل بل يحدث أن يتخللها تقطع وانقطاعات وتوقف. إن هذا التقطع يفرض ضرورة إدخال عناصر تقوم بملء البياض الفاصل بين الوظائف.[2]

[1]- سعيد بنكراد، السيميائيات السردية، مدخل نظري، ص21- 22.

[2]- المرجع نفسه، ص22-23.

– العناصر التي تساهم في تتليث الوظيفة الواحدة (بعد فشل الوظيفة الأول وفشل الوظيفة الثانية، يكون النجاح حليفا للوظيفة الثالثة).

– الدوافع (التحفيز). ويكمن دور هذا العنصر في خلق مبرر للقيام بوظيفة ما.

ويشير **بروب** في النهاية إلى طرق وأساليب إدخال الشخصيات إلى مسرح الأحداث. "فكل نوع من الشخصيات يملك طريقة خاصة للدخول إلى مسرح الأحداث. وكل نوع يشير إلى أساليب خاصة تستعملها الشخصية للتسرب إلى الحبكة".

إننا نعثر في هذه الدراسة على أدوات بشرت بها اللسانيات وأصبحت فيما بعد عمادها الرئيس. فمن أجل دراسة اللسان وطرحه كموضوع للسانيات، يجب عزله عن الكلام. وعزل اللسان عن الكلام معناه. من منظور اللسانيات دائما، عزل الاجتماعي الثابت والمنفلت من إرادة الفرد.عن الفردي، الحر المتجسد في أداء خاص[1] وهذا المبدأ هو الذي قامت عليه الدراسة التي قدمها *بروب*. فالوظائف، بعددها ونمط تتابعها، تشكل قصة واحدة، أي تشكل ما يشبه الجذع المشترك الذي تتحقق داخله ومن خلاله كل النصوص المتنوعة.[2]

لقد انطلق **بروب** من سلسلة كبيرة من الأفعال الملموسة والموصوفة داخل الحكاية الشعبية، لكي لا يحتفظ سوى بعدد ضئيل من الوظائف، يشهد على ذلك أن وظيفة الإساءة وحدها تغطي ما يناهز التسعة عشر تحققاً أو تعابير تصويرية مختلفة وعلى أساس هذا التجريد سينظر إلى البنية باعتبارها مورفولوجيا ثابتة، أي إطارا كونيا جامعا لكل أشكال الحكي، وسينظر إلى الشكل باعتباره أحد التحققات الممكنة لهذه البنية، وهذه التحققات الممكنة، هي ما يشير إليها **بروب** باعتبارها تمثل حرية داخل الإرغامات. وتتجلى هذه الحرية من خلال الهامش الذي يتوفر عليه السارد في إهمال بعض الوظائف وفي تنويع

[1]– سعيد بنكراد، السيميائيات السردية، مدخل نظري، ص 23.

[2]– المرجع نفسه، ص 23–24.

الشخصيات، وكذا الإكثار من العناصر الرابطة بين الوظائف. وهذه الحرية تشكل سمة تمييزية لكل حكاية[1].

تقوم نظرية **بروب** على متن يستغرق مائة حكاية خرافية روسية وبعد استقراء دقيق لهذه الحكايات توصل إلى أن الدراسة الحقة لهذه الحكايات هي التي تكشف قوانين البنية، وليس تلك التي تقدم قائمة سطحية بالأنساق الشكلية لفن الخرافة، فهو يبحث عن الملامح البنوية الثابتة التي تتكرر أشكالها في الخرافات لإستنباط قوانين عامة تحكم الحكايات الخرافية وتخضعها لمنهج واحد يمكن أن يكون أداة فعالة لدراستها، ولما كان **بروب** يمتلك التصور المسبق كما صرح بذلك لنظرية الوظائف، فإنه حاول تطبيقه على متن الخرافي فوجد أن هناك قيما ثابتة وقيما متغيرة، إن ما يتبدل هو أسماء وفي نفس الوقت صفات الشخصيات ومالا يتبدل هو أفعالهم أو وظائفهم function ويمكن أن نستخلص بأن الخرافة تسند غالبا أفعالا متشابهة لشخصيات متباينة، وذلك ما يتيح لنا أن ندرس الخرافات انطلاقا من وظائف الشخصيات.[2]

يستنتج **بروب** عن طريق استقرائه للمتن الخرافي في أنه يضم متغيرات هي الأسماء والصفات التي تلحق بالشخصيات إلا أن الأحداث تبقى ثابتة لا تتغير بتغير تلك الشخصيات، وبما أن الشخصيات في حالة تبدل من حكاية إلى أخرى، وقد لا يربط بينهما رابط في تلك الحكاية، فإن دراستها ستتصف باللاجدوى وبإمكاننا أن نبحث عن اللازم الثابت الذي يمكن تطبيقه على كل الحكايات الخرافية، ويتمثل ذلك في الوظائف التي تقوم بها تلك الشخصيات، وكأن الحكايات تمثل قوالب ثابتة تملأ من القاص بمادة الحكي.[3]

[1]– سعيد بنكراد، السيميائيات السردية، مدخل نظري، ص 24.

[2]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 59.

[3]– المرجع نفسه، ص 59.

يرى **بروب** أن السؤال الأهم في دراسة المتن الخرافي هو عن ماذا تفعل الشخصيات؟ أما من يقوم بالفعل وكيفية فعله فهما سؤلان كماليان وهذا يعني أن فعل الشخصيات (وظائفها) سيكون قطب الرحى الذي تقوم عليه وظائفية **بروب**، لذا نجده يشترط في تعريف الوظائف بعدم مراعاتها الشخصية المنفذة للفعل وأن هذا الفعل لا يمكن أن يعرف باستقلال عن وضعيته في مجرى الحكي، ويجب علينا أن نلحظ الدلالة التي تتوفر عليها الوظيفة داخل النص الخرافي.[1]

فالدلالة التي يجب اعتمادها هي الدلالة الوظيفية لا دلالة شخوص فهذه الدلالة لا تنفصل عن مجرى الأحداث ولا يمكن استغلال وظيفة بمفردها لأنها لا تستطيع أن تقدم حدثاً مستقلاً، ومن ثم تبقى بها حاجة إلى الوظائف الأخرى داخل المتن الخرافي، فالسياق هو الذي يحدد الدلالة وأن أفعالا متشابهة يمكن أن تكون لها دلالات متباينة، ويعني ذلك أن الوظيفة فعل شخصية قد حدد من وجهة نظر دلالته في سيرورة الحكاية، ونعتقد أن هذين النصين هما من أوضح نصوص **بروب** التي لها علاقة بماهية المنهج السيميائي، فالأفعال متشابهة لكن الدلالات مختلفة تبعاً لتوظيفها داخل النص الخرافي، ولعل منهجية **بروب** في دمج أحداث كبيرة استقرأها في الحكايات الخرافية وجعلها تحت مسمى محدد بـ "وظيفة"، هو تطبيق لما قاله في هذين النصين، فالدلالة المقصودة يرشحها العرف الخرافي الذي هيمن على تلك النصوص ومنح القارئ لهذه الخرافات التصور المسبق لتلك الدلالات.[2]

ويمكننا قراءة الوظيفة على أنها مؤشر علاماتي ينفتح على دلالات متعددة تمثلها الأحداث التي استقرأها **بروب** وأدرجها تحت اسم كل وظيفة استنبطها من قراءته لتلك الحكايات، فالاسم الذي ذكره **بروب** يمثل مؤشراً دالاً على أفعال وأحداث تجمعها دلالة الاسم المذكور في صدر تلك الوظيفة، وإذا كان الدخان دليلاً على وجود النار فإن دلالة

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 59–60.

[2]–المرجع نفسه، ص 60.

اسم الوظيفة هو دليل على ماهية الأحداث، فوظيفة الإساءة تنطوي تحتها كل الدلالات والأفعال التي تقود إلى فهم هذه الدلالة وبذلك تنفتح تلك الوظائف على دلالات كثيرة، يكون للسياق أثر في ترشيح هذه الدلالة دون غيرها.[1]

يذهب **بروب** إلى أن الحكايات الخرافية لا تتعدى وظائفها الإحدى والثلاثين فلا تكاد تخلو حكاية من هذه الوظائف، وأنها في كل هذه الحكايات غالباً ما تأتي متتابعة.[2]

1- وظيفة النأي/ أحد أفراد العائلة يذهب بعيدا، وفي هذه الوظيفة أحداث استقرأها **بروب** من تلك الحكاية تدل على ابتعاد أحد الأشخاص عن العائلة.

2- وظيفة المنع/ اشعار البطل بوجود منع (يجب عليك أن لا تنظر إلى ما في داخل هذه الحجرة).

3- وظيفة انتهاك / انتهاك المنع وتسمى الخرق (تأخر الأميرات من العودة).

4- وظيفة استنطاق/ يحاول المعتدي الحصول على معلومات ويحصل عليها عن طريق استنطاق الضحية.

5- وظيفة أخبار/ المعتدي يتلقى أخباراً حول ضحيته.

6- وظيفة خدعة/ المعتدي يحاول خداع ضحيته للسيطرة عليها أو على ممتلكاتها وفي ذلك عن طريق خداع للضحية بالتحول إلى هيئة أخرى.

7- وظيفة تواطؤ/ الضحية تقع في حبائل الخدعة وتساعد العدو على الرغم منها لكونها مخدوعة، كل هذه الوظائف هي وظائف تمهيدية في الحكاية إذ تبدأ الحبكة من الوظيفة الثامنة.

---

[1]- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 60.

[2]-المرجع نفسه، ص 60.

8- وظيفة إساءة / المعتدي يلحق ضرراً بأحد أفراد العائلة أو يسيء إليه.

- وظيفة نقص/ شيء ما ينقص أحد أفراد العائلة.

9- وظيفة وساطة/ محطة انتقال/ خبر الإساءة والنقص ينشر ويتم التوجه إلى البطل بطلب أو بأمر.

10- وظيفة استهلاك الفعل المعاكس/ البطل الباحث يقبل السعي أو يقرره.

11- وظيفة انطلاق/ البطل يغادر منزله.

12- وظيفة الواهب الأولى/ البطل يتعرض لاختيار أو استنطاق أو هجوم يهيؤه لتلقي أداة أو مساعد سحري.

13- وظيفة رد فعل البطل/ البطل يرد على أفعال الواهب المقبل[1].

14- وظيفة تسليم الأداة السحرية/ توضع الأداة السحرية تحت تصرف البطل.

15- وظيفة سفر بصحبة دليل/ ينتقل البطل أو يرشد أو يقاد إلى جوار المكان الذي فيه موضوع بحثه.

16- وظيفة معركة/ البطل والمعتدي في معركة يتعاركان في قلب الحقل مثلاً.

17- وظيفة علامة/ يتلقى البطل علامة[2].

18- وظيفة انتصار/ انهزام المعتدي في المعركة.

19- وظيفة إصلاح/ إصلاح الوظيفة البدئية وتعويض النقص.

[1]- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 61.

[2]- المرجع نفسه، ص61.

20- وظيفة العودة/ عودة البطل.

21- وظيفة مطاردة/ مطاردة البطل من قبل المعتدي.

22- وظيفة نجدة/ يغاث البطل من قبل المساعد.

23- وظيفة الوصول متنكراً/ يصل البطل متنكراً إلى بيته أو إلى أي بلد آخر.

24- وظيفة دعاوى كاذبة/ بطل مزيف يدّعي لنفسه دعاوى كبيرة.

25- وظيفة مهمة صعبة/ تقترح على البطل إحدى المهمات الصعبة.

26- وظيفة انجاز مهمة.

27- وظيفة تعرف/ تعرف البطل.

28- وظيفة اكتشافات ويتم عن طريقها اكتشافها البطل المزيف أو المعتدي أو الشرير.

29- وظيفة تغير الهيأة / يكتسي البطل مظهراً جديداً كأن يكون بفعل التأثير السحري المساعد أو أن يرتدي ملابس جديدة.

30- وظيفة عقاب/ وفيها يتم معاقبة البطل المزيف أو المعتدي بعقوبة كأن تكون القتل أو الطرد أو الجر بالحبل.

31- وظيفة زواج / وفيها يتزوج البطل ويرتقي إلى الوطن إذا كانت زوجته من الأميرات وبخلاف ذلك لا يصبح ملكاً[1].

ويذهب **بروب** في نهاية سرده لهذه الوظائف إلى أن عددها محدود جداً، فهي لا تتعدى احدى وثلاثين، وأن هذه الوظائف يمكن إعمامها ليس على الخرافات الروسية فحسب

[1]- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 62 .

بل على الخرافات الصادرة عن الأمم الأخرى، فوظائفية **بروب** هي وظائفية تصلح أن تكون انموذجاً فعالاً في دراسة فن الخرافة.[1]

ولو عدنا إلى وجهة النظر التي نتبناها في عد هذه الوظائف مؤشرات سيمائية لأحداث وقعت في المتن الخرافي سواء أكان هذا المتن هو الحكايات الروسية أم الحكايات الخرافية عند الأمم الأخرى، ولنأخذ مثلا وظيفة الإساءة التي تمثل حركية النص الخرافي وتعقده، فهذا المؤشر الدلالي يشير إلى جملة من الأحداث التي تدل على فعل الإساءة، ومن ثم تكون هذه الوظيفة مؤشراً على تلك الأحداث الدلالية، فعندما ترد الإساءة في تحليل النص الخرافي يتبادر إلى ذهن القارئ المضطلع على فن الخرافة جملة من الدلالات التي تكون بدائل قرائية تصلح لتفسير هذه الوظيفة، فقد تتمثل الإساءة بـ:

- المعتدي يخطف كائناً بشرياً/ يخطف بنت الملك.
- المعتدي يسرق شيئا سحريا/ الطفل يخطف العلبة السحرية.
- المعتدي ينهب أو يفسد / يسرق الدب الشوفان.
- المعتدي يسلب ضوء النهار.
- المعتدي يحدث أضراراً جسيمة / الخادمة تقتلع عيني سيدتها.
- المعتدي يطالب بضحيته / ملك البحار يطالب بالأمير.
- المعتدي يصدر أمراً بإلقاء شخص ما في البحر.
- المعتدي يأمر بقتل شخص.
- المعتدي يقوم بإغتيال شخص.

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 62.

– المعتدي يرغم أحداً على تزويجه.

– المعتدي يعذب أحداً كل ليلة.

– المعتدي يعلن الحرب/ الملك الجار يعلن الحرب.

وغيرها من الأحداث التي تدل على الإساءة، فكلها خيارات أمام القارئ كي يؤول حدوث الإساءة، وإن جاءت هذه الإساءة بصورة مباشرة في النص الخرافي[1].

إن عرض **بروب** لكل عناصر النص واعتماد الوظائف على أنها للأجزاء المكونة الأساسية للخرافة[2] واعتماد الثابت الدال على الأحداث، إنما هو بحد ذاته انجاز لمنهج سيميائي متفرد؛ إذ حوّل الاحداث والأفعال إلى علامات دالة يمكنها أن تنفتح على كل تنوعات المتن الخرافي المتعدد على مستوى الحكايات الروسية أو حكايات الأمم الأخرى، فكل وظيفة هي علامة تدل على مجموعة دلالات يجمع بينها الفعل النهائي لذلك الحدث، وربما يتوضح ذلك كثيراً عندما نصل إلى توزيع الوظائف، فالقراءة البروبية لفن الخرافة اعتمدت المستويين: المستوى العمودي وتمثل في الوظائف الإحدى والثلاثين، والمستوى الأفقي يتمثل في توزيع الشخصيات على أدوار وكأنه يريد أن يعوض إلغاءه للشخصيات القائمة بالأحداث في الخرافة إلى اصطناع شخصيات علاماتية تمثل روح الشخصيات وليس أجسادها، فوجد أن الشخصيات الخرافية في الحكايات المائة يمكن حصر أفعالهم بسبعة مستويات تمثل أدوارا، تنفتح على تأويلات شتى بيد أنها تحتفظ بالهوية نفسها في كل حكاية خرافية، وهذه المستويات هي.[3]

[1] – محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 63

[2]– المرجع نفسه، ص 63.

[3]–نفسه، ص 63–64.

– مستوى فعل المعتدي أو الشرير ويتضمن: الإساءة والقتال وأشكال الصراع ضد البطل والمطاردة.

– مستوى فعل الواهب أو المانح ويتضمن: التمهيد لإيصال الأداة السحرية ووضع هذه الأداة رهن إشارة البطل.

– مستوى فعل المساعد. ويتضمن، ويتضمن شغل البطل وإصلاح الإساءة والنجدة خلال المطاردة وانجاز المهام الصعبة وتغير هيأة البطل.

– مستوى فعل الأميرة (الشخص موضوع البحث) وأبيها، ويتضمن الوظائف المطالبة بإنجاز المهام الصعبة وفرض علامة واكتشاف البطل المزيف والتعرف على البطل الحقيقي ومعاقبة المعتدي الثاني والزواج.

– مستوى فعل المرسل وهو لا يتضمن سوى وظيفة واحدة هي إرسال البطل.

– مستوى فعل البطل ويضم وظيفة الإنطلاق ورد الفعل على مطالب الواهب والزواج.

– مستوى فعل البطل المزيف ويضم وظيفة الإنطلاق ورد الفعل على مطالب الواهب والدعاوى الكاذبة، ومن هذا العرض الموجز لمستويات الأفعال نستطيع أن نؤشر بعض الملاحظات [1]:

– إن **بروب** حاول أن يختزل الشخصيات في أفعالها التي تقوم بها في الحكاية الخرافية حتى حصرها بهذا العدد القليل جداً، إذ لا تتعدى شخصيات هذه الخرافات هذا العدد.

– إن بعض أفعال هذه الشخصيات يمكن أن تندرج ضمن أفعال شخصيات أخرى مثلاً: مستوى فعل المرسل، وهذا لا يتضمن إلى وظيفة واحدة هي إرسال البطل، أي أن هذا المرسل يقدم مساعدة للبطل لكي يصل إلى المكان الذي يريد أن يصل إليه، ففعل هذا

[1] – محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 64.

المرسل يدخل ضمن تحمل فعل المساعد الذي ينقل البطل ويصلح الإساءة ويغير هيأة البطل؛ لأن هذه المستويات لا تمثل شخصيات مجسدة بقدر ما تمثل جوهر أفعالها وإذا ما خضع الفعلان إلى جوهر واحد فإن عرضهما في مستوى السيميائي يبقيان في طور التعدد الدلالي.

– ويبدو للباحث أن هذه المستويات التي تحدث عنها **بروب** تحمل في جوهرها فهما سيميائياً يمثله في عرف أصحاب هذا المنهج الرمز، وهو النوع يخضع اعتماداً على مفهوم **بورس** إلى ثالثانية الثانيانية، وفيه يتحول الموضوع الذي يساوي المدلول عند **سوسير** اعتماداً على العرف الإجتماعي إلى دلالة ثابتة اكتسبت هذا الثبات من العرف الإجتماعي حتى أصبحت علامة دالة، فكل من المعتدي والشرير والواهب والمساعد أو البطل والأميرة وصولاً إلى البطل المزيف هي علامات اكتسبت دلالتها من الأفعال التي تقوم بها تلك الشخصيات سواء على المستوى الواقعي أم على المستوى السردي، لذا نرى أن الشرير هو علامة على كل فعل قبيح وضار، وأن المساعد هو علامة على كل من يعمل الخير بقصد المساعدة سواء كان من تلقاء نفسه أم بفعل تكليف له، وكذلك الأمر مع البطل الذي أصبح علامة لكل فعل شجاع، فهو لا يرتبط بشخص معين، وإنما هو رمز لروحية تلك الشخصية التي تقوم بهذا الفعل[1].

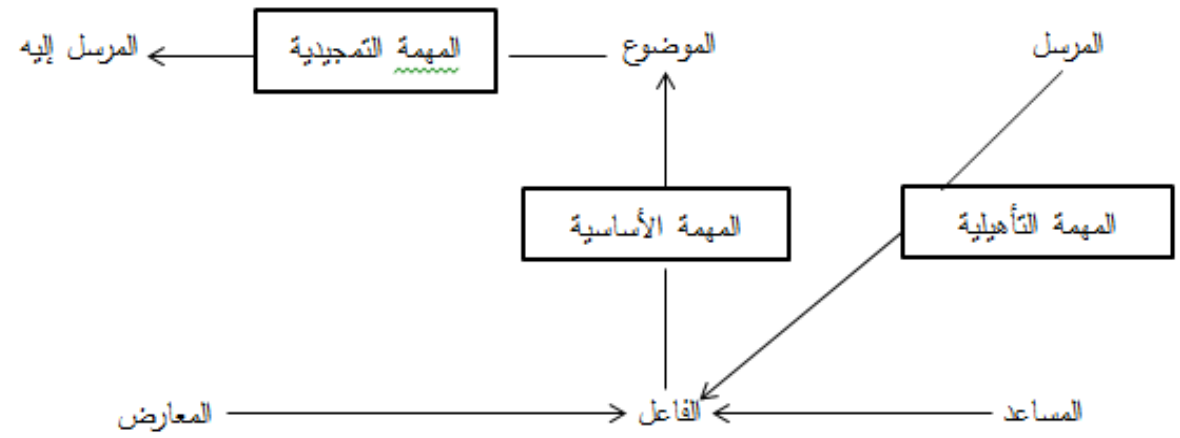
– حاول **بروب** عن طريق دراسته للحكاية الخرافية أن يعتمد منهجاً سيمائياً بالدرجة الأولى، فحول الأفعال والأحداث إلى علامات وظائفية واختزل هذا الكم الكبير من الحكايات بعدد محدود من الوظائف، ثم جاء مرة أخرى بقصد تعضيد فهمه للمتن الحكائي الخرافي وتماشياً مع ما بدأ به من تحويل هذه الأفعال إلى وظائف ليبعد الشخصيات من

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 65.

تحليله، بيد أنه استعاض عنها بما اسماه (مستويات أفعال) للشخصيات كي لا يقع في مستنقع المناهج السياقية التي هاجمها أنصار المذهب الشكلي[1].

إن مستويات أفعال هذه الشخصيات هي محاولة تفريغ هيكل الشخصيات من تجسدها العياني الذي يمثل في شخصيات الحكاية الواحدة، ولإضفاء طابع العموم على هذا الهيكل كي يكون متوافقاً مع ما ذهب إليه في موقفه من الوظائف جاءت هذه الهيكليات المتمثلة في المعتدي والبطل وغيرها من الشخصيات كي تكون علامات دلالة على أدوار تقوم بها شخصيات لا تحظى باهتمام **بروب**، بقصد تعميم فهمه لمجمل النص الخرافي وليس لمتن واحد، وبذا يكون **بروب** قد استعان بالسيميائية التي شكلت الثقل الأكبر في منهجه لدراسة الحكاية الخرافية.

ويمكن للباحث أن يمثل للعلاقة بين مستويات فعل الأشخاص (سيميائية الأشخاص) والوظائف التي تمثل الأفعال، بعلاقة الهياكل الهندسية المتمثلة بالصفوف بالخانات، فشخصيات المعتدي والبطل والأميرة والمساعد والمرسل والبطل المزيف والواهب هي سبعة صفوف تتوزع عليه إحدى وثلاثون خانة، تتباين عدد الخانات بين تلك الصفوف اعتماداً على حضور تلك الشخصية دون غيرها في الحكاية الواحدة وبذلك يتباين عدد الخانات في الصف الواحد تبعاً لتعدد أحداث الحكاية وطولها.[2]



ومن خلال هذا الشكل يكتسب الفاعل خلال المهمة التأهيلية الكفاءة وطاقة الإنجاز التي تمكنه في المهمة الأساسية من تطويق دائرة الصراع وتحقيق الموضوع وتعويض الإفتقار، ويقوده نشاطه السردي في النهاية إلى المهمة التمجيدية التي يقع فيها التعرف على البطل وتقويم sanction مساره طبقاً للإلتزام الذي أخذه على نفسه.[1]

من خلال قراءتنا لهذا الرسم لا نلقى صعوبة في ابراز الدعم المنهجي الذي قدمه **ف.بروب** للمقاربة السيميائية والمتمثل في كشفه عن هذه المهمات الثلاثة (تأهيلية، أساسية، تمجيدية) التي تشكل نموذجاً لا تكمن قيمته في عمق التحاليل التي تدعمه ولا في دقة صياغاته بل في نجاعة استفزازه وقدرته على إثارة الفرضيات[2]، ويصوغ **غريماس** انطلاقاً من هذا النموذج نتيجة مغايرة للمسلمة البروبية التي تحملنا على الإعتقاد بأن الحكاية مبنية على التتابع الكرونولوجي للمهمات، ذلك أن التمفصل المنطقي للبناء السردي يجرى مجرى التتابع المعكوس، حتى ولو تعاقبت المهمات الثلاثة الواحدة تلو الأخرى على طول الخط الزمني، فإنه لا توجد أية ضرورة منطقية تعلل إلتحاق المهمة التأهيلية بالمهمة الحاسمة وهذه بالمهمة الممجدة، وهناك أمثلة يمكن أن تضرب على الأكفاء الذين لا ينتقلون أبدا إلى الفعل، والأعمال الجديرة بالتقدير التي لا يعترف بقيمتها أبداً، وعلى هذا الأساس يرى **غريماس** أن القراءة المعكوس كفيلة بتأسيس ترتيب منطقي من الافتراضات، تفترض المهمة التمجيدية المهمة الحاسمة التي تفترض بدورها المهمة التأهيلية: حتى يتمكن البطل من الإنتقال إلى الفعل ينبغي أن يملك المؤهلات الضرورية لذلك (الكفاءة).

[1]– رشيد بن مالك، الأصول اللسانية والشكلانية للنظرية السيميائية ملتقى علم النص مجلة اللغة والأدب جامعة الجزائر ع 14. شعبان 1420هـ ديسمبر 1999، ص 116.

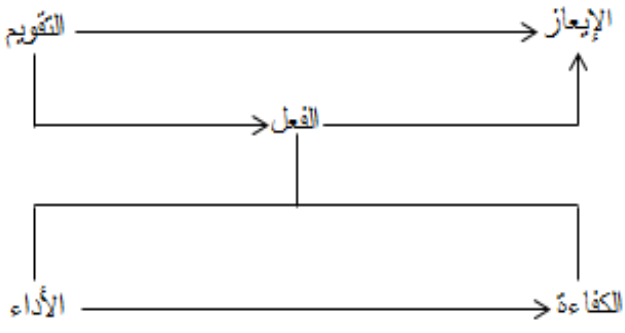
[2]– المرجع نفسه، ص 116–117.

بناء على هذه الملاحظات التي قيدها **غريماس** على النموذج البروبي يتبنى **ج. كورتيس** joseph courtes في نفس الإتجاه رسما سرديا مبنياً أساساً على الإفتراض المنطقي المعكوس، فالتقويم (أو المهمة التمجيدية) لا يفترض فقط فاعلاً أدى فعلاً (المهمة الحاسمة) سيحاسب عليه ولكنه يفترض أيضاً فاعلاً أخر يقوم بعملية تقويم ترتكز على العلاقة التعاقدية relation contractuelle الموجودة بين المرسل / المرسل إليه / الفاعل، إذ بناء على العقد المبروم بينهما وطبقاً لإلتزام الفاعل، فإن هذا الأخير يتلقى في نهاية المسار الجزاء الجدير به.[1]

لا بد أن نشير إلى أن هذه اللحظة السردية (عملية التقويم) مرهونة في وجودها بعملية الإيعاز manipulation التي يمارسها المرسل على الفاعل[2].

استناداً إلى النموذج البروبي والتعديلات المنهجية التي أجراها عليه أ.ج **غريماس** و ج. **كورتيس**، نحصل في نهاية التحليل على بعدين أساسين في النظرية السيميائية: بعد معرفي يتأسس عليه الإيعاز والتقويم، وبعد تداولي ندركه من خلال عمل الفاعل.

إن العقد المبرم بين العاملين المرسل/ الفاعل يقضي بالضرورة الاحتكام إلى نظام القيم (النظام الخلاقي systéme axiologique) الذي يعبأ الفاعل على أساسه ويقوم عمله، ويتم التحقق من تنفيذ العقد، يمكن أن يأخذ الرسم السردي، انطلاقاً من هذه الملاحظات التي قدمها كورتيس الشكل الآتي:



يفترض ويحدث تفاعلات تمس العلاقات العام ى الإيعاز (بوصفه هيئة

[1]– رشيد بن مالك،

[2]– المرجع نفسه، ص 117.

حاسمة في تحويل الكفاءة) الذي يأخذ أشكالاً مختلفة تتصهر في التأثير الذي يمارسه المرسل على الفاعل في سبيل إقناعه على تنفيذ برنامج معطى، وقد ينحو الموعز manipulateur منحى آخر كأن يلعب على أوتار مؤهلات الفاعل فيثيره أو يغريه إثارة وإغراء مقترنين بحكم سلبي (لا تملك القدرة على ....) أو ايجابي (إنك تملك القدرة على..) على جهة من جهات كفاءته[1].

بقي أن نشير في النهاية إلى أن تعريف **بروب** للوظيفة لا ينطبق على الإفتقار الذي يحيل على الحالة، ولئن كانت الوظيفة تدل على الفعل، فإن كل فعل، من منظور **غريماس** يمكن أن يمثل بمسند (أو وظيفة بمعنى العلاقة في بعدها المنطقي) تمثيلاً تضم إليه العوامل وعليه تأخذ الوظيفة البروبية شكل الملفوظ السردي الآتي:

م. س =و(ع1، ع2...)

وتأسيسا على هذا يتحدد الملفوظ الأولي في السيميائية السردية بوصفه "علاقة / وظيفة بين العوامل"[2].

المبحث الثاني: إشكالية المصطلح السيميائي

يساعد المصطلح في التنفيذ الدقيق للإجراءات النقدية، وبدل على الإتجاه الذي يسلكه الناقد في اجرائه، ومدى تعمقه في مادته العلمية، ويبين جدية الناقد في بحثه.

ولا يختلف طلاب المعرفة حول ضرورة استعمال المصطلح، لأن التهرب من استخدامه أثناء الإجراء النقدي سيؤدي إلى انشائية في اللغة الشارحة، وربما يؤدي إلى غياب المنهجية، وسيضع الباحث في خانة الضعف.[3]

[1]– رشيد بن مالك، الأصول اللسانية والشكلانية للنظرية السيميائية، ص 118.

[2]– المرجع نفسه، ص 119.

[3]– آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص76.

بيد أن كونه ضرورياً لا يعطي من الاعتراف بأن الخطاب النقدي يعاني قصوراً واضحاً في وعي المصطلح أو المصطلحات التي يستخدمها، ويعكس هذا القصور جانباً من الإشكاليات الكثيرة التي تسم معظم أنواع الممارسة النقدية في المشهد الثقافي العربي، وجانباً من خصائص التقاطب بين فعالية نقدية وأخرى، واستخدام وآخر للمصطلح الواحد، وربما لدى الناقد الواحد أيضاً، فتطبيق منهج بمصطلحات وافدة يعني أن الناقد لا يتحكم في المنهج، كما أن هيمنة المصطلح اللامنتمي والمصطلح النمطي الذي يصلح لكل منهج دليل يشكك في المنهج، مع أن جل الدراسات والبحوث متفقة على وصف المصطلحات اللسانية والسيميائية (التي هي المعين الأساس للقاموس النقدي الجديد بالمشكلة).[1]

لا تقل القراءة الاصطلاحية لأي مادة معرفية أهمية عن غيرها من أنواع القراءات الأخرى، إن لم تكن تفوق كثيراً منها أحياناً، وهي بطبيعتها قراءة علمية لأنها تعالج مفردات واصطلاحات تنتمي إلى عالم معين، تتبين مدى دقتها، وكيفية تطبيقها.

اتهم الناقد العربي بأنه يستمد المصطلحات النقدية دفعة واحدة دون أن يعي مراحل الحركة النقدية الأخرى وحيثياتها وكيفية تشكلها، ويبدو أن مشكلة نقدنا المعاصر مع اتجاهات النقد الأدبي الحديث هي بالأساس مشكلة الاستيعاب الواضح والمتكامل والدقيق لأسسها وأدواتها ومصطلحاتها.[2]

وقد رأى بعض النقاد الميالين للتراث أن المشكلة مع المصطلح مشكلة تغريب، وظنوا أن ما اصطلح عليه بالتعريب للمصطلح الأجنبي شر لا بد منه وأنه الكي اللغوي الذي نلجأ إليه كآخر دواء حين يتأزم الداء.

[2]– آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 76–77.

[2]– المرجع نفسه، ص 77.

وأثار في الوقت نفسه استخدام المصطلح بصيغته الأجنبية حفيظة الكثير من النقاد، لأن هناك مصطلحات أريد لها، في غياب الإجتهاد الجاد في تطوير العربية المعاصرة، وإنشاء لغة علمية جديدة عبرها: أن تطل مستعملة في لغاتها الغربية الرطينة مثل "الإقونة" و"السيميوزة" والهرمينوطيقا"... فجئنا نحن إليها واجتهدنا في إيجاد مقابلات لها باللغة العربية بناء على أصل اشتقاقها، وكما نرى فقد لجأ الناقد للتصحيح من وجهة نظره وبجهده الفردي، وهذا ما زاد من وجهات النظر فيما يخص المصطلح النقدي من اختلافات "فكثيراً ما يقف المترجم حائراً أمام إيجاد مرادف باللغة العربية معبر ومواز تماماً لمصطلح نقدي أجنبي، فيضطر إلى اختيار واحد من أمرين: إبقاء المصطلح كما هو بلغته الأصلية مع بعض التعديل الصوتي، أو استخدام مرادف قريب، وفي كلا الأمرين لا نصل إلى مفهوم جلي لما يريد المترجم التعبير عنه.[1]"

في حين حاول بعض الباحثين اقتراح حلول للتخلص من قضية المصطلح الغريب عن الثقافة العربية، عبر استبداله بمصطلح عربي قديم، مشابه في المعنى للمصطلح الغربي الحديث، واعتماده في النقد، ولكن ذلك كان حلاً صعباً، لأن المفهوم والمنهج والنظرية التي يتكئ عليها المصطلح العربي القديم مختلفة عما يعتمد عليه المصطلح الغربي الحديث، ولا ننسى أن الحقبة الزمنية التي ولد فيها المصطلح الحديث والبيئة والمكان مختلفة تماماً، وهذا ما أدى للكثير من الإستهجان لدى النقاد الحداثيين، وسبب جدالاً كبيراً عدّه أصحاب هذا الحل تبرؤاً من الموروث وتحيزاً للغرب ونظرياته.

وهناك من اعترض على استعارة المصطلحات الأجنبية وقد آلت عندنا إلى تحولات تجعلها مختلفة، وبالتالي فهي جديدة، وتعريبنا لها ليس مجرد ترجمة، ولكنه تهجين وتوليد يفضي إلى مولد جديد.

[1]– آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص77– 78.

وهذا موقف يسجل للناقد لأن التشبث بالتشاؤم نحو وضع المصطلح وعدم تقبل المفردات الجديدة، والبقاء في دائرة الموروث، هو مما يسجل على كثير من القراء العرب لأن تحنيط الكاتب للسان العربي هو ما جعله لا يدرك الدلالات الخفية للمفاهيم كالحتمية والمنهج...إن عدم اعترافه بتحديث وتبسيط اللغة انتقم منه ولم يتح له الفرصة لفهم ما قرأ من كتب، لأنه اقتصر على ترجمتها ترجمة لغوية ليس إلا، كيف يمكنه استكشاف الدلالات وهو متنكر للسيمائيات وللأنتربلوجيا الثقافية وغيرها[1].

ومن الثابت أنه عندما ينتقل المصطلح عن طريق الترجمة إلى اللغة العربية من لغته، ومصدره الأم تحدث الإشكالية الأخطر، فنحن نرتكب إثماً لا يغتفر حينما ننقل المصطلح النقدي الغربي، وهو مصطلح فلسفي بالدرجة الأولى، بكل عوالقه المعرفية إلى ثقافة مختلفة هي الثقافة العربية دون إدراك للاختلاف وقد يجد المتابع تداخلا في المفاهيم الدلالية للمصطلح الواحد، وكذلك نعثر على مفهوم واحد لعدد من المصطلحات، مما أوجد حالة تخبط في فهم المصطلح أحياناً وعندما يكون المفهوم أو النظرية الأساس، الذي ينبثق منه المصطلح غير واضح المعالم نصطدم برؤية ضبابية له، إذ نشأ في بيئة فكرية فلسفية تنحاز إلى منهجية العلم وتنظيراته الجدلية، وهو بالتالي يجب أن يكون بيناً لذهن المتلقي كجزء منتم لكل، هو الخليفة المعرفية، وهذا ما دعا أحد النقاد لوصف الإضطراب في استعمال المصطلح النقدي لأنه آفة فاشية يعاني منها النقد العربي المعاصر معاناة قاسية.

ولعل اختلاف المصطلحات في أحد وجوهه ناجم عن هجرة المصطلح من بيئة لغوية ومعرفية إلى بيئة اخرى مغايرة؛ إذ يؤدي ذلك إلى اشكالية في حدوده ومفهومه، وكذلك إلى تبعية المصطلح للمنهج، ويبدأ الخلل عندما يحاول بعض الباحثين زج المصطلح في منهج نقدي آخر، متغافلين عن العلاقة الوثيقة بين المنهج والمصطلح لأنهما صنوان ليس في وسع أحدهما أن يستغني عن الآخر أثناء الفعل النقدي، ودون ذلك يهتز الخطاب النقدي

[1]– آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص78.

وتذهب ريحه ويفشل في القيام بوظيفته، [1] كما أن هذه الهجرة تؤدي إلى حيرة في تلقي المصطلح في البيئة الجديدة، فاعتماد بعض المثقفين اللغة الانكليزية في ترجماتهم، يغاير تلقي المصطلح بالنسبة لمن يعتمد اللغة الفرنسية[2].

وقد ذهب الداعون إلى ضرورة الربط بين المصطلح والمنهج كي يتسنى للمصطلح تأدية وظيفته، واشترطوا وجوب أن يتوفر فيه شرطان أساسيان: الأول تمثيل كل مفهوم... بمصطلح مستقل، والآخر: عدم تمثيل المفهوم...الواحد بأكثر من مصطلح واحد، وهذا العبء لا يقع على عاتق الباحث وحده، بل إن غياب ثقافة استخدام المصطلح، وغياب ثقافة المنهج من الحياة الثقافية بعامة أسهم في توليد هذه الإشكاليات، إضافة إلى قلة المؤسسات العلمية المنسقة للجهود المتخصصة بتعريف المصطلح، وتهيئته للتداول، ما جعل الميدان مفتوحاً للاجتهادات الفردية التي ستقود بالضرورة إلى تضارب الخطابات النقدية وتضليل القارئ في كثير من القضايا المتصلة بالأطر المفهومية للمصطلح في علاقاتها بالسياقات التي ترد فيها.[3]

إن اشكالية المصطلح النقدي العربي تعد من أهم القضايا النقدية التي يشخصها هذا النقد، ويمكننا توضيح ماهية هذه الإشكالية، بتعدد الدوال لمدلول واحد، أو تعدد المدلولات لدال واحد.

ويرجع **أحمد مطلوب** هذه الإشكالية إلى فوضى التأليف والترجمة المتأتية من تباين المناهل الثقافية التي ينتمي إليها المؤلفون والباحثون، في حين يذهب **عمر عيلان** إلى أن غياب التراكم المعرفي والنظري المتعلق بالمناهج الحداثوية ابتداء، أدى إلى تباين الجهاز المصطلحي، وتعود هذه الإشكالية إلى جملة من الأسباب، منها الترجمة الحرفية، وسكونية

[1]– المرجع نفسه، ص 79.

[2]– آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 79– 80.

[3]– المرجع نفسه، ص 80.

المجامع اللغوية في الوطن العربي، وتنوع المناهج النقدية، ولغياب النظرية النقدية العربية، أو غياب المؤسسات العلمية المسؤولة، ويبدو أن معالجة هذه الإشكالية يكمن في معالجة الأسباب التي أشار إليها النقاد، التي أدت إلى استفحالها أساساً، لكن الأمر ليس بهذه السهولة إذ أصبح من العسر إلزام النقاد بالآليات المطروحة لمعالجتها، فضلاً عن ماهية هذه الآليات، التي تتطلب جهداً مؤسساتياً ومواصفات متفردة لا بد من توفرها في من يتصدى لهذه المهمة، ولعل من أبسطها المعرفة الواسعة بلغة النص الأم ولغة الناقد يضاف إلى ذلك الإلمام النقدي التام بكل هذه المناهج في منابعها الغربية، والإلمام بالفكر النقدي الذي ينتمي إليه الناقد، فضلاً عن الفكر النقدي العربي[1].

والإشكاليات التي يعاني منها المصطلح السيميائي لا تختلف عن سواها كثيراً إلا بخصوصية المنهج السيميائي ذاته، ومن الضروري إبان الإفادة من المصطلح السيميائي مراعاة نشأته الطبيعية في الغرب، والإكتراث بمدى ملاءمته الإنتاج الأدبي العربي، وهو في ذلك مثله مثل بقية المصطلحات التي تصلنا عبر الترجمة، حيث إن المشكلة الأساسية في عملية الترجمة بين لغتين هي محاولة إيجاد لفظ ما في لغة ما مطابق للفظ آخر في لغة أخرى، وهذا يفترض من البداية تطابق اللغتين في التصنيف وفي الخلفيات الثقافية والاجتماعية وفي مجازاتها واستخداماتها اللغوية، وفي تصوراتها، وهو ما لا يتحقق ولا يمكن أن يتحقق مطلقاً[2].

كما تداخلت المصطلحات السيميائية داخل المنهج مع غيرها من مصطلحات المناهج النقدية الأخرى، فمرة يستخدم الباحث مصطلحاً بنويا ويعتبر ذلك مألوفاً، لكون البنوية تقترب في بعض مفاهيمها الشكلية من السيميائية، ومرة يستخدم لمصطلح التفكيكي نتيجة الظن أن ما اعتنت به التفكيكية من غنى ايديولوجي وثقافي يتقارب مع السيميائية التي انفتحت

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص149.

[2]– آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 80.

على كل أنواع العلوم والثقافات.[1] مع أنه من أمارات القصور المنهجي والفوضى النقدية أن نطبق منهجاً نقدياً باستخدام مصطلحات غيره من المناهج.

والأمر لا يبتعد كثيراً في سياق الحديث عن المصطلح السيميائي كلفظ أو مركب لفظي منزاح عن دلالته المعجمية الأولى، متفق عليه من أهل الاختصاص ومختلف بشأنه تارة أخرى.[2]

والاختلاط بين المصطلحات لا يطال مصطلحات المنهج السيميائي فحسب، بل نجد الإختلاف في تسمية السيميائية ذاتها بين المتحمسين لـ **سوسير** والمتحمسين لـ **بيرس** مع أنه ليس ثمة وثيقة تؤكد لقاء أو اطلاع أحد المؤسسين على أعمال الآخر، ومن هنا نجد أن معظم النقاد الفرنسيين قد انتصروا لمصطلح "السيميولوجيا" semiology السوسيري، ومعظم النقاد الإنكليز والأمريكيين ذهبوا لإستعمال مصطلح "السيموطيقا"semiotics الذي استخدمه **بيرس** ومن ثم أكد حضوره **جون لوك**، وكلا التسميتين دالان لمدلول واحد يفهم منه أنه علم العلامات ومتابعة ما كتب حول استقبال مفهوم "السيميائية" في الثقافة العربية، يكشف أن من استعمل مصطلح "السيميوطيقا" غالباً كان منبع فهمه لها من **بيرس** الأمريكي الذي نظر إليها انطلاقاً من كونها مفهوماً يحيل على مفاهيم فلسفة شاملة وعلامات غير لغوية.

وأما مستعملوا مصطلح "السيميولوجيا" فقد كان منبع ثقافتهم غالباً من جهة **سوسير** والنقاد الأوروبيين، وهي عندهم معطى ثقافي أوروبي هو أدنى إلى العلامات اللغوية، والمجال الألسني عموماً، منه إلى أي مجال آخر.[3]

[1]– آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 80.

[2]– المرجع نفسه، ص 80–81.

[3]–نفسه، ص 81.

كما نجد أن فريقا ذهب إلى استعمال مفردات إبان ترجمته للمصطلح تفيد بملاءمته بين المصطلحين، مع إدراكه أن "السيميولوجيا" تعني الحصول على ثقافة أوروبية، واستعمال مصطلح "السيميوطيقا" يشير إلى ثقافة أمريكية غالباً[1].

ويبدو أن المصطلح قديم ويعود إلى أيام **أفلاطون**، فنحن نجد مصطلح سيميوطيقا sémiotiké في اللغة الأفلاطونية إلى جانب مصطلح grammatiké الذي يعني تعلم القراءة والكتابة، ومندمج مع الفلسفة أو فن التفكير، ويبدو أن السيميوطيقا اليونانية لم يكن هدفها إلا تصنيف علامات الفكر لتوجيهها في منطق فلسفي شامل: "السيميولوجيا" القديمة تنتمي إلى جرد مدلولات الفكر، وانطلاقاً من هذا تنصهر "السيميولوجيا" حسب بعض المظاهر مع ما نسميه راهنا بالمنطق الصوري ويختفي المصطلح لمدة طويلة ولا نجده إلا في دراسة للفيلسوف الإنجليزي (1632- 1704) تحت اسم sémiotiké وبدلالة جد مشابهة لتلك التي قدمتها الفلسفة اليونانية الأفلاطونية[2]، حيث وردت أول إشارة بينة إلى السيميائية باعتبارها فرعاً من فروع الفلسفة، في مؤلف **جون لوك** مقالة تتناول "الفهم البشري".[3]

أما بالنسبة إلى **سوسير** السيميولوجيا هي علم يدرس دور الإشارات كجزء من الحياة الإجتماعية، اما بالنسبة إلى الفيلسوف **تشارلز بيرس** فحقل الدراسة الذي يسميه "السيميائية" هو الدستور الشكلاني للإشارات مما يقربها من المنطق، كان **بيرس** يعمل بعيداً عن **سوسير** على الجهة الأخرى من الأطلسي فاستعار مصطلحاته من **جون لوك** وكتب الآتي: [4] "إن المنطق، بالمعنى الواسع للكلمة... تسمية اخرى للسيمياء (sémeiotiké)، الدستور شبه

---

[1]- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 81.

[2] - عصام خلف كامل، الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، دار فرحة للنشر والتوزيع، د/ط 2003، ص 14-15.

[3]- دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، ترجمة طلال وهبه، مراجعة ميشال زكريا، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، دار الأمان الرباط ط1، 1434، 2013، ص 29.

[4]- المرجع نفسه، ص 30.

الضروري والشكلاني للإشارات وعندما أصف الدستور بأنه شبه ضروري أو شكلاني، أعني أننا نطلع على سيمات الإشارات أثناء اكتساب المعرفة... وتقودنا سيرورة لا أعترض على اعتبارها تجريداً، إلى طروحات تتميز بأنها تحتمل الخطأ، وهي لذلك، بمعنى من المعاني، غير ضرورية أبداً من ناحية ما يجب أن تكون عليه سمات كل الإشارات التي يستخدمها عقل علمي، أي عقل يستطيع أن يتعلم بوساطة التجربة "[1]

وعليه فإن سيميوطيقا (sémiotique) (sémiotic) نظرية شبه ضرورية أو شكلية للعلامات، وهي ليست حسب **بيرس** إلا اسماً آخر للمنطق.[2]

تؤكد معظم الدراسات اللغوية أن الأصل اللغوي لمصطلح sémiotique يعود إلى العصر اليوناني، فهو آت كما يؤكد **برنار توسان** من الأصل اليوناني sémion الذي يعني "علامة" logos الذي يعني "خطاب" ... وبامتداد أكبر كلمة تعني العلم، فالسيميولوجيا هي علم العلامات.[3]

لم يزل السيميائيون الغربيون يلهثون وراء محاولة تحديد الفرق بين مفهومين اثنين يبدوان مختلفين من الناحية اللفظية، وهما "السيميولوجيا" و"السيميوتيكا" ومن جهة أخرى هل يعني ذلك أنهما واردان بمعنى واحد في الاستعمال الحقلي، وإلا لماذا هذه الازدواجية؟

ويبدو أن مصطلح "السيميوتيكا" أقدم وجوداً وأعرق ميلاداً (1555) من مصطلح "السيميولوجيا" الذي لم يتداول إلا زهاء سنة 1910.[4]

---

[1]– دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، ترجمة طلال وهبه، مراجعة ميشال زكريا، ص 30.

[2]– جيرار دولودال بالتعاون مع جوويل ريطوري، السيميائيات أو نظرية العلامات ترجمة عبد الرحمان بوعلي، ص 34.

[3]– فيصل الأحمر، معجم السيميائيات منشورات الاختلاف ، ط1، الجزائر 1431./ 2010 ص 11. 12

[4]– الصادق خشاب، التعريب وصناعة المصطلحات دراسة تطبيقية في القواعد والاشكالات. ط1. عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع اربد، الأردن 2016، ص 230.

ويضيف **محمد عناني** أنه ترجم كلا من المصطلحين السابقين بعلم العلامات، ودافع عن تعريب اللفظ الأجنبي، وعن ترجمته السابقة مفضلاً توظيف أحد المصطلحين على لفظ أو مصطلح السيمياء العربية القديمة، والتي توحي لفظاً ومعنى بعلاقة قديمة بالكلمة اليونانية التي اشتقت منها الكلمة الأوروبية الحديثة سيميولوجيا وسيميوطيقا، وقد لجأ عند التعريب إلى استخدام المصطلحين بمعنى واحد، والواقع أن بعض الباحثين قد حاولوا أن يفرضوا فروقاً بينهما، مثل محاولة حصر السيميولوجيا في العلم النظري وجعل السيميوطيقا تنصرف إلى تطبيقات هذا العلم.[1]

يحدد **جاكبسون** مفهوم السيميائيات، بأنها العلم الذي يدرس كل ما هو كائن من إشارات وطريقة استخدامها بما يمكن أن يستفاد منه يقول: "تتناول "السيميائيات" المبادئ العامة التي تقوم عليها بنية كل الإشارات أيا كانت، كما تتناول سمات استخدامها في مرسلات وخصائص المنظومات المتنوعة للإشارة، ومختلف المرسلات التي تستخدم مختلف أنواع الإشارات"[2].

يحيل القول إلى فكرتين رئيسيتين أولاهما أن السيميولوجيا تتناول كل الإشارات بما في ذلك اللغة كمجموعة من الرموز الدالة، كما تناول كيفية استخدام هذه الإشارات وطريقة انتظامها حتى تؤدي وظيفة معينة هي التواصل، وتقوم أساسا على ستة عناصر يحصرها في:

1-المرسل destinateur أو الباث l'émetteur أو المخاطب او الناقل أو المتحدث.

2-المرسل إليه le destinateur أو المستقبل Le récepteur.

[1]- الصادق خشاب، التعريب وصناعة المصطلحات دراسة تطبيقية في القواعد والاشكالات، ص 230.

[2]- مولاي متقدم، السيميائيات/ السيميولوجيا قراءة في المفهوم والمصطلح. مجلة التواصلية . منشورات مخبر اللغة وفن التواصل. العدد التاسع، ربيع الأول 1438هـ. الموافق لـ ديسمبر 2016م، جامعة المدية، ص 16.

3-الرسالة le message.

4-السنن code أو اللغة language أو النظام systéme أو الكفاية compétence[1].

وعليه، فإن كثيراً من النصوص والخطابات والصور والمكالمات الهاتفية عبارة عن اشارات يرسلها المرسل إلى المرسل إليه.

غير أننا يجب أن نركز على شيء آخر قد يبدو في نظرنا على الأقل ذا أهمية كبيرة لم يتطرق إليه **رومان جاكبسون** ألا وهو قضية الإدراك أي ادراك هذه الإشارات من طرف المرسل إليه، بما يمكن أن يجعل عملية التواصل تتم على أكمل وجه[2].

لا ينفرد **رومان ياكسون** بهذا الطرح لوحده وإنما يشاركه فيه مجموعة من النقاد الغربيين، فهذا **لويس بريطو** luis. D.prieto يشير إلى "أن السيميولوجيا هي العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات أيا كان مصدرها لغوياً ام سننياً أم مؤشرياً وغير بعيد عن هذا تذهب **جوليا كريستيف**ا julia kristeva في تعريفها للسيمائيات أنها "دراسة الأنظمة الشفوية وغير الشفوية ومن ضمنها اللغات بما هي أنظمة أو علامات تتمفصل داخل تركيب الإختلافات هي ما يشكل موضوع علم أخذ يتكون و يتعلق الأمر بالسيميوطيقا"[3].

ما يلاحظ أن المفاهيم السابقة الذكر وإن اختلفت في طريقة الصياغة إلا أنها تتفق كلية على فكرة واحدة وهي دور العلامة في الحقل السيميائي سواء تعلق الأمر بـ **بيرس** أو **جاكبسون** أو **لويس برييطو** أو حتى **جوليا كريستيفا** تبقى العلامة هي ما يميز الدرس

[1]- مولاي متقدم، السيميائيات السيميولوجيا قراءة في المفهوم والمصطلح، ص 16-17.

[2]- المرجع نفسه، ص 17.

[3]- نفسه، ص 18.

السيميائي، من حيث كنهها وطبيعتها كما تسعى إلى الكشف عن القوانين المادية والنفسية التي تحكمها وتتيح امكانية تمفصلها داخل التركيب.

إن هذا الكنه وهذه الماهية قابلة للإدراك بالنسبة لمجموعة محددة من مستعمليها، كما أنها في حد ذاتها ناقصة المعنى تماماً إذا أدركها أحد من غير هذه المجموعة.[1]

ويجمع الدارسون على أن السيميولوجيا هي العلم "الذي يتناول الرموز بقدر ما يتناول الإشارات والبحث في علاقتها بالمعاني والدلالات المختلفة التي يمكن أن تشير إليها"[2].

ومن ثم فقد عرف علماء الغرب السيميولوجيا بأنها "العلم الذي يدرس العلامات وبهذا عرفها كل من **تودروف** و**كريماص** وجوليا **كريستينفا** و**جون دوبوا** و**جوزيف راى دوبوف** وقد اختلفت التعاريف التي تدور حول معنى السيميولوجيا ولكنها دارت في فلك العلامة والأنظمة اللغوية.

فهي "ذلك العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات لغوية كانت أو أيقونية، أو حركية، وبالتالي، فإذا كانت اللسانيات تدرس الأنظمة اللغوية، فإن السيميولوجيا تبحث في العلامات غير اللغوية التي تنشأ في حضن المجتمع" [3].

وقد عرفها **بيير غيرو** بقوله "هي العلم الذي يهتم بدراسة أنظمة العلامات: اللغات، أنظمة الإشارات، التعليمات...الخ وهذا التحديد يجعل اللغة جزءاً من السيمياء..."[4]

وقد حدد الدكتور **صلاح فضل** مفهوم السيميولوجيا: "بأنها العلم الذي يدرس الأنظمة الرمزية في كل الإشارات الدالة وكيفية هذه الدلالة..." في حين ذهب الدكتور **سعيد علوش**

---

[1]– مولاي متقدم، السيميائيات السيميولوجيا قراءة في المفهوم والمصطلح، ص 18.

[2]– عصام خلف كامل، الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، ص17–18.

[3]– المرجع نفسه ، ص 18.

[4]–نفسه، ص 18–19.

إلى تعريفها يقوله: "هي دراسة لكل مظاهر الثقافة، كما لو كانت أنظمة للعلامة، اعتماداً على افتراض مظاهر الثقافة، كأنظمة علامات في الواقع ".

أما الدكتور **محمد السرغيني** فقد أورد التعريف القائل بأن: "السيميولوجيا هي ذلك العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات أيا كان مصدرها لغوياً أو سننياً أو مؤشرياً".

وورد التعريف في موسوعة علم الإنسان بأنه: "علم العلامات أو السلوك المستخدم للعلامة، وينطوي على دراسة كل من الإتصال اللغوي وغير اللغوي، كما يدرس كيف تخلق عملية تنميط السلوك الثقافي البشري صور الدلالة التي يتم تفسيرها وفقاً لمبادئ عامة مشتركة، وعادة ما يتم ذلك بمناظرتها بالسلوك اللغوي"[1].

ويبدو من التعاريف السابقة أنه علم يهتم بالعلامة وهو اتفاق عند الجميع أما مضمونه فهو دراسة الأنظمة الرمزية والعلاماتية عند الدكتور **صلاح فضل** والدكتور **سعيد علوش** والدكتور **محمد السرغيتي** وقد جعلها **بير غيرو** مخصصة لأنظمة الإشارات وفي موسوعة علم الإنسان جعلوها علماً لدراسة مظاهر كل أنماط السلوك الثقافي البشري[2].

يذهب الناقد **عبد الله أبو هيف** إلى أن المصطلح السيميائي أوسع المصطلحات النقدية حضوراً، وتأتي أهميته من كونه (ركيزة الدرس السيميائي العالمي بشكل عام والعربي بشكل خاص)، ولهذا فقد تصدى لهذا الموضوع نقاد كثر في مباحث فرعية أو مؤلفات بأكملها، فذهب **عصام خلف كامل** إلى أن عدم وجود اتفاق حول تعريب المصطلح قاد إلى إضطراب المتلقي العربي وقلقه إزاء هذه النظريات الوافدة فأدى ذلك إلى رفضها أو صعوبة تقبلها أو مهاجمتها، لكن هذا الكلام يفتقر إلى الدقة من جوانب عدة، فحديث الناقد في سياقه العام في تعريب المصطلح السيميائي ونقله، ومن ثم لا مبرر بخلط استقبال هذا

[1]– عصام خلف كامل، الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، ص 19.

[2]– المرجع نفسه، ص 19–20.

الاتجاه النقدي مع استقبال النظريات النقدية الوافدة، فالنقد العربي لم يتعامل مع جميع المناهج النقدية الحديثة على حد سواء، بل تعامل معها بقدر منافستها للتراث العربي، فموقفه من الأسوبية ليس كموقفه من السيميائية، التي لم تطرح كونها تهديداً للتراث مثلما طرحت الأسلوبية، بل نجدها تمثل جزءاً مهماً من التراث العربي، ولعل استقبال النقد العربي لها منذ وقت مبكر خير دليل على تقبلها وهذا ما جعلها تمثل اتجاهاً بارزاً فيه.[1]

ومن النقاد الذين وقفوا على هذه الإشكالية الناقد **سمير حجازي**، والناقد **مولاي علي بوخاتم** في كتابه (مصطلحات النقد العربي السيماوي/ الإشكالية والأصول والامتداد)2005، وتناول فيه شروط وضع المصطلحات وطرائق وضعها وموضوع المصطلح بين الواقع والتحقيب، فالناقد يضع آلية لكيفية استنباط المصطلحات النقدية، وكأنه يظن أن المشكل في الآليات، والأمر ليس كذلك، لأنه يتجاوز الآليات إلى كيفية إلزام النقاد بالحد من توليد المصطلحات... أما مصطلح السيميائية فقد خصه الناقد **عبد الله بوخلخال** ببحثه الموسوم بـ (مصطلح السيميائية في البحث اللساني العربي الحديث، النشأة والمفهوم والتعريب) 1995، ودعا الناقد فيه إلى ضبط مفاهيم المصطلحات وتقييد إطلاقها، وأن تأخذ المؤسسات الاكاديمية والمجاميع العلمية وكل المؤسسات التي لها علاقة بالموضوع دورها في توحيد المصطلح، ورجع اختلاف المصطلحات بين النقاد العرب إلى ضعف التنسيق بين المؤسسات المعنية بهذا الأمر، واختلاف المشارب الثقافية للمترجمين والدارسين على حد سواء.[2]

يحصي **بوخلخال** المصطلحات المرادفة للسيمائية بسبعة عشر مصطلحا وردت كلها في المؤلفات النقدية العربية ما بين مترجم ودراسة، وخلص الناقد في نهاية بحثه إلى أنه يفضل (التمسك بلفظ السيميائية) معللاً ذلك بـ (انسجامه اللفظي والصوتي مع اللفظ الأجنبي

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 149–150.

[2]– المرجع نفسه، ص 151.

من جهة. ولعلاقته الدلالية بما ورد في تراثنا اللغوي من جهة أخر. ويبدو أن ما ذهب إليه **بوخلخال** يستند إلى حجة منطقية تستمد قوتها من التراث العربي، وهو على الضد مما ذهب إليه **صلاح فضل** من خشيته أن يفهم القارئ العربي من السيميائية شيئاً يتصل بالفراسة...أو يربطها بالسيميا وهي العلم الذي اقترن في مراتب المعارف العربية بالسحر) يتصف بالغلو، لأن دلالة السيمياء والسيميا قد طغت عليها الدلالة القرآنية كما في قوله (... تعرفهم بسيماهم) وكذلك في قوله تعالى (...سيماهم في وجوههم من أثر السجود) وغيرها من النصوص القرآنية التي جاءت فيها السيمياء بمعنى العلامة، ومن ثمة فلا خشية على تسمية السيميائية، ولعل موضوعية **فضل** هنا تكمن في عدم تشدده بتسمية مخصوصة، والمهم عنده (أن نتفق على تسمية حتى توفق في أداء وظيفتها المنهجية) إلا أن النقاد أخفقوا في الاتفاق على مصطلح موحد، فظهر لنا هذا العدد الهائل من المصطلحات[1].

ومن النقاد الذين تناولوا إشكالية المصطلح النقدي الناقد **ميلود عبيد** في بحثه (إشكالية المصطلح النقدي/ مصطلحات السيميائية السردية نموذجاً) 2006، تناول فيه موضوع السيميائية السردية بشيء من الإيجاز والابتكار، فقد أشار إلى إشكالية الترجمة، وعدا ذلك إلى (الاختلاف بين بلدان المشرق العربي التي تعتمد الثقافة الانكليزية في تعاملها مع المصطلح الأجنبي، وبلدان المغرب العربي التي تميل أكثر إلى الثقافة الفرنسية، وتحاول أن تقترب أو تعب أكثر من مصطلحاتها)، ويرى الناقد أن المصطلحات تتحول وتتعدد للا شيء إلا لأنها تمتلك تاريخاً خاصاً بها، وبناء على هذا التحول تتغير لفظاً ودلالة (و) أن هذه التحولات تعطي للمصطلح الواحد إمكانات التعبير متعددة (كذا) وتسيمه بالاختلاف الدلالي.

إن ما ذهب إليه الناقد يصح إذا ما اختلف الزمن، فمصطلحات العصر العباسي هي غير مصطلحات العصر الحديث، أما إنه يطلق على زمن لا يتعدى الثلاثين عاماً،

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 151–152.

فلا نجده دقيقاً، لأن دلالات المصطلحات لا تتغير إلا بعد مدة طويلة تصل إلى قرن على أقل تقدير، ومن الأسباب التي ذكرها الناقد ويرجع سبب إشكالية المصطلح السيميائي السردي إليها، هي قلة البحوث والدراسات السيميائية، وهذا يخالف الواقع ويغالطه فالبحث السيميائي تجاوز النصوص الإبداعية إلى مجالات أخرى كما عرضنا وذكر ذلك **رشيد بن مالك** ولا سيما السيميائية السردية فقد كتبت في هذا المجال دراسات كثيرة تجاوزت ما كتب مجموعاً في الأجناس الأخرى[1] وسبب ذلك يعود إلى أن نظرية **كريماس** اعتمدت في تطبيقاتها على السرد، حتى ظن **محمد مفتاح** أن التحليل السيميائي يصلح على النصوص التي تحمل طابعاً سردياً.

وبناءً على كل ما سبق نرى أن هذه الإشكالية تعود إلى ثلاثة أسباب هي:

الأولى: يتمثل في ثقافة المترجم اللغوية والتراثية، فهي الخزين الذي ينهل منه مصطلحاته، والثاني يعود إلى تمكن المترجم من اللغة الذي يترجم منها كالفرنسية أو الانكليزية، فمتى ما كان المترجم ملما بمفردات تلك اللغة ومصطلحاتها كان أكثر دقة في اختيار المصطلح، أما السبب الثالث فهو ثقافة المترجم في الميدان أو الجنس الإبداعي الذي يعمل فيه، فالثقافة الشعرية مثلاً هي غير الثقافة السردية.

ولا بد أن تكون وقفتنا الرئيسية في هذا الخصوص عند المؤلف **يوسف وغليسي** (إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد) كونه من أكثر المؤلفات استقراء للمصطلح السيميائي [2].

سواء المصطلح الأم أم مصطلحاته الفرعية، ونعتقد أن هذا الكتاب يكفينا الحديث عن هذا الموضوع.

---

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 152.

[2]–المرجع نفسه، ص 153.

يرى المؤلف أن التداخل بين السيميائية والسيميولوجيا لا ينحصر على النقد العربي وإنما نجده حتى في الدراسات الغربية، فـ **تودورف** و**ديكرو** ويقدمان (هذين المفهومين في قاموسهما الموسوعي بصيغة العطف والتميز: السيميائية أو السيميولوجيا هي علم العلامات)، ويذهب المؤلف إلى أن قاموس **جورج مونان** يميز بين المصطلحين فيشير إلى أن السيميائية مصطلح ينتمي إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لـ **شارل موريس** مثلاً، وفي بعض الأحيان يستعمل للدلالة على نظام من العلامات غير اللغوية، ويذهب المؤلف إلى أن مجمل علماء العلامات كثيراً ما يرادفون بين المصطلحين ويتساهلون في استبدال أحدهما بالآخر ثم يتناول الناقد إشكالية مصطلح السيميائية في النقد العربي، وسنعرض اعتماداً على استقرائه المصطلحات المرادفة التي ورد ذكرها في مؤلفات النقاد العرب، وسنردها كما وردت في كتاب وغليسي[1]:

المقابل العربي	اسم المترجم	المرجع
علم العلامات	1- مجدي وهبة 1- سمير حجازي 2- سعيد علوش 3- عبدالسلام المسدي 4- عزالدين اسماعيل 5- عدنان بن ذربل	معجم مصطلحات الأدب 507 قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر 82 معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة 155 الأسلوبية والأسلوب 182 ترجمة (نظرية التلقي) لروبرت هولب 372 اللغة والأسلوب 78. 113
العلامية	المسدي	قاموس اللسانيات 186 الأسلوبية والأسلوب 181

[1] – محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 153

العلاماتية	محمد عبد المطلب	العلامة والعلامتية، القاهرة –بيروت 1988
علم العلاقات	1–محمود السعران 2–محمد عزام	أوردة الحمزاوي في (المصطلحات اللغوية الحديثة) 262 الأسلوبية 114
علم الدلائل	1–عبد الحميد بورابو 2–القرمادي، الشاوش، عجينة	ترجمة (مدخل إلى السيميولوجيا) لدليلة مرسلي (وأخريات) 11 ترجمة (دروس في الالسنية العامة) لدوسوسير 37
علم الأدلة	1–الحاج صالح (وآخرون) 2–محمد البكري	المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات 129 مجلة (العرب والفكر العالي)، ع1، شتاء 1988، ص71 + ترجمة (مبادئ في علم الأدلة) لبارت
الدلائلية	التهامي الراجي الهاشمي	معجم الدلائلية، ضمن (اللسان العربي)، ع24، 1985، ص148
علم الدلالة اللفظية	الحاج صالح (وآخرون)	المعجم الموحد، 129
علم السيمانتيك	تمام حسان	أوردة الحمزاوي، السابق، ص262
دراسة المعنى في حالة سنكرولية	تمام حسان	نفسه ص 264

علم الإشارات	ميشال زكريا	الألسنية 291
الاعراضية	يوسف غازي، مجيد النصر	ترجمة (محاضرات في الألسنية العامة) لدى سوسير 27

المقابل العربي	اسم المترجم	المرجع
سيميولوجيا سيميولوجية	1-صلاح فضل 2-عبد الله الغدامي 3-محمد عناني 4-سعيد علوش 5-عبد الملك مرتاض 6-عبد العزيز حمودة 7-محمد نظيف	نظرية البنائية 445، شفرات النص 06 منتهج النقد المعاصر 115 الخطيئة والتكفير: 12 المصطلحات الأدبية الحديثة: 153 معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: 71 مجلة (تجليات الحداثة)، 02 يونيو 1993 ص: 15 المرايا المحدبة 227 ترجمة كتاب (ما هي السيميولوجيا) لبرنار توسان، ط2، 2000
سيمولوجيا	محمد عزام	الأسلوبية منهجاً نقدياً: 114
علم السيميولوجيا	عبد العزيز بن عبد الله	مجلة (اللسان العربي)، ع23، 1985 ص: 166
ساميولوجيا	محمود السعران	أوردة الحمزاوي في (المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية)، ص262. 1959

سيمياء	1-أنطوان أبي زيد 2-بشام بركة 3-إيميل بعقوب (وآخرون) 4-لطيف زيتوني	ترجمة كتاب (السيمياء) لبيار غيرو 1984، معجم اللسانية: 186 قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية معجم مصطلحات نقد الرواية: 209
علم السيمياء	عبدالرحمان الحاج صالح (وآخرون)	المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات: 129
السيميائية	خلدون الشمعة	المنهج والمصطلح: 151
السيميائية	جوزيف.م.شريم	دليل الدراسات الأسلوبية: 61
السماتية	عبد العزيز بنعبد الله	(اللسان العربي)، ع23، 1985، ص166
السيميائيات	مبارك حنون	دروس في السيميائيات، الدار البيضاء: 1987
سيامة	بسام بركة	معجم اللسانية: 186
علم الرموز	1-علي القاسمي (وآخرون) 2-فايز الداية	معجم مصطلحات علم اللغة الحديث 82. علم الدلالة العربي: 08

المقابل العربي	اسم المترجم	المرجع
الدلائلية	1-محمد البكري 2-المبخوت وبن سلامة	(العرب والفكر العالمي) بيروت، ع01، شتاء

		1988، ص70 ترجمة (الشعرية) لتودوروف 91
الدلائليات	محمد معتصم	ترجمة (عودة إلى خطاب الحكاية) لجيران جنيث 231
علم الأدلة	الحاج صالح (وآخرون)	المعجم الموحد 129
علم الدلالة	1-محمد ناصر العجيمي 2-سامي سويدان	في الخطاب السردي21 في دلالية القصص 11-16-17-68
علم الدلالات	محمد عزام	الأسلوبية منهجاً نقدياً 29
علم الدلالة اللفظية	الحاج صالح (وآخرون)	المعجم الموحد 129
الدلائلي	التهامي الراجي الهاشمي	معجم الدلائلية (اللسان العربي)، عدد 5 245
علم السيميولوجيا	صلاح فصل	بلاغة الخطاب وعلم النص 22
العلامية	المسدي	الأسلوبية والأسلوب 181
علم العلامات	مجدي وهبة	معجم مصطلحات الأدب 507
السيميوطيقا	1-محمد عناني 2-محمد مفتاح 3-عبد العزيز حمودة 4-عثماني الميلود 5-نصر حامد أبو زيد	المصطلحات الأدبية الحديثة 153 تحليل الخطاب الشعري 10 المرايا المحدبة 278 شعرية تودوروف 69

	6-محمد الماكري 7-جميل حمداوي	إشكاليات القراءة وآليات التأويل 56، 66، 185 الشكل والخطاب 39 (عالم الفكر)، الكويت، م25، ع03 يناير-مارس، 97، ص79
السيماطيقا	سمير حجازي	قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر 90
نظرية الإشارة	سمير كرم	ترجمة (الموسوعة الفلسفية)، ص 335
الإشارية	عبد الملك مرتاض	النص الأدبي من أين وإلى أين 21
الرموزية	مبارك مبارك	معجم المصطلحات الألسنية 262[1]

يحصى الناقد **يوسف وغليسي** المصطلحات التي وردت في الجدولين المذكورين آنفا فيجدها تتمثل ب(السيميائيات، السيميائيات، السيميائية.....الخ

يبدو أن النقد العربي يمر بحالة مرضية مشتركة اسمها (هوس التوليد المصطلحي)، وكأن التفنن في اختراع المصطلحات وتوليدها سمة مميزة في خصوصية كل ناقد، وما هذا في حقيقته (إلا من قبيل اللغو، أومن قبيل الموضة الفكرية دون أن يعرفوا كيفية الاستعمالات الدقيقة لهذه المصطلحات)، وربما ظنوا أن الناقد بما يمتلك من معجم مصطلحي، وإن كان

[1]- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 154-155-156.

ذلك على حساب القارئ العربي الذي ضاع في خضم هذا العدد الهائل من مصطلحات وفي مختلف المناهج،[1] ولذا نجد أغلب النقاد العرب المحدثين ينأون بأنفسهم عن تحمل المسؤولية إزاء هذه القضية التي أصبحت إشكالية نقدية تؤرق القارئ العربي، وهذا الإحساس يأتي من جهتين: الأولى هو تعدد المصطلحات لمفهوم واحد، والأخرى هو إيمان النقاد أنفسهم بأنها اشكالية، ومن ثم فإن القارئ العربي سيشعر بأنها إشكالية وسيتعسر عليه الفهم لا شعورياً، وإن كان يعي المفردة والمفهوم.

لقد اقترح **صلاح فضل** مصطلح السيميائية وفضل عليها علم السيميولوجيا لئلا يلتبس الفهم العربي بعلوم السحر، إلا أنه قال بموضوعية تامة، (والمهم هو أن نتفق على التسمية...)، فهو لا يضع في أولياته المصطلح، بقدر ما يضع الاتفاق الجمعي على المصطلح، وهذا هو المنطق الصحيح، لأن المهم هو الاتفاق على مصطلح بعد استقرار المفهوم لدى الناقد العربي، فاللبس الذي يولده تعدد المفاهيم أكثر بكثير من عدم الدقة في تسمية المصطلح، وهذا ما أشار إليه **بشير تاوريريت** إذ قلل من خطورة هذه الإشكالية وذهب إلى أن (مشكلة المصطلح هي مشكلة ثانوية، ذلك لأن مهما تعددت المصطلحات تظل المفاهيم واحدة في الأغلب الأعم)، ويبقى السؤال الأهم هل ظاهرة تعدد المصطلحات لمفهوم واحد تستحق أن تكون اشكالية جوهرية في النقد العربي، لتقف عائقاً أمام القارئ العربي، سواء كان ذلك القارئ ناقداً أم متلقيا بسيطاً؟، وما الطريقة التي نستطيع بواسطتها تجاوز هذه الإشكالية؟ وللإجابة لا بد لنا أن نعترف أن تعدد المصطلحات لمفهوم واحد يعد إشكالية وخللاً في منظومة الاستقبال النقدي العربي، وأن لها وجوداً فعلياً في الدراسات النقدية العربية، إلا أنها لا تمثل عائقاً جوهرياً لمسيرة النقد العربي الحديث، لأنها مألوفة ومشخصة من النقاد العرب، فالسيميائية ومصطلحاتها باتت على مائدة الناقد السيميائي العربي، وكلها تتحدث عن مفهوم واحد عرفه **بورس** و**سوسير** ابتداءً، ولذا نجد **صلاح فضل**

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 157.

يقول: (وأيا ما كان الأمر، فإن تسمية المصطلح مجرد منطلق[1]، والمهم أن تبحث عن ما هي السيميولوجيا)، وهذا الأمر يجب أن يخضع له النقد العربي، إلا أن هذا لا يعني رفع الراية البيضاء، وأننا نبيح عمل مخترعي المصطلحات، بقدر ما هي وجهة نظر في معالجة مشكلة قائمة وواقعة.

يرى **أحمد مطلوب** أن اشكالية المصطلح (تتطلب دراسة عميقة للمصطلحات والعودة إلى مضانها للوقوف على معانيها ودلالاتها قبل إشاعتها في الدراسات الحديثة، ويقتضي ذلك وضع معجم نقدي حديث يسهم فيه المجمعيون والمؤلفون والمترجمون والأدباء والنقاد). فالنقد العربي الحديث اليوم به حاجة إلى مؤسسة علمية تحظى بتقدير الجميع تتبناها منظمة قومية، كالجامعية العربية بوصفها التجمع الأكبر والأوسع، تأخذ على عاتقها معالجة الإشكالات النقدية وإلزامها على الجميع بوصفها مشروعاً قومياً ومنها إشكالية المصطلح، ولا سيما بعد فشل كل المؤسسات والمجامع العلمية، والمنتديات في معالجة هذه الإشكاليات، فنحن اليوم بنا حاجة إلى رقيب على المصطلح أكثر منا حاجة إلى رقيب في الايديولوجيا.[2]

[1]– محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 158.

[2]– المرجع نفسه، ص 159.

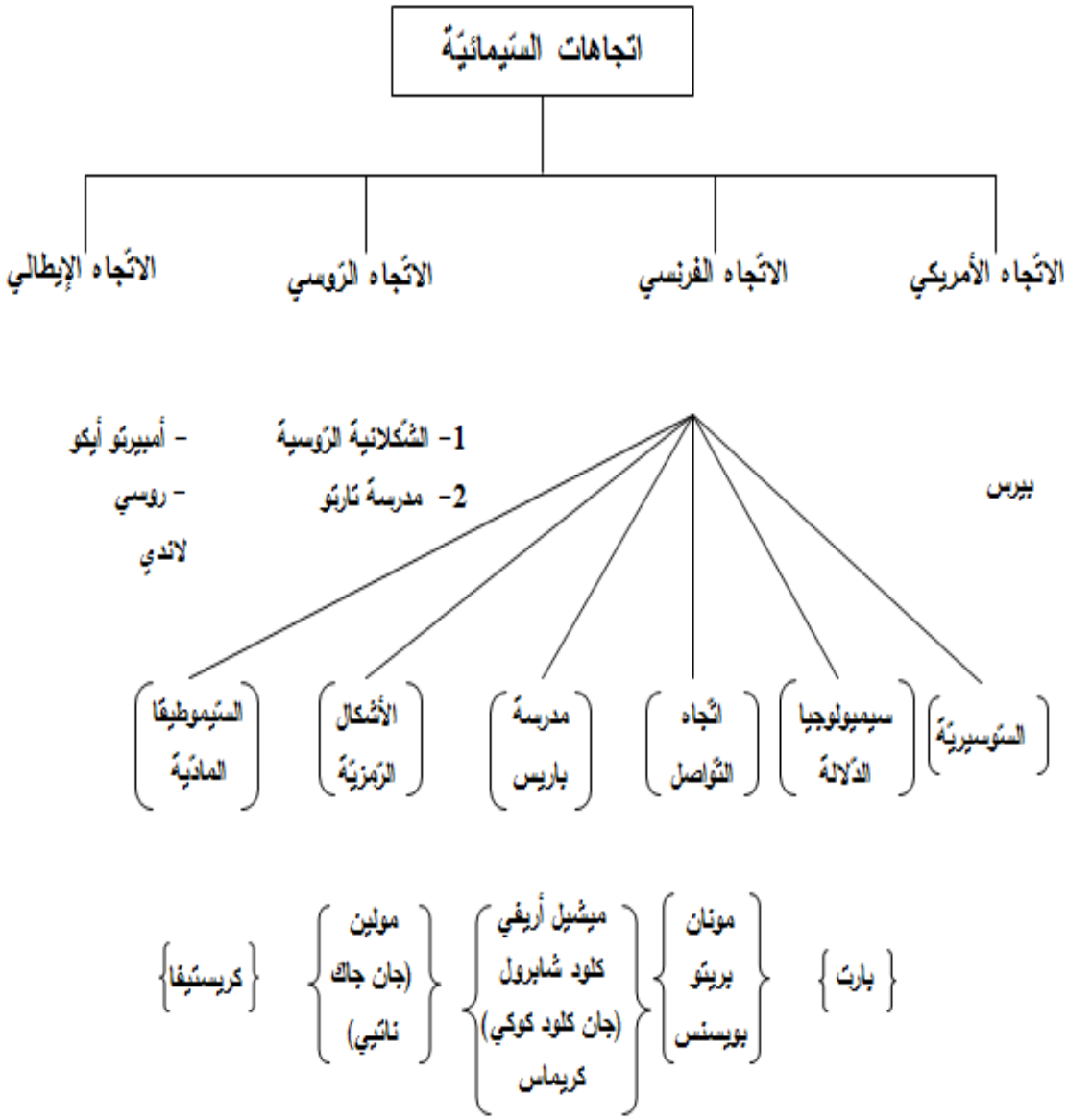
الفصل الثاني:

اتجاهات السيميائية وعلاقتها بالعلوم الأخرى

المبحث الأول: اتجاهات السيميائية

أجمع كثير من النقاد والسيميائيين على السيميائية العامة اليوم "كعلم ما تزال في طفولتها، وهذا يدل على أنه لم توجد بعد "سيمائية" واحدة تشتمل على مجموعة من المفاهيم والمناهج المشتركة بين أولئك الذين يدعون أنهم "سيميائيون". وبعبارة أخرى، فإن السيميولوجيا ما تزال في مرحلة ما قبل الأنموذج من تطورها كعلم. وفي مثل هذا الوضع، فإن عدة "مدارس" تتعارض لا من حيث النظريات السيميوطيقية المتنافرة التي تقترحها فحسب، وإنما تتعارض أيضا من حيث تصورها لما يجب أن يشكل نظرية "سيميوطيقية" أو "سسميولوجية" لا سيما إذا وضع في الحسبان النشأة المزدوجة للسيمائية منذ ظهورها لأول مرة على يد مؤسسيها بيرس و**دي سوسير**، وما يمكن أن يحدث جراء ذلك من تعارضات واختلافات في المذاهب والاتجاهات التي يمكن ذكر أهمها هنا وتوضيحها كما في المخطط التالي: *1*

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً رسالة الماجيستر في اللغة العربية وأدابها كلية الدراسات العليا الجامعة الأدرنية، أيار 2001، ص18-19.



الاتجاه الأمريكي:

ارتبط هذا الاتجاه بالمنطقي الأمريكي **تشارلز ساندرس بيرس** charles S pierce (.....) الذي أطلق على السيميائية مصطلح (semiotic)السيميوطيقا، وعرفه قائلاً: "ليس المنطق بمفهومه العام– كما اعتقد أنني أوضحت إلا اسماً آخر للسيميوطيقا، والسيموطيقا نظرية شبه ضرورية أو نظرية شكلية للعلامات. وعندما أقول إن النظرية

(شبه ضرورية) أو إنها (شكلية) فإني أعني بذلك أننا نرصد طبيعة العلامات كما نعرفها. ومن هذا الرصد، وعبر عملية لن أعترض على تسميتها بالتجريد، فنحن ننقاد إلى جمل قد تكون خاطئة خطأً واضحاً، وبناء على ذلك تكون تلك الجمل بمعنى من المعاني غير ضرورية؛ وذلك طبقاً لما تستوجبه طبيعة العلامات المستخدمة في الفكر (العلمي) أو لما يمكن أن نسميه فكراً قادراً على التعلم من التجربة. أما عملية التجريد فهي في ذاتها نوع من الرصد. والملكة التي أسميها بالرصد التجريدي هي ملكة تعرفها العامة لكنها. غالباً ملكة لا مكان لها في نظريات الفلاسفة ".[1]

وعلى هذا الأساس، تكون السيميوطيقا هي العلم الذي يدرس الدلائل اللسانية وغير اللسانية، ومن الواضح أن مفهوم الدليل ما كان له أن يكون لو لم يوسع ليشمل مختلف الظواهر كيفما كانت طبيعتها. وقد أكد **بيرس** أنه لم يكن بوسعه أن يدرس أي شيء، مثل الرياضيات والأخلاق والميتافيزيقيا والجاذبية وعلم الأصوات والاقتصاد وتاريخ العلوم.. إلخ إلا بوصفه دراسة سيميوطيقية".

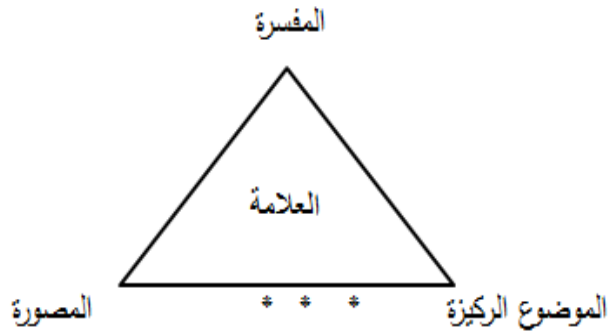
يمكن أن تعد السيميوطيقا البيرسية سيميوطيقا للدلالة والتواصل والتمثيل في آن واحد، لما تحمل من خصائص اجتماعية ودلالية، تعتمد على ثلاثة أبعاد: دلالية وتداولية وتركيبية، والسبب في ذلك يعود إلى أن الدليل البيرسي دليل ثلاثي يتكون من (الممثل/ الدليل) بوصفه دليلاً في البعد الأول، ومن موضوع الدليل (المعنى) في البعد الثاني، ومن (المؤول) الذي يفسر كيفية إحالة الدليل على موضوعه انطلاقاً من قواعد الدلالة الموجودة فيه في البعد الثالث.[2]

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص20.

2- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 21.

I. العلاماتية وثلاثياتها:

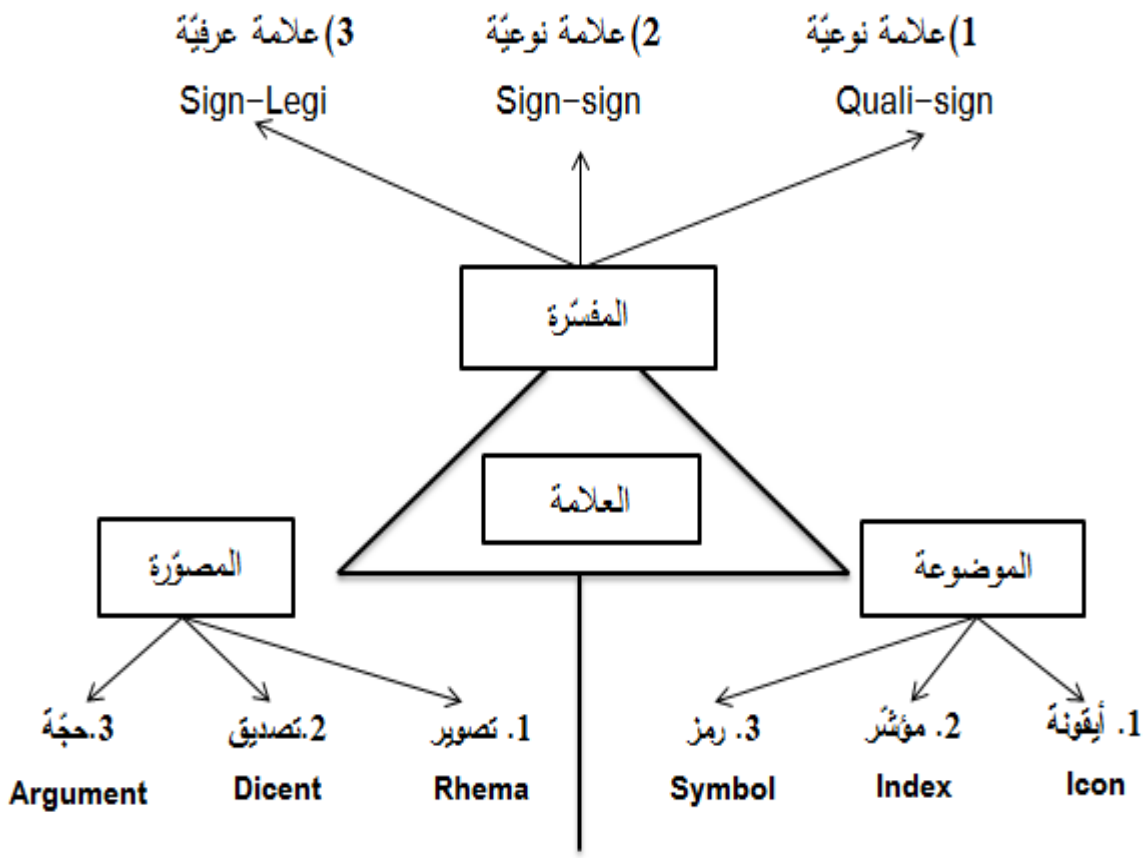
يعرف "بيرس" ثلاثياته قائلاً: "العلامة أو المصورة (represntamen) هي شيء ما ينوب لشخص ما عن شيء ما، من وجهة ما وبصفة ما، فهي توجه لشخص ما، بمعنى أنها تخلق في عقل ذلك الشخص علامة معادلة أو ربما علامة أكثر تطوراً، وهذه العلامة التي تخلقها أسميها مفسرة (interpretant) للعلامة الأولى، إن العلامة تنوب عن شيء ما، وهذا الشيء هو موضوعتها (object). وهي لا تنوب عن تلك الموضوعة من كل الوجهات بل تنوب عنها بالرجوع إلى نوع من الفكرة التي سميتها سابقاً ركيزة graund الصورة" وعليه يمكن تمثيل (الدليل/ العلامة) لدى **بيرس** بالشكل التالي:



يقسم **بيرس** كل علامة من علاماته الثلاث (المصور، والمفسرة، والموضوعة/ الركيزة) إلى ثلاثة أقسام أخرى ترجع في مجملها إما إلى علاقة العلامة بنفسها في الثلاثيات الأولى، أو إلى علاقتها بموضوعتها في الثلاثيات الثانية، أو إلى علاقتها بمفسرها في الثلاثيات الثالثة. يقول **بيرس** في هذا: "يمكن تقسيم العلامات إلى ثلاث ثلاثيات، أولا: وفقاً لماهية العلامة في ذاتها وذلك باعتبارها إما مجرد نوعية، أو باعتبارها وجوداً حقيقياً، أو باعتبارها عرفاً عاماً، ويمكن تقسيمها ثانية وفقاً لعلاقة العلامة بموضوعتها فيما إذا كانت هذه العلاقة ترجع إلى طبيعة العلامة نفسها، أم ترجع إلى الرابطة الوجودية بين العلامة والموضوعية، أم ترجع إلى الرابطة بين العلامة والمفسرة، ويكون تقسيم الثالث

وفقاً لتصوير المفسرة للعلامة إما باعتبارها علامة على أمور احتمالية أو علامة على أمور واقعية أو علامة على أمور عقلية."[1]

وهكذا يصبح شكل العلامات وثلاثياتها كالتالي:



- **علاقة العلامة بنفسها (بمفسرتها):**

يمكن وفقاً للتقسيم الأول للعلامة (الدليل) إطلاق المصطلحات التالية: العلامة النوعية والعلامة المفردة والعلامة العرفية :

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 21- 22.

3-تعرف العلامة النوعية (الكيفية) qualisign بأنها نوعية quality تشكل علامة، ولا يمكنها أن تتصرف كعلامة حتى تتجسد. وإذن فهي صفة تمثل القوام المادي للعلامة، من صفات حسية كالألوان والأصوات والروائح.. إلخ، ومن محاكاة للأشياء وانعكاس لصورها... ومن تعلم لحركات رياضية عدة، كتعليم السباحة- مثلاً لشخص ما، حيث تؤول حركات ذراع المدرب وجسمه في ذاتها وتصبح دليلاً لحركات المتعلم المماثلة كيفيا لحركات مدربة.

4- أما العلامة المفردة (العينة) فهي "الشيء الموجود أو الواقعة الفعلية التي تشكل العلامة. ولا يمكنها أن تكون علامة إلا عبر نوعيتها. ولهذا فهي تتضمن علامة عرفية، أو بالأحرى علامات عرفية متعددة. وتتميز هذه العلامات العرفية بخصوصيتها، فهي لا تشكل إلا عندما تتجسد فعلياً."[1]

إذن، فالعلامة المفردة هي موضوع أو حدث فردي موجود فعلياً كما في النصب التذكاري والصورة الشمسية وعرض مرض معين... كذلك فإن الكلمات التي نستعملها في الاحتفالات الطقوسية أو حينما نقسم أمام المحكمة أو حينما ينطق قاض بحكم ما ... "كل ذلك يرتبط بالسياق وبوضع الشخص الذي يتلفظ بهذه الكلمات، ويرتبط أحياناً بالتنغيم الذي يؤيده".[2]

ج-أما العلامة العرفية (القانونية) legisign فهي عرف law يشكل علامة. وينشئ هذا العرف على العموم. وكل علامة متواضع عليها فهي علامة عرفية (وليس العكس). وليست العلامة العرفية موضوعاً واحداً بل نمطاً عاماً قد تواضع الناس على اعتباره دالاً، والأمثلة كثيرة على هذه العلامة منها على سبيل التمثيل: كلمة "بيت إذ بغض

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 23.

2- المرجع نفسه، ص23.

النظر عن تعدد لفظها أو كتابها، فهي علامة عرفية واحدة، كذلك الحال مع ألفاض اللغات الطبيعية، وأنساق الكتابة المتعددة، والرموز الرياضية والكيميائية وعلامات السير، والأمارات الجوية، والشعارات الدينية كالهلال والصليب..".

قد يظن أن هذه العلامات (الدلائل) ماهي إلا ثلاث وحدات متميزة منفصل بعضها عن بعض، وليس الأمر كذلك 'فالأمر يتعلق بوظائف ثلاث متميزة تتخذ عدة مظاهر يمكن لأي شيء بفضلها، أن يصبح عماد دليل. إذ يمكن لنفس الشيء الواحد أن يكون، في الآن ذاته دليلاً كيفية من زاوية نظر معينة، ودليلاً مفرداً من زاوية نظر أخرى، ودليلاً قانوناً من زاوية نظر ثالثة.[1]

علاقة العلامة بموضوعتها:

في الثلاثية الثانية يقسم **بيرس** العلامة من حيث الدلالة على الموضوع إلى: أيقونة icon وشاهد Index ورمز symbol. ويقصد بالموضوع هنا "ما يمكن الدلالة عليه أو تسميته".

ح- فالأيقون كما يعرفه **بيرس** هو العلامة التي تشير إلى الموضوعة التي تعبر عنها الطبيعة الذاتية للعلامة فقط، وتمتلك العلامة هذه الطبيعة سواء وجدت[2] الموضوعة أم لم توجد... وسواء كان الشيء نوعية، أو كائناً موجوداً أو عرفاً، فإن هذا الشيء يكون أيقوناً لشبيه عندما يستخدم كعلامة له.

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 24.

2- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 24-25.

إذن، فالأيقونة وفقاً لـ **بيرس** هي علامة تدل على موضوعها فترسمه وتحاكيه، وتشاركه في بعض الخصائص المتشابهة بينهما، ولكن رغم هذا التشابه الذي يفرض على الأيقونة صفات معينة من الشيء المدلول، فعن ذلك لا يلزم بالضرورة أن تكون الأيقونة موقوفة على وجود موضوع فعلي التحقق إذ كثيرة هي الأيقونات التي لا تدل إلا على موضوعات وهمية أو متخيلة، كما في بعض الرسوم – كصورة العنقاء مثلاً – والمسرحيات والأفلام... إضافة إلى أغلب الأعمال الإبداعية التي تسبق– عادة فيها النماذج والتصاميم الموضوع المنوي إنجازه.

من الأمثلة المتعددة للأيقونة: الصور والرسوم والنماذج والبنيات والتصاميم والاستعارات والتوابع ...إلخ.

من الممكن استبدال أيقونة بأيقونة أخرى تصورها هكذا إلى ما لا نهاية، فمثلاً تكون الصورة الفوتوغرافية أيقونة الأيقونة، في مثل هذه الحال، يخص **بيرس** الأيقونة من الدرجة الأولى باسم الأيقونة الأصلية genuine، أما التي من درجة أعلى فينعتها بالأيقونات الفاسدة أو المنحدرة degenerate.

لا تقتصر الأيقونة كما قد يوحي أصل الكلمة على ما هو مرئي، بل يمكن أن توجد أيضاً في أي تشابه يقع بين مختلف المعطيات الحسية من مشموم ومسموع وملموس... فكما أن الصورة الفوتوغرافية لشخصية ما هي أيقونة لها، فكذلك يمكن لتسجيل صوته أن يحمل نفس المعنى بما يظهر من تشابه من جهة ما مع الدليل.

خ– أما المؤشر فهو علامة تشير إلى الموضوعة التي تعبر عنها عبر تأثرها الحقيقي بتلك الموضوعة، وذلك عن طريق علاقة المجاورة السببية التي تربط بينهما[1]، والتي

1– هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 25.

تقتضي من طبيعة الموضوعة أن تكون "فرداً أو حدثاً مخصوصين متعينين في المكان والزمان" ومن أمثلة هذا الشاهد: الدخان المشير إلى النار، والنصب التي تعطي إرشادات عن الطريق، والتصبيع، والأسهم، وأسماء العلم، وأسماء الإشارة، والضمائر... إلخ

يحدث أن يدل المؤشر (الشاهد) على موضوعه بطريقة يتوسط بينهما مؤشراً آخر أو أكثر، فالدخان مؤشر على النار، وهذه بدورها قد تكون مؤشراً على إنسان. وبهذا يكون **بيرس** قد ميز بين نوعين من المؤشرات: مؤشر أصلي يرتبط مباشرة بموضوعه، ومؤشر منحدر عنه، فقد تشكل الطريق المؤدية إلى مدينة ما مؤشراً أصلياً على المدينة، بينما تصبح إشارة السير الدالة على هذه المدينة مؤشراً منحدراً.

ج–أما الرمز symbol فهو علامة تشير إلى الموضوعة التي تعبر عنها عبر عرف، غالبا ما يقترن بالأفكار العامة التي تدفع إلى ربط الرمز، بموضوعته، فالرمز، إذن نمط عام أو عرف أي أنه العلامة العرفية، ولهذا فهو يتصرف عبر نسخة مطابقة. وهو ليس عاما في ذاته فحسب، وإنما الموضوعة التي تشير إليها تتميز بطبيعة عامة أيضاً.

إذن، فالرمز هو علاقة تدل على موضوعها لمجرد الوضع أو العرف، دون أن تكون هناك علاقة شبه أو مجاورة كما هو الحال مع "الأيقونة" و"المؤشر"... وبما أن الرمز لا يتصل بموضوع معين مباشرة، فهو بذلك لا يدل على فرد أو حدث متعلقين بالزمان والمكان، بل يرجع إلى موضوع عام لا محدود... ومن أمثلة الرمز كلمة "بيت" التي تستعمل في العموم للدلالة على أي بيت مهما كانت الاختلافات بين البيوت المتعددة.. ومن الأمثلة كذلك ارتباط الحمامة البيضاء بالسلام، والشمس بالحرية، وصوت الغراب بالشؤم.. إلخ.

مثلما يميز **بيرس** الأيقونة والشاهد إلى أصلية ومنحدرة، يفعل كذلك مع "الرمز" فيميز الأصلي من المنحدر؛ إذ تنتمي إلى الرموز المنحدرة تلك الكلمات الكلية*1* الدالة على فرد مخصوص، مثل كلمة "شمس" التي تنحصر في الدلالة على شيء واحد مع إمكانية وجود شموس أخرى في الوقت ذاته، وكذلك الحال مع الكلمات المجردة مثل "الإنسانية" التي تعني مجموعة الناس ككل موحد، وأخيراً فلا ينفصل الرمز عن غيره من الشواهد والأيقونات، إذ لا بد في النهاية من ارتباط بعضها ببعض كالإشارة إلى الأشياء المقصودة بالرمز أو إلى صور مشابهة أخرى.

علاقة العلامة بمصورتها:

يميز **بيرس** ثلاثة فروع تتعلق بنسبة العلامة إلى التصوير، ويستعير لها المصطلحات المناسبة من المنطق التقليدي، ويسميها على التوالي: التصور rhema والتصديق dicent والحجة argument والعلامة هنا عبارة عن قانون عام ويعبر عن عمومه هذا عن طريق التصور Rhema والتصديق dicent والحجة argument.

4- تعني كلمة التصور أو الخبر Rhema كل علامة مفردة أو مركبة لا تصلح لأن تكون حكماً بل فقط حداً في الحكم، وهي بالتالي لا تحتمل لا الصدق ولا الكذب، ومن هذا القبيل: المفردة "اسمر"، أو المركبة طويل الشعر، أو الاستعارة مثل أسد بدلا من سمير كذلك يمكن التمثيل لهذا "التصور" بما يلي:

بما أن: كل إنسان فان

و :سقراط إنسان

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 26.

إذن: سقراط فان

إذ إن (فان) في الجملة الأولى، و(إنسان) في الجملة الثانية عبارة عن تصورين (أو خبرين) كما في الاصطلاح المنطقي[1].

5- أما كلمة "التصديق أو (المقولة) dicent" فهي علامة "قابلة" للحكم أي أنها تقبل الصدق أو الكذب. وهذا يعني أنها مركب لا يحتاج إلى زيادة خارج اللغة حيث يتحقق التصديق كما هو واضح في القضية، وتعد واجهة العمارة- مثلاً مثالا للتصديق في مجال الهندسة المعمارية، ‘إذ تؤلف هذه الواجهة وحدة مغلقة تامة يمكن أن يحكم فيها بالسلب أو بالإيجاب، كذلك فإن المثال التالي يمكن أن يعبر عن هذا التصديق كما يلي:

ت- كل إنسان فان

ث- سقراط إنسان

ج-إذن سقراط فان

إذ أن (1) و(2) و(3) هي تصديقات (أو مقولات) بمعزل عن بعضها بعضاً.

1- تعرف الحجة argument بأنها تأليف من العلامات لا يتعلق سوى بالقواعد، وهي أكمل سائر العلامات. ومن جهة البنية تعد الحجة صحيحة أي دائمة الصدق. مثال ذلك:

أ هو ب

ب هو ج

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 27.

إذن أ هو ج

ومن قبيل الحجة أيضاً المثال التالي: 1- كل إنسان فان

- سقراط فان

- إذن سقراط فان

إذ أن (1) و(2) و(3) تعد في مجموعها حجة.

يمكن القول إن تقسيمات **بيرس** حول العلامة تتسم بالتوسع والتشعب المعقد أحياناً، حتى إنها تصل إلى ستة وستين نوعاً من العلامات، ويبقى أشهرها التقسيم الثلاثي للموضوع الذي يعد أكثر جدوى وفائدة من غيره في مجالات السيميائية المتعددة.

هذا، وقد أخذ **بيرس** في استرداد مكانته في مجال السيميائية في أمريكا المعاصرة، وفي باقي الدول الغربية خصوصاً فرنسا، بعد أن عرف به **جيرار دولودال** gerard delladalle في كتابه الذي ترجم فيه نصوصاً بيرسية بعنوان (كتابات حول العلامة). وكان هذا ما وجه إليه الأنظار بقوة كما حدث مثلاً مع **مولينو** Molino وجماعته الذين أفادوا من مفهوم **بيرس** الخصب للعلامة، وهم يضعون اللبنات الأولى ل"سيميولوجيا الأشكال الرمزية".

في مقابل من أفادوا من آراء **بيرس** وتعريفاته السيميائية يقف من يصوب له سهام النقد جراء مبالغته في تحويل كل مظاهر الكون إلى "علامة" بما في ذلك الإنسان بكليته وفكره ومشاعره، فعلامات **بيرس** هذه في نظر **إميل بنفست** لا تحيل في نهاية المطاف إلا إلى علامات أخرى، فكيف يمكن أن نحيل إلى شيء ليس في حد ذاته علامة؟ هل نستطيع أن نجد نقطة ثابتة نستطيع أن نرسي فيها العلاقة الأولى للعلامة؟ إن المعمار السيميولوجي الذي أنشأه **بيرس** يتجاوز تعريفه. فلا بد أن يقبل النظام الاختلاف بين

العلامة والمدلول حتى لا يلغي مفهوم العلامة نفسه في عملية تكاثر تمتد إلى ما لا نهاية، ولا بد أيضاً أن تنضوي العلاقة في نظام العلامات، فهذا هو منبع الدلالة نفسها وشرط قيامها. ويظهر مما سبق وعلى عكس ما يدعيه **بيرس**، أن العلامات في جملتها لا تعمل بنفس الطريقة، ولا تنتمي إلى نظام واحد، ولذلك فلا بد من تطوير أنظمة مختلفة من العلامات، ولا بد من تحديد العلاقة التي تقوم بينها.*1*

الإتجاه الفرنسي:

- **السيميولوجيا السوسيرية:**

يمثل هذا الاتجاه العالم اللغوي **فيرديناند دي سوسير** (ferdinand de saussure) (1857-1913) الذي يعد رائد علم اللغة الحديث في القرن العشرين. بفضل محاضراته التي ألقاها في علم اللغة في الفترة ما بين (1906-1911) والتي جمعها تلامذته بعد وفاته في كتاب حمل عنوان "دروس في علم اللغة العام"، وقد تحدث **دي سوسير** في هذا الكتاب عن أفكار أساسية للدراسات اللغوية الحديثة، منها التمييز بين اللسان واللغة والكلام، وتعريف (الدليل اللغوي/ العلامة اللغوية)، وثنائية الدال والمدلول.. وتحدث بإيجاز عن السيميائية، وهو ما يعنينا هنا في المقام الأول.

يبدأ **دي سوسير** حديثه قائلاً "إن اللغة نظام من العلامات المعبرة، لذلك فهي تماثل أنظمة الكتابة وأبجدية الصم والبكم والطقوس الرمزية وآداب السلوك والإشارات العسكرية.. إلخ ولذلك يمكن أن نؤسس علماً يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، فيشكل هذا العلم جزءاً من علم النفس الاجتماعي وبالتالي جزءاً من علم النفس العام، وسنطلق عليه اسم علم العلامات أو السيميولوجيا (من اليونانية semeion

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 28-29.

علامة)... ربما هذا العلم لم يوجد بعد فيتعذر علينا أن نقول كيف سيكون، بيد أن لهذا العلم الحق في الوجود ومكانه قد حدد مسبقاً".

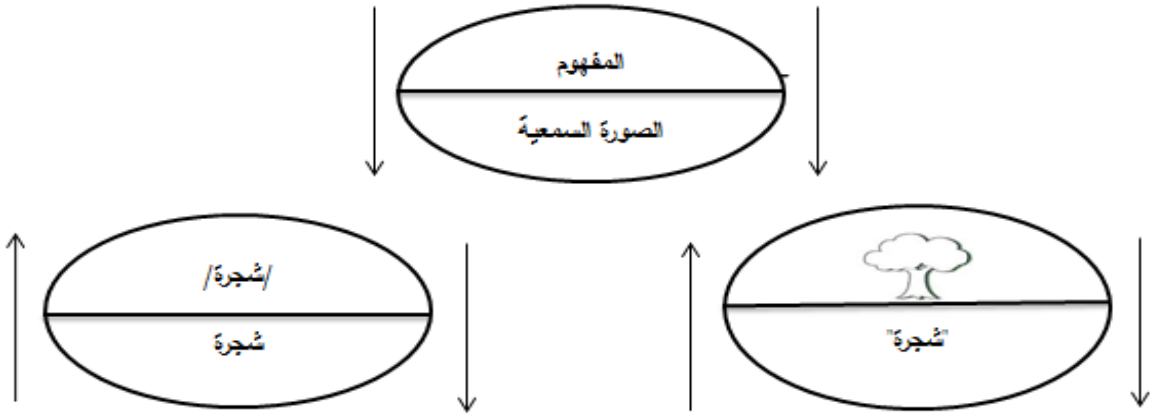
يلحظ من الأنظمة السابقة المتعددة الدلالات أن علم اللغة لا يكون إلا جزءاً خاصاً منها يتعلق بالدلالات اللسانية فقط، وأن مجموع تلك الدلالات اللسانية وغير اللسانية هو ما يندرج تحت السيميائية، لذلك فعلم اللغة ليس سوى فرع من هذا العلم العام المسمى السميائية، أو السيميولوجيا على حد تعبير **دي سوسير***1*، هذا العلم الذي استعار عدداً من المبادئ والمفاهيم من علم اللغة الحديث، مثل العلامة اللغوية (أو الدليل اللغوي) والدال والمدلول واعتباطية الدليل. ويمكن التعرف سريعاً على كل منها كما يلي:

العلامة اللغوية والدال والمدلول:

تقوم العلامة اللغوية على الربط بين شيئين، يدعى الأول "مفهوما أو دليلاً ويدعى الثاني "صورة سمعية"، وكلاهما قائم على طبيعة نفسية من جهة، وعلى اتحاد عقلي بواسطة "العلاقة الترابطية" من جهة أخرى، والصورة السمعية هنا هي التصور أو الأثر النفسي الذي يتركه الصوت فينا، وليس المسموع أو الجانب المادي البحت منه، إنها التصور الذي تنقله الحواس لنا، لذلك فهي "صورة حسية" تقابل مفهوماً يكون عادة من طبيعية عقلية "مجردة" وتبدو الخاصية النفسية لصورنا السمعية واضحة عندما يدرك المرء أن بإمكانه أن يتكلم مع نفسه، وأن يستعيد ذهنياً قطعة شعرية مثلاً، دون أن يحرك شفتيه ولسانه، وبهذا فإن العلامة اللغوية هي وحدة نفسية مزدوجة يمكن تمثيلها كالتالي*2*:

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 30.

2- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 31.



أما الدلائل الطبيعية كالأصوات المحاكية وعلامات التعجب فمع قلة عددها مقارنة بالدلائل الاعتباطية، فإن اختيارها في حد ذاته اعتباطي أيضاً، إذ لا تعدو أن تكون محاكاة تقريبية، وشبه متعارف عليها لدى أبناء اللغة الواحدة، وبذلك تكون هذه الأصوات والعلامات قد فقدت جزءاً من خاصيتها الأولية، واكتسبت طابع العلامة اللغوية بالمعنى العام الذي لا يخضع لدافع معين، وأصبحت ذات قيمة ثانوية وأصل رمزي مشكوك فيه إلى حد ما.

مميزات الدليل السوسيري:

يمكن انجاز مميزات الدليل السوسيري بما يلي:

5- الدليل صورة نفسية مرتبطة باللغة لا بالكلام.

6- يستند الدليل على عنصرين أساسين هما : الدال والمدلول، مع إبعاد الواقع المادي أو المرجعي، لأن إقصاء المرجع يعني أن لسانيات "**سوسير**" شكلانية وليست ذات بعد مادي أو واقعي.

7- اعتباطية الدليل، ماعدا الأصوات الطبيعية وصيغ التعجب.

8- يعد النموذج اللساني هو الأمثل والأصل في المقايسة عند دراسة الأدلة غير اللفظية.

9- إن الدليل السوسيري محايد، يقصي الذات والأيديولوجيا، ويتسم بالتجريد[1].

هذا ويمكن أن يوجه النقد إلى **سوسير** لإغفاله بعض المؤشرات الضرورية في التدليل كالرمز والإشارة والأيقونة، وحصره العلامة في إطار ثنائي قائم على (الدال والمدلول)، ومحاولته التركيز على شكلنة المضمون، وإبعاد الواقع أو المرجع بمحاولاته المختلفة. وقد عرض **رولان بارت** تصور **سوسير** للسيميولوجيا عندما جعلها العلم العام الذي يضم تحته اللسانيات، وعمد أي **بارت** إلى قلب الأطروحة مؤكداً شمولية اللسانيات وإنخراط السيميولوجيا تحت لوائها، كما سدد **بارت** بعض الانتقادات الأخرى على الجانب النفسي الذي حدد العلاقة بين الدال والمدلول السوسيرين واتحادهما في دماغ الإنسان عن طريق الإيحاء النفسي.

على الرغم من تلك الانتقادات التي وجهت إلى **سوسير** فقد أثرى المقاربات السيميائية بتصورات ومفاهيم ومصطلحات لسانية عدة ذات فعالية كبيرة في دراسة النصوص وفك مغاليقها.

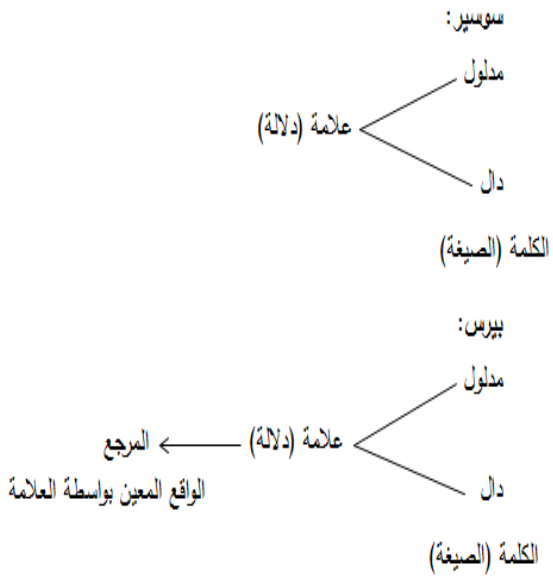
مما سبق يمكن التفريق بين "سيميولوجيا "دي سوسير" و"سيميوطيقا" بيرس بما يلي:

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 33.

(1/أ) يرى **سوسير** أن العلامة تفصح عن علاقة ثنائية تجمع بين المفهوم الذهني للشيء (الدال) وبين الصورة السمعية له (المدلول)، وهو بهذا يؤكد العلاقة الاعتباطية بينهما مغفلاً في الوقت ذاته، ما للعلامة من علاقة كبيرة بواقعها الخارجي.

(1/ب) يرى **بيرس** أن العلامة تفصح عن علاقة ثلاثية تتكون من ممثل أول يحيل إلى موضوع ثان عن طريق مؤول ثالث. ويقوم هذا التقسيم الثلاثي على مقولة منطقية تقضي بأن كل نظام لا بد له من أن يكون ثلاثياً.*1*

وبهذا يلحظ اقتصار **سوسير** في تقسيم العلامة الثنائي إلى دال ومدلول، مع ما يقابله من تقسيم **بيرس** الثلاثي الذي يضيف مفهوم المرجع وما يمثله من ارباط العلامة بواقع معين.



(2/أ) العلامة لدى **سوسير** علامة لغوية لا غير.

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 34.

(2/ب) العلامة لدى **بيرس** كما تكون علامة لغوية تكون أيضاً غير لغوية.

وهي من حيث طبيعتها ووظيفتها أشكال ثلاثة: الأيقون والإشارة والرمز. وهذه بدورها تتفرع إلى ثلاثيات أخرى، هي:

الموضوع:	1- العلامة الأيقونية	2- العلامة الإشارية	3- العلامة الرمزية
المؤول:	1- النوعية	2- المفردة	3- العرفية
الممثل:	1- التصوير	2- التصديق	3- الحجة

(3/أ) مفهوم العلامة السوسيري مفهوم ضيق لا يشمل كل أنواع العلامات، بل يجعل علاقة الدال بالمدلول علاقة اعتباطية، ويستثني من بينها ما كان رمزاً أو إشارة.

(3/ب) مفهوم العلامة البيرسي مفهوم واسع يشمل كل أنواع العلامات، ويتناولها بالتحليل.

(4/أ) العلامة لدى **سوسير** أساس السيميولوجيا، وهي بهذا المفهوم تعد جزءاً من علم النفس العام.

(4/ب) العلامة لدى **بيرس** أساس السيميوطيقا، وهي بهذا المفهوم تعد جزءاً من علم المنطق.[1]

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 35-36.

- سيميولوجيا الدلالة:

يمثل هذا الاتجاه **رولان بارت** الذي يولي اهتماماً كبيراً بالدلالة لدرجة يجعل معها أجزاء كبيرة من الحقول المعرفية والمجالات السيميائية ترجع في أساسها إلى مسألة الدلالة هذه، كعلم النفس والبنيوية والنقد الأدبي... وغيرها، إذ أنها لا تدرس الوقائع إلا من كونها ذات دلالة ومعنى. ووجود الدلالة يؤدي إلى وجود السيميائية التي يرى **بارت** أن بإمكانها أن "تسدي خدمات لبعض العلوم وتصاحبها في طريقها وتقترح عليها نموذجاً إجرائياً، يحدد، انطلاقًا منه، كل علم نوعية ما ينصب عليه. وقد كان هذا الاهتمام بالسيميائية نقطة تحول هامة في تاريخ بارت الفكري وذلك بانتقاله من البنيوية إلى السيميائية، أي من بنيوية وصفية تبنتها علوم تقليدية محدودة من أنثروبولوجيا وعلم النفس والتاريخ.. إلى سيميائية لا محدودة موضوعاتها نصوص متجددة ينتجها الخيال من حكايات وصور وتعابير ولهجات وأهواء وبنيات تتمتع بمظهر الاحتمال وعدم يقين الحقيقة."

ويبقى **بارت** من أقوى المفسرين لسوسير فيما يتعلق بالعلامة اللغوية حينما يذهب في حديثه عن الاسطورة إلى أن تحليل (للعلامة اللغوية/ الدلالة) يقتضي وجود علاقة ترابطية بين الدال والمدلول.*1*

ويمثل لذلك بباقة الورد التي يمكن أن تستعمل لترمز إلى العاطفة، وعندما نفعل ذلك تصبح باقة الورد (دالاً) والعاطفة (مدلولاً) وتنتج العلاقة بينهما اللفظة الثالثة (باقة الورد) بوصفها علامة. وبوصفها علامة من المهم أن نفهم أن باقة الورد شيء مختلف تماماً عن باقة الورد بوصفها دالاً: أي بوصفها كياناً زراعياً. وتكون باقة الورد بوصفها دالاً، خيالية وبوصفها علامة ملأى. وملأها (بالتدليل) وهو الجمع بين هدفي (أنا)

1- المرجع نفسه هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 37.

وطبيعة التقليدية في المجتمع والقنوات التي تعرض على سلسلة من الوسائل الملائمة للغرض، فالسلسلة واسعة لكنها ذات صيغة تقليدية، وبهذا فهي محدودة، وتعرض أيضا نظاماً معقداً لطرائق الترميز.

ويرى **بارت** أن الأسطورة ذات خصوصية ترميزية ناتجة عن عملها باستمرار كنظام إشاري من نمط ثان، مركب على أساس سلسلة إشارية موجودة قبلها، ويقضي ذلك أن (العلامة اللغوية/ الإشارة) في النظام الأول، والمكونة من ترابط الدال والمدلول، تصبح مجرد دال من النمط الثاني وهكذا...

يقول **بارت** في هذا الصدد: "يحدث كل شيء كما لو أن الأسطورة نقلت النظام الشكلي للتدليلات الأولى إلى جوانب فرعية. وبما أن هذا النقل الجانبي جوهري في تحليل الأسطورة سأمثله بهذه الطريقة، ويفهم منها طبعاً أن الشكل المكاني الذي اتخذه النموذج هنا هو شكل مجازي"



لتجريدها من دلالات الصور والأشياء والسلوكات... وغيرها مما لا يمكنه الاستقلال عن اللغة ويعلق **بارت** على ذلك قائلاً: "ومما لا مراء فيه أن الأشياء، والصور، والسلوكيات قد تدل، بل وتدل بغزارة، لكن لا يمكنها أن تفعل ذلك، بكيفية مستقلة. إذ أن كل نظام دلائلي يمتزج باللغة"، فالماهيات البصرية من سينما ومسرح وصور صحفية...إلخ، تعضد دلالاتها عن طريق

اقترانها برسالة لسانية، كذلك فإن مجموعات الأشياء كاللباس والطعام وغيرها لا ترقى إلى مستوى الأنظمة إلا بمرورها عبر البديل اللساني الذي يجزئ دوالها ويسمي مدلولاتها.

إذن، فاللغة هي التي تحقق للوجود الإنساني عالم المدلولات، بإنتاج المعنى وإسنادها الدلالة إلى الأشياء، وهي التي تدعم التواصل الإنساني وتسند الوظائف إلى الأنساق اللسانية وغير اللسانية المستخدمة في الحياة اليومية، مع جعلها الأنساق اللفظية هي الأساس الذي تتفرع عنه أنساق التواصل الأخرى الخطبة والإشارية والمرئية... إلخ

وعليه فإن المعرفة السيميائية لا يمكن أن تكون راهناً غير نسخة من المعرفة اللسانية، وبهذا يقلب **بارت** المعادلة السوسيرية قائلاً : "إنه يجب من الآن تقبل إمكانية قلب الاقتراح السوسيري، ليست اللسانيات جزءاً، ولو مفضلاً من علم العلامة العام، ولكن الجزء هو علم العلامة باعتباره فرعاً من اللسانيات".

وختاما، يقرر **بارت** حقيقة أن السيميولوجيا ما تزال تبحث عن ذاتها بترو، وأنها بحاجة إلى مزيد من التصميم وهو يعتقد أن لا يمكن أن يوجد أي كتاب وجيز لمنهج التحليل هذا، وذلك على الأكثر بسبب سمته المتسعة التي ستسجل "السيميولوجيا" علم كل الأنساق الإشارية الدالة.

انطلاقا من كون العلامات تحمل دلالات مختلفة تفهم بطرائق عدة، ومن كونها تتغير بتغير السياقات والمواقف، جاء أصحاب سيميائية الدلالة ليؤسسوا اتجاههم المتميز والمتشعب جدا، والمختلف اختلافا جوهريا عن اتجاه سيميولوجيا التواصل.

لقد جاء هذا الاتجاه كرد فعل على أصحاب سيميولوجيا التواصل، ولعل الرائد الأول له هو « رولان بارث » الذي قلب المقولة السوسيرية التي ترى أن اللسانيات ما هي إلا جزء من علم العلامات العام ليؤكد في كتابه « درس السيميولوجيا » أن « السيميولوجيا

نفسها استمدت مفاهيمها الإجرائية من اللسانيات التي أصابها التفكك والتقوض » (مختار ملاس: 12).

ويؤكد « رولان بارث » على أن علم الأدلة يعالج كل الشفرات التي تمتلك بعدا اجتماعيا حقيقيا حين يقول « ومما لا مراء فيه أن الأشياء والصور، والسلوكات قد تدل بل وتدل بغزارة، لكن لا يمكن أن تفعل ذلك بكيفية مستقلة، إذ أن كل نظام دلائلي يمتزج باللغة» (رولان بارث: 28)، ولسبب كون كل الأنساق الدلالية لا يمكن لها أن تتكون بمعزل عن اللغة، أولى « رولان بارث » أهمية كبيرة بهذه الأخيرة، لدرجة أنه قلب أفكار « دو سوسير » رأسا على عقب كما رأينا.

إن أهم ما يميز سيميائيات الدلالة أنها رفضت التمييز بين الدليل والأمارة، وكذلك تأكيدها على ضرورة التكفل عند كل دراسة نظام[1] الدلائل باللغة باعتبارها واقعية اجتماعية (دليلة مرسلي: 17)، والتعامل مع اللغة بهذه الطريقة يعود إلى أن المعنى متغير، ويحمل دلالات مختلفة طبقا للبيئة الاجتماعية التي يتحرك فيها. فعلا أصحاب الدلالة لا يمكن أبدا الفصل بين أمارة لا تتوفر على قصدية التواصل، ودلالة تتوفر على ذلك، بل نقول أننا نتعامل مع لغة تتأثر بالطبقة الاجتماعية التي تتكلمها، وصعوبة الفصل بين الدليل والأمارة هو المشكل الذي يثيره « لويس جان كالفي » حين يتساءل قائلا: " هل يمكننا دائما الفصل الواضح بين هذا وذاك ؟ الطربوش العالي le chapeau والكاسكيثة Casquette، لا شك أنهما أمارتان على الحالة الاجتماعية الذي يحمل أحدهما، غير أن بورجوازيا يمكنه أن يختار كسكيثة بغرض توصيل شيء ما في لحظة ما " (دليلة مرسلي: 17)، وانطلاقا من هذا الإشكال الذي يطرحه « جان كالفي» يمكننا أن نستنتج أنه لا يمكن أبدا التعرف على دلالة إشارة معينة دون الإحاطة بالحيثيات المتعلقة بكل من الباث والمتلقي، وبما يدور في وعيهما، مادام أن الدال الواحد يحمل عدة مدلولات

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 91

تخضع للطبقات الاجتماعية المختلفة وهذه النقطة بالذات تجعلنا نطرح سؤالا آخر يتعلق بالمعاني التي قد تخرج من وعي كل من الباث والمتلقي، أو قد تتعلق بذهن واحد منهما وتغيب عن ذهن الآخر، حيث أن كل شخص ونظرته المعينة وتحليله الخاص للعلامات المختلفة، وفي هذا الصدد تعطي « دليلة مرسلي» مثالا باسم « فاطمة Fatma » الذي استخدم من طرف المستعمرين في الجزائر وهو اسم انتقل من صنف أسماء العلم إلى صنف الأسماء المشتركة لأنه عرف تطورا استبداليا Paradigme: الفاطما la fatma، فاطمتي Ma fatma، فاطمة Une fatima، والذي استخدم لتعيين كل امرأة جزائرية (سواء كانت فاطمة أم لا وعادة ما تكون عاملة) (دليلة مرسلي: 18)، فبالنسبة لأصحاب سيميائيات الدلالة المعنى المعجمي غالبا ما يتطفل عليه معنى آخر، ويكون شديد الاتصال[1] بالبيئة الاجتماعية.

إن عناصر سيميائيات الدلالة التي أفاض « بارث » في بحثها، تتوزع على أربع ثنائيات مستقاة من الألسنية البنيوية هي:

1. اللغة والكلام: لقد أفاض « دوسوسير » في شرح هذه الثنائية، ليركز اهتمامه على العنصر الأول كونه أكثر ثباتا، على عكس الكلام المتغير والزئبقي، ليأتي « بارث » ليؤكد أن في السيميائيات « تتعاقب اللغة والكلام من غير الانطلاق معا » (عبد الله إبراهيم وآخرون: 94)، فترجع بالتالي قيمة الكلام، فاللسان والكلام – كما يرى « بارث » – « من البديهي ألا يستمد أي واحد منهما تعريفه الكامل إلا من السيرورة الجدلية التي توحد بينهما معا » (رولان بارث 36) وحقا فالكلام واللسان سابق على اللغة تكوينيا، واللغة تتشكل منه، فإنه لا يكتسب قيمته إلا إذا كان في وسط اجتماعي متعاقد على لغة معينة، وهكذا فإن الكلام واللغة عنصران لا يمكن أن يستغني أحدهما عن الآخر، وهذه الجدلية – يقول « بارث » يمكن أن ننقلها في علم الأدلة إلى أنساق دلالية

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 92

أخرى، كنظام اللباس، ونظام الطعام، وقد أعطى « بارث » أمثلة كثيرة على ذلك في كتابه علم الأدلة، يقول مثلا عن اللباس « إنه لا وجود للكلام في اللباس المكتوب الذي تصفه صحيفة من صحف الأزياء بواسطة المتمفصلة، ولا يتوافق هذا اللباس « الموصوف » مع أي تنفيذ أو تأدية فردية لقواعد الموضة، بل هو مجموعة منتظمة من الأدلة والقواعد » (رولان بارث: 50). وإذ ما أردنا أن ننقل هذا المثال الذي أورده « بارث » شارحا له به نظام اللباس إلى المفهوم اللساني لثنائية اللغة والكلام، فإننا نقول أن هذا اللباس الموصوف من قبل الصحيفة يعد لغة، لأنه يحمل صفة الجماعية والاتفاق، في حين أن اللباس هذا لو جسد من طرف الأفراد لفظا وارتداء[1] يعد كلاما.

2. الدال والمدلول: من المعروف أن هذه الثنائية هي التي تشكل ما اصطلح عليه في لسانيات « دوسوسير» بالدليل، والذي قامت عليه الدراسات اللغوية بأجملها، وقد أخذ مفهوم الدليل في المفهوم السيميائي، وخاصة عند أصحاب سيميائية الدلالة أبعادا أخرى حيث لم يعد يستعمل بتلك البساطة التي استعمله بها « دوسوسير »، بل إنه وبعد أن طوره « هيامسليف » معتبرا إياه مكونا من دال ومدلول، « يشكل صعيد الدوال صعيد العبارة، ويشكل صعيد المدلولات صعيد المحتوى » (رولان بارث: 66)، وجعل لكل صعيد شكلا وماهية، يصبح لدى « بارث »وجماعته يتكون « مثل نموذجه من دال ومدلول (إن لون الضوء في قانون السير، مثلا، عبارة عن أمر يتعلق بمرور السيارات) لكنه يختلف عنه على صعيد الماهيات للعديد من **الأنظمة الدلائلية:** (أشياء، حركات، صور) ماهية عبارة لا يوجد كائنها الدلالة: وهي غالبا، أشياء للاستعمال، لكن المجتمع حولها لأغراض دلالية» (رولان بارث: 68)، ونفهم من هذا القول أن الدلالة الأولى أو الأصلية يحولها المجتمع إلى دلالات أخرى، ليصير الدال يحمل مدلولين أو أكثر،

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 93

وبالتالي فالمدلول عند أصحاب سيميائيات الدلالة متعدد خاضع لفهم المتلقي، في حين يبقى الدال ثابتا لدى الجماعة المستعملة له طبعا.

3. المركب والنظام: هذه الثنائية الدوسوسيرية الذي رأى أن العلاقات الموجودة بين الالفاظ والكلمات تتطور على صعيدين هما: المركبات والسلسلة الكلامية، حيث أن كل لفظة تستمد قيمتها من تعارضها مع سابقتها ولاحقتها، أما الصعيد الثاني فهو صعيد تداعي الألفاظ خارج الخطاب أو الكلام، وقد توسع « جاكبسون في هذه المقولة[1]، حتى اعتبره « بارث » فاتح الباب للعبور من الألسنية إلى السيميائية، حين قال: « إن انفتاح « جاكبسون » على الخطابات التي تسيطر عليها الاستعارة أو المجاز المرسل يفتح باب للعبور من اللسانيات إلى علم الأدلة » (رولان بارث: 95)، ويرى « بارث » أنه في التحليل السيميائي ينبغي، بل من المنطقي الشروع بالتقطيع المركبي، لأنه هو الذي يزودنا بالوحدات التي يجب تصنيفها في الجداول ويعطي « بارث » أمثلة على هذا، نختار منها نظام اللباس، والممثل في الجدول التالي:

	النظام	**المركب**
اللباس	فئة من الأثواب والقطع أو التفصيلات التي لا يمكن ارتداؤها في نفس الموضع من الجسم، في الوقت ذاته، والتي يؤدي التنويع فيها إلى تغيير الملبس: طاقية / قلنسوة / قبعة	وصف عناصر مختلفة في الملبوس: تنورة – قميص – بلوزة – معطف

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 94

4. التقرير والإيحاء: لقد رفض أصحاب سيميائيات الدلالة ما ذهب إليه أصحاب سيميولوجيا التواصل في إمكانية التمييز بين الدليل، والأمارة، لقد قال هؤلاء بأن ذلك صعب جدا، واقترحوا أن كل دليل مستويات: مستوى تقريري، وآخر إيحائي، « فالدليل هو دائما إشارة، والمعنى يكون دائما مرافقا للتبليغ، ويكون المعنى التقريري دائما مرافقا للمعنى الإيحائي، وبالتالي تعنى سيميائيات المعاني بدراسة نظام الأدلة التي تستهدف المعاني الإيحائية» (رشيد بن مالك: 173).

كانت هذه أهم العناصر التي قامت عليها سيميائيات الدلالة، وقد أفاض « بارث » في شرحها في كتابه « مبادئ في علم الأدلة [1]»، وهي أهم العناصر والمبادئ التي قامت عليها النظرية السيميائية، لأنها كانت فعلا عناصر خادمة لمبادئ وأهداف هذه الأخيرة تسعى إلى الكشف عن كل ما هو جديد وغريب.[2]

ج-اتجاه التواصل:

يمثل هذا التجاه كلمن **بريتو** prieto ومونان mounin و**بويسنس** buyssen و**مارتينيه**.. martinent وغيرهم. ويقوم هذا الاتجاه في أساسه على القول بـ" الوظيفة التواصلية / الإبلاغية" للدليل/ العلامة التي تجعله يتكون – جراء ذلك – من ثلاثة أجزاء، هي الدال والمدلول والوظيفة/ القصد.

وقد أكد كل من **بويسنس** و**بريتو** و**مونان** ضرورة العودة إلى الفكرة السوسيرية القائلة بالطبيعة الاجتماعية للعلامات، وذلك تلافياُ لتفكك موضوع السيميائية، إذ حصروها أي السيميائية بمعناها الدقيق في دراسة انساق العلامات ذات الوظيفة التواصلية، فهذا **مونان** ينادي بتطبيق "المقياس الأساسي القاضي بأن هناك سيموطيقا

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 95
[2] - المرجع نفسه، ص96

أو سيميولوجيا إذا حصل التواصل". وهذا **بريتو** يستشهد برأي **بويسنس** قائلاً ينبغي للسيميولوجيا حسب **بويسنس**، أن تهتم بالوقائع القابلة للإدراك المرتبطة بحالات الوعي، والمصنوعة قصداً من أجل التعريف بحالات الوعي هذه ومن أجل أن يتعرف الشاهد على وجهتها.. التواصل في رأي **بويسنس** هو ما يكون موضوع السيميولوجيا.

ولا تقتصر هذه الوظيفة التواصلية على الرسالة اللسانية فقط، بل توجد أيضاً في البنيات السيميائية "التي تشكلها الحقول غير اللسانية، غير أن هذ التواصل مشروط بالقصدية، وإرادة المرسل في التأثير على الغير، إذ لا يمكن للعلامة أن تكون أداة التواصلية القصدية ما لم تشترط القصدية الواعية، وبناء على ذلك انحصر موضوع السيميائية في العلامات القائمة على الاعتباطية، لأن العلامات الأخرى ليس سوى تمظهرات بسيطة.

وبناء على هذا تكون للعلامات السيميائية وظيفة تواصلية اجتماعية يمكن على إثرها تقسيم التواصل السيميائي إلى محورين اثنين، هما: *1*

- **التواصل اللساني:** الذي يتم عبر الفعل الكلامي والتبادل الحواري بين المتكلم والمستمع.
- **التواصل غير اللساني:** الذي يعتمد على أنظمة سننية غير لغوية، يمكن تصنيفها إلى ثلاثة معايير، هي:

3- **معيار الإشارة النسقية** : ويتميز بثبات العلامات وديمومتها.

مثل: علامات السير الثابتة

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 38-39-40.

4-**معيار الإشارة غير النسقية:** وهو على خلاف الأول، إذ يتميز بعدم ثبات علاماته وعدم ديمومتها، مثل: الملصقات الدعائية المتغيرة الرامية إلى جذب انتباه المستهلك.

ح-**معيار الإشارية:** ويقوم على العلاقة الجوهرية الأساسية بين مضمون المؤشر وشكله، كتلك الشعارات المعلقة على واجهات المحال التجارية والمشيرة إلى أنواع البضائع الموجودة... ويدخل ضمن هذا المعيار "الاشارية ذات العلاقة الاعتباطية" كما في إشارة الصليب الأخضر إلى الصيدلية.[1]

تعددت اتجاهات السيمولوجيا بتعدد المنطلقات الابستمولوجية لعلمائها، وتعتبر « سيميولوجيا التواصل » اتجاها قويا فرض نفسه وأفكاره على الكثير من الباحثين، خاصة أقطاب المدرسة الفرنسية أمثال « بويسنس » و « برييطو »، و «مونان »، و « كرايس »، و « أوستين »، وهو اتجاه استمد الكثير من مفاهيمه من أفكار اللسانيات، حيث لا نكاد نجد اختلافا بينه وبين ما جاء به « دوسوسير » سوى في بعض الإضافات التي أضافته السيمولوجيا، فما هي هذه الإضافات يا ترى؟

يستند هذا النوع إلى بعض أفكار « ديسوسير » حول اللغة، التي يقول بشأنها « اللغة نظام من الإشارات التي يعبر بها عن الأفكار » (عبد الله الغذامي: 43)، وقد ذكر كل الإشارات اللغوية وغير اللغوية، ولكنه جعل اللغة أشدهن أهمية، وقوله « يعبر بها عن أفكار » يحيل إلى أنه يريد أن يجعل من الإشارات فعلا تواصليا مع الآخرين، ويقصد من المتكلم، الحقيقة أنه قد أشار إلى ذلك صراحة « حين ذكر أن الفكرة القائلة بأن اللغة هي نظام من أنظمة الاتصال [فقط] لم يبلورها كما ينبغي» (عبد الله إبراهيم، وآخرون: 86)، ليأتي أصحاب سيمولوجيا التواصل ليطوروا هذه الآراء ويشبعوها تفصيلا، فقد أكد

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 41.

كل من « بريتو ومونان وأندريه مارتيني، وبويسنس على أن وظيفة اللسان الأساس هي التواصل، ولا تختص هذه الوظيفة بالألسنية، وإنما توجد أيضا في البنيات السيميائيى التي تشكلها الأنواع الأخرى غير اللسانية» (رشيد بن مالك: 31)، ويؤكد معظم الباحثين[1] في هذا المجال أن الولادة الفعلية لسيمولوجيا التواصل كانت على يد « إيريك بويسنس »، ومنهم أصحاب كتاب « مدخل إلى السيمولوجيا (نص / صورة» حين يقولون « كان ميلاد سيمولوجيا التواصل مع « إيريك بويسنس » الذي نشر عام 1943 كتاب « اللغات والخطاب» محاولة في اللسانيات الوظيفية في إطار السيميولوجيا (دليلة مرسلي وآخرون: 14). ثم آتى أنصار « دوسوسير » في هذا الاتجاه ليضعوا شروطا لسيميولوجيا التواصل، وأبرز هذه الشروط « القصدية »، إذ يجب « أن يتوفر القصد في التبليغ لدى المتكلم، وأن يعترف متلقي الرسالة بهذا القصد» (رشيد بن مالك: 192).

إذ نظرنا إلى السيميولوجيا من هذه الزاوية فإنها تظهر– كما يقول رشيد بن مالك – كوصف لسير جميع الأنظمة التواصلية التي بموجبها يمكن أن نقر بوجود قصد في التبليغ، ويساعدنا مقياس القصد في التبليغ على التمييز بين الوحدات التي من أجلها يتوفر القصد في التبليغ وتسمى « إشارات، ولعل اشتراطهم لتوفر القصد في الوحدات الأولى– أي الأدلة – يعود إلى كون العلامة عندهم تتكون من ثلاثة عناصر: الدال، والمدلول، والوظيفة أو القصدية (جميل حمداوي:89)، وهؤلاء اللسانيون والمناطقة لا يهمهم من الدوال والعلامات السيميائية غير الإبلاغ، والوظيفة الاتصالية أو التواصلية، وهذه الوظيفة لا تؤديها الأنساق اللسانية فحسب، بل هناك أنظمة سننية غير لغوية ذات وظيفة سيميوطيقية تواصلية، أما الوحدات التي ينعدم فيها القصد والتي سماها « رشيد بن مالك » بالإشارات، فنعتقد أنه يقصد بها المؤشرات، ذلك أنه « إذا كانت الإشارات يوجد فيها القصد في التواصل (...) فإن المؤشر حسب « بويسنس F.Buyssens »

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 85

ينتج في غياب الإدارة القصدية التواصلية (أنور المرتجي: 6) فقد يكون[1]« رشيد بن مالك » لم يحسن الترجمة، وهذا تخريج من عندنا ليس إلا خاصة وأننا وجدنا دليلة مرسلي » في حديثها عن هذه الوحدات أيضا لم تقل بمصطلح « إشارات» وإنما قالت « أمارات ». قصد التواصل يعني أنه « لا يمكن أبدا أن يكون هناك مستر سيميولوجي بدون علم أحد الطرفين: الباث والمتلقي» (دليلة مرسلي: 15)، كيف وهما الأساس في العملية التواصلية »

إن مهمة السيمولوجيا عند أصحاب هذا الاتجاه تتمثل في البحث عن طرق التواصل، أي – كما يشرح « بويسناس » – " دراسة الوسائل المستخدمة للتأثير على الغير والمعترف بها تلك الصفة من قبل الشخص الذي نتوخى التأثير عليه " (دليلة مرسلي: 14)، هذا ونجد الاهتمام بعنصر قصدية التواصل عندهم يصل إلى مطالبة بعضهم مثل « بويسنيس » و « برييطو » و « مونان » تلافيا لتفكيك موضوع السيميائية بالعودة إلى الفكرة السوسيرية القائلة بالطبيعة الاجتماعية للعلامات، فحصروا السيميائية بمعناها الدقيق في دراسة أنساق العلامات ذات الوظيفة التواصلية فقط (جميل حمداوي 89)، فهؤلاء السيميولوجيون لا يكادون يختلفون في شيء كما جاء به « دو سوسير » في حديثه عن الإرساليات اللغوية يؤكد ذلك قول « بويسنس» صراحة « المقياس الأساس القاضي بأن هناك سيميوطيقا أو سيميولوجيا إذا حصل التواصل » (عبد الله إبراهيم وآخرون: 85)، ومن هنا نستنتج أنه إذا كان « دوسوسير » قد ذكر الفكرة القائلة بأن اللغة نظام من أنظمة التواصل، ولم يشرحها ويبلورها جيدا، فإن أصحاب هذا الاتجاه قد أشبعوها تحليلا وتفصيلا، وبالإضافة إلى هذا الشرط الذي يصر عليه أصحاب هذا الاتجاه والذين نحسبهم قد تأثروا بآراء « جاكبسون» في نظرية الاتصال إلى جانب أفكار « دوسوسير »، نجدهم يملون على شرط آخر وهو شرط « التأثير على الغير»، ذلك

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 86

أن التأثير يعد « وظيفة أساسية[1] للكلام في حقل السيمولوجيا» (رشيد بن مالك: 178)، فهو – أي تأثير – عندهم ضروري جدا إلى درجة أنهم جعلوا هدف سيميولوجيتهم الأساسي هو الإبلاغ والتأثير على الغير عن وعي، أو عن غير وعي، أما السبب في كون التأثير حادثا لا محالة، وإن كان دون إرادة ذلك، فنعتقد أنه يعود إلى طبيعة الوسائل التي يستخدمها الباث والمتمثلة في « الأمارات والمعينات (...) Indications يمكن تقسيمها إلى ثلاث: الأمارات العفوية وهي وقائع ذات قصد مغاير للإشارة، تحمل إبلاغا طبيعيا وعفويا، والأمارات العفوية المغلوطة التي تريد أن تخفي الدلالات التواصلية للغة [كاستعمال الشخص لهجات أخرى لنحسبه أجنبيا] والأمارات القصدية التي تهدف إلى تبليغ إرسالية مثل إشارات المرور» (جميل حمداوي)، ولسيميولوجيا التواصل – كما يؤكد أصحاب « معرفة الآخر» – محوران أساسيان هما التواصل والعلامة، ولكل من هذين المحورين تفريعاته، فمحور التواصل يقسم إلى تواصل لساني وتواصل غير لساني فالأول – أي اللساني – يتمثل في العملية التواصلية التي تتم بين البشر بواسطة الفعل الكلامي وما يتعلق بذلك من آليات مختلفة، أما الثاني – أي التواصل غير اللساني– فيسميه « بويسناس » « لغات غير اللغات المعتادة»، ويقسمه إلى معايير ثلاثة: معيار الإشارية النسقية، وتتجلى حين تكون العلامات ثابتة كعلامات السير، والمعيار الثاني هو « معيار الإشارية التي لمعنى مؤشرها علاقة جوهرية بشكلها » (عبد الله إبراهيم وآخرون: 88 – 89)، أما محور العلامة فيقسم – حسب هذا الإتجاه – إلى أربعة أصناف هي الإشارة والمؤشر، والأيقون، والرمز:

1.**الإشارة وهي أنواع:** كحمرة الأصيل، والإرهاصات المنبئة بالثورة ، وأعراض المرض، والبصمات والآثار الدالة على حضور، وأهم ما يميز الإشارة هو كونها مدركة ظاهرة، وهي رهن إشارة الإنسان الذي يملك حق تعريفها وشرحها كما يريد.

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائياتن ص 87.

ونفهم من هذه المواصفات التي يعطونها للإشارة، وأنهم يقصدون بها الأمارات غير القصدية.

2. المؤشر: وقد عرفه « بريطو » بأنه العلامة التي هي مثابة إشارة اصطناعية، هذا المؤشر وهو يفصح عن فعل معنى لا يؤدي المهمة المنوطة به، غلا حيث يوجد المتلقي له.

3. الأيقون: وهو علامة تدل على شيء تجمعه إلى شيء آخر علاقة المماثلة، إذ يعترف على الأنموذج الذي جعل الأيقون مقابلا به.

4. الرمز: وهو عند « موريس » علامة العلامة، أي العلامة التي تنتج قصد النيابة من علامة أخرى مرادفة لها ومعنى ذلك أن العلامة اللغوية يصير لها مدلولا آخر كالسلحفاة رمز للبطء (عبد الله إبراهيم وآخرون: 94 – 95)

لقد كان اتجاه سيميولوجيا التواصل اتجاها ممتلكا لشرعيته خاصة مع الفرنسيين الذين احتضنوا أفكار « ديسوسير» بكل صدر رحب، وزادوا عليها ما رأوه لائقا، وقد رأينا أن أهم ما يميز هذا الاتجاه هو التركيز على الوظيفة التواصلية، وضرورة التأثير على الغير، ناسين أو متناسين أن هدف السيميائية الأول هو الوصول إلى عمق الدلالة في صلب الحياة الاجتماعية بأي شكل كان[1] .

د–مدرسة باريس السيميوطيقية:

تضم هذه المدرسة كلا من **جريماس** و**ميشيل أريفي** و**كلود شابرول** و**جان كلود كوكي**. وقد تتلمذ هؤلاء على أفكار **سوسير** و**بيرس** وأصدروا عام (1982) كتابا حول أعمال مدرستهم حمل عنوان: "السيميولوجيا، مدرسة باريس سنة 1982"، وقد استهله **جان كلود كوكي** بفصل نظري تحدث فيه عن المنطلقات والدوافع الداعية لتأسيس هذه

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائياتن ص 89.

المدرسة.. وأهمها التأكيد على ضرورة الاهتمام بالأنظمة الدلالية للعلامات وعدم الاكتفاء بأنظمتها الشكلية فقط..

جريماس ومربعه السيميائي:

حث أ.ج.**جريماس** (A.J.Greimas) الباحث السيميائي على عدم الاكتفاء بعملية المزاوجة بين المفاهيم والقيام بإيجاد التعارضات الاستبدالية فقط، بل يجب عليه كذلك أن يقدم نموذجاً يسعى إلى الكشف عن منظومة المعنى، لأن كل معنى لا يقوم على تعارضات ثنائية فقط، وإنما على تعارضات رباعية كما في : (أسود، أبيض) و (لاأسود، لا أبيض).

وهو ما يعرف اليوم باسم "المربع السيميائي" الذي يمكن أن يطبق على أي فعل إنساني (معرفي أو خيالي).

تقوم علاقات المربع السيميائي على التضادية (التضاد وشبه التضاد)، والتناقض، والتضمن، وتحكم هذه العلاقات "قيم موقعية وتعارضات كيفية وحرمانية وعدمية، فالتعارضات الكيفية تعتري التضادية، والتعارضات الحرمانية تصيب التناقض" فـ(رجل/امرأة) –مثلاً من قبيل النفي الكيفي، و(رجل/فرس) من قبيل النفي الحرماني، وتوضيح ذلك أن سمات الرجل المميزة هي:

[+حي] ، [+ذكر] ، [+بالغ] ، [+عاقل] ...الخ،

وسمات المرأة: [+حية] ، [–ذكر] ، [+بالغة] ، [+عاقلة] ...إلخ،

وسمات الفرس: [+حية] ، [–ذكر] ، [–بالغة] ، [–عاقلة].. إلخ.

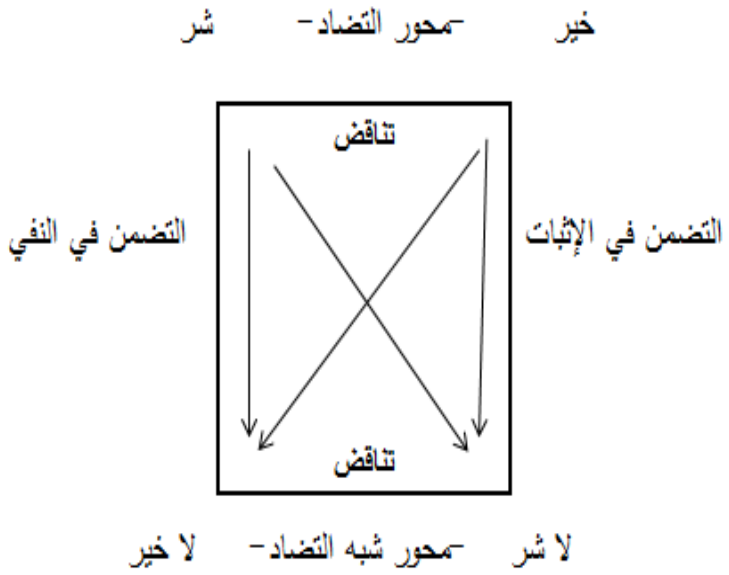
وبهذا يتبين أن النفي كان كيفياً بين حدي (رجل/ امرأة) لأن الفروق لم تكن كثيرة بينهما، بينما كان النفي حرمانياً بين (رجل/فرس) لوجود فروق كثيرة بينهما أما في حالة (رجل/ لا رجل) فإن الحدين متناقضان ولا يمكن أن يجتمعا معاً، وهذا ما يسمى بالنفي العدمي:

سمات "رجل": [+حي] ، [+ذكر] ، [+بالغ] ، [+عاقل] ...الخ.

سمات "لا رجل": [-حي] ، [-ذكر] ، [-بالغ] ، [-عاقل] ...إلخ.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن هناك العلاقة بين محور التضاد وشبه التضاد التي تنتج "التناقض" كما في (رجل/امرأة)، (ولا رجل/لا إمرأة)، والعلاقة بين مؤشر الإثبات ومؤشر النفي وما ينتج عنها من "تضاد" كما في (رجل/لا إمرأة)، و(لا رجل/امرأة)، كما أن هناك علاقة التضمن التي يمكن أن تفهم بقولنا إن "لا أصفر" مثلاً يتضمن (أزرق، وأبيض، وأسود...) وإذا قلنا (لا أحمر) فإنه يتضمن (أصفر، وأزرق، وأخضر،..)

وعليه يمكن تمثيل هذا المربع السيميائي كالتالي:



هـ- جماعة (تل كل):

(تل كل tel quel) هو اسم مجلة فرنسية تعنى بالأدب والنقد، أصدرها **فيليب سولرز** عام (1960)/ ومنذ ذلك الحين وهي تستقطب أهم أعلام النقد والأدب أمثال **جوليا كريستاف** (julia kristeva)، و**جيرار جينيت** "Genard Genette" و**تزفيتان تودوروف** (tzvetan todorov) .. وآخرين وقد وضع هؤلاء نصب أعينهم أن الهدف من هذه المجلة هو تحليل الأعمال الفنية خارج كل السياقات الدخيلة على الأدب، والعمل على مقاطعة البنيوية ذات الموروث الوصفي، وبحدودها المنطقية الساكنة التي تهدف إلى قراءات منغلقة تريد تأصيل نماذج ثنائية محددة، ومع تعدد الكتابات والموضوعات التي تناولها أعضاء هذه المجلة فقد كان القاسم المشترك بينهم هو رفض المناهج النقدية التقليدية، وتشجيع الدراسات الحديثة والعمل على نشرها، والرغبة في إيجاد نقد علمي لا يقوم على المقولات المستهلكة، بل على سيميائية تهدف إلى تطوير طرائق منفتحة للقراءات المتعددة، تبحث في جوهر الأنظمة الفكرية والفلسفية واللغوية والأدبية في محاولة منها للقبض على سيل المعاني اللامحدودة. ولم تكن اللسانيات هدفا لأعضاء هذه المجلة، بل كانت وسيلة لاكتشاف دلالات النص الأدبي، وكثيراً ما عاد نقادها إلى **سوسير**، و**ياكوبسون**، و**شومسكي**، و**جريماس**، دون أن يلتزموا بمدرسة لسانية محددة.*1*

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 42-43-44.

II. أهم المبادئ الأدبية والنقدية جماعة (تل كل):

أ/ الكتابة:

ترى هذه الجماعة أن الكتابة لا يمكنها أن تمثل الواقع الذي تتناوله مثلما تمثل واقعها الذاتي، فوظيفتها الإنتاجية لا تختص بالعالم أو اللاشعور، ولا بالتدليل على الحقيقة وإبرازها، إنما هي مكان نقدي يظهر فيه النص حصيلة لتوزيع العلاقات بين الكتابة والكلام، والكتابة لا تتمركز على الذات أو التاريخ، وهي تستبعد أية علاقة ذاتية بين الكاتب والكتابة، فالكتابة تحمل الكاتب وتوجهه، وليس العكس.

ت / بالنص:

لا يكتمل النص الأدبي لدى جماعة (تل كل) إلا بوجود عدد من القراء يتفاعلون معه بقراءاتهم المتباينة التي تضمن له التجدد والاستمرارية وتجاوز حدود الثبات والسكون.

ج/ اللغة والإيقاع:

أولى نقاد جماعة (تل كل) اهتماماً باللغة الشعرية وخصائصها المميزة لها عن اللغة المعتادة، ووقفوا عند الإيقاع الشعري فميزوا بين الشعر المكتوب والشعر الملفوظ، وبين التسجيل الصوتي والتشكيل المرئي للشعر، وذلك بجمع مسودات الشعراء وملاحظة وضعهم لأشعارهم على الورق، وتأمل الشكل الجمالي لأحرف تلك اللغات التي تشكل خطوطها لوحات تجريدية مختلفة.

د-الرواية:

كان لأعضاء (تل كل) نصيب من الدراسات الروائية الجديدة المواكبة لعصرها زماناً ومكاناً، ومن هؤلاء الأعضاء يأتي **جان ريكاردو** الذي يعد من أهم منظري الرواية الجديدة، ليصدر كتابين ضمن سلسلة المجلة، حمل الأول عنوان: "إشكالية الرواية

الجديدة،" وحمل الثاني عنوان: "في سبيل نظرية للرواية الجديدة"، وتناول مؤسس هذه المجلة فيليب سولرز علاقة الرواية بالوجدان المعاصر لها.[1]

تترأس هذا الاتجاه الناقدة البلغارية الأصل **جوليا كريستيفا** (Julia kristieva) في محاولتها التوفيق بين اللسانيات والمنظور الماركسي في عملية تحليل النصوص الأدبية، قد تبنت مشروعاً للتحليل أطلقت عليه اسم "السيمانااليز" semanalyse السيميولوجيا التحليلية الذي يعني "التركيب بين الخطاب السيميولوجي والتحليل النفسي النظري". واهتمت فيه بالإنتاج الأدبي ومدلوليته بتناولها دلالة كل علامة على حدة، ثم بحثها في مدلولات كل علامات النص في ضوء الماركسية والفرويدية إلى جانب ثقافة فلسفية ورياضية وأدبية.

وترى **كريستيفا** أن علينا أن نجعل من اللغة عملا يشتغل على مادية ما، ليشكل وسيلة إتصال وتفاهم المجتمع، لا أن يكون عملا غريبا على أبنائه، كما أنها ترفض في الوقت ذاته حصر السيميائية في الوظيفة التواصلية فقط، وتدعو إلى خلق مقولات وفضاءات جديدة يقوم بها السيمانااليز.

و- السيميولوجيا الرمزية:

يطلق على هذا الاتجاه اسم "**إيكس**" نسبة إلى المدرسة التي يحاضر فيها زعيم هذا الاتجاه أستاذ الأدب الفرنسي "**مولينو**" (molino) الذي جمع مع "جان جاك ناتي" بين نظرية "بيرس" حول العلامة وإشارتها وأيقونتها ورمزها، وبين فلسفة "**إرنست كاسيرر**"

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 45.

(Ernst cassirare) الرمزية التي تصف الإنسان بأنه حيوان رمزي، لا يحيا في عالم مادي خالص وإنما يحيا في عالم رمزي يتكون من اللغة والأسطورة والفن والدين.[1]

والرمز عند "**كاسيرر**" هو واحد من وسائط متعددة أو بنيات مفهومة ومنطقية يدرك عبرها الواقع من طرف الإنسان، وبهذا فلم يعد بمقدور الإنسان أن يعيش وسط عالم فيزيائي ملموس، بل أصبح يحاط بكون رمزي يتطلب وساطة بينه وبين واقعه المعاش، وعليه فبدل أن يدخل الإنسان في علاقة مباشرة مع الأشياء نفسها غلف نفسه برموز لسانية وفنية وأسطورية وغيرها حتى صار متعذراً عليه أن يدري أي شيء أو يتعرف عليه دون تدخل هذا الوسيط الاصطناعي".

وكما اهتم "بيرس" ب (العلامة/الدليل) وبأقسامها المختلفة فقد اعطى " كاسيرر" الدليل الدور الأساسي في تأسيس الفكر العلمي والأشكال الرمزية بصفة عامة إذ أن الدليل المحسوس ليس مجرد وسم عرضي لفكرة ما وإنما هو العضو الضروري والجوهري لها، ووظيفة هذا الدليل لا تقتصر على توصيل محتوى فكر معين كما هو دون تغيير، وإنما تعمل على نمو وتجدد ذلك المحتوى.

وعليه فقد حددت "سيميولوجيا الأشكال الرمزية" وظيفة الرمز في ثلاثة مستويات، هي : المستوى الشعري، والمستوى المادي، والمستوى الحسي، وتدرس الأدب بناء على هذه المستويات الثلاثة، بأن تتناول في المستوى الأول علاقة المنتج بإنتاجه، وتتناول في الثاني علاقة الإنتاج بنفسه، وتتناول في الثالث علاقة المتلقي بهذا الإنتاج.[2]

---

1 – هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذج، ص46.

2 – – هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذج، ص 47.

الاتجاه الروسي:

يعود الفضل في انتشار الدراسات السيميائية الحديثة في روسيا إلى جماعة الشكلانيين الروس التي ازدهرت في الفترة ما بين (1915- 1930)، وعلى رأسهم : رومان ياكوبسون، ويوري لوتمان، وب.أوسبينسكي، وف.إيفانوف وت.تودوروف.. وغيرهم، وقد أتت هذه الجماعة في مرحلة الصراع الأيديولوجي لتلخيص الأدب من السيادة التي فرضتها عليها الأيديولوجيا وما زعمته لنفسها من حقوق مقدسة في دراسة الأدب ركزت فيها على النقد الاجتماعي الأيديولوجي الذي يتناول الآثار الأدبية بوصفها أفكاراً وصوراً تعكس الواقع وتصوره تصويراً صادقاً أميناً، مغفلة أي الأيديولوجيا بنية الأدب وشكله الفني، فما كان من جماعة الشكلانيين إلا أن قاموا بالبحث عن أشكال جديدة من الدراسة الأدبية يكون الاهتمام فيها منصبا على كيفية القول لا على ما يقال، أي على الأشكال والبنيات بدلا من المواد والمحتويات، أشكال تعد الأدبية هدفا في ذاتها لا مجرد وسيلة لغيرها. ولم يكتف هؤلاء بتمييز الأدب عن غيره من الفنون كالموسيقا والرسم، بل ميزوا أيضاً بين الفنون الأدبية نفسها من شعر وسرد وخطابة.. وعلى الرغم من اشتهارهم بتسمية شكلانيين، وهي التسمية التي تشي بروائح قدحية تنم عن اهتمامهم بالشكل لا المعنى، فإن الواجب يقتضي التوضيح بأن مسألة المعنى لن تغب عن اهتمامهم ابداً. وقد كان وعيهم بكون اللغة هي في الآن نفسه دال ومدلول كفيلاً بأن يجنبهم السقوط في شراك الشكلية المحضة الشكلية تعلق عندهم باللفظ والمعنى معا. كما أن الشكلانية لا علاقة لها بمذهب الفن للفن الذي ساد في القرن التاسع عشر الذي شغل بجوهر الفن وأغراضه وأهدافه. إذ أن الشكلانية تتناول أساسا الأطروحتين المترابطتين.

6- التشديد على الأثر الأدبي وأجوائه المكونة، لأن مكمن خاصية الأدب ينبغي البحث عنها في الأثر الأدبي نفسه وليس في الأحوال النفسية للمؤلف أو القارئ أو الظروف المحيطية الاجتماعية او الفلسفية.

7- الإلحاح على استقلال علم الأدب وجعل الأدبية هي موضوعه، لا أن يكون الأدب مجرد أفكار وصور تعكس الواقع.

كان عام (1930) إيذاناً بنهاية الشكلانية الروسية، فقد حاول عالم الاجتماع الروسي أرفاتوف التوفيق بين التحليل الاجتماعي الماركسي ونظرة الشكلانية الروسية، كما حاربها عدد من النقاد والأساتذة الجامعيين والمتطرفين الماركسين الأيديولوجيين، مما عمل على تفريق أعضائها، والاهتمام مجددا بالمضمون أثناء عملية التحليل النقدي.

بعد فترة من النسيان والانقطاع عن الساحة الأدبية الروسية عادت الشكلانية الروسية لتواصل نشاطها بفضل الترجمات الغربية لدراستها التي استفادت منها كل من (مدرسة تارتو tarto) الروسية و (جمعية دراسة اللغة الشعرية) المستمرة في إنتاجها منذ عام (1916) وحتى الآن.

ويمكن هنا، تحديد مسارات السيميائية في روسيا كما يلي:

8-الكتابات والدراسات النظرية المساهمة في تأسيس البنيوية الحديثة وتطوير النقد الأدبي والروائي، كتلك الأعمال التي جمعها "تودوروف" في كتابه ""نظرية الأدب و"بروب" في التحليل المورفولوجي عام (1982) وأبحاث "باختين" الروائية المنشورة في كتابه جمالية الرواية عام (1978)

9-الأعمال الناتجة عن تفاعل الأبوياز مع مدرستي براغ وكوبنهاجن البنيويتين عام (1960)، والتي كان من أهمها تأسيس مدرسة (تارتو) الروسية على يد "يوري لوتمان" وب.أوسبينسكي" *1* وف.تودوروف".. وغيرهم. وقد جمعت أعمالهم في كتاب "أعمال حول أنظمة العلامات".. تارتو (1976)

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 48-49.

10- الأبحاث التطبيقية الناضجة المنجزة على أيدي أولئك الشكلانيين الروس من مثل : "كيف صنع معطف غوغول" لإخنباوم (1919)، وشعرية دوستوفسكي "لباختين" وعلم شكل الحكاية لبروب.

11- الكتابات الإبداعية المتوجة للنضج الأدبي والفني لهؤلاء المبدعين كرواية السفر العاطفي لشلوفسكي، وموت الوزير مختار لتينيانوف.

أما عن أهم مميزات الشكلانية الروسية فيمكن إيجازها بالنقاط التالية:

2-الاهتمام بخصوصيات الأدب، والبحث عن الأدبية

3-شكلنة المضمون

4-استقلالية الأدب عن الحيثيات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتاريخية.

5-التوفيق بين آراء بيرس ودي سوسير حول العلامة

6-استعمال مصطلح السيميوطيقا بدل السيميولوجيا

7-الاهتمام بالسيميوطيقا المعرفية والثقافة

8-التركيز على الاختلاف والانزياح بين الشعر والنثر (شكلنة الاختلاف)

9-الايمان باستهلاك الأنظمة وتجددها وتطورها باستمرار تلقاء ذاتها.

10- عدم الاقتصار في الأبحاث على الأعمال القيمية المشهورة في مجال الأدب، بل التوجه إلى الأجناس الأدبية مهما كانت قيمتها الدنيا، كأدب المذكرات والمراسلات، قصد مساهمتها في إثراء الأعمال العظيمة.

سيمائية الثقافة:

يولي الاتجاه الروسي وخاصة مدرسة " **تارتو**" عناية خاصة بالثقافة كونها الإطار الأصلي الذي يضم عموم السلوك الإنساني الفردي منه والجماعي. ويربط علماء هذا الاتجاه بين السلوك الإنساني وبين إنتاج العلامات واستخدامها؛ إذ يرون أن العلامة تتكون من وحدة ثلاثية المبنى، هي: الدال والمدلول والمرجع وهو هنا الثقافة ويمكن تمثيلها بالشكل ا



فالعلامة إذن لا وأن هذه الدلالة إذا كانت لا توجد إلا عن طريق العرف والاصطلاح فإن هذين بدورهما ما هما إلا نتاج التفاعل الاجتماعي الداخل ضمن إطار آليات الثقافة.

وعليه، فإن هذه الثقافة "تتكون من عدة أنساق دالة ما دام لكل سلوك معنى وما دمنا نتواصل بواسطة سلوكنا، فهذه الأنساق تواصلية تتراوح بين الانساق الأكثر تعقيداً والانساق الأقل تعقيداً، بما في ذلك اللغات الطبيعية والفنون والاساطير والطقوس... وغيرها."

وإذا كان الأمر كذلك فإن أي نسق سيميائي معزول، مهما كان كاملاً، لا يمكنه أن يكون ثقافة بمفرده، إذ الثقافة نتاج أنظمة من العلامات المتنوعة والمتداخلة والمشتملة على مناحي الحياة المختلفة من اجتماع وسلوك وأيديولوجيا.. إلخ،*1* وهذا الحديث عن الثقافة يقود إلى الحديث عن الذاكرة التي يمكن النظر بواسطتها إلى الثقافة على أنها ذاكرة

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 50-51.

الجماعة التي تقوم بتخزين المعلومات وتصنيفها وتنسيقها مثلها في ذلك مثل الذاكرة الفردية للإنسان، وهذا القول لا يتناقض مع ديناميكية الثقافة وتغيرها إذا وضع في الحسبان أنها أي الثقافة كما تهتم بتخزين المعلومات وثباتها فإنها تقوم ببرمجة النصوص الجديدة وإنتاجها.

ومن هنا يمكن الانتقال إلى تلك النصوص التي يرى إيفانوف وأصحابه أن الثقافة هي الوظائف التي تؤديها هذه النصوص في الحياة الاجتماعية، مع ما يصاحبها من آلية توليد هذه النصوص الثابتة وغيرها من النصوص المستقبلية.

ولا يفوت التنويه هنا إلى أن إيفانوف وأصحابه لم يقصروا النص على اللغة الطبيعية وحسب، وإنما رأوا في النص ذلك العمل الذي يحمل معنى متكاملاً، وقيمة تستحق البقاء، ووظيفة تشترك فيها النصوص المتشابهة وفق شروط معينة، ويتساوى في هذا العمل الفني والمؤلف الموسيقي وحتى المعماري.[1]

رأينا في أنواع السيميائيات السابقة المتمثلة في: التواصل والدلالة، كيف أن لكل منها مجالات وخصائص تميزها عن الأخرى، أما الآن فسنلتفت إلى نوع ثالث نستطيع القول عنه – إلى حد ما – أنه يجمع بين النوعين السابقين لكنه مختلف عليهما في بعض الخصائص التي جعلت منه مجالا خاصا آخر من مجالات الدراسات السيميائية، هذا النوع يرتبط أكثر بالجانب التطبيقي، كون « السيميوطيقا » بهذا المصطلح تختص بالجانب التطبيقي، كون « السيميوطيقا» بهذا المصطلح تختص بالجانب التطبيقي في العرف العام، بينما تختص السيميولوجيا بالجانب النظري، لهذا فصلنا بين النوعين، وسنتعرف عن قرب على هذا النوع بذكر تاريخه وأهم عتباته.

1– هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً ، ص 52.

تعود جذور سيميوطيقا الثقافة إلى فلسفة الأشكال الرمزية عند « كاسيرير » وإلى الفلسفة الماركسية (رشيد بن مالك: 32)، أما أهم رواد هذا الاتجاه فنجد من الاتحاد السوفياتي « يوري لوتمان » و « إيفانوف »، و « أوسبنسكي » و « تودوروف »، وفي إيطاليا « روسي » و « لاندو »، و « أمبرتو إيكو »، ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن العلامة تكون من وحدة ثلاثية: المبنى – المدلول – المرجع (عبد الله إبراهيم وآخرون: 108).

تنطلق سيميوطيقا الثقافة – كما يقول « مبارك حنون » – من اعتبار الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأنساقا دلالية، والثقافة عبارة عن إسناد وظيفة الأشياء الطبيعية وتسميتها وتذكرها[1] رشيد بن مالك: 32).

إن مفهوم الثقافة في الدراسات السيميوطيقية التصنيفية يعد أساسيا، لذلك يجب التفرقة بين مفهومين لها: « مفهوم الثقافة من منظور الثقافة ذاتها، ومفهوم الثقافة من منظور ما وراء النظام العلمي الذي يصنفها» (يوري لوتمان، بوريس أوسبنسكي: 295).

وقد أسس العلماء الذين ذكرناهم أعلاه مع علماء آخرين جمعية أطلق عليها تسمية « رولان جماعة موسكو – تارتو» وقد بدأ عملهم المنظم والمنهجي في موسكو، وذلك بعقدهم لمؤتمر حول « الدراسة البنيوية لأنظمة العلامات »، ويمكن استخلاص المفهومات الأساسية التي تبناها هذا الاتجاه من الأبحاث التي قدمت في ذلك المؤتمر، وقد طرحت الأبحاث المقدمة للمؤتمر اختلافا كبيرا وكان مبررهم أنها جميعها تشترك في سمة واحدة، وهذه السمة هي كونها أنظمة من العلامات، ومن هذا المنطلق نقع في إطار تناول العلم الجديد علم السيميوطيقا.

وقد كتب افتتاحية المؤتمر « إيفانوف» وقد رأى فيها أن الإنسان والحيوان وحتى الآلات تلجأ إلى العلامات. ومن هذا المنطلق يقدم « إيفانوف» مفهوم النموذج والأنظمة المنمذجة والنمذجة، وقد أصبحت هذه المفهومات أسسا محورية في الدراسات السيميائية

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 97

السوفياتية كلها، فتوصف الأنظمة السيميائية بأنها منمذجة للعام، أي أنها تضع عناصر العالم الخارجي في شكل تصور ذهني هو نسق أو نموذج، ولذلك يرى « إيفانوف» أنه لابد من تصنيف أنظمة العلامات في شكل تدرج هرمي، واللغة هي النظام الأول (عبد الله إبراهيم وآخرون: 10/). فالتأكيد على أن اللغة الطبيعية هي الأساس والأهم في كل الأنظمة السيميوطيقية مبدأ قديم جدا، وذلك لأهميتها الكبيرة في حفظ وصيانة أفكار وثقافات الشعوب، لذلك لا يستطيع « إيفانوف» تجاهل ذلك، والذي أكد أيضا على الجانب التوصيلي، فالأنظمة لا تشكل العالم فحسب، بل لها وظيفة أيضا هي نقل المعارف المختلفة، فاللغة عنده لديها أهمية كبيرة[1]

إن على الجانب التوصيلي، وإن على الجانب الفكري. ونلاحظ – كما أكد ذلك معظم الباحثين – أن مفاهيم « إيفانوف» الخاصة بالنمذجة قد استمدت من المدخل الرياضي والمنطقي للدراسات السيميوطيقية الذي بدأ مع « بورس»، أما مفاهيمه الخاصة بالوظيفة التواصلية فمستمدة من المدخل اللغوي الذي أرسى قواعده « دو سوسير»، وقد نظر هؤلاء العلماء المؤسسين لهذا الاتجاه أن العلامة لا تكتسب دلالتها إلا من خلال وضعها في إطار الثقافة، لذلك نراهم يتكلمون عن « أنظمة» دالة، أي عن مجموعة من العلامات المتدرجة والمتداخلة، ولابد من دراسة هذه الأنظمة من مناحي مختلفة، اجتماعية، اقتصادية، سلوكية وغيرها، لذلك فهم يدرسون العلاقات التي تربط بين الأنظمة المختلفة كعلاقة الأدب بالبنيات الثقافية الأخرى كالدين والأشكال التحتية الأخرى ويحاولون الكشف عن العلاقات التي تربط تجليات الثقافة الواحدة عبر تطورها الزمني، أو بين الثقافات المختلفة أو بين الثقافة واللاثقافة (عبد الله إبراهيم وآخرون: 109)، إن الثقافة باعتبارها مجالا لتنظيم المعلومات، وجمعها في إطار واحد يكشف لنا على أن كل ما هو خارج الثقافة إنما هو فوضى، وإذا وصفنا المسألة من هذه الزاوية « يبدو الثقافي والاثقافي مجالين يحدد كل منهما الآخر، ويحتاج إليه، إن آلية الثقافة نظام يحول المجال الخارجي إلى نقيضه الداخلي، يحيل الفوضى إلى نظام، ويحول الجهلاء إلى علماء،

[1] .- فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 98

والمذنبين إلى أولياء، ويحيل الفوضى إلى معلومات، ولأن الثقافة لا تعتمد في حياتها على التقابل بين المجالين الداخلي والخارجي فحسب، بل تعتمد على الحركة من أحدهما إلى الآخر، فإنها لا تحارب « الفوضى» الخارجية فقط، بل إنها تحتاجها أيضا، إنها لا تكتفي بتحطيمها، ولكنها أيضا بالإضافة إلى الاتجاه الروسي المتمثل في جماعة موسكو– تارتو[1] نجد اتجاها آخر اهتم بالظواهر الثقافية وشكل اتجاها خاصا سمي الاتجاه الإيطالي الذي كان من أبرز عناصره « أمبرتو إيكو»، و « روسي لاندي» هذا الأخير الذي يرى أن الثقافة لا تنشأ وتتطور إلا بتوفر شروط ثلاثة وهي:

أ. حينما يسند كائن مفكر وظيفة جديدة للشيء الطبيعي.

ب.حينما يسعى ذلك الشيء باعتباره يستخدم إلى شيء ما، ولا يشترط أبدا قول هذه التسمية بصوت كما لا يشترط فيها أن تقال للغير.

ج. حينما نتعرف على ذلك الشيء باعتباره شيئا يستجيب لوظيفة معينة، وباعتباره ذا تسمية محددة، ولا يشترط استعماله مرة ثانية، وإنما يكفي مجرد التعرف عليه (جميل حمداوي: 95).

إن « أمبيرتو إيكو» لا ينظر إلى الأشياء في استقلاليتها، وإنما في ربطها بالسلوكيات المبرمجة من طرف الأشخاص وبالتالي « فأي نسق تواصلي يؤدي وظيفة ما» (جميل حمداوي: 95)

أما « لاندي » فإنه يحدد سيميوطيقيته من خلال أبعاد البرمجة التي يمكن حصرها في ثلاثة أنواع:

1. أنماط الإنتاج (مجموع قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج).
2. الإيديولوجيات (تخطيطات اجتماعية لنمط عام).
3. برامج التواصل (التواصل اللفظي وغير اللفظي) (جميل حمداوي: 95).

إن السيميوطيقا عند « لاندي » مرتبطة أشد الارتباط بالجانب الإيديولوجي المرتبط بدوره بالسلوكات الإنسانية، ف « لاندي » إذن يهدف إلى الكشف عن كل سلوكات الإنسان وتعريتها من خفاياها الإيديولوجية المختلفة.[2]

[1] - المرجع نفسه، ص 99

[2] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 100

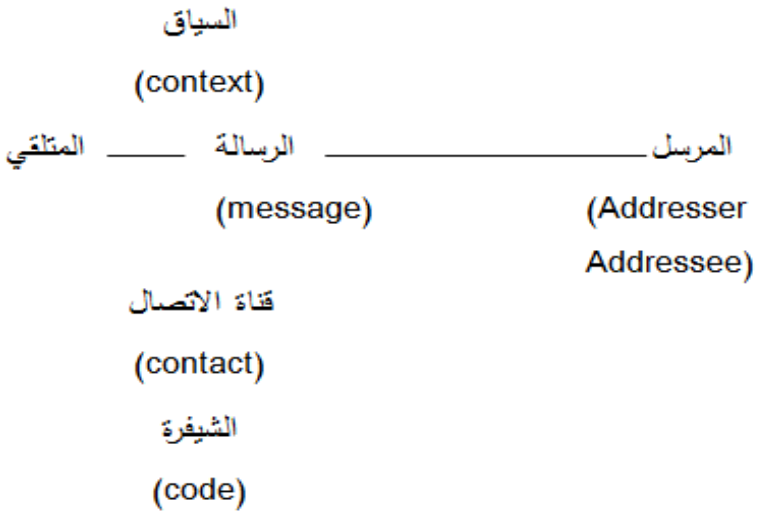
إن ما ينفق فيه الاتجاه الروسي والاتجاه الإيطالي في التركيز على سيميوطيقا الثقافة هو « أن الظواهر الثقافية ذات مقصدية تواصلية» (جميل حمداوي: 96).

إن أصحاب مدرسة « تارتو » وأصحاب الاتجاه الإيطالي قد شكلوا بحق اتجاها سيميوطيقيا خاصا بالثقافة، حمل على عاتقه الكثير من العناصر الثقافية ودرسها دراسة سيميوطيقية كانت لها جدارتها ولا زالت، وأهم هذه العناصر النص، الصورة، الإشهار، ومختلف الفنون الأخرى[1].

III.ياكوبسون وعوامل الاتصال الستة (six fundamental elements)

يقول "رومان ياكوبسون" (jakobson Roman) (1896–1982) بضرورة أن يكون لكل ظاهرة لغوية ولكل فعل تواصلي ستة عناصر أساسية مكونة لأي منهما، وهي : مرسل يوجه رسالة معينة إلى (متلق/مرسل إليه) ضمن سياق قابل لإدراك المرسل إليه، وبوجود (سنن/شيفرة) مشتركة، كلياً أو جزئياً، بين المرسل والمرسل إليه، ثم أخيراً وجود قناة اتصال تربط بين المرسل والمرسل إليه، تضمن لهما استمرارية التواصل والحفاظ عليه.

وبهذا يمكن تمثيل عناصر هذا التواصل اللغوي بالشكل التالي:



[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 101.

وبدورها تتطلب هذه العناصر الستة وظائف لغوية مختلفة خاصة بها، هي كالتالي: [1]

5- الوظيفة المرجعية (أو الوضعية أو المعرفية): وتستهدف المرجع والتوجه نحو السياق، وتعد الوظيفة الأهم في عدد كبير من الوسائل، ومن بعدها تأتي بقية الوظائف.[2]

6- **الوظيفة التعبيرية (أوالانفعالية):** وتركز على المرسل وما يصدره من انفعالات قد يكون من أشهرها: صيغ التعجب التي تلون إلى درجة ما أقوالنا على المستويات الصوتية والنحوية والمعجمية "كما في عبارة " هذا المساء التي يمكن استخراج خمسين رسالة مختلفة بتنويع التلوينات التعبيرية.

7- **الوظيفة الإفهامية:** وتوجه نحو المرسل إليه بأساليب عدة من أشهرها النداء والأمر اللذان يخالفان المقولات الاسمية والفعلية الأخرى بعدم خضوعهما لاختبار الصدق والكذب. مثل (اشرب، شربنا، هل شربنا؟)

8- **الوظيفة الانتباهية (أو وظيفة إقامة التواصل):** وتعمل على استمرارية التواصل أو انقطاعه، والتأكد من إثارة انتباه المرسل إليه (أتسمعني؟) أو أن انتباهه لم يفتر (قل، أتسمعني؟)

9- **الوظيفة (الشارحة/ الميتالسانية):** وتختص (بالشيفرة/ السنن) القائم بين فئات الأفراد المختلفة والتي يقوم بها المرسل أو المرسل إليه للتأكد من أنهما يستخدمان نفس السنن

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 53.

2- المرجع نفسه، ص 53.

المتعارف عليها بينهما، مثلما يقول المرسل أتفهم ما أريد قوله؟ فيجيبه المرسل إليه: إنني لا أفهمك ما الذي تريد قوله؟

10- الوظيفة الشعرية : وتركز على الرسالة في ذاتها وفي مجالاتها الشعرية والنثرية على حد سواء، كالاهتمام بترتيب الكلمات على نحو معين، مثل قولنا : "جان ومارجريت" بدلاً من "مارجريت وجان"، وكاختيار لفظ بعينه، ك : راهب رهيب، لا راهب مفزع أو فظيع أو مرعب...إلخ

وبهذا تأخذ العوامل الستة الأساسية للتواصل اللغوي ووظائفها الشكل التالي :

السياق

(context)

الوظيفة المرجعية

(Referential function)

المرسل ـــــــــــــ الرسالة ـــــــــــــ المتلقي

(Addresser) (Message) (Addressee)

الوظيفة الانفعالية الوظيفة الشعرية الوظيفة الافهامية

(Motive Function) (Poetic Function) (Conative Function)

قناة الاتصال

(Contact)

الوظيفة الانتباهية

(phatic function)

الشيفرة

(code)

الوظيفة الشارحة

(Meta Linguistic Function)

الاتجاه الإيطالي:

سبقت الإشارة إلى أن أصحاب الاتجاه الروسي أمثال: يوري لوتمان، وأوسباسنكي، وإفانوف، وتودوروف... قد اهتموا بسيميائية الثقافة اهتماماً كبيراً، وقد شاركهم في هذا الإهتمام العالمان الإطاليان: **أمبرتو إيكو** و**روسي لاندي**، من منطلق أن الظواهر الثقافية هي موضوعات تواصلية وأنساق دلالية، ويرى **أمبرتو إيكو** أن هناك ثلاثة شروط أساسية لنشأة الثقافة، تتمثل فيما يلي:

- حينما يسند كائن مفكر وظيفة جديدة لشيء طبيعي.
- حينما يسمى ذلك الشيء لاستخدامه في شيء ما، ولا يشترط أبداً قول هذه التسمية بصوت مرتفع كما لا يشترط فيها أن تقال للغير.
- حينما نتعرف على ذلك الشي بوصفه شيئاً يستجيب لوظيفة معينة ويحمل تسمية محددة، ولا يشترط استعماله مرة ثانية وإنما يكفي مجرد التعرف عليه.

إن الثقافة إذن، لا تنشأ إلا حينما تتمثل الخارج تمثلا داخلياً وذاتيا، أي حينما ننتقل من الطبيعي بواسطة الفكر وبواسطة التجريد فنسمي الأشياء الطبيعية ونسند إليها وظيفة معينة بتذكرها على تلك الهيئة. ويعني ذلك تمييز الأشياء عن بعضها البعض بواسطة الفكر ووضع سمات لها تميزها وتستحضرها في حال غيابها المادي.

يرى **ايكو** أن كل أنظمة الاتصال الثقافية تنقسم إلى (ثمانية عشر) نسقاً، بدءاً بأكثرها طبيعة وعفوية ووصولاً إلى أكثرها تعقيداً، وهذه الأنساق هي:

ت- سيمائية الحيوان (zoosemiotics) : وتختص بالجماعات غير الثقافية ذات السلوك التواصلي غير الإنساني.[1]

ث- العلامات الشمية (Olfactory sign): كالعطور

ج-التواصل اللمسي (tactile communication): كالصفعة والمصافحة

ح-سنن الذوق (codes of taste): كممارسة الطبخ

خ- العلامات المصاحبة لما هو لساني (paralinguistics): كارتباط أنماط الأصوات مع الجنس والسن والحالة الصحية... وكالكيفيات الصوتية المصاحبة للغة من علو الصوت أو انخفاضه.. وكالتصويتات المختلفة من ضحك وبكاء.

د- السيميائية الطبية (Medical semioties): وتتمثل في علاقة الأعراض بالأمراض

ذ- حركات الأجسام والإشارات الدالة على القرب (kinesics and proxemics): ويتعلق الأمر باللغات الإشارية.

ر-الأنواع السننية الموسيقية (Musical codes).

ز-اللغات المشكلنة (fonnalized languages): مثل الجبر والكيمياء وسنن الشيفرة.

س- اللغات المكتوبة والأبجديات المجهولة والأنواع السننية السرية (writtenlanguages).

1- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 53-54-55-56.

ش- اللغات الطبيعية (natural languages) كاللغة العربية، واللغة الانجليزية، واللغة الفرنسية

ص- التواصل المرئي (visual communication): كاللباس والإشهار.

ض- نسق الاشياء (system of object) : كالمعمار وعامة الأشياء.

ط-بنيات الحكي (plot stucture) .

ظ-الأنواع السننية الثقافية(text theory) : كآداب السلوك والأساطير والمعتقدات الدينية

ع-الأنواع السننية والرسائل الجمالية (Cultural codes) :كعلم الجمال والإبداع الفني.

غ-التواصل الجماهري (Mass communication): كعلم النفس وعلم الاجتماع والإعلام.

ف- الخطابة (Rhetorie)

وإذا كانت هذه هي نظرة "**أمبيرتو إيكو**" للسيمائية فإن **روسي لاندي** يحددها بالإبعاد التالية:

3-أنماط الإنتاج، وهي مجموعة قوى الإنتاج وعلاقاته.

4-الأيديولوجيات، وهي تخطيطات اجتماعية لأنماط عامة.

5-برامج التواصل، وتشمل التواصل اللفظي وغير اللفظي.

وهو يرى أن السيميائية بوصفها العلم الشامل للتواصل اللفظي وغير اللفظي بكافة مجالاته لا ينبغي لها أن تعنى بقيم التبادل الدلالي فحسب، بل عليها أن تعنى أيضاً بقيم

الاستعمال الدلالية من انتاج واستهلاك؛ إذ لا يمكن للسيميائية أن تهتم بالطرق التي تتبادل بها البضائع بوصفها رسائل فقط، وإنما عليها الاهتمام أيضاً بالطرق التي يتم بها إنتاج هذه الرسائل (البضائع) واستهلاكها.

ويؤمن **روسي لاندي** بعدم وجود اختلافات تذكر بين (النشاط الدلالي- الاقتصادي) و(النشاط الدلالي- اللفظي)، إذ أن اللغة التي يعنى بها السيميائي هي نفسها لغة علاقات العمل الإنتاجية والتبادلية والاستهلاكية. وعليه فإن العلاقات الانسانية هذه هي لغة الواقع في الوقت ذاته، "ولأن اللغة هي لغة السلطة فهي تكذب مثلما تكذب السلطة. غير أن اللغة تفضح وتعري أيضاً. إنها تفضح ذاتها حالما تتواجه مع الواقع. وإذن، فاللغة تقوم بوظيفتين متناقضتين، فهي من جهة تتكلم ونجعلها تتكلم عن نفسها لإخفاء الأشياء، وهي من جهة ثانية، لغة الأشياء ذاتها. وبهذا المعنى ترادف اللغة (أو الدليل) الوعي والأيدلوجيا والمحتوى"*1*.

وختاماً، يمكن القول إن أحداً لم يتفق حتى الآن على وجود ميدان واحد لهذا العلم الواسع المسمى بـ "السيميائية" وإن بعضهم، وهم الأكثر حذراً، لا يرون فيه إلا دراسة خاصة بالأنساق الايصالية للإشارات غير اللسانية، وإن بعضهم الآخر، بما فيهم **فيردينان دي سوسير** نفسه يوسعون مفهوم الإشارة والاصطلاح ليغطي أشكالاً متعددة من الايصال الاجتماعي كالشعائر، والطقوس وعبارات الآداب العامة ..الخ. وهناك فريق ثالث يعتقد أن الفنون والآداب ما هي إلا طرق ايصالية تقوم على استخدام أنساق الاشارات المختلفة، والتي تصدر هي الأخرى عن نظرية عامة للإشارات.

وقد بات من الواضح أيضاً أن بالإستطاعة وبشكل معقول استنتاج وجود أنواع عدة من وسائل الإيصال المختلفة تصدر هي الأخرى عن "السيميائية" من مثل الايصال

1 – هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص 57-58.

الحيواني، وإيصال الآلات، وايصال الخلايا الحية.. إلخ. ذلك أن "السيميائية" بمفهومها العام هي: علم يدرس بنية الاشارات وعلائقها في هذا النظام الكوني العام، ويدرس بالتالي توزعها ووظائفها الداخلية والخارجية مهما اختلف شكلها وتباين نوعها.[1]

المبحث الثاني: السيميائية وعلاقتها بالعلوم الأخرى

نتناول في هذا المبحث علائق السيمياء بالعلوم الأخرى وتقاطعها معها، لتؤكد أهمية المعطيات المشتركة بين العلوم الإنسانية، وتكاملها، لأنه لا يوجد منهج يكتفي بذاته، لأن تشابك المعارف والعلوم والمناهج إذا كان ناجماً عن وعي قذ يفضي إلى رؤى يمكن أن تقدم الكثير.[2]

السيمياء والفلسفة:

ظهر مفهوم العلامة في تاريخ التفكير الفلسفي من خلال الإشارة إلى أن اللغة عنصر حيوي للإنسان منذ الأزل، ولهذا يتطلب منا "البحث في العلامة بوصفها بؤرة السيميائيات من زاوية تأمل تجليات التفكير السيميائي القديم حتى يتسنى لنا فهم العلاقة بين السيميائيات والفلسفة".

ونلاحظ بوادر الاهتمام الفلسفي بالسيمياء منذ أن تم طرح الثنائيات الفلسفية الكبرى: (المادة والشكل) و(العقل والروح) و(النفس والجسد).. حيث نوقشت هذه الثنائيات على أنها علامات تتصل ببعضها بعضاً، وتنفصل بعلائق : التضاد، والتشابه، والاختلاف، والتساوي.

---

1 – هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية شعر البردوني نموذجاً، ص59.

2– آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 47.

وقد نوقشت هذه القضايا برؤية أرسطية وأفلاطونية جدلية طوراً، ورؤية رياضية ديكارتية تارة، ووضعت قواعد واستنتاجات بعد حدوث ضروب الشك في أركان العلامة، وغدت "إرهاصات المنطق الرمزي وملامحه ضرباً من المعرفة السيميائية التي تدل على طبيعة الأنساق الفكرية وطرائق تبادلها ضمن شراكة الآخر، وتتعامل مع الفكر على أنه لغة جبرية وإجراءات حسابية. وبذلك يعد المنطق مصدراً رابعاً من مصادر السيميائيات الحديثة، فلقد استطعنا أن نقول إن جذور السيميائيات توجد في المنطق القديم والقروسطوي.[1]

فالعلامات السيميائية اللغوية اعتباطية (Arbitrary) والعلامات الأيقونية تقوم على المواضعات(Conventions)، وهذا جعل بيرس يصر على أن تكون الأيقونة من أنواع العلامة، في حين خالفه **إيكو** في أن الأيقونة تقوم على المواضعة ليس بسبب المشابهة بل وفق سنن أيقوني، وفي كلتا الحالتين فإن التنظير لوجهتي النظر منبعه فلسفي، حيث إن هناك من حسب أنه لا توجد علامات إيقونية، وحتى وإن وجدت فهي لا تتفرد بالتعليلة، بل من المفارقة الكبيرة، فإن العلامات الإيقونية هي في الواقع أيضاً قائمة على المواضعة مثل العلامات اللسانية[2].

إن المواضعات اللسانية في أحد وجوهها مجالس جدلية بين الفلاسفة لتحقيق قواعد ناظمة لمجموعة من الظواهر الفكرية، والطبيعية، والرياضية في أطر فلسفية باتت اليوم موضع نقد لدى النقاد والفلاسفة، فربط الكلام واللعب بمواقعه، يستند إل المنطق، والكلام الذي لا يخضع إلى منطق يفقد كنهه، ويوصف مرسله بالجنون، ومن هنا ينتج أن الفلاسفة عندما يستخدمون اللسان لغايات تكوينية، ولتمييز جوهر الفكر أو الواقع،

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص48.

2- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 48.

فإنهم يجذبونه خارج حقل التطبيق الذي هو حقله إن معرفة جيدة باللسان لتجعل المشكلات التي يقال إنها "فلسفية" تتبخر.

وربما كانت كتب المنطق أكثر تنبهاً إلى وجود الثنائيات في الحياة، ومن خلالها كانت تقيم الجدل في القضايا الفلسفية "فإثنينية " الصحيح / الفاسد"، و"الصواب/ الخطأ.". شائعة في كتب المنطق، ولا تكاد تعادلها في التداول والشيوع إلا عندما يعرف المنطق بوصفه ألة، وفناً، وميزاناً، معياراً، ومحكاً للنظر... إلخ، وهي أوصاف وألفاظ اتخذت عناوين لكتب منطقية بعينها.*1*

وهذه الثنائيات هي الناظم للتحليل اللساني، والتحليل السيميائي، لا سيما المدرسة الباريسية، ولا ننسى انطلاق (بيرس) في حديثه عن السيمياء من مفاهيم فلسفية وهو الذي كان يدرس الفلسفة ويدرسها، فجاءت سيميائيته تتصف بالذرائعية، وتأويله للعلامة يمتد للمرجع، وسيلاحظ القارئ الحاذق أن ما يجمع بين تصورات معرفية متعددة وبين نظرية بيرس، هو منطلقاتها الفلسفية، وليس مجموع المصطلحات التي جاءت بها.

كما نلاحظ أن العلامات السيميائية تنتظم داخل ثلاث علاقات: علاقة تأويل، وعلاقة تماثل، وعلاقة تفسير... ومن الواضح أنها علائق تعتمد الطرق الفلسفية في الحضور إلى الوجه التنظيري للعلامة، حيث إن مفهوم التأويل عبرت عنه معظم نظريات الفلسفة، فالتأويل ينطوي على مجموعة من المفاهيم الأخرى الفرعية والمقابلة من مثل الفهم والتفسير والشرح والتطبيق، وتفسير الأفعال الإنسانية المجهولة*2*.

وهناك من مايز بين التفسير (Interpretation) والتأويل (Hermeneutics) بالقول إن الأول للمادة العلمية والعلوم الطبيعية، في حين أن الأخير يختص بالفكر

1- المرجع نفسه، ص49.

2- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 49.

والعلوم الإنسانية، غير أن **بول ريكور** قلل من حدة الاختلاف وبحث عن التكامل بينهما، وقد كان علم التأويل الفلسفي الذي وضعه **غادامر** يؤكد وجود ثلاث مراحل في كل ممارسة تأويلية هي: الفهم، والتفسير أو التأويل والتطبيق.

ووصل الأمر ببعضهم إلى القول إن التأويل "مرادف للخيال، إنه فعالية إبداعية أكثر من كونه فعالية نقدية".

بينما هناك من وجد أن التأويل مخالف للخيال لكونه يكبح جماحه التي تتوهج بعد القراءة، فالتفكيك أظهر نوعاً من الرفض لكل فكر يتخذ من الهيرمينوطيقا مشرباً، وبخاصة إذا ما صدقت تلك المقولة التي تنظر إلى الهيرمينوطيقا بما هي فن الفهم.*1*

وقد تبلورت النظرة العامة للمفهوم الفلسفي السيميائي عندما تجاوز **إيكو** التناقضات، ومحاولات المميزة بين الفلسفة والسيمياء بخلوصه إلى أن التأويل غير محدود. إن محاولة الوصول إلى دلالة نهائية ومنيعة سيؤدي إلى فتح متاهات وانزلاقات دلالية لا حصر لها، فالنبتة لا تتحدد انطلاقاً من خصائصها المورفولوجية والوظيفية، بل تتحدد انطلاقاً من تشابهها مع عنصر آخر داخل الكوسموس، حتى ولو كان هذا التشابه تشابهاً جزئياً.

وكثف الانتباه لكيفية تلقي العلامة والتمثيل لها بمكون ينتمي للطبيعة من التقارب بين الحياة والسيمياء، بما أن الحياة مادة جدلية فلسفية.*2*

وقد بات الفلاسفة موضعاً للنقد من السيميائية التطبيقية "ولا غرو أننا بعد جهد المران وطول الدربة نتمكن من الاهتداء إلى أنماط الكتابة. لدى أفلاطون وإقليدس والكندي

1- المرجع نفسه، ص 50.

2 – آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 50

والفارابي والغزالي والتوحيدي وابن راشد وديكارت وسبينوزا وكانط وهيجل ونيتشه وكيركيجارد وغيرهم من أسلوبهم في بسط دعاواهم الجدلية أو الحجاجية أو البرهانية".

وما سبق يؤكد الدور التبادلي بين الفلسفة والسيمياء، فالفلسفة قد أسهمت في تبلور ولادة السيمياء، التي شاركت بدورها في تطوير جوانب من الفلسفة، وتمكينها من التنظير الجدلي لمقولاتها ضمن أطر العلامة واشتقاقاتها، إضافة إلى ما قدمته المدارس السيميائية من طرق إجرائية اعتمدت المربع السيميائي (Semiotic square)، أو المحورين التركيبي (Diachronic) والاستبدالي (Synchronic).[1]

والفلسفة حركة دائمة في المفاهيم، والأفكار، والنظريات تتشكل من حصيلة الحراك الفكري البشري في أجزائه، أو في تفاصيله، وليست العلاقة بينها، وبين الروافد المنهجية، والعلمية علاقة واضحة الحدود والمعالم، إذ قد تكون الضبابية تسيطر على كثير من تفاصيل تلك العلاقة، ولا تتكشف قبل مرور فترة طويلة من الزمن تسمح للرؤى أن تتضح، ولذا يتكشف أن العلاقة بين الفلسفة والسيمياء تشاركية، تمثل في جوانب منها علاقة الأخذ والعطاء.[2]

يجمع كل الدارسين أن السيميائيات هي ملتقى العلوم المختلفة لهذا عرفت بتنوع وجهات نظرها، بل بمتناقضاتها الدائمة والمستمرة، فهي ليست تيارا واحدا منسجما وليست فكرة معزولة " كما أنها ليست نظرية جاهزة محددة من خلال مفاهيم موحدة وموحِدة، بل على العكس من ذلك، حالة وعي معرفي عرف بامتداداه في حقول معرفية متعددة، فالسيميائيات في نهاية ليست سوى تساؤلات تخص الطريقة التي ينتج بها الإنسان سلوكاته، أي معانيه وهي أيضا الطريقة التي يستهلك بها هذه المعاني" (سعيد بنكراد).

---

1 – المرجع نفسه، ص 50-51.

2– آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 51.

وهي من هذا المنظور قريبة جدا من الفلسفة، هذا النشاط المعرفي ذي الجذور التاريخية القديمة جدا، فما هي نقاط الالتقاء بينهما يا ترى؟ وما هي نقاط الاختلاف أيضا؟

من المعروف عن الفلسفة أنها علم يبحث في جوهر الوجود، ومنطلقها هو الشك في كل شيء، وقد بدأت في بلاد اليونان، ومؤرخو الفلسفة متفقون على أنها بدأت بمجهودات الحكماء السبعة

وأولهم " طاليس "، أما الأسلوب الذي تعالج به الفلسفة موضوعاتها فهو أسلوب أو منهج عقلي برهاني منطقي صارم، ذلك أن الفيلسوف لا يقف موقفا ولا يقرر تقريرا دون أن يصحبه ببراهين عقلية منطقية تسلم بها جميع العقول، وهي لا تفتأ تطرح الأسئلة دون الاقتناع بأي جواب، فالسؤال والشك ملازمان للفلسفة ملازمة قوية، بل إنهما لبها وجوهرها[1].

كما لا يوجد علم من العلوم الحديثة إلا وكان للفلسفة دور كبير في تكوينه، وبلورة مفاهيمه، مادام يوجد اتفاق على أن السؤال أصل المعرفة، لهذا فإننا لو بحثنا في تاريخ السيميائيات، فإننا سنكتشف أن التأمل في العلامة قد نشأ فلسفيا " لا عن قصد المعرفة، بل عن قصد التشكيك في المعرفة، حيث بدأ الإغراق التأمل المنظم في العلامة في المدرسة المسماة بالشكية Scpticism " (فريال غزول: 09)، وكل المدارس التي تناولت موضوع العلامات كانت ذات منطلقات فلسفية كالرواقية التي كان أصحابها أول من قال بأن " للعلامة دالا ومدلولا، وارتكزت السيميائيات المعاصرة على اكتشافاتهم الأولى" (رشيد بن مالك: 21)، أما أول من استعمل مصطلح " سيميوتيك " semiotics فهو الفيلسوف الإنجليزي " جون لوك"، وذلك ضمن أبحاثه الفلسفية، حيث كان يعني به " العلم الذي يهتم بدراسة الطرق والوسائط التي يحصل من خلالها على معرفة نظام الفلسفة والأخلاق، وتوصيل معرفتهما" (رشيد بن مالك:22)، وكذلك كان التعامل مع العلامة

[1]- فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 252.

فلسفيا مع " لايبنتز " و " هوسرل "، وفلاسفة اللغة الآخرين، سواء في الغرب أو في البلاد العربية.

أما السيميائيات الحديثة، والتي تأسست مع كل من " سوسير " الأوروبي، و " بورس " الأمريكي، فقد كانت منطلقاتها عند " بورس " رياضية فلسفية، خاصة في حديثه عن الدلالة وشرحه لتكونها، حيث كان فلسفيا محضا، ونلحظ ذلك بشدة في تقسيمه الثلاثي للدليل، الذي نراه يعرفه: " الدليل هو الأول هو الذي له علاقة ثالوثية حقيقية مع الثاني المسمى الشيء تسمح بتحديد الثالث المسمى المؤول " interprétant " (فيصل الأحمر: 150). فهذا الكلام الفلسفي قد استمده (بورس) من حديث (أفلاطون) عن حالات ومقولات الوجود التي يقسمها إلى طبيعي (مثال) وعمل الصانع وعمل المصور (حميد لحمداني: 51)[1]، وذلك أيضا ما يشابه كثيرا كلام (ابن عربي) عن الدليل أيضا، كما يقارن ويستنتج (الحمداني) دائما.

إن (بورس) بمنطلقاته الفلسفية قد طبع السيميائيات الأمريكية بطابع فلسفي جلي، ولأن السيميائيات ستشيع فيما بعد بخط متواز عند كل من (سوسير) و (بورس)، وتأخذ من أفكار كل منهما، فإنه من البديهي أن يكون هنالك تقارب من حيث المنطلقات الابستمولوجية، ومن حيث المبادئ بين كل من الفلسفة والنظرية السيميائية الحديثة وفعلا فالفلسفة منذ البداية حاولت « أن تقوم بدور الموحد بين العلوم المعرفية ودور أنسنة الواقع بكل مظاهره الطبيعية والاجتماعية ومنطق السيميوطيقية المناظر لمنطلق الأنسنة التي تبحث عن جوهر الأمر وحقيقته» (فيصل الأحمر: 165)، فكل منهما إذن يعد ملتقى العلوم ومجتمعها، فالسيميائيات هدفها أو طموحها هو « تفاعل الحقول المعرفية المختلفة والتفاعل لا يتم إلا بالوصول إلى مستوى مشترك يمكن من خلال أن ندرك مقومات هذه الحقول المعرفية، وهذا المستوى المشترك هو العامل السيميوطيقي» (سيزا

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 253.

قاسم:13)، وهذا بالضبط ما حاولت الفلسفة الوصول إليه من قبل في سعيها الدؤوب إلى فك غوامض الوجود.

هذا هو السبب الذي جعل بعض الباحثين يرون أن العلامة اللغوية غدت منافسا قويا للفلسفة والابستومولوجيا والنظم الفكرية والشمولية في ادعاء القدرة على التعميم، والشمول، والتجريد، وهو منحى تتجه إليه السيميائيات اللغوية بشكل خاص في المرحلة الأخيرة (فاضل تامر: 9).

لكن الشيء الذي يميز الفلسفة عن السيميائيات الحديثة هو أنها تبدأ في التساؤل في مفاهيم ما كالطبيعة، وما وراء الطبيعة، كالسياسة والعدالة، كالجمال والشعر، وتحاول أن تقوم بنقد القديم[1] السائد، وتحليل المفاهيم بوصلها إلى جوهر هذه الجوانب المرتبطة بالإنسان وعلله، فهي محاولة الإنسان فهم ذاته، والإحاطة بها إحاطة عميقة من كل الجوانب حيث يتجاوز الفرعي ليتغلغل في الجوهري (فيصل الأحمر: 189)، فهي أيضا تطمح إلى الوصول إلى عنصر الوجود الواحد الذي هو عبارة عن لغز تحاول هي البحث عن العصا السحرية أو المفتاح الذي يمكنها من فكه، أما السيميائيات فإنها لا تنطلق من الأفكار والمفاهيم المجردة المتعلقة بالوجود التي تشكله كالفضيلة، والخير، والشر، والعدالة، والحق... بل إنها تنطلق من العلامة، وإليها تعود، فتحاول الربط بين مختلف العلامات وإيجاد العلاقة بينها، والعلاقة في حد ذاتها شيء معبر عن شيء آخر، فهي ذات طبيعة ازدواجية، وفي السيميائيات تبقى هذه الطبيعة الثنائية هامة، بل أصيلة (فيصل الأحمر: 170). فعمل الفيلسوف إذن هو الربط بين المفاهيم، في حين عمل السيميائي هو الربط بين العلامات.

إن انطلاقة الفيلسوف تبدأ دائما من الأفكار، أي من المضامين– كما رأينا– بينما ينطلق السيميائي من الشكل الذي يسمح لها بالتفكير في فهم الإنسان.

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، 254.

أما ما يمكن لنا أن نلاحظه ونستنتجه أخيرا هو أن طموح الفلسفة يعد كبيرا بالمقارنة مع طموح السيميائيات حيث تسعى إلى « مفتاح الوجود [في حين] لا تطمح السيميائية إلى أكثر من رسم خارطة الوجود» (فاضل تامر: 9).

هذا وتنظر « جوليا كريستيفا » إلى علاقة السيميائيات بالفلسفة من زاوية مختلفة، فهي ترى أن السيميائيات من حيث هي تحليل دلائلي أو نقد لمنهجها ذاته (لموضوعها وصياغتها وخطاباتها التي يفرضها الدليل)، وترى أن المجال السيميائي نفسه هو الذي يغير من التمييز بين الفلسفة والعلم، ففي هذا المجال وانطلاقا منه لا تستطيع الفلسفة[1] تجاهل خطابات (أي الأنساق الدالة) لعلوم، « ولا تستطيع العلوم نسيان كونها خطابات / أنساق دالة. إن التحليل الدلائلي باعتباره مجالا لتداخل العلم والفلسفة، ومجالا للتحليل النقدي للخطوة العلمية، يرتسم كمتفصل من التشكل والمهشم والتمايزي لمعرفة مادية، أي لنظرية علمية للأنساق الدالة في التاريخ وللتاريخ كنسق دال» (جوليا كريستيفا 17 – 18).

ف « كريستيفا » ترى أن منهج التحليل السيمولوجي هو الذي يجمع بين منهج الفلسفة، ومنهج العلوم الأخرى، فهو جامع لمناهج متعددة، ذلك أن مجاله كل ما هو دال، أي كانت طبيعته، فالسيميائيات لا تفرق بين الأسطورة والعلم. « إن التحليل الدلائلي، وهو المشروع النقدي قبل كل شيء، لا يتشكل كبناء مكتمل، أو كموسوعة عامة للبنات السيميائية ولا كقمة أخيرة، ولغة واصفة « نهائية » ومستعينة لتداخل لغات تعتبر كل واحدة منهما الأخرى مستوى مضمونيا

(جوليا كريستيفا: 18).

وما يمكننا أن نستنتجه أخيرا من هذه المقارنة البسيطة بين كل من الفلسفة والسيميائيات، أنهما يتفقان حول كلمة « ممكن »، ولا يوجد يقين مطلق عند كل منهما، فالبحث الفلسفي

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 255.

لا يقوم إلا على السؤال والجواب، ولا يقنع برأي معين، ولا بأحكام محددة، وكذلك البحث السيميائي الذي يقول عنه « برنار توسان »: « البحث الذي لا تجد شيئا في نهاية البحث، أو كما يقول « ليفي شتراوس » « لا وجود لمفتاح ولا وجود لسر خفي » (برنار توسان: 50)[1].

السيميائيات وعلم الدلالة العربي :إن ظهور الرمز أو العلامات اللغوية وغير اللغوية ساهم كثيرا في ترقية ثقافة الإنسان وحضارته، حيث اعتبرت وسيلة للتواصل بين أفراد المجتمع، وبالتالي أصبح مفهوم العلامة اللغوية شهادة ارتقاء الإنسان من جهة ودليل على النسق الثقافي الذي تمارس من خلاله كل جماعة إنسانية حياتها من جهة أخرى، فكل شيء يحيط بالإنسان يمكن أن يتحول إلى علامات إذا استخدم في عملية التواصل لنقل رسالة ما فالزهور مثلا يمكن أن تصبح علامات من خلال ثقافة الجماعة عندما تكون – في عرس أو مناسبة سعيدة – باقة دالة على التهنئة.

وبالتالي فكل جماعة بشرية تترابط لغويا وتتحول إلى جماعة ثقافية متميزة تصو بين الحين والآخر مدلولات جديدة للكلمات، وهذه الأخيرة أي الكلمة أو الكلمات نجدها قد حظيت باهتمام المشتغلين بالدراسات اللسانية قديما وحديثا، وذلك يوصفها عنصرا من عناصر النظام اللغوي، فقد حاول القدماء والمحدثون من اللسانيين تعريفها وتحديد معالمها، ومن هؤلاء:

1. الزمخشري: (ت 538): « هي اللفظة الدالة على معنى مفرد بالوضع، وهي جنس تحته ثلاثة أنواع: الاسم، الفعل الحرف» (كريم زكي حسام الدين: 3).
2. الأشموني (ت 929): « إنها اللفظ المفرد، أي الصوت المشتمل على بعض الحروف، مفيد بالوضع فائدة يحسن السكوت عليها، فخرج باللفظ غيره من الدوال ما ليس بلفظ مثل الإشارة الخط »[2] (كريم زكي حسام الدين: 3)

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 265.
[2] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 258.

والملاحظ على هذين التعريفين هو اهتمامهما بالجانبين الصوتي والدلالي في تعريف الكلمة، وهذا المفهوم للكلمة عند القدماء يقترب من مفهوم اللساني الأمريكي « سابير» للكلمة، يقول: « إن العناصر اللغوية ذات الدلالة هي عموما أنظمة من الأصوات، أن تكون كلمات أو أجزاء ذات دلالة من الكلمات، أو مجموعات من الكلمات...، والذي يميز هذه العناصر علامات خارجية لفكرة خاصة، سواء أكانت هذه الفكرة دلالة مفردة، أو شكلا، أو عددا من الدلالات والأشكال متصلة اتصالا واضحا في كل » (كريم زكي حسام الدين: 4). أما اللساني الشيكي

« كراميسكي» فيعرف الكلمة بقوله: « الكلمة أصغر وحدة مستقلة للغة، تشير إلى نوع معين من حقيقة فيما وراء اللغة (أي المعنى) وتتميز بخاصيات شكلية (صوتية وصرفية) ودلالية، فهي تمتلك معنى حقيقيا Actuel، بوصفها عنصرا في السياق Composant de contexte ومعنى كامنا Potentil بوصفها عنصرا في نظام الجمل lexical system» (كريم زكي حسام الدين: 4).

هذا وقد ذهب بعض اللسانيين إلى القول بصعوبة إيجاد تعريف للكلمة ينطبق على كل اللغات ومن ثمة استبعاد مفهوم الكلمة من الدراسات اللسانية (من هؤلاء : « شارل بالي، غارندر»....) لكن حسبنا في هذا المقام الاكتفاء بالتعاريف التي أوردناها للكلمة والتي لها علاقة مباشرة بالدلالة وبالسيميائيات.

إن أول ظهور لعلم الدلالة كان في كتب المنطق من حيث أنه من المقدمات العامة، ويعود الفضل في وضع تفاصيل دقيقة لعلم الدلالة وأقسامها إلى النقد المتواصل الذي أخضعت له المفاهيم التي وضعها أوائل الفلاسفة العرب للدلالة كـ « الفارابي» و « ابن سينا» و « الغزالي»، متأثرين في ذلك بالمعطيات اليونانية، فالمتأمل[1].

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 259.

المفاهيم والمصطلحات الشائعة في علم الدلالة عندهم يلاحظ تأثرهم الواضح بالمدرستين اليونانيتين « المشائية والرواقية» لكن علم الدلالة رغم كونه ظهر في كتب المنطق إلا أن تطوره يعود إلى التحاور بين المنطق وعلوم المناظرة وأصول الفقه والتفسير والنقد الأدبي والبيان وفي وقتنا الحالي نجد جل المحاولات تنصب على البحث عن صياغة رياضية للسيميائيات، فالبنى الرياضية واللغات الصورية الدقيقة متوفرة لمثل هذه المحاولات، وهذا من شأنه أن يكسب النظريات المستجدة من بين الميزات الأخرى أفضلية الدقة والصرامة. وبحث الدلالة عند الفلاسفة المتقدمين كـ « الفرابي» و « ابن سينا » و « الغزالي» ينحصر في الدلالة اللفظية – كما عند « أرسطو» – فالدلالة في نظرهم تناول اللفظ والأثر النفسي أي ما يسمى أيضا بالصورة الذهنية، أي يكون الخط دالا على اللفظة واللفظة على الصورة الذهنية هي دال ومدلول في الوقت نفسه، بينما الخط دال غير مدلول عليه، والأمر الخارجي مدلول عليه غير دال، أما نوعية الدلالة بين هذه الأمور الأربعة فهي كما يسميها « ابن سينا» خارجية بين الخط واللفظة، واللفظة والصورة الذهنية، بينما هي طبيعة بين الصورة الذهنية والأمر الخارجي. وهنا نجد مقابلة رائعة بين مصطلحات علم الدلالة والسيميائية، فالدلالة الخارجية (الدلالة الوضعية) توافق الدلالة الرمزية Symbolique بمفهوم « بورس » والدلالة الطبيعية توافق الدلالة الأيقونة Iconique عند « بورس» أيضا.

ومن حيث المعنى علاقة الخط بالصورة الذهنية هي علاقة اللفظة ذاتها بالصورة، لكن من حيث وسيلة الإيصال هناك اختلاف بينهما، فاللفظ يكون في التخاطب الحاضر أما الخط فهو يصلح لإعلام الغائبين في الماضي وفي المستقبل عن طريق التدوين.

وإذا عدنا إلى الدلالة اللفظية – التي حصر فيها علم الدلالة عند العرب القدامى[1] – نجدها تتوقف على العلاقة بين اللفظ والصورة الذهنية « فمعنى دلالة اللفظ أن يكون إذا

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 260

ارتسم في الخيال مسموع اسم، ارتسم في النفس معنى فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلما أورده الحس على النفس التفت إلى معناه» (عادل فاخوري: 9). والملاحظ على المشتغلين في الدلالة عند العرب هو عدم استثنائهم للمرجع Referant من العلامة اللفظية، لكن تعلق اللفظ به لا يتم إلا عن طريق الصورة الذهنية بواسطة دلالة إضافية، وهذا الموقف – حسب « عادل الفاخوري» – يشبه إلى حد ما اتجاه « دو سوسير» ويقول: « يحيى العلوي» في هذا الصدد ما يلي: « الحقيقة في وضع الألفاظ إنمت هو للدلالة على المعاني الذهنية دون الموجودات الخارجية والبرهان على ما قلناه هو أنا إذا رأينا شبحا من بعيد وظنناه حجرا سميناه بهذا الاسم، فإذا دنونا منه وظننا كونه شجرا فإنا نسميه بذلك ... إطلاق الألفاظ إنما يكون باعتبار ما يحصل في الذهن، ولهذا فإنه يختلف باختلافه» (عادل فاخوري: 10). ومن هذا يصبح تعريف الدلالة هو « فهم أمر من أمر» (عادل فاخوري: 10)، أي فهم الدال يستدعي فهم المدلول – وهذا هو مذهب المتقدمين – وقد اعترض على هذا المذهب لكون الدلالة وصف للدال والفهم وصف للفاهم وسحح ووضع بتعريف آخر للدلالة فـ « هي كون أمر بحيث يفهم منه أمر آخر»، مما يشير إلى انتقال الفاهم من الأمر الأول إلى الأمر الثاني هو بسبب حيثية إضافية، أي علاقة معينة بين الإثنين، والاختلاف في الصياغة بين التعريفين هو أن الأخير يلحظ النسبية بين الدال والمدلول، بينما التعريف الأول يبين نسبتهما إلى الفاهم.

إذا انتقلنا إلى أنواع الدلالة نجدها متعددة ومختلفة، فهناك توافق عام عند العرب على تقسيم الدلالة إلى ثلاثة أنواع: عقلية[1] – طبيعية – وضعية.

1. الدلالة العقلية: وهي أن يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة ذاتية تنقلهما من أحدهما إلى الآخر، كدلالة العلة على المعلول، يقول « التهانوي» في هذا الصدد: «

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 261

فالدلالة العقلية هي دلالة يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة ذاتية ينتقل لأجلها منه إليه، والمطلوب بالعلاقة الذاتية استلزام تحقق الدال في نفس الأمر تحقق المدلول فيها مطلقا سواء استلزم المعلول للعلة كاستلزام الدخان للنار، أو العكس كاستلزام النار للحرارة، أو استلزام أحد المعلولين للآخر كاستلزام الدخان للحرارة» (عادل فاخوري: 23)، من خلال هذا القول نلاحظ « التهانوي» قد حصر الدلالة العقلية في الأسباب الخارجية، وهذا يتقارب مع مفهوم «بورس» المسمى بالشاهد أو المؤشر Indice وهو علامة تشير إلى الموضوع الذي تعبر عنه من خلال تأثرها الحقيقي به.

2. الدلالة الطبيعية: والتي يرى « عادل الفاخوري» بشأن المفاهيم التي أعطيت لها عدم الدقة والعلمية، ولكن آثر لتحديدها تعريفا آخر « التهانوي» الذي يقول: « هي دلالة يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة طبيعية ينتقل لأجلها منه إليه (...) كدلالة (أح أح) على السعال، وأصوات البهائم عند دعاء بعضها بعضا، وصوت العصفور عند القبض عليه، فإن الطبيعة تتبعث بإحداث تلك الدوال عند عروض تلك المعاني، فالرابطة بين الدال والمدلول هاهنا هو الطبع» (عادل فاخوري: 23). فالدلالة الطبيعية إذن لا تتعلق بالطبيعة الجغرافية، بل بالطبع أو الصفات المميزة للشيء و « من وجهة نظر حديثه تعود هذه [الدلالة] إلى صنف الشواهد وعلى وجه التخصيص إلى علاقة أثر بمؤثر» (عادل فاخوري: 24)، وقد قلنا هكذا وسكتنا بسبب أن المصطلحات[1]وبعدها الترجمات لهذه المفاهيم الدلالة الطبيعية تقابل أو توافق الدلالة الأيقونية Iconique عند « بورس»، « والأيقون هو العلامة التي تشير إلى الموضوعة التي تعبر عنها الطبيعة الذاتية للعلامة فقط، وتمتلك العلامة هذه الطبيعة سواء وجدت الموضوعة أم لم توجد» (رشيد بن مالك: 28).

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 262.

3. الدلالة الوضعية: وهي أن يكون بين الدال والمدلول علاقة الوضع، كدلالة اللفظ على المعنى، وهي عند « الجرجاني» « جعل شيء بإزاء شيء آخر بحيث إذا فهم الأول فهم الثاني» (عادل فاخوري: 24). كدلالة الخط والإشارات والنصب...، والملاحظ على جل الباحثين العرب هو اهتمامهم وتركزهم الكبير على الدلالة الوضعية اللفظية التي من شروطها الأساسية وجود اللفظ والمعنى وعارضة بينهما هي الوضع، وحجتهم في ذلك هو كون البحث يتناول الألفاظ والمعاني من حيث هي دالات ومدلولات، فالدلالة الوضعية تنقسم إلى نوعين لفظية وغير لفظية، والدلالة اللفظية تنقسم بدورها إلى ثلاثة أنواع: مطابقة – تضمن – التزام.

وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن الدلالة الوضعية توافق الدلالة الرمزية Symbolique عند « بورس».

وكملاحظة عامة عن هذا التقسيم للدلالة، يمكننا القول أن حصر الدلالة في ثلاثة أنواع (عند العرب) ليس حصرا عقليا وإنما حصرا ناجما بواسطة الاستقراء عند تدخل الجاعل، وهذا عكس ما جاء به الفيلسوف الأمريكي « بورس»، حيث جاء بوجهة نظر عقلية صرفة حيث توصل إلى تقسيم ثلاثي للعلامات يقترب كثيرا من أنواع الدلالات عند العرب، فتقسيم العلامة إلى شاهد، وأيقونة، ورمز– الذي شاع في السيميائيات الحديثة– يشبه أنواع الدلالات (العقلية[1]– الطبيعة – والوضعية) وبالتالي فهناك تقارب كبير بين نظرية الدلالة عند العرب وسيميائيات « بورس»، وعليه تستطيع القول أن المباحث الدلالية القديمة وإن صبت جهدها الأعظم على محاولة تقييد المعنى فإنها حاولت أن تقدم نظرات عن علم أشمل هو علم العلامات، هذا العلم الذي تحولت علاقته بعلم الدلالة إلى علاقة عموم بخصوص، وهذا ما سعى إليه وحاول إبرازه «تشارلز موريس» وذلك بتطوير ما جاء به « بورس»، إذ قسم علم العلامات إلى ثلاثة أقسام:

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 263.

1. الخصائص التركيبية: النحو والصرف.

2. الخصائص السيمانطيقية (الدلالية) طبيعة اللغة من حيث الدلالة والمعنى.

3. الخصائص البراغماطيقية (التداولية).

وعرف علم الدلالة بأنه: « علم دراسة اللغة من جميع نواحيها التكوينية، ووصع هذه الدراسة على هيئة نظرية عامة ممكنة التطبيق على جميع اللغات مهما اختلفت خصائصها وأصولها» (عادل فاخوري: 10).

وهنا « سعيد عبد الهادي» إلى الفرق بين علم الدلالة وعلم المعاني، فعلم الدلالة وصفي تحليلي ينطلق من تحليل الكلمة إلى اكتشاف أوسع العلاقات التي تربط بين الوحدات اللغوية المختلفة، أما علم المعاني فهو علم بلاغي وظيفته تتبع خواص تركيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليتجنب الخطأ في تطبيق الكلام (علم معياري). وأهم العلاقات التي درسها علم الدلالة وأصبح يصف وفقها هي: الإشارة، الترابط. أما ما حدث في السيميائيات فهو تعميم الدرس اللساني الذي قدمه « سوسير»– خاصة ثنائية المشهورة – وذلك بعد تطويره والاشتغال به من طرف جماعة « براغ »، « كوبنهاغن»، وغيرهم، وبالتالي ساهم الدرس اللساني بكثرة[1] في تطوير الدرس الدلالي الحديث.

وعموما قد يلاحظ القارئ أو المطلع على مقالنا هذا عدم تطرقنا بالشكل الكافي لتعريفات العرب للدلالة وكيفية تناولها، إلا أن ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى كوننا تناولنا بعضا من جوانبها (الدلالة) في مقال آخر تحت عنوان « التهانوي» « السيميولوجيا في التراث العربي القديم».

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 264.

وخلاصة القول أن علم الدلالة الذي لم يكن سوى مبحث يمهد به للدرس المنطقي، والأصولي عند المسلمين، أصبح دليلا وهاديا لمعظم الدراسات في مختلف الحقول المعرفية المعاصرة وعلى رأسها السيميائية.

السيمياء والرياضيات:

إن الرابط الرئيس بين الرياضيات والعلوم الانسانية هو العقل والمنطق، اللذان يستطيعان تطويع المثل إلى مجردات، كما هو الفكر الأرسطي، ولذا "كانت الصورة الرياضية مجردة من مادة الموجود الطبيعي، وإذا كانت الصورة الجدلية مجردة من صورته، فليس المنطق إلا ترييض الجدل. أي أن المواد الرياضية "ما صدق الحدود" يقع تطبيقها على الصور الجدلية "مفهوم الحدود" فما هو قابل للصياغة الكمية في الصور الجدلية يمثل مادتها التي تصورها الرياضيات".*1*

إن الرياضيات علم يقوم على العلاقات المنطقية، والمنطق مفرز طبيعي للتفكير الجدلي الممجد للعقل في كل مراحله، وبما أن الرياضيات مادة تحتوي النظريات والمفاهيم والاجراء، فإن رابطها في هذه العملية هو المنطق، الذي يشبه الكثير من الترابطات والعلاقات العملية والتنظيرية في العلوم، كما فيما يحكم اللغة وتركيبها، والتنظير لمعارف السيميائية والتطبيق المنطقي لإجراء السيميائي على النصوص.

إنها علوم محكومة بالمنطق، وقدعد تطويع الرياضيات إلى حالة نسبية تتصل بتفسير عالم المثل الإنساني؛ أمراً ملفتاً؛ بوصفها علماً للجدل والمجردات؛ إذ "كانت الرياضيات عاملاً حاسما أثر في منطق (بيرس)؛ لأنها أكثر المعارف تجريداً وهي سابقة على المنطق حسب تصنيفها للعلوم، كما أصبحت تعتمد على العبارات الرمزية ذات الصيغ الجبرية، بوصفها لغات اصطناعية تتجاوز عجز اللغات الطبيعية، وتتجرد لغتها

1- المرجع نفسه، ص 51.

السيميائية من تبعيتها للمضامين المادية، وتكتفي بأشكالها الصورية؛ حيث إن الضرورة في الاستدلالات الصورية لا تكون مقبولة إلا في الرياضيات التي أصبحت علاقتها حميمة مع المنطق في التفكير المعاصر من حيث هو ضمان لمرتكزاتها ومبادئها".[1]

تقوم الرياضيات على القوانين والإثبات (Assertion) والبرهان (Argumentation)، كما هي حال العلوم الرياضية الأخرى من مثل الفيزياء التي ترصد الظواهر بصفتها علامات "فعندما يقف الفيزيائيون أمام تحديد مسألة ما أيا كانت فإنهم يحددون مجموعة واسعة من الظواهر وما يعارضها من سلوك مضاد، ولأجل التأكد من العديد من الحقائق التجريبية يقومون بتتبع كل حالة بصفتها علامة أو ترسيمة في داخل علائق مختلفة الحضور بين (التعالق والتفكك والتداخل،... إلخ) مهيئين المجال لسلسة من القوانين الناظمة تشرح خصائص النظرية التي توصلوا لها"، وهذا يتقاطع مع السيميائية في الجوانب، التي ترى أنها علم يؤمن بالأنظمة والعلائق بين الصوائت بكل أنواعها وتراكيبها، ويتحدث عن التعبيرات الصوتية ومقاديرها، وتسعى السيميائية لتحقيق بيئة من التعالقات والتشابكات المنظمة تتنقل بها إلى حالة مفهومة بصفتها نتائج لمقدمات؛ لتتوالد دلالاتها وتتفجر، داخل كينونة العلامة وخارجها، في بنى ورموز، لا يمكن أن تتشكل وتتحول من التنظير للفعل الإجرائي، دون الدخول في الصور الجدلية للتنظير، وذلك ضمن رسومات مثل الخطاطات: السردية، والإرسال والتوصيل، والسيرورة السيميائية، والمربع السيميائي، ومحوري التركيب والاستبدال، وبعض الرسوم البيانية، وهذا يقودنا للقول بأن السيميائية منهج يقبل الرموز؛ بل يقوم على الترميز ".[2]

وما سبق دفع الباحثين في السيميائية واللسانيات للتساؤل عن مدى تقارب ما قدمه (سوسير) من نظريات مع ما أنجزه علماء الرياضيات والفيزياء؛ فطرحوا السؤال الآتي:

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 51-52.

2- المرجع نفسه، ص 52.

"هل يمكن أن نقارنه في هذا المساق بـ: **غاليلي** Galilee، الذي يعد أول من أقام نموذج القوانين العددية للفيزيائية الحديثة؟".

وهذه الأوليات جسدتها السيميائية الإجرائية، فطالت المعنى وقدرته على الايصال "فالعالم المعنى مستوى أفقي يمثل الحضور ومستوى استبدالي ويمثل الغياب، وتلك من مزيات جلتها تفويضية ديريداً انطلاقاً من مدارستها لمفهوم العلامة لدى "هوسرل".*1*

وينأى رصد المعنى في أذهان الكثيرين عن التحليل الممنهج، لكن السيميائية أولته رعاية مختلفة وأعطته أبعاده التي يستحقها، إذ إن "السيميائيات المحايثة منهمكة انهماكاً كلياً في رصد المعنى وتحولاته". وهذا جعلها شغوفة بالإجراء الرياضي في محاولتها للوصول إلى نتائج معينة؛ ذلك أن "السيميائيات الحديثة والمعاصرة بشقيها الأمريكي والأوروبي، أقيم بناؤها، من بين ما أقيم عليه، على أوليات منطقية رياضية، كشأن "السيميائيات" القديمة والوسيطة وامتداداتها".

إن هذا الأمر لم يكن تنظيرياً، يطال المراحل المتقدمة من السيمياء؛ لأن بعض المشتغلين بها حاولوا أن يعودوا بأصولها إلى السيمياء الرياضية، ووجودها في العلوم بتوجيه مفاهيم **أغسطين** وتحديدها داخل علائق رياضية، حيث يستند فهم **أغسطين** للعلامة على "الكلمة verbum أو على الأصح يتجه نحو (الاسم)، ويتوزع على علاقة علامة/مفهوم، وحتى يشتغل الشيء بوصفه علامة، ينبغي للمؤول أن يدرك بأنه علامة. وعليه فالشيء بالإضافة إلى أنه ينتج المعاني يستدعي في ذاته شيئا آخر إلى التفكير... فالشيء لا يصبح علامة مالم يحل على شيء آخر".*2*

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 53.

2- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 53.

وربما يجد بعض المتابعين مغالاة لو رأوا معادلة رياضية، كما هو في الجبر تقوم برصد بعض المفردات أو الصفات في نص ما، لكنه أمر بات مطروقاً في حدود الاستدلال السيميائي، كما هو الأمر "بتمثيلنا، دائماً بواسطة س صنف "الناس" وبواسطة ص صنف "الأسياويين" نضع ط لتمثيل الصفة "أبيض" على مجموع الناس

ط (س–ص)= ط س – ط ص

المعبر عنهم في "لناس الأسياويين" نحصل على معنى القول نفسه في "الناس البيض" ماعدا "الأسياويين البيض" مما يجعل من المعادلة الآتية قانوناً سادساً:

وهو قانون مطابق، كما هو واضح لقوانين الجبر المألوف"*1*.

ومن الملفت حضور مصطلحات الرياضيات بقوة في السيميائية بكل اتجاهاتها، وهو ما يقربها من العلوم الرياضية، فلا يمكن الحديث في السيميائية السردية مثلاً دون التطرق إلى اللكسيم (lexeme) والفونيم (phoneme)، وما سيحل إليه هذان المصطلحان بعد التقائهما التركيبي / الاستبدالي، بالمدلول والرسالة والمرسل إليه، والنموذج العاملي (Actantial modal)، والاستطاعة (Competence)، أو التحقق، والقيمة (value)، والبرهنة (argumentation). في خطاطة (غريماس) السردية، وما يقابله في الرياضيات عبر المصطلحات التحقق، والبرهان، والقيمة والتقدير والفرضية.

السيمياء واللسانيات:

قاد تقاطع الفكر اللساني والفكر السيميائي إلى إعادة نظر جذرية بالعلوم الإنسانية بما فيها علوم النفس والاجتماع والتاريخ والأدب...

1– المرجع نفسه، ص 53–54.

وثمة من يتحدث عن أصناف العلامتين اللسانية وغير اللسانية ليعطي التمييز "للعلامات المحمولة في الكلمات لكونها قادرة على تمثيل العلامات البصرية والسمعية وغيرها، نظراً لتوافر الكلام على القدرة المنطقية والطاقة الحجاجية، وإن تعددت الألسن لدى البشر؛ فالقواعد واحدة في كل اللغات من حيث جوهرها حسب اعتقاد **روجر بيكون**".*1*

ومن هنا نتعرف إلى بعض المصادر التي انطلق منها **سوسير**؛ حيث تنبأ بالرابطة القوية بين العلمين في مقطع شهير له من (محاضرات في الألسنية العامة) إذ قال: اللغة نظام من العلامات التي تعبر عن أفكار، ومن هذه الناحية فهي مماثلة للكتابة وأبجدية الصم والبكم والطقوس الرمزية وصيغ الاحترام والإشارات العسكرية، ورغم هذه المماثلة تبقى اللغة أهم الأنظمة.

ولذلك يمكن أن نؤسس علماً يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، يشكل هذا العلم جزءاً من علم النفس الاجتماعي، وسنطلق عليه اسم علم العلامات أو السيميولوجيا، وسوف يكون علم اللغة قسماً من السيميولجيا.

ومن الملفت أن عدداً من السيميائيين لم يستطيعوا الخروج على مفاهيم اللسان وفصلها عن المفاهيم السيميائية، بل إنهم يخلطون بينها، وربما يجدون أن الفارق لا يتجاوز التسمية أو المصطلح.*2*

إن السيميائية بمظهرها الأولي الذي تبدت فيه في العصر الحديث على شكل تنظير لعلم قادم على يدي **سوسير** لم تكن ذات لبنات منهجية، وطغى على الأمثلة التي طرحها **سوسير** في التمثيل للعلامة عدم الدقة "وقد نتج عن هذا الغموض في التحديد

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 54.

2- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 55.

أن سار هذا العلم الناشئ في اتجاهين متباينين. فبعض الباحثين ذهب إلى أن السيميائية ينبغي أن تعنى بدراسة الأنساق التواصلية فقط، أي تلك التي يكون القصد من توظيفها هو التواصل أساساً.. في حين ذهب آخرون إلى ضرورة توسيع سجال البحث السيميائي ليشمل كل الظواهر الثقافية الدالة، ويمثل هذا الفريق **بارط** و**كريماس** و**كورتيس**".

فقام بعض النقاد العرب بتقسيم الكلام بصفته صوتاً لغوياً إلى "ثلاثة مستويات مميزة بوصفها صوتاً":

فالكلمة1: هي ذاتها علامة لكيان آخر.

والكلمة2 : التي تعطي "الضوء الداخلي" فهذه الكلمة جوهرية لتعريفها وجزء من الذاكرة (المظهر العقلي للمعنى).

وأخيراً الكلمة 3: تقتضي علاقة نفسية شاملة "حب ما هو معروف"*1*.

ويمكن أن نشير إلى أن القضية تحكمها ثلاثة أشياء: العبارة التي تضطلع بإيضاح كيفية الإسناد، والمفهوم الذي هو ما يسند إلى الشيء؛ أما الشيء فيحدد الكميات والأجزاء التي تتألف منها القضية؛ ولهذه الإشارة علاقة بالسيميائيات؛ إذا احتكمنا إلى تعريف **ش.س.بيرس** لها من أنها ليست سوى تسمية أخرى للمنطق.

إلا أن نفراً كبيراً من الباحثين يعد اللسانيات أحد اتجاهات السيميائية المعاصرة، ومنهم **سوسير**.

وقد استمدت السيميائية الكثير من مفاهيم اللسانيات، لا سيما "الإسهام المباشر **لسوسير** في السيميولوجيا غير اللسانية، فقد تحدد تقريباً بحدود هذه الجمل، ولكنها جمل اضطلعت

1- المرجع نفسه، ص 55.

بدور كبير، وخاصة في فرنسا، حيث كان من نتائجها (المفارقة) أن تطور السيميولوجيا قد احتذى مثال اللسانيات بشكل دقيق"[1].

وذلك ما نجده في احتذاء بعض القواعد التركيبية لعلم اللغة أثناء القيام بالتحليل السردي للخطاب، كما في التحليل السيميائي في المدرسة الباريسية، حيث تتخذ من المورفولوجيا أحد مستويات الإجراء "فالإجرائيات التي يجب تحديدها تكون ملزمة بالأخذ بعين الاعتبار كمكونات الخطاب، وهذا ما يجعل أن مستويات المسار التوليدي: – المستوى المورفولوجي، – المستوى السطحي،– المستوى الخطابي".

وأول عنصر يمكن أن يمايز بين اللسانيات والسيميائيات القول بأن اللسان هو العرف، فالحالات الوجدانية الإنسانية واحدة رغم تنوع الكائنات واختلافها، إلا أن التعبير عنها صوتاً أو كتابة لا يمكن أن يكون واحداً. وتشكل هذه الملاحظة البدايات الأولى نحو تلمس أحد المبادئ الأساسية الخاصة باللسان الذي هو العرف، العرف الثقافي واللغوي، وكل الأشكال الرمزية التي أنتجها الإنسان وأودع داخلها كل حياته.[2]

بينما في السيميائيات نجد أن السنن ارتبط بالسياق الثقافي (cultural context)، وهو ما يحدد المرجعية الخاصة بالعلامة لفئة ما دون فئة، أو التغاير في دلالة هذه العلامة النابع أساساً من السنن، وهو أنواع: السنن الجمالي، والسنن الوراثي، والسنن الحيواني، والسنن الأيقوني، وسنن السلوك التفاعلي...[3].

والشرط الأساسي في وظيفة اللسان، هو التواصل الذي يشترط القصدية وإرادة المتكلم في التأثير في الأخر، فلا يمكن للعلامة السيميائية أن تكون أداة التواصلية

1– آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 55–56.

2– المرجع نفسه، ص 56.

3– آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 56–57.

القصدية دائماً، فربما نجد أن هناك علامات ترتبط بالقصدية، وهي ما سماها **إيكو** بـ "علامات الإصرار" من مثل البصمات واللطمات والخدوش، لكنه أشار لوجود علامات اعتباطية داخل هذا النوع من حيث المنشأ، ولا يمكن تفسيرها ضمن استدلالها؛ إلا أن توافر السنن ذاته لدى كل من المرسل والمرسل إليه، كما في بعض أنواع التحيات، وهناك علامات ترتبط بـ "مفهوم الما صدق" وهو أن يلبس أحدهم كنزة تحمل رسم المنجل والمطرقة التي ترمز للشيوعة، دون أن يعرف هذا الشخص مدلول الرسم، أو أن يكون قصده التدليل على انتمائه الشيوعي، وهذا ما يجعل العلامات السيميائية مغايرة للعلامات اللسانية وهذا هو الفرق الجوهري، بحسب ما يرى بعض المهتمين.

وهذه الاعتباطية، وتنوع العلامات بين القصدية واللاقصدية هو ما سوغ أن يكون "السلوك السيميائي هو نتاج عوالم التجريد والتعميم والرمز، ولا يمكن أن يفهم ويستوعب ويؤول، إلا باعتباره مساراً داخل عجلة تجريدية لا تتوقف عن الدوران والحركة".*1*

وهو ما دفع السيميائية كي تنطلق بصفتها علماً شاملاً يمكن أن تنضوي تحته الكثير من العناوين والاتصالات الفرعية، التي أغنت مجالات الحياة، وولدت أفاقاً معرفية جديدة في كل المجالات العلمية والفلسفية والفنية.

السيمياء والدلالة:

يستمد العمل الأدبي أدبيته من كونه مختلفاً في دلالته اللغوية عن النص العلمي، أو المفكرات، ودليل الهاتف وهي نصوص أحادية الدلالة، ولا يحتمل النص العلمي المزيد من الدلالات؛ وإلا فقد مصداقيته في كونه صحيحاً أو خاطئاً "إن العلم يعالج الأشياء، ولايعيش في داخلها، وهذا ما حدث لكثير من التفسير الأدبي. وقد نسينا أن العمل الأدبي ليس موضوعاً يخضع تماماً لتصرفنا، العمل الأدبي فيما يقول الفنومنولوجيون إنسان

1- المرجع نفسه، ص 57.

ينبعث من الماضي، ويجب أن يعود إلى الحياة". فمفردات اللغة عامة تخضع لتعدد الدلالات لا سيما إن تموضعت داخل جمل معبرة أو أدبية، فهي عندها ستتحول إلى مفردات جديدة[1].

والحديث عن علم الدلالة (semantics) بصفته علماً مستقلاً عن السيمياء أمر يصعب القطع فيه "حيث يعكس التمييز بين هذين النوعين من علم اللغة–أعني السيمياء وعلم الدلالة – هذه الشبكة من العلاقات. فالسيمياء العلم الذي يدرس العلامات، علم شكلي صوري بحيث إنه يعتمد على تجزأة اللغة إلى أجزائها المكونة أما علم الدلالة، علم الجملة، فمعني مباشرة بمفهوم المعنى."

فقد كان يقصد بعلم الدلالة بداية "دراسة لمعنى الكلمات" لكن هذه الدراسة أخذت بالتطور لتتعلق بالمفاهيم الاجتماعية والثقافية مما يجعلها معبرة عن الإنسان قديمه وحديثه، آخذه بالاعتبار الطبيعة التركيبية، فإن "كانت الأشياء لا تدرك إلا باعتبار موقعها ضمن "قسم خاص" نطلق عليه أحياناً "النسق" وأحياناً أخرى "النموذج"، فإن الدلالة المرتبطة بهذه الأشياء.. لا تستقيم إلا من خلال تحديد موقع هذا الشيء أو ذاك ضمن هذا النسق أو ذاك"[2].

ولا يمكن لهذه العلاقات الدلالية أياً كانت ارتباطاتها خارج نصية، إلا أن تتشكل ضمن قواعد كلامية تنظم المفردات لتتحول إلى جمل مترابطة، تحمل مداليل مفاهيم ذهنية مسبقة، ومن هنا نجد في دراسة علم الدلالة مدرستين دلاليتين بارزتين هما:

1- **المدرسة البنيانية:** وقد اعتنت بضرورة كون الدلالة يجب أن تنتظم من خلال مكونات ثلاثة هي: المكون الفونولوجي والمكون التركيبي والمكون الدلالي وتربط هذه

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 57-58.

2- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية ، ص58.

المكونات مجتمعة في إطار اللغة الأصوات والمعاني. يعتبر المكون التركيبي المكون التوليدي الوحيد، أي المكون الذي يصف بنية الجمل العميقة ويعدد عناصرها المؤلفة؛ في حين أن المكونيين الفونولوجي والدلالي هما تفسيريان"[1].

2-**المدرسة التوليدية:** وقد درست الدلالات على أنها تدرك من خلال عدة طرق منها :

أ-الطريقة الشكلية 2- الطريقة السياقية 3- الطريقة الموضعية 4- الحقول الدلالية 5- التحليل المؤلفاتي.

غير أن التحليل المؤلفاتي هو ما يشيع بين طرق التصنيف الدلالي؛ لأنه أكثر شمولية وأكثر استعمالاً، ولكون الطرق الأخرى في تحليل دلالات المفردات تتدرج في حقول دلالية مبنية على أساس التماثل أو التضاد، أو على أساس التدرج، والسببية يمكن إعادة تحليلها على ضوء التحليل المؤلفاتي الذي يلحظ معالجة تبيان العلاقات التضمينية بين نفي الجمل وتأكيدها، أو بين غيابها وبروزها.

ويلحظ أن إحدى مدرستي علم الدلالة قد سميت بالمدرسة التوليدية واعتنت بتشعب الدلالات وخضوعها للتأويل، إضافة إلى أن هناك من النقاد من يرى أن إدخال البلاغة (Rhetoric) في الدلالة مؤدى طبيعي، لأنها تعيد إنتاج النص من خلال توجيه القراءة نحو إعادة استقراء النص واستنطاقه، بحيث "تسهم في إنتاج القراءة، وتتماهى مع التأويليات، وتفضي إلى السيميائيات التأويلية" وفقاً لـ **بيرس**.

1- المرجع نفسه، ص58- 59.

و"للدلالة هنا علاقة بالعلامة وبالسيميائيات التي تشمل الشعريات والجماليات، ذلك أن البعد الدلالي لم يأخذ حظه من الدرس الأسلوبي، كما هو حاصل في المستويات اللفظية والتركيبية، لكنه صار موضوعاً محورياً في الدراسات السيميائية التداولية"[1].

فنتج لدينا الانزياح (Ecart) بنوعيه: الاستبدالي والتركيبي، حيث تبقى المفردات لكسيمات تنتقل، وتتبدل في موقعها وتركيبها إلى أن تصل لصيغ دلالية تنزاح عن معنى محدد إلى حالة من تعدد المعاني، وهو يشكل دوراً مهماً للسيمياء كإجراء لجمل منزاحة، وهذا يتقاطع مع دور البلاغة بهيئاتها المتنوعة حتى بلوغ الدلالات.[2]

وعلى الرغم من محاولة الكثيرين التعريف بمعنى الانزياح، إلا انه بقي ضمن دائرة ابتعاد المفردات في دلالتها عن المعنى الموجود داخل التركيب المحدد للجملة "إنه بكل بساطة خروج التعبير عن السائد أو المتعارف عليه قياساً في الاستعمال، رؤية ولغة وصياغة وتركيباً". بل إن هناك من عرف الانزياح بأنه "فيصل ما بين الكلام الفني وغير الفني" كان مؤدى حدوثه هو تغير في الدلالات رغم تعدد المصطلحات المعبرة عنه.

فقد اعتنت السيمياء الدلالية على يد (رولان بارت) بكل الانزياحات التي تطرأ على العلامات نسبة لمحوري التركيب والاستبدال، متجاوزة العلامات داخل النص الأدبي إلى كونها علامات تنتمي لأنساق اجتماعية وثقافية داخل مستوى الدال والمدلول: "ويقصد "**بارط**" هنا الأنساق الدالة ذات الأصل الاستعمالي، مثلما هو الحال بالنسبة إلى معطف الفرو الذي يستعمله الإنسان منذ مراحله البدائية. ويسمي هذه الأنساق (الوظائف – العلامات) (function–signes) لأنها تستعمل وتدل في نفس الوقت. فبمجرد ما يكون هناك مجتمع، يتحول كل استعمال (usage) إلى علامة لهذا الاستعمال نفسه". وما

1– آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 59.

2– المرجع نفسه، ص 59–60.

جعل علم الدلالة يتسع ليشمل الأنساق والمعاني في الحياة عامة هو البعد السيميائي الذي تضمنه.

إن للسيمياء ميزة احتواء الدلالات القديمة والحاضرة والمستقبلية، والقدرة على ضبطها ضمن آليات مكرسة وممكنة الحضور، والتواصل مع هذه الآليات لاستمرار بقاء السيميائية منهجاً إجرائياً لتلك الدلالات، وتلازم المفهومين جعل العلامة وفقاً لذلك "لا تنتج دلالة أحادية مكتفية بذاتها ترتاح إليها الذات، بل تولد سيرورة تدليلية بالغة الغنى والتنوع[1]، فكل الإحالات ممكنة انطلاقاً من فعل التمثيل الأول، أي الفعل الذي يضع المائول ضمن حركة سيميوزية تستند إلى المؤول باعتباره العنصر الحاسم في وجود الدلالة وتداولها".

وبذلك فإن العلاقة بين سيميائية التواصل وسيميائية الدلالة هي علاقة تكامل وتعاضد فلا يمكن الولوج إلى سيمياء الدلالة دون اختبار (test) البنى التركيبية للنص وتوجيهها في داخل الخطاطة السردية بما يخدم الدلالة، كما لا يمكن إجراء التحليل السيميائي للنص الأدبي، دون الإفادة من الدلالة بصفتها مفهوماً أساسيا داخل المستوى الدلالي و"أهم ما فيه هو القيمة، فانطلاق من أن الموضوع في البرنامج السردي هو موضوع قيمة أولاً، فإن فهم السياق السوسيو ثقافي في أبعاده السياسية والاجتماعية والثقافية يعد قيمة معرفية تشحن داخل الموضوع التركيبي، وبذلك فهي قيمة تحدد الموضوع دلالياً".

وكون العلائق السيميائية بين الدال والمدلول والمفهوم، وبحسب ما ورد سابقاً، هي علائق اعتباطية يدفعنا لنتسائل: إلى أي مدى تشارك السيميائية في كشف فضاءات دلالية (semantic topics) واقعية أو خيالية؟ وهل هذه الدلالات متوالدة ومتكاثرة؟

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 60.

وهنا لا بد من تذكر أن أساس تصور **بيرس** قائم على المتاهة التأويلية، حيث تتبعث الدلالة من فعل العلامة كسيرورة بلا رادع ولا ضفاف ولا حدود، فما نحصل عليه من معرفة بعد أن يستنفذ الفعل التأويلي طاقاته لا علاقة بالنقطة التي شكلت بداية التأويل[1].

وتعلم أن العلامة حاضرة في فضاء مكاني أو نصي ما، وأن دلالتها موجودة مثلها وإن كانت مغيبة، وهذا ليس إلا تنبهاً لسؤال يفتح الدلالات: هل العدم علامة تحيلنا على شيء آخر؟[2].

ويجيبنا الناقد ذاته عن السؤال بالإستناد إلى ما لوحظ في "أن هناك علامات لسانية فارغة من المعنى، أو هي كذلك إن كان المستقبل جاهلاً بمعناها فهناك كلام مستقيم استقامة معجمية وتركيبية ولكنه محال من الناحية الدلالية، فما أن مدلول اللاشيء لا يمثل شيئاً ولا حالة من العالم، فإن أوغسطين ينتهي إلى أن هذا المصطلح هو تعبير عن انفعالات النفس.

وبناء على ما سبق يمكننا القول: إن السيمياء تولي جوانب النص المختلفة اهتماماً متوازناً، ويحظى الجانب الدلالي بعناية خاصة، ذلك أن الدلالة تتصل بصلب السيمياء بصفتها منهجاً نظرياً وتطبيقياً، لأنها تقوم على الإشارات والرموز والأدلة، وتخترق نواظم محددة، وتفتعل طرقاً إجرائية لإثبات حضور رموزها داخل منظومتها العلمية الخاصة.

إن ظهور الرموز أو العلامات اللغوية وغير اللغوية ساهم كثيرا في ترقية ثقافة الإنسان وحضارته، حيث اعتبرت وسيلة للتواصل بين أفراد المجتمع، وبالتالي أصبح مفهوم العلامة اللغوية شهادة ارتقاء الإنسان من جهة ودليل على النسق الثقافي الذي تمارس

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 60-61.

2- المرجع نفسه، ص 61.

من خلاله كل جماعة إنسانية حياتها من جهة أخرى، فكل شيء يحيط بالإنسان يمكن أن يتحول إلى علامات إذا استخدم في عملية التواصل لنقل رسالة ما فالزهور مثلا يمكن أن تصبح علامات من خلال ثقافة الجماعة عندما تكون – في عرس أو مناسبة سعيدة – باقة دالة على التهنئة.

وبالتالي فكل جماعة بشرية تترابط لغويا وتتحول إلى جماعة ثقافية متميزة تصو بين الحين والآخر مدلولات جديدة للكلمات، وهذه الأخيرة أي الكلمة أو الكلمات نجدها قد حظيت باهتمام المشتغلين بالدراسات اللسانية قديما وحديثا، وذلك يوصفها عنصرا من عناصر النظام اللغوي، فقد حاول القدماء والمحدثون من اللسانيين تعريفها وتحديد معالمها، ومن هؤلاء:

1. الزمخشري: (ت 538): « هي اللفظة الدالة على معنى مفرد بالوضع، وهي جنس تحته ثلاثة أنواع: الاسم، الفعل الحرف» (كريم زكي حسام الدين: 3).
2. الأشموني (ت 929): « إنها اللفظ المفرد، أي الصوت المشتمل على بعض الحروف، مفيد بالوضع فائدة يحسن السكوت عليها، فخرج باللفظ غيره من الدوال ما ليس بلفظ مثل الإشارة الخط »[1] (كريم زكي حسام الدين: 3)

والملاحظ على هذين التعريفين هو اهتمامهما بالجانبين الصوتي والدلالي في تعريف الكلمة، وهذا المفهوم للكلمة عند القدماء يقترب من مفهوم اللساني الأمريكي « سابير» للكلمة، يقول: « إن العناصر اللغوية ذات الدلالة هي عموما أنظمة من الأصوات، أن تكون كلمات أو أجزاء ذات دلالة من الكلمات، أو مجموعات من الكلمات...، والذي يميز هذه العناصر علامات خارجية لفكرة خاصة، سواء أكانت هذه الفكرة دلالة مفردة،

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 258.

أو شكلا، أو عددا من الدلالات والأشكال متصلة اتصالا واضحا في كل » (كريم زكي حسام الدين: 4). أما اللساني الشيكي

« كراميسكي» فيعرف الكلمة بقوله: « الكلمة أصغر وحدة مستقلة للغة، تشير إلى نوع معين من حقيقة فيما وراء اللغة (أي المعنى) وتتميز بخاصيات شكلية (صوتية وصرفية) ودلالية، فهي تمتلك معنى حقيقيا Actuel، بوصفها عنصرا في السياق Composant de contexte ومعنى كامنا Potentil بوصفها عنصرا في نظام الجمل lexical system» (كريم زكي حسام الدين: 4).

هذا وقد ذهب بعض اللسانيين إلى القول بصعوبة إيجاد تعريف للكلمة ينطبق على كل اللغات ومن ثمة استبعاد مفهوم الكلمة من الدراسات اللسانية (من هؤلاء : « شارل بالي، غارندر»....) لكن حسبنا في هذا المقام الاكتفاء بالتعاريف التي أوردناها للكلمة والتي لها علاقة مباشرة بالدلالة وبالسيميائيات.

إن أول ظهور لعلم الدلالة كان في كتب المنطق من حيث أنه من المقدمات العامة، ويعود الفضل في وضع تفاصيل دقيقة لعلم الدلالة وأقسامها إلى النقد المتواصل الذي أخضعت له المفاهيم التي وضعها أوائل الفلاسفة العرب للدلالة كـ « الفارابي» و « ابن سينا» و « الغزالي»، متأثرين في ذلك بالمعطيات اليونانية، فالمتأمل[1].

المفاهيم والمصطلحات الشائعة في علم الدلالة عندهم يلاحظ تأثرهم الواضح بالمدرستين اليونانيتين « المشائية والرواقية» لكن علم الدلالة رغم كونه ظهر في كتب المنطق إلا أن تطوره يعود إلى التحاور بين المنطق وعلوم المناظرة وأصول الفقه والتفسير والنقد الأدبي والبيان وفي وقتنا الحالي نجد جل المحاولات تنصب على البحث عن صياغة رياضية للسيميائيات، فالبنى الرياضية واللغات الصورية الدقيقة متوفرة لمثل هذه

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 259.

المحاولات، وهذا من شأنه أن يكسب النظريات المستجدة من بين الميزات الأخرى أفضلية الدقة والصرامة. وبحث الدلالة عند الفلاسفة المتقدمين كـ « الفرابي» و « ابن سينا » و « الغزالي» ينحصر في الدلالة اللفظية – كما عند « أرسطو» – فالدلالة في نظرهم تناول اللفظ والأثر النفسي أي ما يسمى أيضا بالصورة الذهنية، أي يكون الخط دالا على اللفظة واللفظة على الصورة الذهنية هي دال ومدلول في الوقت نفسه، بينما الخط دال غير مدلول عليه، والأمر الخارجي مدلول عليه غير دال، أما نوعية الدلالة بين هذه الأمور الأربعة فهي كما يسميها « ابن سينا» خارجية بين الخط واللفظة، واللفظة والصورة الذهنية، بينما هي طبيعة بين الصورة الذهنية والأمر الخارجي. وهنا نجد مقابلة رائعة بين مصطلحات علم الدلالة والسيميائية، فالدلالة الخارجية (الدلالة الوضعية) توافق الدلالة الرمزية Symbolique بمفهوم « بورس » والدلالة الطبيعية توافق الدلالة الأيقونة Iconique عند « بورس» أيضا.

ومن حيث المعنى علاقة الخط بالصورة الذهنية هي علاقة اللفظة ذاتها بالصورة، لكن من حيث وسيلة الإيصال هناك اختلاف بينهما، فاللفظ يكون في التخاطب الحاضر أما الخط فهو يصلح لإعلام الغائبين في الماضي وفي المستقبل عن طريق التدوين.

وإذا عدنا إلى الدلالة اللفظية – التي حصر فيها علم الدلالة عند العرب القدامى[1] – نجدها تتوقف على العلاقة بين اللفظ والصورة الذهنية « فمعنى دلالة اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم، ارتسم في النفس معنى فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلما أورده الحس على النفس التفت إلى معناه» (عادل فاخوري: 9). والملاحظ على المشتغلين في الدلالة عند العرب هو عدم استثنائهم للمرجع Referant من العلامة اللفظية، لكن تعلق اللفظ به لا يتم إلا عن طريق الصورة الذهنية بواسطة دلالة إضافية، وهذا الموقف – حسب « عادل الفاخوري» – يشبه إلى حد ما اتجاه «

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 260

دو سوسير» ويقول: « يحيى العلوي» في هذا الصدد ما يلي: « الحقيقة في وضع الألفاظ إنمت هو للدلالة على المعاني الذهنية دون الموجودات الخارجية والبرهان على ما قلناه هو أنا إذا رأينا شبحا من بعيد وظنناه حجرا سميناه بهذا الاسم، فإذا دنونا منه وظننا كونه شجرا فإنا نسميه بذلك ... إطلاق الألفاظ إنما يكون باعتبار ما يحصل في الذهن، ولهذا فإنه يختلف باختلافه» (عادل فاخوري: 10). ومن هذا يصبح تعريف الدلالة هو « فهم أمر من أمر» (عادل فاخوري: 10)، أي فهم الدال يستدعي فهم المدلول – وهذا هو مذهب المتقدمين – وقد اعترض على هذا المذهب لكون الدلالة وصف للدال والفهم وصف للفاهم وسحح ووضع بتعريف آخر للدلالة فـ « هي كون أمر بحيث يفهم منه أمر آخر»، مما يشير إلى انتقال الفاهم من الأمر الأول إلى الأمر الثاني هو بسبب حيثية إضافية، أي علاقة معينة بين الإثنين، والاختلاف في الصياغة بين التعريفين هو أن الأخير يلحظ النسبية بين الدال والمدلول، بينما التعريف الأول يبين نسبتهما إلى الفاهم.

إذا انتقلنا إلى أنواع الدلالة نجدها متعددة ومختلفة، فهناك توافق عام عند العرب على تقسيم الدلالة إلى ثلاثة أنواع: عقلية[1] – طبيعية – وضعية.

1. الدلالة العقلية: وهي أن يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة ذاتية تنقلهما من أحدهما إلى الآخر، كدلالة العلة على المعلول، يقول « التهانوي» في هذا الصدد: « فالدلالة العقلية هي دلالة يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة ذاتية ينتقل لأجلها منه إليه، والمطلوب بالعلاقة الذاتية استلزام تحقق الدال في نفس الأمر تحقق المدلول فيها مطلقا سواء استلزم المعلول للعلة كاستلزام الدخان للنار، أو العكس كاستلزام النار للحرارة، أو استلزام أحد المعلولين للآخر كاستلزام الدخان للحرارة» (عادل فاخوري: 23)، من خلال هذا القول نلاحظ « التهانوي» قد حصر الدلالة العقلية في الأسباب الخارجية،

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 261

وهذا يتقارب مع مفهوم «بورس» المسمى بالشاهد أو المؤشر Indice وهو علامة تشير إلى الموضوع الذي تعبر عنه من خلال تأثرها الحقيقي به.

2. الدلالة الطبيعية: والتي يرى « عادل الفاخوري» بشأن المفاهيم التي أعطيت لها عدم الدقة والعلمية، ولكن آثر لتحديدها تعريفا آخر « التهانوي» الذي يقول: « هي دلالة يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة طبيعية ينتقل لأجلها منه إليه (...) كدلالة (أح أح) على السعال، وأصوات البهائم عند دعاء بعضها بعضا، وصوت العصفور عند القبض عليه، فإن الطبيعة تنبعث بإحداث تلك الدوال عند عروض تلك المعاني، فالرابطة بين الدال والمدلول هاهنا هو الطبع» (عادل فاخوري: 23). فالدلالة الطبيعية إذن لا تتعلق بالطبيعة الجغرافية، بل بالطبع أو الصفات المميزة للشيء و « من وجهة نظر حديثه تعود هذه [الدلالة] إلى صنف الشواهد وعلى وجه التخصيص إلى علاقة أثر بمؤثر» (عادل فاخوري: 24)، وقد قلنا هكذا وسكتنا بسبب أن المصطلحات[1]وبعدها الترجمات لهذه المفاهيم الدلالة الطبيعية تقابل أو توافق الدلالة الأيقونية Iconique عند « بورس»، « والأيقون هو العلامة التي تشير إلى الموضوعة التي تعبر عنها الطبيعة الذاتية للعلامة فقط، وتمتلك العلامة هذه الطبيعة سواء وجدت الموضوعة أم لم توجد» (رشيد بن مالك: 28).

3. الدلالة الوضعية: وهي أن يكون بين الدال والمدلول علاقة الوضع، كدلالة اللفظ على المعنى، وهي عند « الجرجاني» « جعل شيء بإزاء شيء آخر بحيث إذا فهم الأول فهم الثاني» (عادل فاخوري: 24). كدلالة الخط والإشارات والنصب...، والملاحظ على جل الباحثين العرب هو اهتمامهم وتركزهم الكبير على الدلالة الوضعية اللفظية التي من شروطها الأساسية وجود اللفظ والمعنى وعارضة بينهما هي الوضع، وحجتهم في ذلك هو كون البحث يتناول الألفاظ والمعاني من حيث هي دالات ومدلولات، فالدلالة

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 262.

الوضعية تنقسم إلى نوعين لفظية وغير لفظية، والدلالة اللفظية تنقسم بدورها إلى ثلاثة أنواع: مطابقة – تضمن – التزام.

وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن الدلالة الوضعية توافق الدلالة الرمزية Symbolique عند « بورس».

وكملاحظة عامة عن هذا التقسيم للدلالة، يمكننا القول أن حصر الدلالة في ثلاثة أنواع (عند العرب) ليس حصرا عقليا وإنما حصرا ناجما بواسطة الاستقراء عند تدخل الجاعل، وهذا عكس ما جاء به الفيلسوف الأمريكي « بورس»، حيث جاء بوجهة نظر عقلية صرفة حيث توصل إلى تقسيم ثلاثي للعلامات يقترب كثيرا من أنواع الدلالات عند العرب، فتقسيم العلامة إلى شاهد، وأيقونة، ورمز– الذي شاع في السيميائيات الحديثة– يشبه أنواع الدلالات (العقلية[1]– الطبيعة – والوضعية) وبالتالي فهناك تقارب كبير بين نظرية الدلالة عند العرب وسيميائيات « بورس»، وعليه تستطيع القول أن المباحث الدلالية القديمة وإن صبت جهدها الأعظم على محاولة تقييد المعنى فإنها حاولت أن تقدم نظرات عن علم أشمل هو علم العلامات، هذا العلم الذي تحولت علاقته بعلم الدلالة إلى علاقة عموم بخصوص، وهذا ما سعى إليه وحاول إبرازه «تشارلز موريس» وذلك بتطوير ما جاء به « بورس»، إذ قسم علم العلامات إلى ثلاثة أقسام:

1. الخصائص التركيبية: النحو والصرف.

2. الخصائص السيمانطيقية (الدلالية) طبيعة اللغة من حيث الدلالة والمعنى.

3. الخصائص البراغماطيقية (التداولية).

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 263.

وعرف علم الدلالة بأنه: « علم دراسة اللغة من جميع نواحيها التكوينية، ووصع هذه الدراسة على هيئة نظرية عامة ممكنة التطبيق على جميع اللغات مهما اختلفت خصائصها وأصولها» (عادل فاخوري: 10).

وهنا « سعيد عبد الهادي» إلى الفرق بين علم الدلالة وعلم المعاني، فعلم الدلالة وصفي تحليلي ينطلق من تحليل الكلمة إلى اكتشاف أوسع العلاقات التي تربط بين الوحدات اللغوية المختلفة، أما علم المعاني فهو علم بلاغي وظيفته تتبع خواص تركيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليتجنب الخطأ في تطبيق الكلام (علم معياري). وأهم العلاقات التي درسها علم الدلالة وأصبح يصف وفقها هي: الإشارة، الترابط. أما ما حدث في السيميائيات فهو تعميم الدرس اللساني الذي قدمه « سوسير»– خاصة ثنائية المشهورة – وذلك بعد تطويره والاشتغال به من طرف جماعة « براغ »، « كوبنهاغن»، وغيرهم، وبالتالي ساهم الدرس اللساني بكثرة[1] في تطوير الدرس الدلالي الحديث.

وعموما قد يلاحظ القارئ أو المطلع على مقالنا هذا عدم تطرقنا بالشكل الكافي لتعريفات العرب للدلالة وكيفية تناولها، إلا أن ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى كوننا تناولنا بعضا من جوانبها (الدلالة) في مقال آخر تحت عنوان « التهانوي» « السيميولوجيا في التراث العربي القديم».

وخلاصة القول أن علم الدلالة الذي لم يكن سوى مبحث يمهد به للدرس المنطقي، والأصولي عند المسلمين، أصبح دليلا وهاديا لمعظم الدراسات في مختلف الحقول المعرفية المعاصرة وعلى رأسها السيميائية.

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 264.

وليست السيرورة الثلاثية لـ **بيرس** إلا فتحاً مهماً لتوليد الدلالات، فكل إحالة لأولانية إلى الثانيانية فالثالثانية، تتطلب إحالات متتالية إلى اللانهاية، وهو يشيكل بالتغير الذي طال السيمياء في كونها أخذت بالاهتمام بالنقد الثقافي.*1*

السيمياء والنقد الثقافي:

أفضت التحولات التي شهدتها نهايات القرن العشرين بالنقاد إلى حالة من البحث الدائم عن نظرية شاملة للنظريات والمناهج النقدية السابقة، دون المساس بخصوصيتها، فقد لقيت اتجاهات التلقي والتأويل والتفكيكية (Deconstruction) وما بعدها انتقادات كثيرة، حيث ستعرف الاتجاهات السميولوجية والتفكيكية والتأويلية واتجاهات تحليل الخطاب ترحلاً دائماً بين مصادر إمداد متعددة ومصاب تطبيق متنوعة.

وكان للسيميائية داخل هذه التحولات شأن خاص، فقد حاولت التواصل مع هذه الاتجاهات اعتقاداً من منظريها أنها علم مرن يتقبل التجديد والتعددية، فظهرت سيميائيات ثقافية متعددة الاهتمامات تحاول المراوغة والترابط مع تطورات الحياة، من مثل سيمياء الأهواء، وسيمياء الكون، وسيمياء الجسد، وسيمياء الإيديولوجيا..إلخ.

وتشكل السيمياء الثقافية وفقاً لبعض التصورات مزيجاً من السيميائية والنقد الثقافي، مع أن لكل منهما خصوصيته المصطلحية والمنهجية، لأنها تتقاطع فيما بينهما، ويتكامل دورها، للوصول إلى لا نهائية القراءة المنتجة للدلالة عبر بناء تكاملي، يجعل كلاً منها خطوة في طريق الوصول إلى عوالم النص المختلفة، والخوض في كل تفاصيل الحياة ونقدها.*2*

1 – آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 61–62.

2 – آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 62.

فالنقد الثقافي "نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعاً لبحثه وتفكيره ويعبر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها" ويأتي نتيجة لنظرية ثقافية شاملة، تتسع لكل العلوم والمعارف وترى أن الثقافة (culture) هي البني المركبة والمكونة من المعتقدات والاخلاق، والعادات، والمعرفة والفن، والانشطة الأخرى"

وبما أن النقاد لم يكونوا سجناء مفاهيم ومناهج محددة، فإننا نلحظ في النقد الثقافي أسماء باحثين عديدين امتدت أياديهم للنقد السيميائي رغم اختلاف منابعهم ومراميهم الإيديولوجية ولهذا يحيل النقاد الثقافيون على أسماء تبدو كأنها لا تجتمع على جامع، فما الذي يجمع **كارل ماركس** بـ **فلاديمير بروب**، أو بـ **جاك لاكان**، مثلاً؟

وما الذي يجعل من **أي جي غريماس** ناقداً ثقافياً شأنه **كلفورد غريتس** و**فيكتور تيرنر** مثلاً؟ وكيف يجتمع في النقد الثقافي ريموند وليمز بمارشال مكلوهان؟ والقصد من هذه التساؤلات إيضاح سعة هذه الفعالية.*1*

إن سمة الدينامية التي اتسم بها النقد الثقافي جعلته مثار انتقاد، فقد أخذ عليه تجاوزه النقد الأدبي، وذهابه إلى كل المعارف وتبنيه الكثير من اتجاهات النقد التي انحازت إلى مفهوم محدد دون آخر، تمثل الدفاع عن النقد الثقافي بأنه المنهج الشامل لما سبق الذي ارتبط فيه النقد بالفلسفة، التي هي منبته الأساسي، وأنه لم يقتصر على الأدب فهو نقد يحتوي كل التشابكات النظرية مع حرية في التحرك داخله تتيح لأي ناقد التنظير داخل مجاله النقدي ضمن النظرة الخاصة به، إضافة للرؤية الشمولية للنقد الثقافي، وهو بمثل هذا الاحتواء والسعة يلغي التفاوت السابق الذي استند إلى النظرية الأرسطية طويلاً، وأقام تمايزاته على أساسها". ولذلك فإن كون النقد الثقافي معرفة تتدرج

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص63.

ضمنها الكثير من المتباينات، والاتجاهات تجاوز النقد الأدبي الذي إنحصر اهتمامه بالنص الادبي.[1]

ومع ذلك فإن الاهتمام بالأنساق في نقد النصوص لم يكن حكراً على النقد الثقافي، بل سنجده في السيمياء التي تنطلق من كون الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأنساقاً دلالية، وتعد الأنظمة السيميائية أنظمة نمذجة (Typology Systems) للعالم، أي أنها تضع العالم الخارجي في شكل تصور ذهني هو نسق، أو نموذج وقد أكد **بيرس** أن "العلامة تتكون من وحدة ثلاثية المبنى: الدال والمدلول والمرجع وأتاح هذا الطرح انفتاحاً على المرجع ونبه إلى أهميته في قراءة النسق وتتبع السياقات وتوضيح دور التفسير في الربط بين الدال والمدلول."[2]

إن المرجع هنا هو الإيديولوجيا الكامنة خلف النص، او ما يسمى ما حول النص، مما يتيح وجود اهتمام بخارج النص Extra– textual، وليس التركيز على المكونات الداخلية له بمعزل عن ظروف الإنتاج، بل البحث في الخلفية الثقافية والإيديولوجية والاجتماعية والعقائدية والتاريخية والسياسية والاقتصادية المساعدة والمؤثرة في تشكيل النص أساساً، وهذا ما يصطلح عليه بـ: الأنساق الثقافية في النقد الثقافي، وهي عماد هذا النقد الذي إكترث بالتأويل من خلال تفسير ظواهر الحياة من خلالها وهي أنساق تظهر في كيفية استهلاك المنتج الثقافي العربي منذ القدم". فتصبح العلامات موظفة باتجاه نقل صورة العالم، إضافة لوظيفتها في التوصيل، ويبدو أن الإهتداء إلى الأنساق السيميائية الثقافية القديمة، يطلب لدى ثقافة بعض الشعوب مما يمكن وصفه بأساليب الصور الأيقونية، كما نقف عليها في كثير من الرسوم على الاحجار والجدران والجلود او في الوشم أو حتى داخل اللغة نفسها وما إلى ذلك.

---

1 –المرجع نفسه، ص 63.

2 – آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية ، ص 63 – 64.

وهذا ما يجعل **بيرس** بحسب بعض الباحثين منظراً ثقافياً، وهو الذي قال بأن علم الإشارات "يتكون من ثلاثة انواع، الأيقونات/ التماثيل والتي تتصل بعملية التماثل، والادلة والتي تتصل بالتواصل المنطقي، والنوع الثالث هو العلامات والتي هي عبارة عن رموز عرفية فحديثه عن أنواع الإشارات من أيقونة وتماثيل ورموز كان بداية مهمة للتعبير عن مكونات النقد الثقافي الذي تجاوز اللغة."[1]

إن انواع التعبير المتعددة لا يمكن حصرها باللغة فقط، فهي تطال الألوان والصورة والصوت ومظاهر الطبيعة، والأزياء والديكور، وهذا جعل السيمياء الثقافية هي الاولى بالتعبير عنها، لكن لا تكتمل صورة الفهم والتأويل للعلامات من دون ربط العلامة بالمرجع، الذي تتكئ عليه أساساً "فالأحكام التي تتبلور داخلها لا يمكن أن تدرك إلا وفق ما تقتضيه السياقات الثقافية المخصوصة، وهذا ما ربط بين السيمياء والسياق context والنسق والسنن[2].

وتعد جماعة "موسكو – تارتو (moscow– tartou group)" أول من استفاد من السيميائية الثقافية في تحليل الظواهر الحياتية والنصية، وخلصت إلى انه ليست كل رسالة باللغة الطبيعية نصاً ثقافياً، وليس كل نص ثقافي نصاً في اللغة الطبيعية، وأن الثقافة هي كم من النصوص يرتبط بسلسلة من الوظائف، إضافة إلى أن كل ثقافة دينامية تعرف نوعاً من التفاعل الناتج عن تنقل النصوص من نظام سيميائي إلى آخر.

وقد رافق النقد الثقافي مسوغات تفكيكية لإرجاع النص إلى مكوناته الأولية وتعدده وتحرره من المركزية، إلا ان البحث في تاريخية هذه المكونات، وفهم النص في اطاره التاريخي والثقافي هو ما وضع النقاد في ازمة تأطير النص ومحدودية دلالته التي رفضها التفكيكيون، في حين يستطيع القارئ أن يسبغ على النص من ثقافته هو ويفهمه بتاريخ

1– المرجع نفسه ، ص 64.

2– آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية ، ص 64– 65.

جديد، وحالة كونية فضائية مختلفة لأن "هذه الصيغة تقسم عبء الاستمرارية التاريخية على الكلمة واستعمالها، في حين تؤكد سلباً فكرة الاستمرارية بوصفها نقيض التعطيل، ويلاحظ أن هذا الخيار شبه الأصيل للمؤلف الذي يملأ الكتابة بقوة مبدعة سرعان ما يمتص في فيضان التاريخ ثانية"[1].

إن الانفتاح في القراءة، والتأويل يبعد سلطة مركزية النص، وهيمنة القراءة المحدودة والمتتبع للمنظرين الثقافيين سيلحظ تبرمهم من تسييج النقد الثقافي بتحديدات وتعريفات لا طائل من ورائها، ما دام النقد الثقافي ليس سوى فعالية تفكيكية مفتوحة على استراتيجيات قرائية متنوعة ومختلفة وفقاً للموقع المعرفي الذي ينطلق منه الناقد الثقافي."

وهو ما يجعل توقف النص عن التأويل، موتاً إذ الاكتمال هو قرين الموت، ولهذا يكيد السرد للاكتمال بمكائد متنوعة من طرائق متغايرة في بنية الخطاب، فهو منتج وسيرورة، موضوع وفعل، بنية، الأمر الذي يغدو بموجبه السرد فتياً وهذا ما أقر به **سعيد بنكراد** لدى حديثه عن المعنى (Meaning) والوظيفة، فالمعنى يمكن ان يخضع لتأويلات ضمن المرجع الثقافي والتاريخي، بينما تعرف الوظيفة بأنها النشاط الذي يستخدم الرموز والعلامات والخطابات للوصول لتعدد المعنى، وبهذا يمكن للمعنى أن يصبح غير محدود استناداً إلى هذا المبدأ، وهو مبدأ يخص الإدراك والإنتاج المعاني على حد سواء، فإن العالم الطبيعي الخالي من أي استثمار دلالي، لا يمكن أن يتأنسن إلا من خلال تحويل الأشياء إلى علامات، حينها وحينها فقط تتخلص الاشياء من بعدها الوظيفي لكي تصبح خزاناً لكمية هائلة من المعاني التي تشير، خارج وظيفة التعيين أو ضداً عليها، إلى مواقع متنوعة داخل الامتدادات الرمزية اللامتناهية للكائن البشري في كل ما يحيط به.

1- المرجع نفسه ، ص 65.

ترى التفكيكية أن ربط النص بسياقه الثقافي فحسب، يولد محدودية في الدلالة، في حين تعتمد الفرضية الدلالية على جانبين هما: النسق الثقافي المسبق للنص، والبنية الإيديولوجية للكاتب.

وقد قوضت نظريات التلقي والقراءة والتعددية المتعلقة بموت المؤلف، وولادة القارئ الرؤيتين السابقتين، وبناء على ذلك فقد تقاطعت السيمياء الثقافية مع ما سبق كله واتجهت نحو وجود التخمين "فرضية للقراءة والتأويل"*1*.

وقد توقف **إيكو** طويلا عند كون النص متعدد القراءات، بسبب سعي القارئ إلى الإمساك بالعلامة؛ فإذا به أمام علامة جديدة "مما يحمل على القول إن المرء إذ يدرك علامة، فهذا معناه أن يتلقن ما ينبغي له فعله من أجل أن ينتج موقفا ملموسا يخوله الحصول على الخبرة الحسية التي تتحصل من الموضوع، حجة العلامة ومرجعها وهذا ما ذهب إليه النقد الثقافي في منظومته العامة التي تحول النص إلى سياقات ومراجع وفضاء ثقافي لا نهائي التأويلات "فما بين الذات القارئة التي تقوم بالتجسيد (بمفهوم جماليات التلقي)، أي تحيين مجمل معطيات الموسوعة الثقافية وفق حاجات يفترضها النص لكي يسلم مفاتيح قراءته، وبين المعرفة التي قد نحصل عليها من خلال فعل التأويل، يتسرب الانتقاء السياقي كحد فاصل بين التأويل الذي لا تحكمه ضفاف ولا حدود، وبين مفهوم "المسار التأويلي"*2*.

فإن كان النص هو ما فرض التأويل، لكن هذا التأويل لم يعد يكترث بالانضواء داخل حدود النص، بل يتجاوزه إلى كل ما يمكن ان يؤول من مظاهر الحياة الثقافية وعلاماتها من صورة ولون وحرب وسلم ووجوه واصوات... وهذا يعود لأسباب تتعلق بحدوث الاختلافات في وجهات النظر حيث تؤول النصوص والعلامات الحياتية تبعاً

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص65- 66.

2- المرجع نفسه، ص 66-67.

للنسق والسياق لكل مؤول ومؤول، وهو ما أدى إلى ظهور مفهوم الاختلاف الثقافي في تحليل العلامات، الذي يتمثل في "الأساس المشترك والمنطقة الضائعة في الجدالات النقدية المعاصرة، فهي تدرك جميعاً أن مشكلة التفاعل الثقافي لا تظهر إلا عند الحدود الدالة للثقافات، حيث تساء قراءة المعاني والقيم وتستعمل الدواليل لغير الغرض المخصصة له."

إن هذه الإشكاليات الرئيسية هي ما جعل النقد الثقافي ضرورة قادمة، ولا بد منها في هذا الحراك العالمي، والتوجه نحو قراءات متعددة لمعظم ظواهر الحياة، والانتباه إلى مفهوم الأخر، وقراءات النسق، وقد رصد النقد الثقافي في أحد وجوهه التحول بصورة الآخر، إذ تبين أن قارئ (ألف ليلة وليلة) مثلاً، وإن كان مرتبطاً في أثناء قراءاته بالنسق الثقافي المشكل لليالي الكتاب، يمكنه أن يأخذ ظاهرة النظرة الدونية للمرأة كما يراها بعض الباحثين على أنها علامة يدرسها ويعيد النظر بها، من خلال تأويلها في دلالات غير محدودة تنتمي لزمن ومكان ونسق ثقافي مغاير لكل الظروف التي كتب بها النص أساساً، ومن تلك الزاوية النقدية الجديدة سعى بعض النقاد لإمساك بهذه العلامة (النظرة الدونية للمرأة) على انها مرموز نسقي ثقافي واجتماعي وديني مغاير للتلقي الحديث أو القديم في بعض جوانبه[1] حيث رصدت العلامة هنا لتبدو فيها: "النصيحة شاملة مانعة ! مستقاة من النسق الثقافي العربي الذي يرى كل ما يصدر عن المرأة من كلام أو رأي أو مشورة هو جهل يضيع الرجل !"

إن هذا المرموز لا يتعلق بالنسق الثقافي بمعنى المرجع، فالثقافة الإسلامية وإن ورد فيها بعض ما يشير إلى ذلك "المرأة شر كلها، وشر ما فيها أنها لا بد منها لكن هذا السياق يتعارض مع هذه الرؤية (الدونية)، وهي علامة مجسدة بسياق أحادي قدم في النص، وأنيط بحالة تلق محدودة، ولعل الأخذ بهذه المقولة والاقتداء بها في قراءة النص

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية ، ص 67.

أو السياق وإهمال سواها يبعد النص عن الدقة، في حين نجد سياقاً مغايراً في نص آخر لـ **الإمام علي** قاله في زوجته (ولقد كنت أنظر إلى وجهها فتنجلي عني الغموم والأحزان، فو لله ما أغضبتها ولا أكربتها على أمر حتى قبضها الله عز وجل..) لهذا يرسخ في الذهن أن الموروث الإسلامي بما فيه ألف ليلة وليلة يحتقر المرأة، وينظر إليها نظرة دونية !"

فالنص هنا ليس هو المسؤول وحده عن هذا التأويل وتأييده بل كذلك القارئ وسننه الثقافي والمرجعي الخاص به، وهو ما دعي باستجابة القارئ وتعدد القراءات

إن ارتباط النقد بكل مجالات الحياة ومظاهرها التي تبدو امام المتلقي بصفتها علامات تدرس، وتتقاطع مع التأويل، ومحددات النسق والسنن، وتدرس تفكيكياً وثقافياً... يجعل من السيمياء بكل مكوناتها الفلسفية، والنقد الثقافي بكل مآلاته وإحالاته، وتعدد مشاربه هما الأكثر التصاقاً ببعضهما بصفتهما حقلين متكاملين، وهو ما سيؤول إليه النقد السيميائي من موالج ستنقله نقلا مختلفا، نحو دراسة العلامات في السيمياء الثقافية، وإن كانت هذه الخصوصية في العلاقة بينهما لا تنفي وجود علائق متينة مع علوم ومعارف أخرى.*1*

وكانت السيميائية مدخلاً إلى النقد الثقافي، لكنها بقيت في إطار القراءة الجوهرانية للمعنى، فالسيمياء تقر بوجود معنى قار في النص، عليها تعويمه، في حين أن النقد الثقافي يحاول تفكيك الخطاب للإمساك بالنوى النووية التي تحرك الخطاب وتؤسس للإيديولوجيا.*2*

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 67-68.

2 - المرجع نفسه، ص 68.

السيمياء وعلم الاجتماع:

السيميائيات وعلم الاجتماع:

من المعروف أن السيميائيات علم يدرس العلاقات بمختلف أنواعها داخل الحياة الاجتماعية، ومن المعروف أيضا أن العلم المختص بدراسة المجتمعات وطبيعتها، وتطورها، وكل ما يتصل بها هو ما يسمى بعلم الاجتماع، فيما ترى ما هي العلاقة الموجودة بين هذين العلمين؟

يرمي علم الاجتماع إلى تطوير الطرف الخاصة بمعرفة العالم اليومي لبعض الأفراد أو الجماعات، أي اكتشاف الأنشطة اليومية، والدوافع، والمعاني، والأفعال للأفراد داخل المجتمع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يعتبر علم الاجتماع علما توكل إليه مهمة استخدام الإجراءات والأساليب المتبعة في العلوم الطبيعية والوضعية، فهو بهذا يسعى إلى أن تكون دراساته وبحوثه أكثر علمية وانضباطية.

ويصنف العلماء والباحثون علم الاجتماع إلى قسمين: علم الاجتماع الكيفي، وعلم الاجتماع، الأول يسمى أيضا بعلم الاجتماع الإنساني، والثاني هو ما يسمى بعلم الاجتماع العلمي أو الوضعي « فعلم الاجتماع الكيفي يستخدم اللغة الطبيعية للأحداث محاولا وصف الحياة اليومية للأفراد وهذا يعني الاهتمام بالجوانب الذاتية للأفراد والجماعات، مثل المعاني والانفعالات، هذا فضلا عن البحث عن المعنى Meaning والمعنى الداخلي Immer وراء هذه الأفعال» (محمد علي البدوي: 208). من خلال هذا القول نستشف أن علم اجتماع الأدب إنما يتعلق بعلم الاجتماع الكيفي، لأن مهمته هي[1] الكشف عن المعاني والدلالات التي تتضمنها النصوص، ولهذا السبب « يميل

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 266.

العديد من علماء اجتماع الأدب أقرب بكثير من التحليلات الكيفية عنه من التحليلات الكمية نظرا لطبيعة الظاهرة موضوع الدراسة » (محمد علي البدوي: 209).

إن النظرية السوسيولوجية امتازت بتشعبها، وباتساع الفجوة بين اتجاهاتها المختلفة بسبب تراكم المعرفة الواقعية عن المجتمع من حيث الكم والكيف، وأصبح من الصعب تحديد المنهج الأنسب للوصول إلى حقيقة المجتمع وأيضا إلى تحديد إطار المفاهيم الذي يمكن استخدامه كأداة في التحليل. ونظرا لتعدد المواقف النظرية في علم الاجتماع الحديث، فقد أصبح من غير الممكن عطاء تصور متكامل للحقيقة الاجتماعية، كما أصبح التحيز الإيديولوجي أمرا يصعب تجنبه، لذلك فقد أصبح علماء الاجتماع اليوم يميلون إلى تبني نظرية شمولية متعددة الجوانب أثناء التفسير والتحليل.

ولعلمية بحث علم الاجتماع مرحلتان مهمتان، الأولى هي « المرحلة التجريبية، وتقود الباحث فيها مجموعة من الأفكار المستقاة من النظرية الاجتماعية أو من الواقع المعاش للوصول إلى مجموعة من الحقائق، وهذه الأفكار أشبه بالبوصلة للسائر في الصحراء، أو أشبه بالدفة من السفينة» (محمد سعيد فرح: 22)، ونفهم من هذه المرحلة أن الباحث فيها يكون مجرد ناقل للأحداث والوقائع، وهنا لا تتدخل ذاتيته على الإطلاق، لتأتي المرحلة الثانية، وهي « مرحلة التفسير فيها يقارن الباحث بين هذه الحقائق الاجتماعية في ضوء النظريات السائدة، ويحاول أن يفهم مغزى هذه الحقائق» (محمد سعيد فرح: 22)، ففي هذه المرحلة الثانية يكون الباحث أكثر إعمالا لذهنه وفكره، حيث تتدخل عمليات التفسير والتحليل والاستنباط والمقارنة، كل هذا من أجل الوصول إلى نتائج أكثر علمية، وهنا[1]نستنتج أن عملية البحث الاجتماعي ليست عشوائية أبدا.

نعود إلى الحديث عن علم اجتماع الأدب، فقد أخذ هذا الأخير عن النظرية السوسيولوجية ظاهرة الالتزام بتعدد العوامل عند التفسير والتحليل – السابقة الذكر–، ونجد ذلك عند «

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 267.

لوسيان غولدمان» من خلال دراسته للأعمال الأدبية، حيث قلم بتطوير اتجاه جديد، أطلق عليه اسم البنيوية التكوينية، وهذا الاتجاه يجمع بين الشكل والمضمون أثناء الدراسة الأدبية، والبنيوية التكوينية تستند على ثلاثة محاور رئيسية: الأول هو بناء العمل الأدبي، والثاني: مبدع هذا العمل، والثالث: الفترة التاريخية التي كتب فيها العمل، و « غولدمان» باتجاهه هذا يجمع بين جوهر الاتجاه الماركسي وجوهر الاتجاه البنائي في علم الاجتماع (محمد علي البدوي: 180)، ف « غولدمان» من أكثر الذين اهتموا بالطابع الاجتماعي للإبداع، وبالتالي اعتمد على التفسير الاجتماعي في تحليل النصوص. فقضية المنهج في سوسيولوجيا الأدب لا تعد مشكلة بالنسبة للمشتغلين بمناهج البحث، حيث أنهم لم يختلفوا حول هذه القضية، فاستخدموا كل من المنهج التاريخي، والمنهج المقارن، والمنهج التحليلي... كل والمنهج الذي رآه ملائما.

لقد تطور البحث في مجال التنظير الأدبي، وساهم – كما يرى « الطاهر روابنية» – في إعادة النظر في مفهوم الأدب خاصة فيما يتعلق بالمقاربات السيميائية، فضلا عما عرفته المناهج السوسيولوجية من توسع شمل سوسيولوجيا الثقافة والمعرفة والتقلي...الخ. والدارس الاجتماعي أثناء تحليله للإنتاج والتلقي الأدبي، عليه– كما يرى « بيير زيما» – يجب أن يتخذ طريقتين متباينين في ذلك: الأول قصر الاهتمام على العناصر الخارجة عن النص الأدبي فقط، والثاني النظر إلى البنية النصية على أنها تتوسط البنى الاجتماعية، عند تبنيه لمنظور متميز، حيث[1] تنفتح عليها وتدمجها في نسقها الخاص (الطاهر روابنية: 8–9)، وبالتالي فالإشكالية في الاتجاه الأول لا تتعلق بسوسيولوجيا الأدب كمنهج، لأن دراسته موقف المؤلف في مجتمع ما مثلا، يتم بطرق متعددة، أما عندما يتعلق الأمر بتطور النص الأدبي التخييلي كبنية اجتماعية « فإنه على السوسيولوجي، أن يخرج عن المخطط المنهجي الخاص بالمجال السوسيولوجي وأن

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 268.

يكيف خطابه العلمي مع تلك الممارسة الدالة، وذات الخصوصية المتمثلة في الإنتاج النصاني » (الطاهر روابنية: 9)، ويبدو من خلال هذا القول أن البحث في هذا المجال صعب جدا، ذلك للمفارقة الكبيرة بين ما هو واقعي اجتماعي، وبين ما هو خيالي أدبي ومن هذا المنطلق – يرى « بيير زيما» – « تطرح إشكالية العلاقة بين السوسيولوجيا والسيميائية، حيث تتموقع ضمن هذا التوجه سوسيولوجيا الأدب منهجيا على تخوم سوسيولوجيا جدلية، ومادية ذات صلة ما بالنظرية النقدية، وعلى تخوم سيميائية نقدية، وهو ما يحاول تطوير أعضاء مدرسة « تارتو» école de tratu بإستونيا، والسيميائيون الفرنسيون والإيطاليون من أمثال « غريماس» و « كريستيفا» و « أمبرطو إيكو» (الطاهر روابنية: 9)

إن الاهتمام بالعنصر الاجتماعي ودوره في السيميائيات، في الحقيقة قد بدأ مع أول من تنبأ بهذا العلم « فردينان دوسوسير» نقد عرف علمه المستقبلي بقوله إنه « علم يدرس حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية، وقد يكون قسما من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي قسما من علم النفس العام، ونقترح تسميته Sémiologie» (فرديناند وسوسير: 37)، وقد كان « دوسوسير» محقا في رأييه هذا، لأن العلامات والدلائل إنما تسبح كاسبة مصداقيتها وسط المجتمع، وقد كانت نتائج علم الاجتماع في عصر « دوسوسير» على يدي « دور كايم» قد تطورت كثيرا، وأصبحت كل العلوم الإنسانية تهتم بما[1] توصلت إليه، حتى إذا العنصر الاجتماعي ذا فعالية كبيرة في كل المجالات.

لقد اهتم السيميائيون بالدراسات الاجتماعية انطلاقا من اتقادهم لمشروع « غولدمان»، حيث أن بنيويته التوليدية « تتضمن رؤية جدلية تنزع إلى تجاوز بعض حدود البنيوية، بالإضافة إلى أن إعجاب « بارث» به تحول في النهاية إلى اتهامه بتبني حتمية متنكرة (الطاهر روابنية: 7)، إن « غولدمان» لم يكن متبعا طريقا واحدا في أفكاره، بل إنه

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 269.

حاول أن يأخذ من الاتجاه الماركسي ما يناسبه، ومن الاتجاه البنيوي ما يراه مقيدا أيضا، ولهذا رفضه وانتقده الجميع إلا أن الجميع أقر له بأنه قدم تصورا منهجيا ذا حمولة إيديولوجية يستند إلى رؤية العالم كنموذج تفسيري أكثر تحديدا يرى « الطاعهر روايئية » أن « غولدمان» قد قدم انسجاما وصرامة منهجية متميزة لا نجد ما يعادلها في مقاربات النصوص الأدبية في السنوات الأخيرة التي اصطلح على تسميتها بما يعد البنيوية، على الرغم من أن هذه المقاربات جاءت لتكمل ما وقفت البنيوية التوليدية دونه، وهو المظهر الشكلي، أو البلاغي، أو الكتابي للنصوص الأدبية بخاصة مع « بارث» الذي كان معينا بدرجة أكثر بالبحث عن معنى الأشكال « حيث يرى أن الأشكال لا تخضع إلا بصورة غير مباشرة للتأثير الاجتماعي» (الطاهر روايئية:8)، ونجد رأي « رولان بارث» هذا مجسدا بصورة جلية في كتابه « الدرجة الصفر للكتابة»، ففيه نراه مهتما كثيرا بتأثير التطور التاريخي على إيقاع الكتابة الأدبية، يقول: « لغة الكاتب معلقة بين أشكال مندثرة، وأخرى مجهولة هي حد أقصى أكثر مما هو اعتماد دائم» (رولان بارث: 33) وقد حاول « بير زيما» أن يؤلف « بين المنظور السوسيو نقدي، وبين منظور السيميائيات الخطابية، وضمن هذا التأليف المفاهيمي والمنهجي يدرس « زيما» تطور الرواية كسيرورة اجتماعية[1] تاريخية ولسانية» (الطاهر روايئية: 15)، وتستمر محاولة التأليف بين سوسيولوجيا الأدب والسيميائيات، وخاصة عند تحليل الروايات مع نقاد آخرين كـ « ميخائيل باختين » الذي بحث في الأصول الاجتماعية، والتاريخية للرواية، وانطلق من عنصرين:

1. خلفية عبر لسانية Translinguistique، وتداولية، لا ترفض الألسنية، وترتكز على تصور فلسفي غيري، يتبنى معطيات التحليل التاريخي للمجتمع.

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 270.

2. خلفية نقدية سيميائية تسائل النص الروائي من منظور تشريح العلائق الداخلية والخارجية، وفي أفق تحليل سوسيولوجي لأشكال التعبير الإيديولوجي» (محمد ساري: 52)، وقد كان هم « باختين» من خلال أبحاثه هذه هو إقامة علاقة بين العالم الروائي والكرنفال الذي ظهر وسط الثقافة الشعبية للقرون الوسطى، فاستعان بأبحاث اللسانيات والسيميائيات.

إن البحث عن الأعمال النقدية التي مزجت بين التحليل السيميائي والتحليل الاجتماعي للأدب لا يتوقف ذلك أن الكثير من النقاد في هذا العصر تفطنوا إلى أن العمل الأدبي لا يمكن أن يبقى عنصرا حياديا بعيدا عن تطور المجتمع وتقدمه، ولعل هذا ما يفسر إنتاج نظريات ما بعد الحداثة الغريبة على كل التيارات.

تبقى السيميائيات إذن خير منهج في تحليل النصوص ومقاربتها، ذلك أنها لا تقول كلمتها الأخيرة، ولا تمل من احتضان العلوم الأخرى بين جنباتها، وقد رأينا كيف استقبلت أبحاث علم الاجتماع بكل بساطة دون أن ينقص ذلك من شأنها[1] .

السيمياء وعلم النفس:

السيميائيات وعلم النفس:

تتقاطع السيميائيات الحديثة مع علوم ومعارف متعددة ومتنوعة، إنها ركام ثقافي اقتات من موائد العلوم السابقة، كالفلسفة، وعلم الاجتماع، واللسانيات، وعلم النفس، هذا الأخير الذي استفادت منه السيميائيات في الكثير من الجوانب.

إن الجذور الأولى لعلم النفس تعود إلى ما قبل الميلاد حيث كان يعتبر فرعا من الفلسفة يهتم بدراسة الروح إلى أن جاء « أفلاطون » وقال بأن أفكار الإنسان تؤثر في سلوكه، وأنها منفصلة عن الجسم، ومع « أرسطو » عرف علم النفس تطورا علميا حين رأى

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 271.

أن الحالات النفسية ما هي إلا نتيجة لحالات جسمية، كما أنه صاغ قوانين في تداعي المعاني سادت علم النفس أكثر من عشرة قرون، لذا اعتبر– حسب رأي « عبد الرحمن الوافي» – « المؤسس الأول لعلم النفس» (عبد الرحمن الوافي: 8)، وقد انتقلت أفكار وتعاليم « أرسطو» إلى فلاسفة العرب ومفكري العصور الوسطى من الأوروبيين، وقد انقسموا إلى قسمين: « اختص الأول وهم رجال الدين بدراسة الظواهر الروحانية، واختص الثاني وهم الفلاسفة وعلماء النفس بدراسة الظواهر العقلية» (عبد الرحمن الوافي:8)، ونفهم من هذا القول أن علم النفس قد أصبح أكثر علمية لأنه انفصل عن علم الإلهيات الذي كان سائدا من قبل.

ومع مجيء الفيلسوف الفرنسي « ديكارت » طرحت قضية العلاقة بين العقل والجسم، وقال بأنهما شيئان متمايزان كل التمايز، أما « الصلة بينهما[1] فهي تفاعل ميكانيكي يحدث في الغدة الصنوبرية في المخ» (عبد الرحمن الوافي: 9)، وبحديث « ديكارت » عن العقل وتميز الإنسان به، أخذ الباحثون يهتمون بظاهرة الشعور، فيدرسون جميع الخبرات والحالات الشعورية كالتفكير، والتذكر، والانفعال، ومنهجهم في ذلك هو التأمل الباطن.

بالموازاة مع أفكار « ديكارت » كان أصحاب الترابطية في إنجلترا ينشرون أفكارهم حول الدراسات النفسية والتي من أهمها: أن الكائن البشري يولد صفحة بيضاء ثم يكتسب خبرات متنوعة من الحياة العامة عن طريق الإحساسات ومهمة علم النفس حسب هذه المدرسة هي « تحليل المركبات العقلية والشعورية إلى عناصرها من إحساسات وصور ذهنية، ثم تفسير تجمعها وانتظامها في وحدات مركبة، كل ذلك عن طريق التأمل الباطن » (عبد الرحمن الوافي: 11)، وكل هذه الأفكار كانت سائدة في هذا العصر وقبله هي أفكار فلسفية تأملية، حتى جاء « داروين » (1809 – 1882) بنظريته التطورية التي

[1] - فيصل الأحمر، نفس المرجع، ص 273.

أكدت أثر الوراثة والبيئة في تطور الكائنات الحية، وقضت على الأفكار التي تقول بانفصال الإنسان عن الحيوان. كما اهتمت النظرية التطورية بدراسة مراحل النمو النفسي للفرد إلى جانب اهتمامها بدراسة الفروق الفردية بين السلالات المختلفة، وبالتالي تراجع الاهتمام بدراسة الشعور، وبالمقابل زاد الاهتمام بدراسة السلوك.

وفي عام 1879 أسس أول مخبر لعلم النفس التجريبي بألمانيا من طرف « فونت » الذي وضع أجهزة وأدوات خاصة لإجراء تجارب على الحواس المختلفة كالسمع والبصر ...الخ، وأخرى على كيفية التذكر، والتعلم، والتفكير ... وكانت الأفكار بمثابة بوادر لظهور المدرسة السلوكية التي رفضت الاستبطان رفضا صريحا، واهتمت بدراسة السلوك دراسة موضوعية، وبالتالي ابتعدت عن دراسة الشعور.[1]

بعد ذلك أتى النمساوي « سيغموند فرويد » ليحدث ضجة في علم النفس بمقولة الحياة النفسية اللاشعورية، وبالتالي اتسع مدلول الحياة النفسية وأصبح يتكون من الشعور واللاشعور بعد أن ظل قرونا طويلة مقتصرا على الخبرات الشعورية.

ثم ظهرت مدارس جديدة على يد « فروم » و « فردينر» و « هورناي » التي أكدت على أثر العوامل الحضارية في حياة الفرد، لتأتي مدرسة تحليل العوامل لمؤسسها « سبيرمان » التي « تعتمد في بحوثها على تطبيق الاختبارات السيكولوجية المختلفة، ومعالجة النتائج بطرائق إحصائية تصل أحيانا إلى درجة كبيرة من الصعوبة والتعقد» (عبد الرحمن الوافي: 27).

كانت هذه أهم مدارس علم النفس التي كان لها الدور الحاسم في بلورة أهم مفاهيم هذا العلم.

وإذا أردنا تعريف علم النفس التي كان لها الدور الحاسم في بلورة أهم مفاهيم هذا العلم.

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 274.

وإذا أردنا تعريف علم النفس، فيمكننا القول أنه « العلم الذي يدرس الحياة النفسية وما تتضمنه من أفكار ومشاعر وإحساسات، وميول، ورغبات، وذكريات، وانفعالات » (عبد الرحمن الوافي: 31)، وعلم النفس لديه الكثير من الميادين لذلك نعثر على علم النفس تجريبي، وحيواني، وطفلي، واجتماعي، ومرضي، وصناعي...الخ، إنه كما يقول « كلاريه » «لا يوجد عدة علوم فيزيائية، ولا عدة علوم كيمياء، كذلك فإنه لا يوجد أو أنه يجدر ألا يكون هناك سوى علم نفس واحد » (علي زعيور: 359)، ولهذا السبب اختلفت المدارس حول تعريفه.

إن موضوع علم النفس هو أحداث الحياة الداخلية، ثم ينتقل كرد فعل على ذلك الاتجاه الذاتي ليدرس المعطيات الخارجية التي تتطابق مع تلك الأحداث، فهو إذن يدرس الكائن الواعي داخل موقف، ويعني ذلك أن علم النفس يدرس الكائن من حيث كونه يفكر ويشعر، فيدرس[1]السلوك العضوي دون فصل عن معطيات الوعي، ولأن الإنسان كائن اجتماعي فإن علم النفس يدرس الإنسان العياني الموجود في موقف، والقائم في عالم مادي هو محيطه وفي وسط اجتماعي، إنه يدرس ذلك الكائن التاريخي الذي تكونه تجاربه الماضية، والذي يتطور وينمو ويؤثر ويتأثر في وسطه (علي زيعور: 368-369).

ونظرا لأهمية علم النفس المتجلية في كونه يدرس نفسية الإنسان التي تمارس سلطتها المباشرة على سلوكاته المختلفة، فإن الكثير من العلوم الإنسانية التي استفادة من مباحثه، نذكر منها علوم الأدب والنقد، ولعل أهم من نظر إلى العلاقة بين علم النفس والأدب « فرويد » الذي أتت تعد مدارس أدبية متأثرة بما ذكره عن اللاوعي والشعور الباطني كالسريالية التي عينت بالتعبير عن الأفكار والرؤى، كذلك ظهر ما يعرف بفن السيرة، وأصبح الاهتمام بدراسة حياة الأديب يفوق الاهتمام بدراسة آثاره، لكن هذا لا يعني أن

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 275

جل الباحثين ساروا على نهج « فرويد » بل هناك من حدد علم النفس الأدبي على قاعدة المغايرة كالألماني « كارل يونغ» الذي ربط علم النفس بالمجتمع. هذا ونجد من أتباع النقد النفسي في العصر الحديث « نور ثرب فراي» و « رتشاردز »، ومن بعدهما « مورون» الفرنسي الذي استخدم المنهج النفسي لتفسير الرموز الغامضة والمبهمة في قصائد « ملارميه ». قد تعاقب على التحليل النفسي نقاد آخرون منهم « كلانسيه » التي اهتمت بالشخصية اللاواعية وتحليل الترميز الشعري، و « آيف كوهان » و « سيرجي دوبر فنسكي » اللذان ابتدعا مصطلح القراءة النفسية، و « مارسيل ماريني » الذي عني بالنشاط التوصيلي وما ينشأ عنه من البحث في التناقضات التي تنشأ عن الأداء الإبداعي » (إبراهيم خليل: 48)، أما بعض البنيويين فقد حاولوا التوفيق بين التحليل النفسي والنقد البنيوي فظهرت مصطلحات كثيرة لها علاقة بعلم النفس مثل: لا وعي النص عوضا عن لا وعي الكاتب، وأسطورة النص عوضا[1] عن أسطورة الكاتب « وذلك للتوفيق بين القراءة النفسية ومقولة « بارث » موت المؤلف، وهذه القراءة تعتمد إقصاء الذات والاهتمام باللاوعي المكتوب» (إبراهيم خليل: 49)، ولعل أهم من حاول التوفيق بين القراءة النفسية وموت المؤلف البنيوي الفرنسي « جاك لاكان » الذي أصبح بواسطة أفكاره « يعتد بالأبنية اللغوية كأساس للتحليل والتفسير » (صلاح فضل: 48). إن أهمية البحوث التي توصل إليها « لاكان » من خلال نظريته في التحليل النفسي تكمن في كونها تعتمد على اكتشافات الأنثروبولوجيا واللسانيات البنيوية، ولأن أهم اعتقاداته « أن اللاشعور بنية خفية أو كامنة تشبه بنية اللغة فمعرفة العالم والآخرين والذات تتوقف على اللغة، وهي شروط مسبق لعملية وعينا لأنفسنا كهويات مستقلة، ثم إن أساس الذاتية يرتكز على جدلية أنا / أنت التي تحدد الذوات في تقابل تبادلي » (مدان ساروب 15)، ونفهم من هذا أن « لاكان » أعاد أفكار « فرويد » في إطار آخر هو إطار اللغة، أما السبب الذي جعله ينحى هذا المنحى هو ما أتاحه اللسانيات

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 276.

والأنثروبولوجيا من أفكار، فاللغة كما يراها «دوسوسير » هي الحاملة لأفكار وهموم الإنسان لذلك لابد من دراستها دراسة وصفية من كل الجوانب، ولئن كان « دوسوسير » قد اهتم بجانبها الشكلي فإن « لاكان » اهتم بها من جانبها النفسي.

لقد أصبح من المعترف به حديثا « خاصة في البحوث السيمولوجية أن عمليات الترميز الأدبية ذات صلة حميمية بترميز الأحلام، وأن فك شفرات الأدب عن طريق بلاغة الخطاب الحديثة ونظريات التأويل الهرمينيطيقية تفيد من الكشوف التجريبية لتقنيات التحليل النفسي » (صلاح فضل: 48)، وهذا كله كان متمثلا مع مدرسة» « لاكان »، هذا الأخير الذي حول مقولة « اللاوعي » لصاحبها « فرويد » إلى مجرد فكرة عامة، وليس كلاما يخضع لخيار الفرد، و « بما أن الوعي لا يوجد خارج الإنسان، فإن الذي يخشى من تعميم هذه الفكرة هو تحول اللاوعي إلى[1] لا وعي القارئ عوضا عن لاوعي الكاتب» (إبراهيم خليل: 49)، وهذا الرأي من الأسباب التي أدت إلى ازدهار نظرية القراءة، فقد أعلن « دوسوسير » منذ البداية أن السيمولوجيا ما هي إلا جزء من علم عام هو علم النفس الاجتماعي.

وإن كان هناك من عاب على « دي سوسير» هذه الفكرة، فإن الكثير ممن جاءوا بعده ورسموا إنجيل النظرية السيميائية قد حاولوا الاهتمام بما يقدمه التحليل النفسي من نتائج، ولعل أهمهم البلغارية «جوليا كريستيفا »، فبعدما أصدرت كتاب « من أجل نورة للغة الشعرية » توجهت نحو التحليل النفسي، وتجلى ذلك في أعمالها « الشمس السوداء »، و « حكايات غرام »، و « قوى الرعب »، واهتمت هذه الكتب جميعا بالربط بين التحليل السيميائي، أي الإشاري أو العلاماتي، والتحليل النفسي (إبراهيم خليل: 49)، فهي إنما تحاول المزج بين هذين العلمين لتصل إلى تحليل متكامل، وقد انطلقت في ذلك من مقولة « ديسوسير » « يعود أمر تحديد الموقع الدقيق للسيمولوجيا إلى علم النفس » (

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 277

جوليا كريستيفا: 16)، من هذه الفكرة طرحت « كريستيفا » المشكل المتعلق بمكانة التحليل السيميائي في نسق العلوم المختلفة، وقالت بأنه « من البديهي اليوم أن عالم النفس بل والمحلل النفسي سيجدان لوحدهما صعوبة في تحديد مكانة التحليل الدلالي » (جوليا كريستيفا: 16)، إنها قد تكون طرحت هذه المشكلة من باب أن التحليل السيميائي قريب جدا من التحليل النفسي، وبالتالي فإن المحلل النفساني سيختار أين يضع السيميائيات بتحليلاتها القريبة جدا من تحليلاته. إن السيميائي أو الإشاري يتقاطع مع ما هو رمزي لهذا ترى « كريستيفا » أنه « قد تكون هناك نظرية عامة للاشتغال الرمزي يكون للسميائيات دور كبير في تأسيسها » (جوليا كريستيفا: 16)، ولم لا؟ فالسيميائيات لا يمكن أن تبقى على الحياد، وهي الجامعة في طياتها[1] فتات كثير من العلوم. تحاول « جوليا كريستيفا» من خلال التعارض الموجود بين السيميائي والرمزي « قراءة النصوص الأدبية باعتبارها مواجهة جدلية بين هذين النظامين غير المتجانسين » (إبراهيم خليل: 41)، أما التعارض الموجود بين هذين النظامين فيعود إلى أن السيميائي من حيث كونه مشارك في تكوين النص « مرتبط بممارسات الكاتب اللغوية التي تنتمي إلى الطفولة الأولى، ويشار إلى هذا الجانب باعتبار أنه أمومي أنثوي في حين أن الرمز يتعلق باللغة من حيث هي قانون يحتوي على فروع النحو، والصرف والدلالة المعجمية، وشكل الخطاب» (إبراهيم خليل: 49)، ونستنتج أن هذا النظام الثاني إنما هو نظام ذكوري، وهما مجالان متناقضان ومتجانسان أيضا.

هذا، ونجد « كريستيفا » في تحليلاتها إنما تعطي الأهمية للنشاط الإشاري، وعي بهذا « تعيد للشعر قدرته (النزوية) من النزوة، سواء من حيث مل فيه من موسيقى وللمعنى، وعمل للدوال غير طبيعي » (إبراهيم خليل: 49-50)، إن هذه الأفكار التي تسيطر على نظرة « كريستيفا » في النقد الأدبي تتجلى واضحة من خلال أعمالها التطبيقية،

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 278.

حيث أننا نلاحظ أنها تجعل الذات القريبة من اللغة الإشارية غالبا ما تمثل الأنوثة، في حين التي تقترب من لغة الرموز تمثل الذكورة، ولأنها ترفض مبدأ تأصيل الأدب انطلاقا من الجنس الذي ينسب إليه الكاتب (ذكر أن أنثى) فإنها تنتمي إلى حقيقة كون دراسة الأدب وفقا لمسألة الثنائية الجنسية نظرة فرويدية متعذرة في التطبيق.

إن النظرة التقاربية بين التحليل النفسي والتحليل السيميائي قد ولدت لنا مصطلحات نقدية كثيرة تغتد بها الدراسات السيميائية كمصطلح التحليل النفسي الفيزيائي Analuse psychosomatique، وهو « مصطلح ابتكرته « جوليا كريستيفا » للدلالة على دمج جميع المعارف المعاصرة في شكل الربط بين المجال السيميولوجي والمجال النفسي التحليلي[1]، وبين دراسة النص الأدبي بواسطة مفاهيم هذه المعارف وأساليبها» (سمير حجازي: 16)، كما أن التقارب بين هذين العلمين وعلم النفس السيميائي، قد جعل السميائيات تستعير مصطلحات نفسية وتحورها لصالحها كمصطلح الاستبطان Intériorisation، الذي صار يعني « عملية الغور داخل الذات من أجل اكتشاف الدلالات أو المعاني الغامضة أو غير المعروفة للشخص» (سمير حجازي: 109).

لقد استفادت إذن السيميائيات من التقارب مع نظريات علم النفس المختلفة، شأنها في ذلك شأن النقد الأدبي من قبل، حيث لخصت مصطلحات نفسية عديدة، كعقدة « أوديب »، وعقدة « إلكترا »، والنرجسية... والكثير من المفاهيم الأخرى.

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 279.

السيمياء والإرث الشكلاني

السيميائيات والإرث الشكلاني:

عودتنا السيميائيات بأصولها المتجذرة في أعماق النظريات النقدية النصانية، والتي كانت من أبرزها اللسانيات والنظرية الشكلانية الروسية، وسنفسح المجال لهذه الأخيرة التي كانت تمهيدا فعليا لأهم المبادئ التي تبناها السيميائيون فيما بعد.

لقد تأسست جماعة الشكلانيين الروس من مجموعة فتية كانوا طلبة في مقاعد الدراسات العليا، فألفوا معا حلقة أسموها « حلقة موسكو اللغوية» وذلك عام 1915، ترأسها « رومان جاكبسون» وبعد عام انشق فريق آخر ليؤسس ما عرف بـ « الأوبوياز » Opoyaz، ومعناها « جمعية دراسة اللغة الشعرية » التي ضمت مجموعتين: الأولى اهتمت بالدراسات اللغوية، والثانية بالبحث في نظرية الأدب، أما لقب « الشكلانيين » فقد أطلقه عليهم خصومهم الذين نظروا إلى العمل الأدبي في ضوء الإيديولوجيا الماركسية، للتقليل من شأنهم لا غير، وهذا ما رفضوه في البداية، لأنهم فضلوا تسمية « التمييزيين » لكن التسمية الأولى شاعت عنهم، فقبلوها على مضض كنوع من المواجهة والتحدي.

ويلحص لنا « جميل حمداوي » أهم مميزات النظرية الشكلانية الروسية في:

1. الاهتمام بخصوصيات الأدب، والأنواع الأدبية، أي لبحث عن الأدبية.
2. شكلنة المضمون.[1]
3. استقلالية الأدب عن الإفرازات والحيثيات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والتاريخية.
4. التركيز على التحليل المحاييث، قصد استكشاف خصائص العمل الأدبي.

[1] -فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 281.

5. التوفيق بين آراء بورس و سوسير حول العلامة (أعمال ليكومستيف)
6. استعمال مطلع السيميوطيقا بدل السيميولوجيا
7. الاهتمام على الاختلاف والانزياح بين الشعر والنثر (شكلنة الاختلاف)
8. الإيمان باستهلاك الأنظمة وتحددها وتطورها باستمرار تلقاء ذاتها

لم تقتصر في أبحاثها على الأعمال القيمة والمشهورة في مجال الأدب، بل توجهت إلى الأجناس الأدبية مهما كانت قيمتها الدنيا، كأدب المذكرات والمراسلات، قصد مساهمتها في إثراء الأعمال العظيمة مثلما فعل " باختين" (Bachtine في شعرية "دويستفسكي " (جميل حمداوي: 94 – 95)

بالإضافة إلى هذه المبادئ التي ذكرها " جميل حمداوي" نذكر تصديهم بقوة إلى مسألة الفصل بين الشكل والمضمون، بل إنهم غيروا هذين المصطلحين بمصطلحي " المادة" و " الأداة "، " ولكن كثيرا من محاولات التصالح بين الشكل والمضمون كانت تجد عددا من المشكلات المنهجية المتعلقة بالمفاهيم والتصورات ، خاصة عندما يعتبر ناقدا مثل" شلوفسكي " المحتوى الإيديولوجي مظهرا من مظاهر الشكل " (محمود العشري: 33 – 34) وهي نفس رؤيتهم للعمل الأدبي مهما كان نوعه، إذ يتجلى لهم بمستواه السطحي[1]، وبمظهره الشكلي، فينتقدونه ويحللونه على هذا الأساس مشكلتين المضمون أيضا، وغير معتبرفين بأي سياق. أما إذا ذهبنا إلى أكثر مفاهيم جوهرية وقلبها لنظريتهم، نجدنا أمام "القيمة المهيمنة " التي جاء بها " جاكبسون " كقاعدة أساسية تضمن تلاحم العمل الأدبي وينظر إليها " بوصفها عنصرا يقع من العمل الأدبي موقع البؤرة، بمعنى أنه يحكم العناصر الأخرى ويحددها ويغيرها أيضا، إن هذا العنصر يهيمن على العمل في مجموعة ويضمن تلاحم بنائه، ويعمل في ذلك بشكل قسري، لا راد له (محمود العشري: 41)، هذه القيم تتركب معا على شكل هرمي، لتحكم سائر القيم الأخرى، وهذا ما يكسب العمل

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 282

الأدبي خصائصه المميزة له عن سائر الأنواع الأخرى، ليأتي مفهوم التغريب ، ل " كسر مألوفية الأشياء التي اعتدناها، فبكثرة اعتيادنا الشيء نألفه ونعتاده بصورة آلية، ومن ثم يخفت إحساسنا به"، (محمود العشري: 35)

كانت هذه مقدمة لأهم مبادئ الشكلانيين الروس، والتي اعتمدناها لولوج عالم السيميائيات، والكشف بمرآة التاريخ عن أصولها الشكلانية التي تغلغلت داخلها" والحق أن نتائج الأبحاث التي تمت في هذا الإطار الشكلاني (....) تعتبر عطاء شديد الأهمية في مجال فهم بنية النص الأدبي، وإدراك طبيعة تركيبه الداخلي" (حميد لحمداني: 12)، مما يؤكد سعة مجال الشكلانيين، إذ أخذت عنها مدارس لاحقة خاصة البنيوية واللسانيات.

لقد كانت أفكار " بروب " أكثر استلهاما من طرف السيميائيين، وذلك من خلال تحليله للحكايات الروسية العجيبة، في كتابه " مورفولوجيا الحكاية ". وخلاصة أفكاره أن " كل تصنيف قائم على المواضيع تصنيف فاسد، لأن الحكاية لا تنفرد بموضوعات خاصة بها، لا تتقاطع ولا تتداخل مع أشكال أدبية أخرى، وهو ما يصدق[1] أيضا على التصنيف القائم على الموتيفات، فالقول بأن هناك حكايات للجن وحكايات للحيوانات يفترض أن كل حكاية لا تعالج إلا موتيفا واحدة ووحيدا، وليست سوى تحقق خاص له"، (سعيد بنكراد: 10)، أما فرضياته فتتمثل في وظائفه، إذ اعتبر وظائف الشخصيات عناصر ثابتة، كما أنها هي الخالقة للشخصيات وليس العكس، أما عدد الوظائف فمحدود حوالي واحد وثلاثين وظيفة، كما أن للأحداث وتتابعها قوانين خاصة، بحيث تتشابه في كل الحكايات، إذ أن بنيتها ذات نوع واحد " فالشكل يعين قصة وحيدة، أما البنية فهي نسق تأليفي أكثر استقلالية في علاقته بالشكل الثقافي الخاص بالحكايات الروسية" (سعيد بنكراد: 12)، وهذا التشابه بين الوظائف يؤدي إلى تقليصها في مجموعات صغيرة ودوائر

[1]- فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 283

أسماها " دائرة الفعل " عددها سبعة، كل دائرة تحدد فعلا معينا تقوم به شخصية معينة. فهو " يعرف الحكاية العجيبة بأنها متتالية من الوظائف تبدأ بالإساءة أو الشعور بالنقص (Manque)، تنتهي بالزجاج أو بأي وظيفة تمكن من حل العقدة " (حميد لحمداني: 26)، لكن هذا التحليل الذي اعتمده لقي تناقضا مع مبادئه الأولى، إذ حاول" أن ينتقل إلى ميدان تأويلي بعيد عن الدراسة الموروفولوجية ، وذلك عندما تساءل عن الأسباب التي جعلت الحكايات الخرافية تخضع سلسلة وظيفية واحدة في تركيبها" (حميد لحمداني: 28)، لكن هذا التحليل الذي اعتمده قد لقي تناقضا مع مبادئه الأولى، إذ حاول أن ينتقل إلى ميدان تأويلي بعيدا عن الدراسة الموروفولوجية، وذلك عندما تساءل عن الأسباب التي جعلت الحكايات الخرافية تخضع لسلسلة وظيفية واحدة في تركيبها" (حميد لحمداني: 28)، ولأنه في لحظة ما، وعندما يتم تحليل البناء الداخلي تفرض كثير من التساؤلات التي تتعلق بدلالة هذه البناء الوظيفي العام دلالة معينة تعلو على دلالة المتتاليات الوظيفية نفسها ؟" (حميد لحمداني: 28)

لقد انتبه كثير من النقاد اللاحقين إلى قصور التحليل البروبي في مجال الحكايات، لذلك نجد " ليفي شتراوس " ينقده المدمر، يعد كل[1] أصرحة " بروب" الحكائية وينقضها، ففي حين يرى " بروب" أن الشكل والمضمون من طبيعة واحدة، خاضعان لنفس التحليل، فالمضمون يستمد واقعه من بنيته، و الشكل بنية للبنيات المحلية حيث يوجد المضمون وقد قال: "ليفي شتراوس" مقولة مهمة عن منهج الشكلانيين " قبل مجيء الشكلانيين لم نكن نعرف ، بدون شكل ، ما يجمع بين الحكايات، أما بعدهم فلم نعد نعرف أين يكمن الاختلاف بينها" (سعيد بنكراد 16)، كما لاحظ " ليفي شتراوس" أن تحليل " بروب" ببقائه عند مستوى السطح فقط ، فإنه أهمل إسقاطات استبدالية منظمة للسرد في مستوى

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 284

عميق (سعيد بنكراد 16)، أي أنه بهذا المعنى لم يصل إلى بواطن الدلالات الخفية التي تحملها كل حكاية.

هذا ولقد لاحظ "شتراوس" قصورا آخر على منهج " بروب" يتمثل في اعتباره العنصر المتحول " مجرد ديكور عرضي وزائل وغير مميز، وبالإمكان اسناده لأية شخصية، إنه على العكس من ذلك عنصر داخل ثقافة ما يسند الحكايات ويحدد العناصر الأساسية لتشكلها" (سعيد بنكراد:18)، وفعلا، فلولا العنصر المميزة في كل حكاية لصارت الحكايات كلها واحدة، ولصار من الأجدر الإكتفاء بتحليل واحد يطبق على كل الحكايات، وتقف عند كلمة (داخل ثقافة) لندرك مدى الأهمية البالغة التي يوليها السيميائيون في دراساتهم للعلامات، وكل هذه الانتقادات التي وجهها " ليفي شتراوس " ل" بروب" إنما عمل على تجنبها، وإعطاء التبديل عنها في تحليلاته، فإضافة إلى انتقاده له فيما يخص التركيز على الشكل، واعتباره العناصر المتحولة ليست ذات أهمية في التحليل، فإن " الوظائف تتابعها وعددها وتوزيعها قابلة هي الأخرى لأن يعاد فيها النظر، فاستنادا إلى تقاطع المحور التوزيعي مع المحور الاستبدالي، وإمكانية إسقاط المحور الأول على الثاني يمكن تقليص عدد الوظائف ونمط توزيعها" (سعيد بنكراد:19)[1] وحقا، فهذا ما فعله" شتراوس " فعلا ، فقد قام بتقليص عدد الوظائف عن طريق المزاوجة بين الوظائف القابلة لأن تشكل وحدة ضمن ثنائية، إذ ذكر فيها الأول نحترم ذكر الثاني، ومما لا شك فيه أن" شتراوس " لم يكن همه هو تقليص عدد الوظائف الذي" بروب" فحسب، بل إنه كان مراده أن يوضح بأن الحكايات ليست قائمة على نفس النمط، ولا لنفس البعد الكرونولوجي، بل إن" ما يشكل المستوى الأعمق هو الاستبدال " (سعيد بنكراد:20)

لقد أتى "غريماس" هو الآخر فيما بعد ليطور المنهج البروبي لكن مصلحة لا مدمرا مثل " شتراوس "، وهذا بإضافة بعض العناصر التي استفادها من اللسانيات وتطور الأبحاث

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 285

اللغوية، فبنى" نموذجه العاملي" المرتكز على أعمال " بروب" خاصة عندما يوزع هذا الأخير الوظائف على سبعة شخصيات، وإن كان لا يستعمل مصطلح" العامل "، وفي تحليل " غريماس" كما في التحليلات السابقة للحكايات– يركز على جانبين: "جانب وظيفي ، وجانب وصفي، الجانب الوظيفي يشمل الأفعال التي يقوم بها الإله، والجانب الوصفي يشمل الألقاب والأسماء المتعددة التي تحدد صفاته" (حميد لحمداني: 32)، ويبدو من هذا القول أن هناك تعارضا بين التحليل الوظيفي والتحليل الوصفي، وهذا التعارض – ولا شك – هو الذي يوجد تكاملا في التحليل.

يرى " ميشال آدم " أنه اعتمادا على أبحاث " بروب " حاول " غريماس" منذ 1966 أن يشيد علم دلالة بنائيا للحكي، لذلك فقد وضع نموذجا للتحليل يقوم على ستة عوامل تأتلف من ثلاث علاقات.(حميد لحمداني: 33)، وقد ذكر "لحمداني " هذه العلاقات القائم على تحليل " غريماس " والمتمثلة في علاقة الرغبة، وعلاقة التواصل ، وعلاقة الصراع، وشرحها بإسهاب، لا نرى في ذكره أية فائدة1 في مقامنا، لأننا نحاول أن نبرز كيف كان " بروب" المحسوب على الشكلانيين مؤثرا وموجها كبيرا لأعمال السيميائيين في تحليلاتهم للحكاية، وقد غضضنا الطرف عن تحليلات سيميائيين آخرين ك " رولان بارث " الذي كانت أهمية بحثه في الوظائف كامنة " في الطابع الشمولي الذي يتخذه البحث عنده" (حميد لحمداني: 28)، وهو المستفيد أيضا من أعمال " بروب " وأهميتها وتوجيهها لأهل الدراسات اللاحقة فيما يختص بتحليل أنماط الحكي، لتنتقل إلى باحث شكلاني آخر كانت أبحاثه كلها مركزة على جمالية الرواية وأسلوبيتها، ولأنه اهتم بالرواية البوليفونية المتعددة الأصوات فقد " أثرى النقد الروائي بكثير من المفاهيم: كقضاء العتبة ، والشخصية غير المنجزة الحوار، تعبير عن تعدد الرؤى الأيديولوجية الخ" (جميل حمداوي: 94)، والملاحظ على مصطلحات "باختين" هذه أنها مصطلحات حديثة متناولة

بكثرة في الأبحاث السيميائية، خاصة مفهوم " القضاء" التي انتشر بين السيميائيين انتشار النار في الحطب.

وفي مجال المصطلحات، وبعيدا عن " باختين " يذكر " كير إيلام " مصطلحا آخر منبثقا عن إعمال الشكلانيين هو مصطلح " التصدر " فهو شبيه جدا بمفهوم " التغريب" Ostrenanie لكنه متعلق بالعمل المسرحي، وبلمسرحي الملحمي البريختي خصوصا، وهذا المفهوم الجديد التغريب الذي نادى به " بريخت" معرفا إياه " إن إثارة هذا المفعول هو طريقة لتركيز انتباه الذات، أو انتباه الآخرين إلى شيء ما، وهذا يتم عن طريق تحويل الشيء الذي نريد تركيز الاهتمام عليه من شيء عادي مألوف، يمكن إدراكه مباشرة إلى شيء غريب لافت للنظر، وغير متوقع " (كير إيلام 249)، لا يختلف في شيء عن مفهوم " التغريب " الذي نادى به الشكلانيون.

كانت أعمال الشكلانيين نظرية وتطبيقية في آن واحد، مما[1] قاد إلى ظهور مدرسة " تارتو"

(Tartu) التي تعد من أهم المدارس السيميائية الروسية، والتي كان من أعلامها البارزين " أوسبينيسكي "، و " تودوروف "، و" يوري لوتمان"، وقد جمعت أعمال هؤلاء في كتاب " أعمال حول أنظمة العلامات... تارتو (1976)، ولعل أهم ما قامت به هذه الجماعة هو تمييزها بين " ثلاثة مصطلحات، ألا وهي: السيميوطيقيا الخاصة ، وهي دراسة لأنظمة العلامات ذات الهدف التواصلي، و السيميولوجيا المعرفية التي تعتمد بالأنظمة السيمولوجية وما يشابهها، و السيميوطيقا العامة التي تتكفل بالتنسيق بين جميع العلوم الأخرى" (جميل حمداوي) – قد اختارت السيميوطيقا ذات البعد المعرفي، واهتمت

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 286

بسيموطيقا الثقافة حتى أصبحنا نسمع عن اتجاه سيميوطيقي خاص بالثقافة له فرعان: اتجاه إيطاليين واتجاه روسي، متنقلة في أعمال هذه الجماعة.

نخلص إلى القول أن الشكلانيين الروس، بأعمالهم النظرية و التطبيقية، وبمبادئهم الخاصة، كانوا خير محرك وفاعل في الدراسات السيميائية الغربية، وقد ذكرنا أهم ما جاءت به في أبحاثهم، كما ذكرنا أهم مبادئهم، ورأينا كيف أنها متقاربة جدا مع مبادئ السيميائيين[1].

السيمياء والشعرية

السيميائيات والشعرية:

يعتبر مصطلح الشعرية من المصطلحات التي شاعت في النقد المعاصر، والشعرية Poétique مصطلح عربي قديم حديث، قديم من حيث أنه استعمل أول مرة على يد الفيلسوف اليوناني " أرسطو " في كتابه " فن الشعر" وحديث من حيث أنه أخذ دلالات متعددة عند النقاد المعاصرين.

إن الشعرية جزء لا يتجزأ من اللسانيات وهي العلم الشامل الذي يبحث في البنيات اللسانية، وقد بدأ الاهتمام بها مع " جاكسون " ونظريته اللسانية التواصلية التي اهتم بمفهوم " الرسالة "، وما يمكن أن تولده من دلالات كالوظيفة الشعرية التي تكون الرسالة فيها غاية في ذاتها.

الشعريات –كما يرى " رابح بوحوش" – أو poétics مفهوم حاول اللسانيون والنقاد العرب نقله إلى العربية فاختلفوا ولم يتفقوا على تسميته تسمية واحدة، من ذلك أن بعضهم سماه " الشعرية " وهناك من أطلق عليه مصطلح " الشاعرية " فمزقت هذه الاختلافات جوانب العلم وأضاعت الغاية المرجوة، فاختلف القراء في فهم كنهه وأعرض عنه

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 288

المبتدئون، ومصطلح" الشعريات " poétics " مفهوم لساني حديث يتكون من ثلاث وحدات poème وهي وحدة معجمية lexème " تعني في اللاتينية " الشعر" أو " القصيدة"، واللاحقة " ic " وهي وحجة مورفولوجية Morphème تدل على النسبة وتشير إلى الجانب العلمي لهذا الحقل المعرفي، واللاحقة" "sالدالة على الجمع، وانطلاقا هذا المستوى من مستويات التفكيك نجد جمعها يساوي أو يعطينا علوم الشعر Science de la poésieرابح بوحوش: 57 – 58)

مفاهيم الشعرية العربية عند النقاد العرب القدماء:

لقد نشأ مفهوم الشعرية العربية خلال فترات وأحقاب كان الشعر العربي يتشكل فيها عبر العصور المختلفة، ومن أهم الشواهد على ذلك هذه التعاريف المأثورة عن بعضاهم:

أ / **الفارابي:** يقول: " ... والتوسع في العبارة بتكثير الألفاظ بعضها ببعض وترتيبها وتحسينها، فيبتدئ حين ذلك أن تحدث الخطبة أولا ثم الشعرية قليلا" (يعد بوفلاقة).

ويعني " الفرابي" بلفظة (الشعرية) هنا السمات التي تظهرعلى النص بفعل ترتيب وتحسين معنيين، حيث تؤدي هذه السمات –في الأخير – إلى ظهور أسلوب شعري يطغى على النص.

ب/ ابن سينا: يقول: " إن السبب المولد للشعر في قوة الإنسان شيئان أحدهما الآباء، المحاكاة ، والسبب الثاني حب الناس للتأليف المتفق والألحان طبعا، ثم قد وجدت الأوزان مناسبة للألحان، فمالت إليها الأنفس وأوجدتها فمن هاتين العلتين تولدت الشعرية، وجعلت تنمو يسيرا يسيرا تابعة للطباع، وأكثر تولدها من المطبوعين الذين يرتجلون الشعر طبعا، وانبعثت الشعرية منهم بحسب غريزة كل منهم وقريحته في خاصته، وبسبب خلقه وعلاماته" (سعد بوفلاقة). يبدو من النص – كما ذهب" سعد بوفلاقة " – أن مفهوم

الشعر " ابن سينا " يعني تأليف الشعر التي يحصرها في المتعة المتأتية من المحاكاة وتناسب التأليف، والموسيقى بمعناها العام، ويجعل المتعة والتناسب المحفزين على تأليف الشعر، ولهذا فإن مفهوم الشعرية في نص " ابن سينا" [1] يتخذ منحنى نفسيا يرتبط بغريزة الإنسان التي تحقق له المحاكاة والتناسب مع تلك المتعة، وتفسيريا يعالج أسباب جنوح الغريزة إلى ممارسة الشعر.

ج /ابن رشد: نجده ينقل قول " أرسطو " : وكثيرا ما يوجد في الأقاويل التي تسمى أشعارا ما ليس فيها من معنى الشعرية إلا الوزن فقط، كأقاويل " سقراط" الموزونة وأقاويل " أنبادقليس" في الطبيعيات، بخلاف الأمر في أشعار " هوميروس"، فقد عد "ابن رشد" ما يميز الشعرية عن بعض الأقاويل الموزونة هو الأدوات التي توظف في الشعر، بحيث أن الوزن لا يمثل في نظره سوى عنصر إضافي، وأن جاء من بعض الأقاويل قائم على الوزن فقط فهو لا يعد من الشعرية في شيء لخلوه من أدوات الشعر الأخرى (يعد بوفلاقة).

د / حازم القرطاجني: " ... وكذلك ظن هذا أن الشعرية في الشعر إنما هي نظم أي لفظ كيفما اتفق نظمه وتضمينه أي غرض اتفق على أي صفة اتفق لا يعتبر عنده في ذلك قانون ولا رسم موضوع" (سعد بوفلاقة)، ويقول أيضا: " وليس ما سوى الأقاويل الشعرية في حسن الموقع من النفوس مماثلا للأقاويل التي ليست بشعرية ولا خطابية ينحو بها نحو الشعرية لا يحتاج فيها إلى ما يحتاج إليه في الأقاويل الشعرية، إذ المقصود بها سواها من الأقاويل بإثبات شيء أو إيصاله أو التعريف بماهيته وحقيقته"، ويبدو أن مفهوم "الشعرية " عند " حازم القرطاجني " يقترب إلى حد ما من نفهمها العام أو قواعد الشعر وقوانينه التي تتحكم في الإبداع الشعري، ولكن لفظة " الشعرية" لم تتبلور مصطلحا واضحا ولم تكن ذات فعالية إجرائية ولم تكرس تماما في النصوص النقدية العربية

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص

القديمة، وإن كان "حازم " أراد أن يجعل قانوني ل"الشعرية" 1 كما يتجلى ذلك في النص المقتبس الأول ل " حازم " – حيث أنكر أن تكون " الشعرية في الشعر" نظما للألفاظ والأغراض بصورة اعتباطية، فهو يبحث عن قانون ل"الشعرية" يمنح للشعر شعريته أو بالأحرى يجعل من النص اللغوي نصا شعريا، ويبدو أن " حازما" كان المرجعية الأكيدة الشعريات الحديثة.

2/ مفاهيم الشعرية العربية عند المعاصرين من النقاد:

إن بعض المعاصرين من النقاد العرب الذين تناول " الشعرية" بالدراسة والبحث لم يعرفوها تعريفا واضحا، كما لم يفرقوا بينها وبين الشعر ولكنهم أداروا – كما ذكرنا سابقا – حولها بحوثا تتلخص في البحث عن قواعد الشعر العربي وقوانينه التي تتحكم في الإبداع الشعري كما هو الحال عند " رشيد يحياوي "، " نور الدين السد "، "حسن ناظم"، " أدونيس"... الخ، أما الذين حاولت تحديد مفهوم " الشعرية" من النقاد العرب المعاصرون فإنهم لم يعطوها تحديدا واحدا، فقد كان مفهوما عندهم يختلف عما تعينه "الشعرية" في النقد الغربي، إذ ليس للشعر أو " الشعرية" مفهوم مطلق وإن هذا المفهوم عرف يكتسب دلالته من المرحلة التاريخية و الحضارية التي يعيش فيها الشاعر و الباحث.

ويذهب " أدونيس" إلى أن سر الشعرية هو أن تظل دائما كلاما ضد الكلام، لكي تقدر أن تسمى العام وأشياءه أسماء جديدة، أي تراها في ضوء جديد، والشعر هو حيث الكلمة تتجاوز نفسها مقلاة من حدود حروفها وحيث الشيء يأخذ صورة جديدة ومعنى آخر.

هـ- كمال أبو ديب: " لا يمكن أن توصف الشعرية إلا حيث يمكن أن تتكون أو تتبلور، أي في بنية كلية فالشعرية إلا حيث يمكن ان تتكون أو تتبلور، أي في بنية كلية فالشعرية إذن خصيصة علائقية، أي أنها تجسد في النص لشبكة من العلاقات التي تنمو بين

مكونات أولية سمتها الأساسية أن كلا منها يمكن أن يقع في سياق آخر دون أن يكون شعريا، لكنه في السياق الذي تنشأ فيه1 هذه العلاقات، وفي حركته المتواجشة مع مكونات أخرى لها السمة الأساسية ذاتها يتحول إلى فاعلية خلق الشعرية ومؤشر على وجودها" (سعد بوفلاقة).

والملاحظ هنا" كمال أبو ديب " تخلى عن المفهوم القديم الشعرية العربية، واقترب من مفهوم الغرب لمصطلح الشعرية.

وسنكتفي بهذا القدر من المفاهيم التي وضعها العرب القدامى والمحدثين للشعرية، لننتقل إلى النقاد الغرب – القدامى والمحدثين أيضا –ونحاول أن نعرض أهم المفاهيم التي وضعوها لمصطلح " الشعرية".

مفاهيم الشعرية عند النقاد الغربيين القدامى:

إن مصطلح " الشعرية " في الدراسات الغربية له مفاهيم متعددة، ففي التعريف السائد يدل هذا المصطلح على " مجموعة المبادئ الجمالية التي تقود الكاتب إلى عمله الأدبي" (سعد بوفلاقة).

الشعرية" عند " أرسطو" تعتبر كفن التدليل والمحاكاة، والنظرية الشعرية الحديثة اشتقت اسمها– كما ذكرنا سابقا – من عنوان كتاب " أرسطو" " فن الشعر" أو " البويطيقا " التي تعني الشعرية.

تعود كلمة " الشعرية " إلى أصل يوناني بمعنى" صنع " مما يؤكد أن ابداع الشاعر في التصور اليوناني القديم والغربي الحديث يقوم على فكرة الجهد الإنساني الثقافي أكثر مما يقوم على فكرة الإلهام على العكس مما يبدو عليه التصور العربي القديم والمعاصر.

2/ مفاهيم الشعرية الغربية عند النقاد الغربيين المعاصرين:

لقد ظهرت مفاهيم أخرى أكثر دقة تحول الشعرية إلى حقل دراسي يعهد لنفسه مهمة تكوين " نظرية داخلية للأدب " وتطوير " المقولات التي تؤدي إلى الإحاطة بالوحدة والتنوع معا في كل الأعمال الأدبية " (سعد بوفلاقة).

يقول" فاليري " : يبدو لنا أن اسم الشعرية ينطبق عليه إذا فهمناه بالعودة إلى معناه الاشتقاقي، أي اسما لكل ما له صلة بإبداع كتب أو تأليفها حيث تكون اللغة في آن واحد الجوهر والوسيلة لا بالعودة إلى المعنى الضيق الذي يعني مجموعة من القواعد أو المبادئ الجمالية ذات الصلة بالشعر" (سعد بوفلاقة). ويرى " تودوروف " أن موضوع الشعرية ليس هو العمل الأدبي وكل عمل عندئذ لا يعد إلا تجليا لبنية محددة وعامة ، وليس العمل إلا إنجازا من إنجازاتها الممكنة ولذلك فإن هذا العلم لا يعني بالأدب الحقيقي بل بالأدب الممكن، وبعبارة أخرى يعني بتلك الخصائص المجردة التي تصنع فرادة الحدث الأدبي، أي الأدبية، ويعرفها " رومان جاكبسون " تتجلى الشعرية في كون الكلمة تدرك بوصفها كلمة وليست مجرد بديل عن الشيء المسمى ولا كانبثاق للانفعال، وتتجلى فيكون الكلمات وتركيبها ودلالتها و شكلها الخارجي و الداخلي، ليست مجرد أمارات مختلفة عن الواقع بل لها وزنها وقيمتها الخاصة" (رومان جاكبسون: 34).

مجال الشعرية:

لقد ساد بين الناس أن موضوع الشعرية هو الشعر، لكون تطورات هذا المصطلح ودلالاته على الإحساس الجمالي الخاص الناتج عن القصيدة جعله يرتبط بالعاطفة أو الانفعال الشعري، ثم دل مصطلح " الشعر" على كل موضوع خارج عن الأدب، أي كل ما من شأنه إثارة الإحساس، فاستخدمت في الفنون الأخرى: شعر الموسيقى، شعر الرسم، والأشياء الموجودة في الطبيعة، وبعد ذلك توسع مجال هذه الكلمة حتى

أصبحت تحتوي اليوم شكلا خاصا من أشكال المعرفة (رابح بوحوش: 62)، ولكي تفهم الشعرية يجب أن ينطلق الدارس من صورة عامة ومبسطة عن الدراسات الأدبية وذلك بذكر بعض الاختبارات[1] المتخذة بشأن الاختيارات الأساسية ، فهناك موقفين متباينبن: الأولى يرى في النص الأدبي ذاته موضوعا كافيا للمعرفة، أما الموقف الثاني فيرى أن كل نص تجل لبنية مجردة (أعراض عن كل دراسة تتناول حياة الكاتب بما أنها ليست دراسة)، وهذان الاختياران لا تعارض بينهما، بل كل واحد منهما يقف بإزاء الآخر موقف تكامل ضروري (تودوروف: 24) وفي هذا السياق يقول " تزفيتان تودوروف" " ولنقل في البداية بعض كلمات عن الموقف الأول الذي يذهب إلى أن العمل الأدبي هو الموضوع النهائي والأوحد ولنسمه من الآن فصاعدا التأويل ويسمى أحيانا تفسيرا أو تعليقا أو شرح نص أو قراءة أو تحليلا، أو ببساطة أيضا نقدا (هذا التعداد لا يدل على استحالة التمييز أو حتى التعارض بين بعض هذه الألفاظ...) يتحدد بالمعنى الذي يحمله عليه هنا بمرماه، وهو تسمية النص المعالج، ويحدد له هذا المرمى منذ الوهلة الأولى مثله الأعلى، وهو جعل النص يتكلم بنفسه، وبعبارة أخرى إنه الوفاء للموضوع أي للآخر ، وبالتالي امحاء الذات كما يحدد له مأساته وهي المعجز المستمر عن بلوغ المعنى ، وإنما بلوغ إلى معنى واحد فقط خاضع للأحداث التاريخية والنفسية، والحقيقة أن التأويل عمل أدبي أو غير أدبي في ذاته ولذاته دون التخلي عن لحظة واحدة ودون إسقاطه خارج ذاته لأمر يكاد يكون مستحيلا أو هذه المهمة بالأحرى ممكنة، ولكن الوصف لن يكون ذلك إلا تكرارا حرفياً للعمل نفسه (....) والوصف الأفضل للعمل هو العمل نفسه" (تودوروف: 21).

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 295

إن الموقف الثاني الذي أعلن عنه" تودوروف " يندرج في الإطار العام للعلم، وفي الموقف الثاني يمكن التمييز بين تنويعات مختلفة تبدو للوهلة الأولى متباعدة، وفي الواقع نجد هنا جنبا إلى جنب دراسات نفسية و دراسات تحليلية نفسية و دراسات اجتماعية1،ودراسات إنثولوجية مستمدة من الفلسفة أو من تاريخ الأفكار، وهي تنفي جميعها طابع الاستقلالية عن العمل الأدبي، وتعتبره تجليا لقوانين توجد خارجه وتتصل بالنفسية أو المجتمع والفكر الإنساني أيضا وهدف الدراسة عندئذ هو نقل العمل إلى الميدان الذي تعتبر أساسا، أي أنه عملية فك للرموز وترجمة لها، فالعمل الأدبي تعبير عن " شيء ما"، وغاية الدراسة هي الوصول إلى هذا الشيء عبر القانون الشعري، وطبقا لطبيعة هذا الموضوع الذي يسعى إلى بلوغه، سواء أكانت فلسفية أو نفسانية أو اجتماعية أو غير ذلك، فإن الدراسة المعنية بالأمر تندرج ضمن نمط كم هذه الأنماط للخطاب التي لكل منها تفريعات متعددة، وتنتسب هذه الفاعلية إلى العلم مادام موضوعه لم يعد الحدث النوعي، وإنما القانون (النفساني، أو الاجتماعي... الخ) يوضحه الحدث (تودوروف: 22).

وجاءت الشعرية فوضعت هذا التوازن القائم على هذا النحو بين التأويل والعلم في حقل الدراسات الأدبية وهي بخلاف تأويل الأعمال النوعية لا تسعى إلى تسمية المعنى، بل إلى معرفة القوانين العامة التي تنظم ولادة كل عمل ولكنها بخلاف هذه العلوم (علم النفس، علم الاجتماع....) تبحث عن هذه القوانين داخل الأدب ذاته، فالشعرية إذن مقاربة للأدب مجردة وباطنية في الوقت نفسه ، موضوع الشعرية هو خصائص الخطاب الأدبي وليس العمل الأدبي سوى إنجازا من إنجازات الشعرية الممكنة، وبالتالي فالشعرية لا تعنى بالأدب الحقيقي بل بالأدب الممكن، أي أنها تعنى بتلك الخصائص المجردة التي تصنع فرادة الحدث الأدبي أي الأدبية. وبالتالي لم تعد غاية الشعرية صياغة كلام فضفاض عن النص أو تلخيص فطن للعمل الملموس، وإنما اقتراح نظرية لبنية الخطاب

الأدبي واشتغاله، نظرية تقدم جدولا للإمكانيات الأدبية، كما تظهر الأعمال الأدبية – باعتبارها حالات خاصة منجزة– وسيصبح العمل عندئذ مسقطا على شيء آخر غير ذاته، كما هو الشأن في النقد النفسي والاجتماعي، ولكن هذا الشيء الآخر لن يكون عندها بنية غير متجانسة معه بل سيكون بنية الخطاب الأدبي نفسها ، ولن يكون النص النوعي إلا حجة تسمح بوصف خصائص الأدب (تودوروف: 24). ويلخص " تودوروف" ثلاثة مفاهيم للشعرية، فيقول إنه مصطلح يدل على كل نظرية دالة للأدب، أي تنبع منه وتصب فيه، كما ينطبق على الاختيار الذي يمارسه كاتب معين من بين كل الخيارات والإمكانات الأدبية كما تتجلى في المنظور الفكري والمضمون والأسلوب...الخ، أما المفهوم الثالث لمصطلح الشعرية فيتمثل في الإحالة إلى القوانين المعمارية المابناة من طرف نظرية أدبية معينة – وهي مجموعة من القواعد التي يصبح استعمالها في التقويم عندئذ واجبا – لكن " تودوروف " ركز على المفهوم الأول المصطلح – كما لاحظنا سابقا – والذي يجعل من العمل الفردي تدليلا على هذه التوجهات، وتصبح وضعيته عندئذ وضعية مثال ونموذج وليست وضعية مفهوم أو معيار معين (نبيل راغب: 384).

أما " رومان جاكبسون " فيذهب في متابع " قضايا الشعرية " إلى أن محتوى مفهوم الشعر غير ثابت وهو يتغير مع الزمن إلا أن الوظيفة الشعرية هي – كما أكد ذلك الشكلانيون – عنصر فريد، عنصر لا يمكن اختزاله بشكل ميكانيكي إلى عناصر أخرى، هذا العنصر ينبغي تعريته والكشف عن استقلاله – كما هي عارية ومستقلة الأدوات التقنية التكعيبية على سبيل المثال – ومع ذلك فإن هناك حالة خاصة، حالة لها من جهة نظر جدلية الفن، الحق في الوجود إلا أنها حالة خاصة رغم كل شيء، وبصفة عامة فإن الشعرية مجرد مكون من بنية مركبة،[1] إلا أنها مكون تحول بالضرورة العناصر

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 299.

الأخرى ويحدد معها سلوك المجتمع ... إذا ظهرت الشاعرية أي وظيفة شعرية بلغت في أهميتها درجة الهيمنة في أثر أدبي، فإننا حينئذ سنتحدث عن الشعر (حسن البنا عز الدين: 31). وقبل أن يتطرق « جاكبسون » إلى الوظيفة الشعرية يقدم صورة مختصرة عن العوامل المكونة لكل سيرورة لسانية، حيث صاغ نظريته المشهورة في وظائف الكلام، فاكتشف أن كل عنصر من العناصر الستة للكلام يولد وظيفة في الخطاب، تتميز نوعيا من الوظائف الأخرى في الخطاب، وتكون عملية التخاطب اللساني تأليفا لجملة هذه الوظائف مع بروز إحداها فتكون بنية الكلام مصطبغة بسمات الوظيفة الغالبة (عبد السلام المسدي: 158). ويتكون النموذج اللساني من: المرسل المرسل إليه، الرسالة ، السياق، الشفرة، قناة الاتصال، ويولد كل عامل من تلك العوامل وظيفة مختلفة وهي على الترتيب كالآتي: انفعالية، إفهامية، شعرية، مرجعية، ميثاليسانية، انتباهية. يقول « رومان جاكبسون » في وصفه الوظيفة الشعرية: « إن تحليل النظم يعود كليا إلى كفاءة الشعرية، ويمكن تحديد الشعرية باعتبارها ذلك الفرع من اللسانيات الذي يعالج الوظيفة الشعرية في علاقتها مع الوظائف الأخرى للغة، وتهتم الشعرية بالمعنى الواسع للكلمة بالوظيفة الشعرية لا في الشعر نفسه، حيث تهيمن هذه الوظيفة على الوظائف الأخرى للغة، وإنما تهتم بها أيضا خارج الشعر حيث تعطي الأولوية لهذه الوظيفة أو تلك على حساب الوظيفة الشعرية » (رومان جاكبسون: 35).

ولكي نفهم الفكرة الأساسية – بشكل أفضل – عن مفهوم « الوظيفة الشعرية » لدى « جاكبسون » نذكر ما قاله مترجما عمله إلى العربية « قضايا الشعرية »: « لم يكف جاكبسون في جل كتاباته عن التأكيد أن الشعر يتسم بالتشديد على شكل الرسالة، حيث تتمتع الدلائل في حد ذاتها بثقل خاص، وتكتسب سمكا ينقلها من وضع الإحالة الشفافة

على المحتوى أو المرجع أو الذات...إلى وضع التميز الذاتي إزاء ذلك كله» (حسن البنا عز الدين)[1].

وتسمى هذه السمة الوظيفية الشعرية، ويكتسبها الشعر عن طريق إسقاط مبدأ المماثلة من محور الاختيار على محور التأليف مما ينتج عنه بنية التوازي في الشعر على وجه الخصوص، وتشمل بنية التوازي هذه أدوات شعرية تتكرر في القصيدة مثل: الجناس، وتستوعب الصورة الشعرية والبيت والمقطوعة والقصيدة اعتمادا على الاستعارة (وأسبابها المجاورة)، وحين يقول « جاكبسون » « إن الوظيفة الشعرية تسقط مبدأ التكافؤ لمحور الإنتقاء على محور التركيب »، فهو لا يعني أن المحور هو الذي يتم إسقاطه– فهذا الأمر لا معنى له – إن مبدأ التكافؤ الذي يتحكم بالانتقاء، يتحكم عندئذ بمحور التركيب ويمنحه تلك التعددية في المعنى التي يتسم بها النص حين تسود الوظيفة الشعرية فيه (حسن البنا عز الدين).

هذه هي الشعرية « جاكبسون » – باختصار شديد – وما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق هو وجود عبارة مهمة لـ « تودوروف» تلتقي في عمقها بمفهوم « جاكبسون » الشعرية حين يقول: « ينشأ الحديث [الخطاب Discourse] عن الأدب مع ميلاد الأدب نفسه، وهذه الحقيقة لا تأتي اعتباط، ومن ثم يكون هناك دائما وعي باللغة في أساس كل موقف أدبي، وحتى إذا امتنع الكاتب عن التأمل المجرد في ماهية الأدب يبدو متلازما مع الأدب ذاته، ويمكن أن يفسر هذا بميل النص الأدبي ليكون موضوعا لذاته» (حسن البنا عز الدين: 44–45).

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 300

علاقة الشعرية بالسيميائيات:

من أبرز الكتب التي جسدت فكرة العلاقة بين الشعرية والسيميائيات – حسب رأي « رابح بوحوش » – كتاب « فرانسوا راستي » وهو جهد حاول فيه صاحبه أن يدرس الخطاب الشعري من حيث بنيته ودلالته، فاعتنى بالمسائل الصوتية والإيقاعية كما اعتنى بالتركيب ودعا إلى استخدام بعض المفاهيم التي اقترحها كما اقترح نظرية القراءة عمدتها القارئ (رابح بوحوش: 67). ومن جهة أخرى نجد « تودوروف » يعترف بأن الشعرية تهتم في إبراز المشروع السيميائي العام الذي يوجد كل المباحث التي تمثل العلامة منطلقاته، وفي هذا السياق يسجل قاموس اللسانيات أن الكثير من الإجراءات التي تناولتها الشعرية متعلقة بنظرية العلامات، والشعرية كانت إحدى الأهداف التي سعت إليها السيميائيات في إطار طموحها إلى أن تكون العلم الشامل الجديد الذي يتسلط على سائر العلوم « لكن الشعرية حاولت المقاومة والتأبي في وجه السيميائية حيث لا يبرح الناس في الغرب مختلفين على أن يدمجوها في السيميائية ويستريحوا كما فعلوا ذلك حين أدمجوا الأسلوبية والبلاغة فيها، أو يبقوا عليها مستقلة، ولا يبرح التطاحن قائما في فرنسا... » (يوسف وغليسي: 12).

لكن هذه المسألة – حسب « يوسف وغليسي » – محسومة لدى السيميائيين حيث يقول: « .. غير أن هذه المسألة محسومة لدى جمهور السيميائيين، إذ يكفي دليلا على ذلك نسأل « المعجم السيميائي » عن الشعرية فيجيبنا باختصار مفيد: هي سيميائية الشعر Sémiotique de la poésié أو نقرأ كتابا فرنسيا مشتركا صدر سنة 1972 يحتوي (مقالات في السيميائية الشعرية)، لاسيما مقالة « غريماس » (نحو نظرية الخطاب الشعري) فيعود الظن يقينا (يوسف وغليسي: 13).

أما « محمد العمري » فيرجع العلاقة بين الشعرية والسيميائيات إلى وجهتين: الأولى تداولية تهتم بالمقاصد الفكرية والعاطفية، وعلاقة هذه المقصدية بأجناس الخطاب

وتكوينه، وهو حديث يقود إلى فكرة[1] المعيار في البلاغة العربية والثانية بنائية النص التي تميزها خمس خطوات هي: إيجاد مواد الاحتجاج، وترتيبها، وصياغتها لغويا صياغة جميلة ثم ترتيبها في الذاكرة وحفظها إلى حين العرض، ثم إلقاؤها على المستمعين بطريقة تعبيرية. (رابح بوحوش: 66).

ومعدن هذه الفكرة هو النموذج التواصلي السيميائي الذي اقترحه « هنري بليث » انطلاقا من ثلاثة تصورات هي: التركيب والدلالة والتداول، يقول: « يعتمد الأنموذج السيميائي التركيبي في توليد الصور الإنزياحية على إجراء مجموعة محددة في مستويات اللغة المختلفة (الفرنولوجيا، والمورفولوجيا، والتركيب والدلالة والخط والنص) » (رابح بوحوش: 66).

أما الجانب الدلالي من خلال التمييز بين مقامات التواصل (التواصل اليومي، والتواصل الشعري، والتواصل الناقص)، لذا ذهبت « جوليا كريستيفا » – انطلاقا من هذه الاعتبارات المنهجية والعملية – إلى أن السيميائيات يمكن أن يتم بناؤها على أساس أنها علم يهتم بالخطابات عليها أن تستعين بالطروحات اللسانية في مرحلة أولى، وبعد ذلك يمكن أن تفتح أمامها إمكانية الانفلات من قوانين دلالة الخطاب من حيث هي أنساق التواصل (رابح بوحوش: 66 – 67).

كانت هذه جولة في رحاب الشعرية التي كشفت النقاب عن بعض جوانب روعة النص الأدبي عامة والشعري خاصة، وكيف ساهمت في إثراء مجال السيميائيات، وساعدتها على تبني فرع آخر أضيف إلى فروعها، وهو الاهتمام بجمالية النص الأدبي، كما ساهمت السيميائيات في إضافة عنصر الدلالة والتواصل داخل الشعرية، وهذا شأن مختلف العلوم والمناهج التي تعطي وتأخذ من بعضها البعض.[2]

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 301
[2] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 302

السيمياء والظاهراتية

السيميائيات والظاهراتية

يقول « مرلو – بونتي »: « إننا في داخلنا نجد وحدة الظاهرتية ومعناها الحقيقي »

(جان فرنسوا ليوتار: 5)، وهذا ما يعني تجلي الظاهرتية في أنفسنا، وفي كل ما حولنا من موجودات، فهل هذا يعني أيضا أنها تتجلى في كل النظريات؟ ربما. لكن الأكيد أنها دخلت السيميائيات من بابها الواسع، وكانت من أصولها الفلسفية والنقدية، فأنهم مبادئها قد تبناها سيميائيون عديدون، لكنهم بدلوا وحوروا في بعضها، ورفضوا أغلبها، وزادوا عليها. لكن، ما هي الظاهراتية؟ وما هي أهم مبادئها؟

« ... النزعة الظواهرية هي إحدى المبادئ الأساسية لمناهج البحث الوضعية...» (مجموعة مؤلفين سوفيات: 583) . وكلمة « نزعة » لا تفي في الحقيقة بتعريفها، إذ أنها تشمل مفاهيم أوسع وأشمل، وهذا من خلال تعريف « بيتر كونزمان » وآخرون لها بأنها « اتجاه فلسفي هو الأشد تأثيرا في هذا القرن (العشرين)، تنطوي هذه التسمية على الالتزام بالتخلي في الفلسفة عن كل تفسير سريع للعالم وعلى العودة بعد ترك كل الأحكام المسبقة، لتحليل كل ما يتجلى للوعي » (بيتر كونزمان وآخرون: 195). فأثرت بذلك في كل الفلسفات المعاصرة لها واللاحقة، خصوصا البرجوازية منها ورفضت العقلانية الديكارتية، لأن « المعرفة الحقيقية للعالم لا تتأتى بمحاولة تحليل الأشياء كما هي خارج الذات (نومينا: Noumena)» وإنما بتحليل الذات نفسها وهي تقوم بالتعرف على العالم، أي بتحليل الوعي وقد استبطن الأشياء[1] فتحولت إلى ظواهر (فنومينا: Phenomena)، ذلك أن الوعي لا يكون مستقلا وإنما هو دائما « وعي بشيء ما »،

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 304

غير أن من الضروري كما يقول « هوسرل »، تجريد الوعي من أية تصورات ما قبلية سواء كانت فلسفية أم حسية (ميجان الرويلي، سعد البازعي: 231).

ينبغي هنا أن نفرق بين الظاهرية والمظهرية، فكما يبدو من اسمها قد نعتقد أنها تعني المظهر الخارجي للأشياء، رغم تعدد مصطلحاتها من « ظاهراتية، وظواهرية، وظاهرية... » إلا أنها تختلف عن المظهرية التي « لا تهتم إلا بالسطح الخارجي، أما الظاهرية فتعتبر الظاهرة والدلالة الجوهرية للشيء وجهين لعملة واحدة هي الوجود نفسه، تماما مثل الشكل والمضمون في العمل الأدبي أو الفني » (نبيل راغب: 427). ترتكز الظاهرية على « الحدس » كمبدأ أساس لفلسفتها، إذ أنه عينها الداخلية أو بصيرتها التي يعترف بواسطتها الإنسان على الخصائص الفردية للشيء، أما مفهومها الرئيسي فهو مفهوم « قصدية الوعي » وهي التي تعني تأكيد المبدأ المثالي الذاتي، وسيتضح مفهوما من خلال معرفتنا لمتطلباتها الرئيسية وهي: « 1- الرد الظواهري: أي الامتناع عن إصدار أحكام فيما يتعلق بالواقع الموضوعي، وتجاوز حدود التجربة الذاتية. 2 – الرد المتعالي: أي اعتبار موضوع المعرفة نفسه لا كوجود حقيقي وتجريبي، واجتماعي ونفسي، وفسيولوجي، وإنما كوعي « خالص » متعالي» (مجموعة مؤلفين سوفيات: 472). أخذ رائدها « إدموند هوسرل » (1899 – 1938) مفهوم القصدية من « فرانز برنتانو » ، مقاطعا نظريات التحليل النفسي المغرقة في الذاتية، باعتبار الظاهرات موجهة لوعي شيء ما، إذ « تشير قصدية الوعي إلى العلاقة المتبادلة الثابتة بين أفعال الوعي (مثل: أدرك تذكر: أحب ...) » وهي أفعال ترتبط بموضوع (فعل عينه والتوجه إليه، العني: Noesis وجمعها: Noesen) والموضوع كما يظهر في هذه الأفعال (الموضوع[1] القصدي، ما هو معين Noema ، جمعها Noematé). (بيتر كونزمان وآخرون 195). وتبرز سمة القصدية الأساسية في البحث عن اليقين، وسنضرب مثال

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 305

« جان فرانسوا ليوتار » حين يقول « فالقصدية ليست هذا المعطى السيكولوجي الذي ورثه « هوسرل » عن « برنتانو » وحسب بل هي أيضا ما به العدول عن الحكم ذاته يكون أمرا ممكنا: فإدراك هذا الغليون على المنضدة لا يعني الحصول على صورة مصغرة للغليون في الذهن كما كان يدعي ذلك أصحاب مذهب تداعي الأفكار بل هو « التصويب » إلى الشيء ذاته الذي هو الغليون فالتحويل يظهر لنا الشيء بوصفه « مقابلا » أو ظاهرة ولم يعد الغليون سوى « مقابل » ووجداني سوى ما من أجله يوجد " مقابل " (جان فرانسوا ليوتار: 28)، وما هذا المثال الذي وضعه « ليوتار» إلا تبسيطا لمفهوم الأشياء وانعكاسها على وجدان الإنسان وبالتالي إبراز العلاقة بين الذات والموضوع، فيقول: « فعلى التحليل القصدي (...) إذن إبراز كيفية « تكوين » معنى الكون » معنى الكون للشيء، لأن القصدية تصويب لكنها أيضا إعطاء معنى والتحليل القصدي يستولي على الشيء المكون كمعنى ويكشف عن هذا التكوين» (جان فرانسوا ليوتار: 28)، إذن فقصدية « هوسرل » يقصد بها الظاهر ذي المعنى المقصود، وننوه إلى أن القصدية تستوجب فاعلا وموضوعا، يؤلف كلاهما الآخر، ويمكن إيجازها في: « 1- أن يكون الوعي دائما وعي بشيء ما . 2- وأن أفضل طريقة نتصور بها الوعي أن يعده الفعل الذي به يقصد (أو يعني، أو يتخيل، أو يتصور) الفاعل موضوعا، (أو يعيه) وبذلك يدخل ذلك الموضوع في الحيز المعروف في شكل تصور أو بديهية، أو صورة ذهنية، ويعتمد الموضوع المقصود على الفاعل من حيث دخوله الحيز المعروف، فضلا عن أن بديهية الموضوع تؤلف الفاعل على أنه شعور أو إحساس » (وليم راي: 17). وقد تطور منهج الظاهري في تفسير[1] « جان بيير ريشار »، و « جان روسيه »، و « جان استاروبينسكي »، و « إميل استيغر »

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 306

ثم أثر في كتابات « جورج بوليه »، و « غاستون باشلار »، و « رولان بارث ». لقد أضافت الظاهرية لمجال النقد الأدبي توافقا بين منهج المثاليين والتجريبيين، فالمثاليون سعوا إلى الاستغراق في الذاتية غير معتبرين العالم مصدرا للمعرفة، والموضوعية في نظرهم وهم سراب لا يمكن بلوغه أما التجريبي فقد رفض المفهوم المثالي، واعتبر الإنسان العارف صورة منعكسة، تقوم الحقيقة الفيزيائية بطبعها على الذات العارفة، فجاء « هورسل » بوعيه القصدي موحدا بين الذاتي والموضوعي، ف « رفض الانقسام المفتعل بين الذاتية والموضوعية بأن جعل الذاتية هي الخطوة الأولى المؤدية إلى الموضوعية التي لا يمكن أن تنشأ وتتوحد بدون هذه المصادر الذاتية» (نبيل راغب: 429)، وهذا ما دفع « موريس ميرلو – بونتي » إلى إضافة « نظرية الإحالة » للفصل في موضوع الذاتية والموضوعية بإدخالها في معالجة اللغة، خاصة في مجال الإبداع الأدبي، إذ أن اللغة عنده « فعل قصدي »، منكرا ما جاء به السلوكيون أمثال « بلومفيلد »، فاللغة عنده تجسيد للمعنى لا علامة أو إشارة إلى أحد المعاني، ويتمثل خصوصا هذا التجسيد في اللغة الشعرية، بإيحاءاتها، وإيماءاتها، حتى تستطيع توصيله ونقله إلى الآخرين، كما ساهمت الظاهرية في ظهور عدة دراسات أمثال « العمل الفني الأدبي » لـ « رومان إنغاردن » و « ظاهرية التجربة الجمالية » لـ « مايكل دوفروين »، حللوا فيها العلاقة بين الوجود الإنساني كعلم، والإبداع الأدبي كفن، إذ أن للوعي الإنساني علاقة عميقة بين النفس والعالم، وذو تجارب شخصية عديدة، فيأتي المؤلف بخياله ولغته المنتقاة، ويقوم بنقل تجاربه وعالمه إلى عالم الرواية وبنائها. أما « سارتر » فيرى في الظاهرية انكشافا للوجود من خلال معرفتنا لأشياء أخرى ومقارنتنا لها، إن القصدية في نظره وعي لا[1] يمكنه الانغلاق على نفسه، وإنما من خلال حركيتها وتجليها، في تفرد الشيء عن باقي الموجودات وفي هذا يقول « يجب أن تفهموا « الوجود كحركة. أن توجد، معناه أن تنفجر في العالم، معناه أن تنطلق من عدم عالم وشعور كي تنفجر – بغتة – وعيا –

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 307

في العالم، فإذا ما حاول الوعي أن يعود إلى ذاته ويتحد معها وينغلق على نفسه انعدم. »

إن الضرورة هي ما يسميه (هورسل) « قصدية» (مجموعة مؤلفين: 61)، ولا يتوقف عند هذا، بل يتعداه إلى ضرورة التخييل في الكشف عن الواقع من خلال التعبير عنه، يقول: « إن الصورة تغدو تعبيرا عن علاقة الوعي بالموضوع، أن تدرك وأن تفهم وأن تتخيل هذه هي النماذج الثلاثة التي من خلالها يمكن للموضوع نفسه أن يعطى لنا » (محمد نور الدين أفايه: 17).

نجد أنفسنا مسهبين في اللهث وراء مفاهيم الظاهراتية ومبادئها، لكننا لا ننسى محاولة تقريبنا لمفهومها ومفهوم السيميائيات، فالظاهرتية كما عرفنا تحاول خلق رؤية جديدة للوجود، وللذات الإنسانية، وكذلك فعلت السيميائيات التي تنظر للكون من منظور علاماتي محاولة استخلاص معاني الإشارات التي تعتبرها أيضا قصدية، يقوم المجتمع والسياق الثقافي، والتاريخ بإعطائها دلالات معينة، كما أن « بورس » قد اعتمد على مبادئ « هوسرل » في إرساء ظاهراتيته من خلال مقولات الوجود الثلاث (الأولانية، الثانيانية، الثالثانية) وإن اختلفت عنها، ذلك أن ظاهراتيته لعتمدت على ظاهراتية « كانط » و « هيغل »، كما أنها « تقف فقط عند المظاهر المباشرة، مع محاولة الجمع بين تدقيق الجزيئات والتعميم الأوسع الممكن » (محمد الماكري: 43)، كما يقول: « إن على الباحث أن يجتهد لتجنب التأثر بالتقليد، والسلطة والأسباب التي تقوده إلى افتراض ما يجب أن [1]تكون عليه الوقائع (...) عليه أن يكتفي بالملاحظة الأمنية والمستمرة للمظاهر... » (محمد الماكري: 43)، أما عن مقولاته الثلاث التي انطلق منها لتحديد أنظمة علاماته، والتي يصفها بقوله « رأيي أن هناك ثلاث صيغ للوجود، وأجزم أنه بإمكاننا رؤيتها مباشرة في عناصر كل ما هو حاضر في الذهن في أي وقت بطريقة أو

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 308

بأخرى » (محمد الماكري: 43)، فالملاحظة المباشرة هي أساس ظاهراتيته لا الأحكام المسبقة والافتراضات التعسفية، وهذه الملاحظة ولاشك هي التي ستقوده إلى الوصول إلى المعنى الحقيقي الكامن وراء هذه المظاهر الخارجية أما قصيدة القراءة التي نجدها عند « بوليه » والتي استمدها أساسا من ظاهراتية « هوسرل » وقصيدته، فيرى أن « وعي القراءة ما أن ينغمس في النتاج الأدبي ويتحرر من قيود الواقع الملموس حتى ينتابه العجب لأنه يجد نفسه مليئا بأشياء تعتمد على هذا الوعي، أي أنها لاشك ناتجة من القصد الخاص بها، وهي في الوقت نفسه معروفة على أنها أفكار شخص آخر » (وليم راي: 19)، ويقول بأحسن تعبير يصف به هاته الحالة « تفرز شخصيتي أفكار غريبة هي أفكار شخص آخر، لذا فأنا ذات منحت تجربة أن تفكر في أفكار غريبة عنها، فأنا فاعل لأفكار غير أفكاري أنا » (وليم راي 19)، إلى أن يقول: « لقد أصبح كل شيء جزءا من عقلي ... وتحررت من إحساسي الاعتيادي بعدم الانسجام بين وعيي والمواضيع الخاصة به » (وليم راي: 19). كل هاته الأقوال تبرز مدى ذوبان شخصية القارئ في شخصية المؤلف من خلال العمل الأدبي، مما يعطي للقارئ قصدا معينا يفسر من خلاله عملا ليس عمله، إلا أنه يستوعبه ويحتويه وبالتالي يحيلنا هذا إلى ما دعا إليه أنصار « ميلاد القارئ » و « القارئ الضمني المثالي » في السيميائيات أمثال « رولان بارث » وتشابه القيم الاجتماعية، والثقافية، والتاريخية، التي تجعل من نص ما مفهوما لدى مجتمع بعينه كما ذهبت إلى ذلك [1]« جوليا كريستيفا»، فالمؤلف يؤلف عمله ثم يلقيه ليصبح هو غريبا عنه، فيتلقاه القارئ ويفسره كيفما شاء غير آبه بحياة المؤلف أو بقصده، لذلك نرى « بولي» مرة أخرى يشرح فكرته في معرض حديثه عن عدم أهمية سيرة المؤلف بوصفها عاملا خارجيا غير حاسم في تركيب النتاج الأدبي قائلا: « مما لاشك فيه إن كل شيء مهم لفهم النتاج... بيد إن معركة كهذه لا تطابق معرفة العمل الداخلية... فكل ما يهمني في هذه اللحظة هو أن أعيش من الداخل في نوع من الإندماج

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 309.

بالعمل، بالعمل وحده» (وليم راي: 19). لنذهب إلى « جاك دريدا» ومحاولته شرح نظرية « هوسرل» ونقدها، من خلال مفهوم « العلامة » التي تحتوي شقين متمايزين « العبارة» أو « الإشارة » فالعبارة علامة لسانية، قول منطوق أة فعل قول كما عبر عنها، بينما الإشارة « هي علامة كالعبارة، سوى أنها خلافا لهذه الأخيرة ومن حيث هي إشارة منزوعة الدلالة أو المعنى» (جاك دريدا: 45)، ويمكننا القول من خلال هذا التعريف البسيط أن العبارة تقابل العلامات اللغوية، بينما الإشارة هي العلامات غير اللغوية، وهو ما أكده « هوسرل» بقرنها بالإمارات والإيماءات، إلا أنها – في نظره – لا تملك دلالة عكس العلامات غير اللغوية السيميائية، لكن « دريدا » ينفي هذا الطرح في موضع من كتابه « الصوت والظاهرة»، إن « هوسرل» يعتبر أن كل عبارة لا تخلو من إشارة إذ الفارق بينهما وظيفي، لكن هذا لا يمنعهما من الالتحام، لكن « العبارة ليست نوعا للإشارة رغم أن كل العبارات تخالطها الإشارة وأن العكس غير صحيح» (جاك دريدا: 51). لم يهمل « هوسرل» إذن موضوع العلامة لكنه لم يعتبره علما قائما بذاته وفي هذه العبارة الأخيرة يذكرنا هذا الموقف بموقف « دوسوسير» باعتباره العلامات غير اللغوية أشمل وأعم من العلامات اللغوية، كما أن « هوسرل» مثل « دوسوسير» أعطى الأولوية للعبارة (العلامات اللغوية)[1]، حتى العبارات عنده بوصفها حاملة للدلالة لا تمتلك هذه الصفة إلا بعد إخراجها من داخل الذات إلى الخارج بفعل الكلام والقول الشفهي، فهي « إخراج»، فالدلالة مثلية متضمنة في الداخل، بينما التعبير عنها هو إخراج الصامت إلى صائت بفعل قصدي وواع، وبذلك يقترن التأويل بفعل القول، جسده الدال ومحدثه العبارة، فلا يمكننا تفسير ما هو مضمر، وغير ظاهر، والإيماءات بما أنها مضمرة وغير قصدية فلا معنى لها، وبالتالي نؤولها كيفما شئنا « أن يكون من الممكن أن « نتأول » الإيماء وأسارير الوجه واللاوعي والاإرادي والإشارة بعامة، أن نتمكن أحيانا من استعادتها ومن الإفصاح عنها في شرح قولي وصريح وليس إثباتا للتميزات السابقة (....) إن هذا

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص310

التأويل (...) إنما يجعلنا نفهم عبارة مضمرة، دلالة لا تزال محتجبة، إن العلامات غير المعبرة ليس عزمها على القول إلا على قدر ما نستطيع تقويلها ما يعتمل فينا، ما كنا نقصد في ضرب من الغمغمة، فالإيماءات لا تعتزم أن تقول إلا على قدر استعدادنا للإنصات إليها وتأويلها» (جاك دريدا: 70)، وقد أصاب كبد الحقيقة، فاللغة حقا قصدية، وعباراتنا المنطوقة هي تعبير عما نريد الإخبار عنه وإيصاله لغيرنا، أما الإيماءات فصامتة، لكنا من نضع لها تأويلات معينة، لهذا تختلف مفاهيمها من مجتمع لآخر ومن زمن لآخر، لأنها موضوعة ومصطلح عليها وفق سياق ثقافي واجتماعي خاص بفئة معينة، ومنطقة بعينها وهذا ما كشفت عنه دراسات السيميائيين.

كانت هذه شذرات استطعنا اقتناصها من كم معرفي هائل لازالت ملامحه لم تتضح بشكل جلي، صعب علينا أن نكشف عن جدور ضائعة في أعماق أرض قصية ومجهولة في الأغلب الأعم عنا، ولكن حسبنا هذه المحاولة المتواضعة في تقريب المفاهيم، وتوضيح الرؤى، ولا زال ميدان البحث واسعا وعميقا[1].

السيمياء والبنيوية

السيميائيات والبنيوية:

بلغ الاتجاه البنيوي في النقد الأدبي أوجه في ستينيات القرن الماضي، ذلك لأنه كان ثورة حقسقسة على النقد القديم، وقد عاصرته اتجاهات تقترب منه في النظرة إلى النص الأدبي، كالاتجاه السيميائي مع بعض التمايزات، التي لابد من ورودها، ليستقل كل منهج بطبيعته وخصائصه، فما هي البنيوية التي غمرت الساحة النقدية العربية، ولم تكتف بذلك لتجتاح أيضا البلاد العربية؟ وما علاقتها بالسيميائيات؟ أو فلنقل ما علاقة السيميائيات بها؟

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 311.

إن البنيوية مصطلح اشتق من كلمة بنية، هذه الأخيرة التي يقول بشأنها « زكريا ابراهيم» « كلمة بنية واسعة فضفاضة لا تكاد تعني شيئا، لأنها تعني كل شيء» (محمود العشيري: 51)، وقد اختلف النقاد والباحثون في جذور البنيوية فبعضهم قال بأنها لم تنشأ إلا بعد رواج الألسنية، فهي من بنات أفكار « دوسوسير»، إذ أن الأصول الأولى للبنيوية « تكونت في مجال الألسنية، أو علم اللغة الحديث، ثم امتدت بعد ذلك إلى حالات متعددة منها الفلسفة » (عمر مهيبل 19)، ولكن، ومن منطلق القول بأن الفكر الغربي يحمل تناقضه في أعماقه، وأن العقل الغربي أيضا منغلق ومتمركز حول ذاته، حيث لا يؤمن بغير مرجعيته المعرفية والفكرية، لا يكاد يقف عند منهج حتى يتمرد عليه، ويخرج عن عباءته فكذلك كان شأن البنيوية، إذ أن الاعتقاد بأنها « شيء جديد تماما وثوري أو انقلابي اعتقاد زائف – كما يؤكد « ليفي شتراوس»–» (إبراهيم خليل: 78)، إنها ثورة معرفية لها امتدادات–[1] ولو بصفة متواضعة ومتمردة – مع أفكار متناثرة هنا وهناك، وكثيرون هم من يقولون بهذا الرأي، ك « فؤاد زكريا» صاحب كتاب « الجذور الفلسفية للبنائية»، و « عبد العزيز حمودة » في مراياه المحدبة: من البنيوية إلى التفكيك، وغيرهم كثير ممن يقفون في وجه من يقول بعكس ذلك، مثل « كمال أبو ديب»، الذي يرى أنه « ليست البنيوية فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود» (فاضل تامر: 235)، كذلك نجد « صالح فضل» يستبعد صفة المذهبية والطابع الفلسفي عن الاتجاه البنيوي، وبين هذا وذاك يقف « ميشال فوكو» الغربي العارف لفلسفة وأفكار أمته بامتياز، موقفا وسطا إذ يقول: « ليست البنيوية – كما نعلم – فلسفة، إنما يمكن أن تربط بفلسفات مختلفة، فقد ربط « ليفي شتراوس» بوضوح منهجية البنيوية بفلسفة مادية الطابع، وعلى عكس ذلك، قام « جيرو» بربط طريقته الشخصية في التحليل البنيوي بفلسفة مثالية، في حين يستعمل « ألتوسير» مفاهيم التحليل البنيوي داخل فلسفة من الواضح أنها ماركسية الاتجاه، لهذا لا أعتقد أن بإمكاننا إثبات وجود رابط وحيد

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 313

وحتمي بين البنيوية والفلسفة» (عبد الغني بارة: 49–50)، ونحن في مقامنا هذا لا يهمنا من الفلسفة سوى كونها مدرسة تشكلت لدراسة النص الأدبي، ذي المادة اللغوية ولهذا سنعود إلى منطلقاتها اللغوية التي بدأت مع « دوسوسير» بثنائياته، وفي مقدمة هذه الثنائيات ثنائية اللغة والكلام حيث أن اللغة نموذج جماعي ذهني يحكم عمليات الكلام (صلاح فضل: 86)، وهذا التصور للغة قريب جدا من التصور الذي يمكن أن نطلق عليه « الأبنية اللغوية» وإن كان « دوسوسير» لم يستخدم هذا المصطلح، أما الثنائية الأخرى التي كان لها دور كبير في تحديد توجه الفكر البنيوي، فهي تلك التي أقامها « دوسوسير» للتمييز بين المحور التاريخي، والمحور التزامني الوصفي. أما ثنائية علم اللغة الداخلي[1] وعلم اللغة الخارجي فلها دور يركز دائما على ما هو بعيد عن العوامل الخارجية. ويؤكد « صلاح فضل» أن هناك مدارس أسهمت إلى درجة كبيرة في تشكيل الفكر البنيوي، من أهمها مدرسة الشكلين الروس، التي ركزت مفاهيمها على دراسة الشكل الأدبي ودلالته، وكانت تحليلاتها لمفهوم الشكل قريبة جدا من مفهوم البنية، هذا المصطلح الذي قد يكون ورد عرضا في دراسة الشكليين الروس أما مدرسة النقد الجديد التي تمت في الجزء الآخر من العالم الغربي (إنجلترا وأمريكا)، فقد كانت تركز على المفاهيم الوظائفية التي انتشرت لدى اللغويين الغربيين إلى نفس المفاهيم التي ستفسر بعد ذلك في تيار البنيوية العريض (صلاح فضل: 88–89)، وشيئا فشيئا بدأت معالم الحركة البنيوية تبرز في اللغة والأنثروبولوجيا، وعلم النفس، والنقد الأدبي كمنهج في دراسة النص الأدبي « كردة فعل على الوضع « الذري» (...) الذي ساد العالم الغربي في بداية القرن العشرين (ميجان الرويلي، سعد البازغي: 67)، لها اتصالها الكبير بلسانيات « دوسوسير»، وبالنموذج اللغوي، حتى أن « رولان بارث» يصرح قائلا: « إن البنيوية بمعناها الدقيق والحرفي، نقل النموذج اللغوي إلى حقول ثقافية أخرى» (إبراهيم خليل: 79)، وحقا فالألسنية هي أساس انفتاح النقد الأدبي، يقول « ليفي

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 314

شتراوس»: « روضت العلوم الإنسانية نفسها منذ قرون على النظر إلى العلوم الطبيعية، على أنها نوع من الفردوس الذي لن يتاح لها دخوله أبدا ولكن فجأة ظهر منفذ صغير انفتح بين هذين الحقلين، والفاتح لهذا المنفذ هو الألسنية» (عبد الله الغذامي: 41)، ولأن البنية أساس ومحور البنيوية، فلا بد لنا من أجل فهم هذه الأخيرة أن نشرح خصائص البنية معتمدين في ذلك على ما بينه « بياجيه» حين قال « إن البنية تنشأ من خلال (وحدات) تتقمص أساسيات ثلاث هي: الشمولية، والتحول، والتحكم الذاتي»[1] (الغذامي: 31)، ويعني – كما شرح « الغذامي» – بالأساسية الأولى التماسك الداخلي للوحدة، بحيث تصبح كاملة في ذاتها، وليست تشكيلا لعناصر متفرقة، أما ما يعنيه بالتحول هو أن البنية ليست تشكيلا لعناصر متفرقة، أما ما يعنيه بالتحول هو أن البنية ليست ثابتة، بل إنها دائمة التحول وتظل تولد من داخلها بنى دائمة التوثب، والجملة الواحدة تتمخض عنها آلاف الجمل التي تبدو جديدة، مع أنها لا تخرج عن قواعد النظم اللغوي للجمل، وهذا التحول إنما يحدث نتيجة لتحكم ذاتي من داخل البنية، فهي لا تحتاج إلى مقارنتها مع أي وجود عيني خارج عنها لكي يقرر مصداقيتها وإنما هي تعتمد على أنظمتها اللغوية الخاصة بسياقها اللغوي، وهذا المفهوم، وهذه الخصائص المرتبطة بالبنية هو ما يطبقه البنيوي على العمل الأدبي، الذي ينظر إليه تماما كالبنية، أي أنه « قيمة جوهرية ذاتية التولد وذاتية التحول، وبشكل مطلق على أنه ذاتي الاعتبار ولا حاجة له إلى ما هو خارج حدوده ليقرر طبيعته» (الغذامي: 32)، وهناك مصطلحات ومفاهيم ألسنية كثيرة كان لها الأثر الكبير في تشكيل الفكر البنيوي– كما يقول « الغذامي» – كمفهوم الصوتي الذي تحمس له « ليفي شتراوس» فيما أسماه بالثورة الصوتية، ومفهوم العلاقة، ومفهومي الاختلاف والإئتلاف. ولأن البنيوية واسعة جدا، وذات أنواع متعددة لا مجال

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 315

لذكرها، فإننا نكتفي بذكر أهم مبادئها، لتتبين لنا الرؤيا ليس إلا، وسنعتمد في شرحنا لهذه المبادئ لما قال به « ليتش» التي يحددها في أربعة منطلقات كالتالي:

1. تسعى البنيوية إلى استكشاف البنى الداخلية اللاشعورية للظاهرة.
2. تعالج العناصر بناء على علاقاتها، وليس على أنها وحدات مستقلة.
3. تركز البنيوية دائما على الأنظمة.[1]
4. تسعى إلى إقامة قواعد عامة عن طريق الاستنتاج أو الاستقراء، وذلك لتؤسس الخاصية المطلقة لهذه القواعد (الغذامي: 40 – 41).

وهي مبادئ تبين لنا بجلاء مدى ثورية البنيوية على المفاهيم السابقة للنقد الأدبي، كما تبين لنا مدى الدقة والعلمية التي أصبحت تعامل بها النصوص، فهي حقا ردة فعل على الوضع الذي ساد العالم، كما أن التأمل في هذه المبادئ يستشف أن البنيوية ما هي إلا امتداد مباشر لألسنية كما يقول « الغذامي».

بعد أن عرفنا أهم مبادئ ومنطلقات البنيوية سنحاول أن نتبين أهم ما يربطها بالسيميائيات، بما أنهما منهجان لدراسة النص الأدبي، خرجا من رحم الألسنية، فالسيميائيات « في الولقع نقد أدبي غيرت الألسنية البنيوية صورته، وجعلته مشروعا أكثر ضبطا، وأقل انطباعية، وأكثر، وليس أقل امتلاء بثروة الشكل واللغة من معظم النقد التقليدي» (تيري إيغلتون: 100)، فهي إذن منهج مشابه جدا للبنيوية، من حيث المنطلق اللغوي العلمي، لهذا نجد الكثير من الباحثين لا يكادون يفصلون بينهما، فهذا « تيري إيغلتون» في كتابه « نظرية الأدب» يجعلهما في مبحث واحد تحت عنوان « البنيوية والسيميائية»، ويقول أصحاب مدرسة « براغ» قد أصبح مصطلح البنيوية عندهم مختلطا إلى حد كبير مع كلمة السيميائيات حيث أن هذه الأخيرة هي الدراسة المنظمة للدلائل، وهذا ما يفعله البنيويون في الواقع، وكلمة «

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 316

بنيوية » ذاتها تشير إلى منهج في البحث، يمكن تطبيقه على مجال كامل من الموضوعات من مباريات كرة القدم، وحتى أساليب الإنتاج الاقتصادية، أما كلمة « سيميائية » فتعين بالأحرى حقلا محددا من حقول الدراسة، هو حقل الأنظمة التي تعتبر عادة بمثابة أدلة، بيد أن الكلمتين تتداخلان، حيث تعالج البنيوية شيئا قد لا يتم التفكير به[1] عادة بوصفه نظاما من الأدلة بالرغم من كونه كذلك، علاقات القرابة في المجتمعات القبلية مثلا، في حين تستخدم السيميائيات المناهج البنيوية على نحو شائع (تيري إيغلتون:175). ويؤكد صاحب كتاب « دليل الناقد البنيوي » أن السيميائيات تنتمي في أصولها ومنهجيتها إلى البنيوية، إذ أن هذه الأخيرة نفسها منهج منتظم لدراسة الأنظمة الإشارية المختلفة في الثقافة العامة.

نظرا لهذا فإن كثيرا من الدارسين يؤكدون صعوبة التمييز بينهما، لذلك راحوا بين أولية الواحدة على الأخرى، ولهذه الصعوبة في التمييز يذهب « جونتان كولر» إلى فصلهما جغرافيا فقط إذ « قصر البنيوية على ممارسات بعض المفكرين الفرنسيين حتى لو ناقض هذا التمييز غايته، إذ الفرنسيون أنفسهم زاوجوا بين الحقلين » (ميجان الرويلي، سعد البازعي: 178)، وما يمكن أن نلاحظه على هذا القول هو أن السيموطيقا التي يقصده « هوكس» إنما هي نوع واحد، وهي سيميائيات التواصل التي كانت انتدادا مباشرا لأفكار « ديسوسير» اللغوية.

وهناك الكثير من الباحثين الذين يرون أن السيميائيات إنما هي تطوير للبنيوية كـ « خلف كامل » الذي يؤكد أن البنيوية خرجت من جعبتها مجموعة من النظريات، شكلت فيما بينها ما عرف أو سمي بما بعد البنيوية، وهي النظرية الخاصة بالقراءة والتلقي، ونظرية التفكيك، ونظرية التأويل، والنظرية السميائية (عصام خلف كامل: 45)، وقد يكون[2] « خلف كامل» قد اتكأ في طرحه على هذا الجانب التاريخي،

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 317
[2] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 318

حيث أن البنيوية سابقة في الظهور على السيميائيات، هذه الأخيرة التي استعملت مصطلحات البنيوية، كالبنية، والبنية السطحية، والبنية العميقة، والنظام، والعلاقات، والدال والمدلول. وشيئا فشيئا أصبحت السيميائيات « نهج نقدي يعضد البنيوية، ويتضافر معها في مسعى استكشاف النص ودراسته على منطلقات الألسنية ومبادئها» (الغذامي: 42).

لم يعد يهم الباحثين البحث في نقاط التشابه والاختلاف بين كل من البنيوية والسيميائيات، بقدر ما يهمهم النتائج التي توصلت إليها كل نظرية، بل، وبما أن السيميائيات أتت بأشياء جديدة متطورة لما جاءت به البنيوية، فإنها بعد امتداداتها، يقول: « وليم راي»: رغم البنيويون، وزملاؤهم أصحاب النظرية السيمولوجية، التي هي أعم من النظرية البنوية، أن الأحداث والظواهر، ليس لها وظيفة ثقافية إلا بقدر ما لها من معنى هي بطبيعتها ظواهر اجتماعية أفضل أسلوب لفهمها البنى المشتركة، التي عن طريقها يؤلف ذاته، إن جميع مفاهيم هذه البنى المشتركة سواء أسميت أعرافا، أم شفرات، أم قواعد، أم قدرة لغوية، تستند إلى فكرة « ديسوسير» في اللغة » (وليم راي: 125)، وإذا كان هذا الرأي فيه جانب من الصحة، فيما يتعلق بمفاهيم البنى المشتركة المستندة إلى فكرة « ديسوسير» في اللغة، فإننا نرى الجانب الآخر المتعلق بجمع « وليم راي» بين البنيويين والسيميائيين، وقوله أنهم يزعمون أن الظواهر ليس لها وظيفة ثقافية، إذ لم يكن معنى، فيه بعض الخطأ، فالحقيقة أنه مهما كانت السيميائيات تتبع المنهجية البنيوية وإجراءاتها، إلا أنها « تقصر التركيز على دراسة الأنظمة العلامية الموجودة أصلا في الثقافة، والتي عرفت على أنها قارة قائمة في بيئة محددة، أما البنيوية فتدرس العلامة، سواء كانت جزءا من نظام أقرته

الثقافة كنظام أم لم تقره، ولعل هذا الفارق [1]» (...) هو الوحيد الذي من شأنه أن يميز بين الحقلين » (ميجان الرويلي، سعد البازعي: 179).

ومهما يكن من أمر فإن السيميائيات تتداخل إلى حد كبير مع البنيوية خاصة في استعمالها لنفس المصطلحات الألسنية، فالسيميائيات « في أبسط تعريفاتها وأكثرها دروجا « نظام السمة » أو شبكة من العلاقات المنظمة بتسلسل » (عبد المالك مرتاض: 21)، والمتتبع للمصطلحات التي تستخدمها السيميائيات – يقول « مرتاض»– يستنتج أنها ليست لسانيات متطورة تحاول أن تكون كلية النظرة شمولية النزعة، حيث تتسلط على كل ما هو لغة، وخطاب، وسمة، ونص، ودلالة، وتركيب، وتأويلية، ودال، ومدلول... ولكنها تطوير لهذه المفاهيم، وتطويع لها لا تجاهلها. وهل البنيوية إلا هذا؟ إنها أيضا أخذت عن اللسانيات مفاهيمها وطورتها تطويرا مفيدا، لذلك صعب التمييز بينهما، وأصبح « من الوهم أن نظن أن « بارث » في تحليله السيميولوجي قد تجاوز البنيوية وإجراءاتها، فسواء تعلق التحليل بطرح « سوسير» أو « بورس» أو « بارث» ظل منطلق التحليل السيمولوجي مرتكزا على العلاقة بين الدال والمدلول (أو المرجع)» (ميجان الرويلي، سعد البازعي 181).

هذا من جهة المصطلحات ومفاهيمها العامة، أما إذا عدنا إلى الإنجازات المحققة، فإننا نرى أنه «لا تختلف إنجازات السيمولوجيا عن إنجازات البنيوية، فقد استهدفت قضايا الطرح التاريخي، والنقد الموضوعاتي، وكشف القناع عن سلطة المرجع، وتهافت أسبقية المعنى، وكشفت الأقنعة المتعددة التي اختفت خلفها هذه السلطة، وهي أقنعة تمتد من الإيديولوجيا الفجة إلى أدق أنواع الأحكام الجمالية والأخلاقية» (ميجان الرويلي، سعد البازعي: 184).

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 319

لكننا نرى أن السيميائيات تختلف عن البنيوية، ولابد أن تختلف، وإلا لكانت امتدادا مباشرا لها، ولما أسست مدرسة قائمة بذاتها[1] وبأعلامها، إن الاختلاف بينهما لا يمكن فقط في إهمال السيميائيات للشكل وتجاوزها لها، ولكن من حيث عنايتها بالمعنى وتأكيدها أن كل نص أدبي ينطوي على إمكانات متعددة للتأويل واستخلاص المتلقي لأنواع غير محدودة من الدلالات « ولهذا فإن عدد من البنويين رأو في السيميائية رديفا لنقدهم البنيوي، فرولان بارث – مثلا – يهتم كثيرا بما تقدمه السيمولوجيا من ملاحظات حول ما يسميه لعبة الدلائل في النص، والتي يعني بها أن النص هو آلة لغوية ليس من السهل التحكم بها، وإنما علينا أن نترك لأجزاء النص وما فيه من علامات متسعا من الحوار والجدل والتفاعل الداخلي الذي يتكشف عن وجود طرق مختلفة للإبلاغ والتوصيل والتعبير» (إبراهيم الخليل:93)، فإعطاء السيميائيات الأهمية للقارئ في استنتاج المعاني الخفية، وتحريرها للنص، تعد نقطة اختلاف أخرى لها عن البنيوية.

في الختام نقول أن كل من البنوية والسيميائيات منهجان في دراسة النص الأدبي، وكلاهما استفاد من أبحاث اللسانيات كثيرا، شأنهما شأن النظريات النقدية الأخرى التي انبثقت عن مظلة الألسنية.[2]

السيمياء والأسلوبيات

السيميائيات والأسلوبيات

الأسلوب والأسلوبية مصطلحان يكثر ترددهما في الدراسات الأدبية، واللغوية الحديثة، وعلى نحو خاص في علوم النقد الأدبي، والبلاغة، وعلم اللغة، والأسلوبية يكاد يقتصر في معناها على حقول الدراسات الأدبية، وإن كان بعض الدارسين مثل " جورج مونان"،

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 320

[2] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 321.

يحاول أن يمتد بها نظريا لتشمل مجالات مثل الفنون الجميلة والمعمار والموسيقى، والرسم، مع أنه يعترف في الوقت ذاته بأن الحقل الذي أخصبت فيه عمليا حتى الآن هو حقل الدراسات الأدبية، ويعتبر مصطلح الأسلوب أسبق إلى الوجود والانتشار من مصطلح الأسلوبية خلال فترة طويلة، فالقواميس التاريخية – في اللغة الفرنسية مثلا: تصعد بالأول منهما إلى بداية القرن الخامس عشر، وبالثاني منهما إلى بداية القرن العشرين، ولا يقتصر الفرق بين الأسلوب والأسلوبية على مجرد السبق الزمني لأحدهما، وإنما يمتد إلى تلون كل واحد منهما بلون العصر أو العصور التي واكبها، ومن ثم احتلاله لدرجة أو درجات معينة في سلم التطوير، فمصطلح الأسلوب واكب في الواقع فترة طويلة مصطلح البالغة la rhétorique دون أن يكون هناك تعارض بينهما، بل كان الأسلوب يقف من البلاغة موقف المساعد على تصنيف القواعد المعيارية التي تحملها إلى الفكر الأدبي العالمي منذ عهد الحضارة الإغريقية، و كتابات " أرسطو" خاصة، وفي هذا الصيد فإن كلمة " الأسلوب" اكتسبت شهرة التقسيم الثلاثي الذي استقر عليه بلاغيو العصور الوسطى حين ذهبوا إلى وجود ثلاثة ألوان [1] من الأساليب هي الأسلوب البسيط، والأسلوب المتوسط، و الأسلوب السامي، وهي ألوان يمثلها عندهم ثلاثة نماذج كبرى من انتاج الشاعر الروماني " فرجيل" الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، فديوانه الذي كتبه عن حياة الفلاحين: قصائد ريفية Bucolique يعد نموذجا للأسلوب البسيط، وديوانه الأخلاقي الذي يحث الرومان على التصميم بأرضهم الزراعية قصائد زراعية Georgique يعد نموذجا للأسلوب المتوسط، أما ملحمته الشهيرة فتعد نموذجا للأسلوب الاسامي وعلى أساس هذا التقسيم شاع عند البلاغيين ما عرف بدائرة " فرجيل" في الأسلوب وهو دائرة ترسم على أساس محاولة توزيع هذه الأقسام الثلاثة على الطبقات الاجتماعية المتنوعة، ومن ثم توزيع المفردات، وأسماء الأماكن والآلات، وأسماء الحيوانات، ومظاهر الطبيعة على الطبقات المناسبة (أحمد درويش: 20 – 21

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 323

)، لكن شدة الالتزام بحرفية القواعد المعيارية – كما يرى " أحمد درويش" – يؤدي إلى لون من التجمد في الأداء الأدبي حيث تتحول معه قواعد الأسلوب إلى حاجز عن التشكيل أكثر منها عونا على التعبير، وذلك هو الذي يدفع إلى تولد حركات تجديدية، وقد بدات هذه الحركات منذ وقت مبكر حتى في فترات شدة قبض الأحكام الكلاسيكية، فقد كتب " ديكارت " في القرن السادس عشر " إن أولئك الذين يهتمون فقط بالقوالب البلاغة " (أحمد درويش: 21)، لكن الهزة القوية لمبدأ طبقية الأسلوب وقواعده المعيارية جاءت على يد" جورج بوفون " في عمله المشهور " مقال في الأسلوب " الذي أدان فيه فكرة أن الأسلوب هو الطبقة، لينتهي إلى أن " الأسلوب هو الرجل "، على حد تعبير " بوفون " نفسه الذي أصبح بعد ذلك شائعا والذي حاول من خلاله ربط قيم الأسلوب[1] الجمالية بخلايا التفكير الحية و المتغيرة من شخص إلى شخص لا بقوالب التزيين الجامدة التي يستعيرها المقلدون عادة من المبدعين دون إدراك حقيقي لقيمها أو استغلال جيد لها. (أحمد درويش: 21)، ومن خلال هذا التطور التاريخي في حقل الدراسات البلاغية نلاحظ أن المصطلح المستخدم هو " الأسلوب"، أما مصطلح " الأسلوبية" فلم نعد يظهر إلا في بداية القرن العشرين مع ظهور الدراسات اللغوية الحديثة، ومصطلح الأسلوبية لم يلغ مصطلح الأسلوب وإنما تحددت للمصطلح القديم دائرة ووظيفة جديدة في إطار المصطلح الجديد، ذلك أنه كانت الأسلوبية تتعامل مع اللغة على أساس أنها تحل من التعبير محل الرخام من النحت، فإنها لا تتعامل مع كل تعبير بل مع لون معين منه، وصل إلى درجة معينة من الأداء الأدبي. (أحمد درويش: 21).

إذن لقد " كان الإغريق روادا في مجال تقتين مفهوم الأسلوب تقنيا نقديا وعمليا لدرجة أن مدارس البلاغة، ودراسات علم الجمال عندهم... تمكنت من وضع الأساس، الذي دارت حوله كل المناقشات و التحليلات حتى عصرنا هذا، ولعل النظريتين الأساسيتين

[1] - المرجع نفسه، ص 324

في مجالات التنظير للأسلوب، ترجعان إلى " أفلاطون" الأسلوب خاصية موجودة في بعض وسائل التعبير اللغوي وغائبة في البعض الآخر، لأنها تعتمد على مهارة الكاتب في إخضاعها لمتطلبات التعبير، وهي مهارة لا يملكها كل كاتب، أما أتباع " أرسطو " فاعتبروا الأسلوب نسيجا عضويا كامنا في كل أنواع التعبير، أي أن مدرسة " أفلاطون " تتكلم عن العمل الأدبي الناضج بصفته عملا له أسلوب، والعمل الأدبي التافه بصفته فاقدا لمثل هذا الأسلوب، في حين ترى مدرسة " أرسطو " في كل[1] عمل تعبيري أسلوبا قد يتراوح بين السمو والانحطاط، بين القوة والضعف،.بين الجودة والسوء، لكنه يظل أسلوبا في النهاية، (نبيل راغب: 7). ومن هنا فقد أصبح الأسلوب مصطلحا في النقد الأدبي، يعتبره البعض أداة جاهزة للاستخدام في الإبداع الأدبي، في حين يعتبره البعض الآخر خاصية عضوية مرتبطة بكل عمل أدبي على حدة، ولا يمكن أن تنفصل عنها لأنها القوة الدافعة لتنظيمه وتشكيله، وبلورته في النهاية.

إن الأسلوبية مصطلح ظهر أول مرة في القرن التاسع عشر (عام 1875) على يد " فون دي قابلنتر" وهي نظرية في الأسلوب ترتكز على مقولة " بيفون" الشهيرة " الأسلوب هو الرجل ذاته" موضوعها هو دراسة الانزياحات اللغوية في الصناعة الأدبية. (رابح بوحوش: 12)، ولم تكن الأسلوبيات في هذه الفترة قد اتضحت معالمها، وظلت كذلك حتى تبلور مفهوم اللسانيات في القرن العشرين مع " فردينان دي سوسير "، تعمله الذي تكشف في كتابه " محاضرات في اللسانيات العامة"، وقد كان " لشارل بالي" الشرف الكبير في نشر هذا المؤلف النفيس بعد موته بثلاث سنوات وبعد أن شرب فكر أستاذه ابتكر " الأسلوبية التعبيرية"، وتحمس كثيرا لها، فأسس لها مجموعة من القواعد في مابين قيمين: الأول عنوانه " محاولات في الأسلوبيات الفرنسية" أصدره عام 1902، والثاني عنوانه " المجمل في الأسلوبيات" نشره عام 1905. (رابح بوحوش: 13)، وبهذا يمكننا

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 325.

القول أن اللسانيات كان لها دور كبير في ولادة الأسلوبيات والتي هي " علم يرمي إلى تخليص النص الأدبي من الأحكام المعيارية والذوقية، ويهدف إلى علمنة الظاهرة الأدبية والنزوع بالأحكام النقدية ما أمكن عن الإنطباع غير المعلل، والأسلوبيات مجال من مجالات البحث المعاصر التي تدرس النصوص الأدبية باصطناع [1] منهج موضوعي تحلل على أساسه الأساليب لتبرز الرؤى التي تنطوي عليها أعمال الكتاب متكشف عن القيم الجمالية لهذه الأعمال انطلاقا من تفكيك الظواهر اللغوية الموجودة في النص " (رابح بوحوش: 2). والأسلوبية كما يعرفها " شارل بالي " هي " دراسة الأفعال التعبيرية للغة، من خلال محتواها العاطفي، أي تعبير أفعال الحساسية عن العاطفة انطلاقا من سلوك اللغة وأفعالها" (رابح بوحوش: 5)، فأسلوبية" شارل بالي " تقوم على تحديد ما في اللغة من أساليب تعبيرية تبرز المفارقات العاطفية، والإرادية، والجمالية، والنفسية، والاجتماعية، وهو إلى هذا يبحث عن هذه الظواهر الأسلوبية في اللغة لا في شيء آخر.

ومن النقاد العرب الذين تطرقوا إلى تعريف الأسلوبية نجد « عبد السلام المسدي » يقول: « وتأتي الأسلوبية لتتبع بصمات الشحن في الخطاب عامة، أو ما يسميه » « ج. مونان » « بالتشويه » الذي يصيب الكلام والذي يحاول المتكلم أن يصيب به سامعه في ضرب من العدوى: فهي إذن تعني بالجانب العاطفي في الظاهرة اللغوية وتقف نفسها على استقصاء الكثافة الشعورية التي يشحن بها المتكلم خطابه في استعماله النوعي، لذلك حدد « بالي » حقل الأسلوبية بظواهر تعبير الكلام وفعل ظواهر الكلام على الحساسية » (عبد السلام المسدي: 41)

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 326

اتجاهات الأسلوبية:

لقد أفضى الاهتمام بالأسلوبيات ونتائجها إلى تنوع حقولها واتجاهاتها:

1- اتجاه الأسلوبيات التعبيرية:

أسس هذا الاتجاه « شارل بالي » الذي درس اللغة من جهة المخاطب والمخاطب وانتهى إلى أنها – أي لغة – لا تعبر عن الفكر[1] إلا من خلال موقف وجداني، أي أن الفكرة المعبرة عنها بوسائل لغوية لا تصير كلاما إلا عبر مرورها بمسالك وجدانية كالأمل، أو الترجي، أو الصبر، أو النهي. (رابح بوحوش: 32)، وبالتالي فمعدن الأسلوبيات التعبيرية هو ما يظهر في اللغة من وسائل تعبيرية تبرز المفارقات العاطفية، والإرادية، الجمالية، وحتى الاجتماعية، والنفسية و « شارل بالي » كان يعد علم الأسلوب واحدا من علم اللغة كعلم الأصوات، وعلم التراكيب وكان موضوعه هو دراسة المسالك والعلامات التي تتوسل بها اللغة لإحداث الانفعال، فعلم الأسلوب يبحث في لغة جميع الناس بما تعكسه من عواطف ومشاعر فجميع الظواهر اللغوية بمستوياتها المختلفة يمكن أن تكشف عن الخواص الأسلوبية الأساسية في اللغة، إذ أن كل الوقائع اللغوية أيا كانت تفصح عن قيمة عاطفية معينة.

2- الأسلوبيات التكوينية (النقدية)

رائد هذا الاتجاه هو « ليوسبيتزر » بتأثير من « كارل فوسلير »، وتدرس الأسلوبيات التكوينية وقائع الكلام، أي تسعى إلى إبراز السمات اللسانية الأصلية لكاتب أو لكتاب معين من خلال اللغة المستعملة، ويتميز هذا الإتجاه بالمعالجة النقدية واصطناع الحدس، والشرح، والتأويل، ولذلك فقد عمد بعض الأسلوبيين إلى تسميته بـ « أدب الأسلوب » أو « أسلوب النقد »، والجدير بالملاحظة في هذا الاتجاه هو أن « سبتزر » رفض التقسيم

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 327

التقليدي بين دراسة الأدب ودراسة اللغة معتمدا الحدس في التوغل على عمق الفعل الأدبي الذي ينتمي إليه من خلال أصالة الشكل اللساني (الأسلوب)، وبرؤيته هذه استطاع « سبيترز » أن يحدث انقلابا فكريا في تاريخ اللسانيات والنقد الجامعي، تجلى في أبحاثه العميقة والمفيدة مثل « دراسات في الأسلوب » (1928)، و « اللسانيات وتاريخ الأدب» (1948)، و « الأسلوبيات[1] (1955)، أما أهم المبادئ التي تقوم عليها الأسلوبيات النقدية فهي كالتالي:

- الانطلاق من داخل النص أثناء التحليل.
- الخطاب الأدبي يعكس فكر المؤلف، وبالتالي فالبحث الأسلوبي هو الخيط الرابط بين اللسانيات وتاريخ الأدب
- تصطنع الأسلوبيات النقدية الحدس وذلك يستوجب أن تقوم الملاحظات والاستنتاجات بالتأكد من صحته.
- يجب على الأسلوبيات النقدية أن تكون نقدا طريقا بالمعنى العام...الخ.
- ويذكر « رابح بوحوش » أن « ليوسبتزر» طبق منهج الأسلوبيات النقدية على أعمال أجنبية لكتاب مشهورين أمثال «كلوديل » و « باريوس » و « بروست » فحلل أساليبهم وانتهى إلى أساليب عجيبة ساهمت في ظهور الأسلوبيات الأدبية، التي عرفت فيما بعد بـ « الأسلوبيات الجديدة »، ومن الملاحظات التي وجهت الأسلوبيات « سبتزر» نذكر قول « المسدي»: « إن أسلوبيات « سبيتزر » انطباعية (...) ذاتية كفرت بعلمانية البحث الأسلوبي، لأنها اعتمدت النقد، والشرح، والتعليل، وهي مقاييس فلولوجية مهمة وضرورية في دراسة المبدع والعملية الإبداعية عند أصحاب الرؤية المعيارية » (رابح بوحوش: 36)

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 328

3- الأسلوبيات البنيوية (الأسلوبيات الوظيفية):

لقد عددت اللسانيات الحديثة أثناء طرحها لفكرة الأسلوب إلى استخدام مصطلح البنية Structure. إن الأسلوبيات البنيوية تحاول كشف المنابع الحقيقية للظاهرة الأسلوبية، ليس في اللغة باعتبارها نظاما مجردا فحسب، وإنما في علاقة عناصرها ووظائفها أيضا[1]

والأسلوبيات البنيوية – على حد تعبير « رابح بوحوش » – بحر متموج وعميق جدا، والداخل إليه إما يصل إلى هدفه فينجح وإما يتيه فيه فيكون الإخفاق، وهذه إحدى مميزات هذا الاتجاه الصعب.

وبما أن لكل اتجاه أو لكل امتصاص مفاهيمه التي تتحكم فيه، فإن الأسلوبيات الوظيفية مفاهيم خاصة بها وهي: البنية – اللغة والكلام – الوظائف اللغوية الست – الوحدات الصوتية المميزة – القيمة الخلافية – الرؤيتان الآنية والزمانية – محورا التأليف والاختيار.

هذه أهم المفاهيم التي قامت عليها الأسلوبيات البنوية، لم نقم بشرحها، ذلك ما يهمنا من الأسلوبيات في مقامنا هذا هو ما يتعلق منها بالجانب السيميائي، حيث أن السيميائيات والأسلوبيات منهجين في دراسة النصوص الأدبية تمخضا عن الدراسات اللسانية الحديثة، وترعرعا في كنفها وتحت رعايتها، وإن كان كل منهما قد حدد وجهته الخاصة، إذ ذهبت الأسلوبيات تتصيد كل ما هو جميل أو فلنقل كل ما هو مميز في كتابات الأدباء لتقوم بدراسته وتحليله، في حين راحت السيميائيات – مقلدة الفلسفة – تبحث عن جوهر الأشياء، محاولة الكشف عن المخفي والمستور، وتعريف كل ما دنسه الغموض والإبهام، وقد نتساءل عن الطريقة التي اتبعها كل منهج من

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 329.

أجل الوصول إلى هدفه، فيجيبنا كل الدارسين المهتمين بشأنهما أن طريقتهما في البحث واحدة، إذ يتخذان من المستوى السطحي للنص الأدبي مطية للتغلغل ما بداخله والكشف عن جواهره ومكنوناته.

إن أوجه التلاقي هذه بين الأسلوبيات والسيميائيات أفرزت لنا[1] ما يسمى بالأسلوبيات السيميائية أو كما تسمى عند بعضهم بأسلوبيات العدول، هذا الاتجاه الذي كان ميلاده مع أواخر القرن التاسع عشر على يد « فون درجبلتس » « حينما أطلقه على دراسة الأسلوب من خلال الانزياحات اللغوية والبلاغية في الكتابة الأدبية، وهي رسائل عدة تفضيلات خاصة يؤثرها الكاتب عند التأليف كاختياره كلمات وصيغا دون غيرها ليعبر بها عن نفسه»

(رابح بوحوش: 41)، وقول الباحث « الانزياحات اللغوية » يحيلنا مباشرة إلى مصطلح العدول الذي لو رجعنا إلى المعاجم العربية لوجدناه يتصف بمعاني الخروج والميل، فقد جاء في لسان العرب لابن منظور «وعدل عن الشيء يعدل عدلا وعدولا حاد، وعن طريق: جار، وعدل إليه عدولا: رجع (...) عدل عنه يعدل عدولا إذا مال كأنه يميل من الواحد إلى الآخر » (ابن منظور: 63). إن العدول إذن في الكتابات الأدبية هو انحراف الكلام عن طبيعته المألوفة، إلى طبيعة مميزة تجعل التعبير أكثر جمالا ورونقا. لقد تطور هذا المفهوم في الدراسات الغربية التي أتت بعد « فون درجبلتس »، فصار عند « ماروزو» هو « دراسة المظهر والجودة الناتجين عن الاختيار بين الوسائل التي تضعها اللغة في متناول المبدع، وهذا الاختيار يمكن أن يقاس بما يسمى حالة الحياد اللغوي، أو الانطلاق من نوع من درجة صفر، في الأسلوب أو من شكل لغوي أقل ما يمكن تمييزه » (رابح بوحوش: 41). وبقيت تقريبا هذه هي التعريفات التي تدور حول مفهوم العدول، إلى أن جاء « بيير جيرو » سنة 1954، وراح يبحث عن مقياس يقيس

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 330

به درجة العدول فانتهى– كما يقول « بوحوش »– إلى أن الألفاظ ذات التوتر غير العادي لدى كاتب معين قياسا إلى التواتر الموضوعي من خلال كتاب معاصرين[1] له، فكون هي الألفاظ المفاتيح عند ذلك الكتاب.

لكن هذه المحاولة لم تنجح ولم تنتشر بين الباحثين، إذ كيف نقيس شيئا منفلتا تماما، ولا يمكن تقيد جماحه على الإطلاق.

أما الباحث المعاصر « هنريش بليث » فقد حدد أسلوبيات العدول بالنظر إلى المعيار النحوي إذ على أساسه يمكن أن يقوم نحوا ثانيا مكونا من صور انزياحية ذات طبيعتين، فهي خرق للمعيار النحوي وتقييد له في نفس الوقت. (رابح بوحوش: 42).

من خلال كل هذه الآراء حول مفهوم العدول نستنتج أن الأسلوبين ينظرون إلى اللغة على أساس مستويين:

1. مستوى اللغة العادية: وهي اللغة المنتشرة عامة الناس، والمراعية للوظيفة الإبلاغية بالدرجة الأولى.

2. مستوى اللغة غير العادية (الإبداعية): وهي اللغة التي تنتهك صيغ الأساليب العادية الجاهزة، المألوفة باحثة عن طاقات أسلوبية وجمالية مميزة تترك أثرها وبصمتها في نفسية المتلقي.

هذا المستوى الثاني من اللغة لا يتاح لكل الناس، بل إنه لا يختص به سوى الأدباء والكتاب الكبار الذين منحوا موهبة لغوية عالي، فاستطاعوا أن ينسجوا من ألفاظ اللغة العادية أسلوبا أدبيا راقيا، خاصا بهم، ولهذا نجد « دوسوسير » قد فرق بين اللغة والكلام حين قال: « إن اللغة والكلام عندنا ليسا بشيء واحد. فإنما هي منه بمثابة قسم معين وإن كان أساسيا والحق يقال. فهي الآن نفسه نتاج اجتماعي لملكة الكلام، ومجموعة من

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 331

المواضعات يتبناها الكيان الاجتماعي ليمكن الأفراد من ممارسة هذه الملكة. وإذا أخذنا الكلام جملة بدا لنا متعدد الأشكال متباين المقومات موزعا في الآن نفسه بين ميادين متعددة بما فيها الفيزيائي والفزيولوجي والنفسي، منتميا[1] » في الآن نفسه إلى ما هو فردي وإلى ما هو اجتماعي. ولا يتسنى لنا ترتيبه ضمن أي قسم من أقسام الظواهر البشرية لأننا لا نستطيع أن نستخرج وحدته» (فردينان دي سوسير: 29).

وهكذا نصل إلى أنه كلما تصرف مستعملو اللغة في هياكل دلالاتها أو أشكال تراتيبها بما يفرج عن المألوف كلما « انتقل كلامه من السمة الإخبارية إلى السمة الإنشائية » كما يقول « المسدي ». إن هذا التصرف ما هو إلا تصادم مع قوانين محوري الاختيار والتركيب من أجل بلوغ ما يسمى في الدراسات الأسلوبية، والنقدية عموما بـ « الشعرية والشعراء كلهم يشقون على أنفسهم من أجل بلوغ الغاية، انظر مثلا إلى قول « الشريف الرضي » يرثي والدته:

أبكيك لو نقــع الغليل بكائــي وأقـول لو ذهب المقال بدائي

طورا تكاثرني الدمــوع وتــارة آوي إلى أكـرومتي وحيائــي

كـم عبــرة نهنهتهــا بأناملــي وسترتها – متجملا – بردائي

ما كنت أدخر في فداك رغيبة لو كان يرجع ميــت بردائــي

إن هذا الكلام قد خرج عن الكلام العادي إلى كلام شاعري بامتياز، أثر فينا وجعلنا نعيش مع « الرضي » آلامه وحزنه العميق على فقد أعز الناس إليه، وقد كان يستطيع التعبير عن ما في نفسه بكلام يألفه ويعفه الجميع، لكن دفقته الشعورية الحزينة لا يمكن أن تتجملها اللغة البسيطة ولا اللغة النثرية، فلجأ إلى ما هو أسمى من ذلك، والعدول قد

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 332

يكون في الصيغ الصرفية، كما قد يكون مقطعيا، وهذا النوع الأخير مختص بالشعر وحده.

نقول إذن الأسلوبيات والسيميائيات منهجان يحومان حول النص الأدبي، وإن كانت السيميائيات تبدو أشمل، حيث تبتلع كل المناهج الأخرى المحيطة بها، ورغم ذلك فإن الأسلوبيات دورها وقيمتها الكبيرة في تحليل النصوص جعلتها تتبوأ مكانة هامة في النقد الأدبي الحديث.[1]

السيمياء والتفكيكية:

السيميائيات والتفكيكية:

يعد مصطلح التفكيكية من المصطلحات المتداولة في الدراسات النقدية المعاصرة، وقد أثير الجدل حوله بسبب ما يتضمنه معناه من مفاهيم معادية للعينات، وهو من أحدث المناهج النقدية النصانية، فكان رائده « جاك دريدا » الذي استفاد من مناهج سابقة، وأضاف إليها مفاهيم خاصة به، وطريقة متفردة لتحليل النصوص بمختلف أنواعها.

كانت أولى مظاهر الجدل تدور حول المقابل العربي للفظ الإنجليزي Deconstruction، فبينما يرى « محمد عناني » أن استخدام مصطلح « التفكيكية » هو استخدام موفق أنه يدل على فك الرتباطات المفترضة بين اللغة، وكل ما يقع خارجها، ونجد مؤلفا « دليل الناقد الأدبي » يذهبان إلى أن مثل هذه الترجمة لا تقترب من مفهوم صاحب النظرية، وإن كانا يقران بأن مصطلح « التقويضية » الذي يستخدمانه يعيبه هو الآخر العيب نفسه، ولكنهما يفضلانه، أما « عبد الله الغذامي » فيفضل مصطلح التشريحية، لأنه يراه أجدر وأحسن بكثير من مصطلح « التفكيكية » التي قد يفهم منها الهدم فقط لا الهدم ثم إعادة البناء. (عبد الله الغذامي: 50).

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 333

والنظرية التفكيكية – حسب نقاد عرب – لا تقبل البناء بعد التفكيك، وصاحب النظرية يرى أن الفكر الماورائي العربي صرح يجب تقويضه، وتتنافى إعادة البناء مع المفهوم، فكل محاولة لإعادة البناء لا تختلف عن الفكر المراد هدمه وهو الفكر الغائي، ولكننا[1] رغم هذه الآراء المتضاربة نفضل استعمال مصطلح « التشريحية » مع « الغذامي ».

1/الجذور التاريخية والفلسفية للنظرية التفكيكية:

لثد استخدم الفلاسفة الإغريق الأوائل مصطلح التفكيك– الذي اكتسب النظرية التفكيكية اسمها منه بعد ذلك – في تحليلهم للمعطيات الرياضية والمنطقية التي تكشف الفكر غير المتماسك أو المنطق الذي يتظاهر بالاتساق، أو البنية الهندسية غير المحكمة، أو المعادلة التي تضمر تناقضا كامنا فيها.

وقد عاد هذا المصطلح الرياضي والمنطقي إلى التواجد– بعد حوالي خمسة وعشرين قرنا– في شكل نظرية أدبية ولغوية، وفلسفية، على يد الفيلسوف الفرنسي المعاصر « جاك دريدا »، لكن قبل « دريدا » يعود التفكيك إلى المزاج الثقافي الفرنسي الذي أفرزه، ثم لفظه بعد ذلك، لأن المزاج الثقافي الفرنسي كان مشكلا من قوى التوحد والتجانس لمدة طويلة، وبما أن التفكيك يقوم في جوهره على رفض المذاهب السابقة، ويخطئ كل المشاريع والتقاليد التي تحجب المعنى وتكبته، فقد اعتبر بديلا عن تلك المذاهب، وبدأ – بذلك – التفكيك في فرنسا على يد « رولان بارث»– وهو تفكيكي أكثر منه بنيوي على حد تعبير « عبد العزيز حمودة» – لكن سرعان ما لفظ التفكيك بدافع نفس قوى المحافظة الموجودة في فرنسا، وذلك عندما اكتشفت حقيقته المتمثلة في نسف التوحد وإلغاء التجانس والدعوة إلى التعدد اللانهائي لتفسير النص، هاجر التفكيكيون الجدد– وعلى رأسهم « جاك دريدا» – في أمريكا المتسمة بالتعددية الثقافية حيث رحبت بهم وأفرزت مدرسة تفكيكية خاصة بها، فاعتبرت بذلك امتدادا للمدرسة الفرنسية وتطويرا

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 335

لها[1]، وقد ضرب التفكيك في عمق التربة الثقافية الأمريكية حتى أصبح سليلا للمدرسة الأمريكية، فلم تعد تذكر جذوره الفرنسية أبدا.

عاد مصطلح التفكيك إلى الظهور كممارسة أدبية، ولغوية، وفلسفية على يد الفيلسوف « جاك دريدا» – كما ذكرنا سالفا – وذلك في كتابه « في علم النحو» الصادر عام 1967، الذي اعتبر تتمة لفلسفة الألماني « هيدجر» في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، حين سعى إلى نقض فكرة الوجود والزمن، فكان بمثابة شعلة اتقاد الانفعال الفلسفي لدى « جاك دريدا» و « دي مان» وغيرهم. ومن جهة أخرى نجد « عبد العزيز حمودة» يعد جذور التفكيك الفلسفية موغلة في السيرورة التاريخية بدءا من مرحلة الشك واليقين، وصولا إلى بوابة الشك، فقد ظهرت التفكيكية – حسبه – في بداية دورة ثنائية الشك واليقين، فقد أدت تجريبية القرن السابع عشر اليقينية، بدعوى التدقيق العلمي والمنهجي إلى توافق فلسفي، فحواها (الذات والموضوع، الداخل والخارج)، لتظهر موجة التشكيك الألمانية مع « كانط» الذي حفز لسلطة العقل الميثافيزيقي، ورفض الانسياق الكلي للتجريب، وفي حبقة الثنائيات نجد الكفة تقلب لصالح التجريبية التي ارتكزت إلى القاعدة البنيوية، هذه الأخيرة التي انفصمت عراها في ظل الزيف وكشف الأقنعة إثر الحربين العالميتين، ليفضى ميدان السبق لما بعد البنيوية التي أعطت الخط للشك والذات، ثم الارتماء إلى متاهات اللايقين بالحقيقة. و « عموما فالتأريخ للتفكيكية من حيث الظهور كان بتقديم « جاك دريدا» لورقته في جامعة « جونز هوكنز» عام 1966 في أمريكا بعنوان « البناء والعلامة واللعب في خطاب العلوم الإنسانية»[2] أتبعها بثلاث كتب رئيسية عام 1968 هي « الكلام والظواهر» « في علم الكتابة » « الكتابة و الاختلاف»، وفيها يطرح أهداف هذه العملية وخصائصها وأسسها الرئيسية (ماهر شفيق فريد: 332). ومن الملاحظ أن جل المؤلفات أجمعت على أن « جاك دريدا » هو الأب

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 336
[2] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 337

التأسيسي لفكرة التفكيك – وإن كان قد استقاها من سابقيه – القائمة على التعمية والتضليل عن مركز النص، بتفكيك أجزائه وهدم افتراضاته،« وتبقى بذلك حلقة اللامعنى والمعنى المنتظر إلى نقطة غير محددة هي إكسير حياته » (ماهر شفيق فريد: 332). من هذا المنطلق، سنحاول عرض أهم المبادئ التي قامت عليها نظرية التفكيك هذه، محاولين الاختصار ما أمكننا ذلك:

أ.نقيض ميثافيزيقا الحضور: إن « دريدا » من خلال هذه النقطة يرفض سرمدية اللوغوس والاحتواء الميثافيزيقي التي تمارس سلطتها على الفكر الغربي، وتجعل فلسفته تتميز بالحضور بفعل العقل، وهي سر أزمة الفكر الغربي الذي يرتكز على بؤرة إشعاع رئيسية (مثل: الأصل، الإنسان...)، ويهمش باقي العناصر، فيقع في حقيقة واهمة. (محمود العشيري: 125)، هذه الحقيقة الواهمة التي ستصبح محددة للوجود، فكل ما هو أساسي موجود بالضرورة، كما عبر عن ذلك « ديكارت » في مقولته الشهيرة « أنا أفكر إذن أنا موجود »، « فالأنا خارج مجال الشك لأنها حاضرة بنفسها بفعل التفكير » (صلاح فضل: 135)، وبهذا فاللغة هي التي تحدد هذا التمييز والواقعية الاستحضارية للشيء فالحضور إذن أساس المعرفة الحقيقية التي نملكها، وهي نقطة خاطئة بفعل دعوى « مركزية الكلمة »، كما نلاحظ أيضا أن « دريدا » ينتقد من خلال هذا الطرح فكرة « دوسوسير » التي تمركزت على إعطاء[1] الأهمية للفظ تحت مسمى « الحضور الذاتي للوعي الذاتي الكامل » حيث محورها في ثنائية الدال والمدلول، هذا الأخير الذي يعده « دريدا » غير ممكن، وكان من تداعيات هذه المسلمة في الفكر الغربي أن أعطى للكلام أسبقية الوجود تماشيا مع الفكر الفلسفي القديم، وعلى هذا الأساس يقوض الفكر البنيوي الذي يتمركز حول العقل لتحديد معان ودلالات نهائية للكلمات، وهذا في رأيه من المستحيلات، لأن العلامة تحيل على علامات سابقة ولاحقة، مما يلغي نهائيا حضور

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 338

المعنى وهويته، فالمعنى لا يخطر إلا في شكل الغياب، لأنه دائما في حركة إرجاء وتكميل (مجموعة مؤلفين: 2016). فالصورة الذهنية الواهمة عي التي تؤكد لنا تواجدية ذلك الشيء، وتسبغ عليه حقيقة افتراضية معينة فعندما نقول: إن كلمة ما تعني كذا فإن شكلا من أشكال الاختزال لحقيقتها أضفى عليها هذا المعنى دون غيره بفعل استعمال شخص ما لها في فاصل زمني معين (إبراهيم خليل: 94)، لذا يوجد معنى نهائي لنص ما يتسم بالحضور المطلق، وهذا علاقات التناقض المتواجدة بداخله، إضافة إلى إعمال البنى التحتية في زعزعة استقراريته، وجعلها تعاني أزمة الحضور لتغيب أي إشارة تدعي إغلاقها الكلي للمعنى.

ب – « الصوتمركزية » و « الكلممركزية»: يرى « دريدا » أن ارتباط الصوت والكلمة بالمركزية المحمومة في عقل الإنسان الأوروبي، والنزوع إلى السلطة هي التي تحفز إلى مفارقة بادية بين الحسي وغير الحسي، فأعطت القيمة للكلمة وهمشت الكتابة خوفا وارتيابا منها، فكان النزوع إلى الكلمة والتركيز على مركزياها (كلممركزية) تحت مسمى « الدال الأسمى »

ومنتهاها « المدلول الأسمى » (مدان ساروب: 54 – 56)، كما أن سبب[1] الخذلان المعرفي هو الاهتمام بالبلاغة والاستعارات، وعموما فإن الصوت كان مهيمنا منذ القديم على الميتافيزيقيا الغربية وعلى الفكر الغربي منذ « أفلاطون » حتى القرن العشرين، وقد كان كل الفلاسفة الغربيين يفضلون التعامل مع الصوت لشفافيته ووضوحه، كما كانوا يخشون الكتابة لغموض دلالتها، وغياب سياقات التواصل التي أوجدتها، فقد اعتبرها كل من « سقراط » و « أفلاطون » بمثابة عقل مخدر (مجموعة مؤلفين: 215)، وهم بهذا يحاولون تأسيس إجراء معرفي متنامي لأنه يبقى مسجونا في قانون محدد، وبهذه الطريقة التعسفية يموت الإبداع، لكن « دريدا » يخالف هذه الرؤية بمنح لغة الكتابة تأشيرة عبور

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 339

تساير لغة الكلام، أو الملفوظ الشفوي، مثبتا أن الكتابة شكل من أشكال الكلام مثلما أن الكلام الملفوظ شكل من أشكال الكتابة (إبراهيم خليل: 100).

ج- الكتابة – الاختلاف – الإرجاء: هي مبادئ اخترعها « جاك دريدا »، وتؤكد على خرق السكونية القديمة فالكتابة عند « دريدا » لا تعني المفهوم التقليدي « الحرف » أو « النقش المرئي »، فالكتابة تصبح هي المركز لتسبق النطق وتدخل في حوار سلمي مع اللغة (رضوان جودت: 60). والكتابة تغطي فضاء للنقاش بين المخرج والممثل حول الحركات، والموسيقة، والمشاهد التي تصير فوق الخشبة دون الإجراء القهري للأوامر، فينتج عن هذا توافق كلي بين الملفوظ والراكن إلى الانفجار الساكن، كتمهيد لخلق نتاج وابتكار يتحد مع المنتظر وحلقة التأصيل.

وخلال هذه العهدة السلمية بين الكلمة والكتابة ينطلق جاسوس تفكيكي آخر يسحب الاختيار القاصر للكلمة من حيث الصورة الشكلية التي يعتمدها « دريدا » قصدا ليؤكد صح اكتشافه، وهي الاختلاف[1] Différance حيث تلاعب بتركيبها اللفظي ليمرر فكرته الهادمة لميتافيزيقيا الحضور، فجعل النقاد يتضاربون في جوهرها وأصلها، أهو الاختلاف أم الإرجاء أم التأجيل؟ (رضوان جودت: 61).

إن نحوية « جاك دريدا » المتكونة من فعل الإرجاء وفعل التأجيل لم تأت عبثا بل قصد « دريدا » إلى كتابة ليبرز أن الفرق بين الحرف « E » و « A » الفرنسيين لا يتجلى إلا من خلال الكتابة، وبذلك يبرهن على عدم غموض الكتابة ويقوض مقولة وضوح اللفظ وحضوره، كما يشير إلى خطر الكتابة على النطق باعتبارها مستمدة من الفراعتة.

II/ كيفية عمل التفكيك داخل النص الأدبي:

يتم التفكيك عبر عمليتين متكاملتين:

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 340

العملية الأولى: تعتمد قراءة عميقة للنصوص– أيا كان نوعها – قراءة تقليدية تثبت بها معانيها الصريحة الرصينة، ثم لا تلبث أن تقلب هذه الحركة مقولة النص الميتافيزيقية ليحتل الأسفل مكان الأعلى، وتقوم بنقض ما وصلت إليه من نتائج، وما يقره النص من معان صريحة، كاشفا عن معان أخرى تناقض ما صرح به هذا في قراءة عكسية بفعل الفجوات والشروح الضمنية التي مضت إليها نظرية التفكيك. (محمود العشيري: 133).

العملية الثانية: وتعمل هذه الحركة داخل النسق الذي يجري تفكيكه والكشف عن عجزه وتناقضه ليتم زحزحة ما تم قلبه حتى لا تدخله الميتافيزيقا من جديد، فيعمل على التقويض والنقض والهدم الكلي للنص (محمود العشيري: 134) فالفجوات الموجودة في طيات المعاني والتراكيب السطحية للنص هي المعول الأساس لتدمير معناه الشمولي وتفكيك لبناته المحورية، ويرى « ودريدا » أن هناك دائما ثغرات[1] في الاتصال تمنع تشكيل صورة كلية، فلعبة الكلمات تمنح النص أو الخطاب أشكالا بلاغية متنوعة (نبيل راغب: 228)، وعموما فالنصوص بمختلف مجالاتها لا يمكنها ادعاء الشمولية والإحاطة القصوى بالمعنى.

وهكذا يكون محك التفسير التفكيكي وممارسته النصية قائما على الحوار الجدلي بين القارئ المسلح بالوعي البينصي والنص، باستبعاد كل الثوابت والتقاليد الجامدة، والتعامل مع العلامة اللغوية باعتبارها فقدت صلة الدم بينها وبين دالتها (عبد العزيز حمودة: 344)، فهناك دائما تزحلق للمدلول ضمن سلسلة لا متناهية من الدلالات، ولتحقق التفكيكية هذه الأهداف تلجأ إلى مبدأ قاعدي آخر « لا شيء خارج النص»، ولا يقصد به الاهتمام بالنص على حساب الواقع الخارجي أو إهمال العناصر المادية الخارجية وعدم الأخذ بها، فهي لا ترمي إلى نفي أهمية التاريخ أو الواقع، وإنما تعني أن كل ذلك محفوظ في داخلية العمل من خلال الاختلاف الذي يمارس التمزيق والقطع في النص

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 341

ويثبت في الوقت نفسه حضور الواقع ضمنيا (محمود العشيري: 148)، أي أن المرجعية المحيطة بتشكيل النص دائما تفرض وجودها واشتغالها فيه، فالنص لم يولد من فراغ.

III/ خصائص التفكيك المحورية:

يمكننا إيجازها فيما يلي:

الأولى: اللغة يغلب عليها طابع الغموض وعدم الثبات وضياع اليقين.

الثانية: عدم وجود منهج تحليلي، فلسفي، أو نقدي يعرض نفسه على النص.

الثالثة: التفكيكية تجعل التحليل أو التفسير عملية مفتوحة وحرة.[1]

فالتفكيكية إذن لا تؤمن أبدا بوحدوية المعنى وبوجود منهج جيد لدراسة النص الأدبي، إنها نظرية تدعو إلى الانفتاح على كل الاحتمالات.

IV/ ما علاقة التفكيكية بالسيميائيات؟:

كما رأينا سابقا، فإن الفرنسي « جاك دريدا » بتزعمه مدرسة التفكيك، آتى بآراء في نهاية الستينات من القرن الماضي، وذلك بعد أن بلغت الأفكار السيمولوجية أوجها مع « رولان بارث » و « جوليا كريستيفا »، وغيرهما، ليأتي « دريدا » بعد استيعابه كل الأفكار النقدية السابقة، وهضمه للفلسفة الغربية بداية من « أرسطو » وتعريجا على « ديكارت »، و « كانط »، و« هيجل »، و « ماركس ، و « فرويد »، ليتناول بعض قضايا الشعر والأدب بوجه عام من وجهة نظر التفكيكية، التي كانت في البداية ترمي إلى « تفكيك العقل البشري في محاولة لتدمير الفلسفة الميتافيزيقية التي ظل الغرب خاضعا لها زمنا طويلا على أنها حقيقة مطلقة » (عبد المالك مرتاض: 22)، فالتفكيكية إذن ذات منطلقات ودعائم فلسفية قائمة على الهدم والبناء– على الحضور والغياب – على الوجود

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 342

والعدم، إنها تشبه السيميائيات في هذه الزاوية الفلسفية، بل إن علاقتها بالفلسفة أقوى بكثير من علاقة السيمولوجيا بهذه الأخيرة، وإنها– أي التفكيكية – إن جاءت لتثور على ما جاء قبلها من نظريات نقدية، فإنها حاولت أن تكون بديلا أحسن ليس إلا.

إن « دريدا » – يقول « الغذامي » – قد أتى منطلقا من نفس الأرض التي انطلق منها « بارث» الذي صور مسارين للنقد الأدبي، أحدهما يطلق « الدال » إلى أقصى ما يمكن أن يذهب إليه حتى إلى ما بعد التحلل[1]، أما الثاني فيأخذ لنفسه بتعليقات المعاني وإشكاليات التفسير، دون أن يتجاوز حدود الإمكانات الدلالية وخلفياتها، فالانطلاقية واحدة، لكن « دريدا » يقلب المعادلة قلبا تاما، وذلك بنقده للفكر الغربي منذ « أرسطو » إلى « دو سوسير » الذي تمركز حول المدلول فيدعو « بارث » لما أسماه بعلم النحوية كأساس لعلم الكتابة، وقد استعار له مصطلحات « دو سوسير » حتى تتبأ بعلم السيمولوجيا، يقول « دريدا »: « سأدعوه بعلم النحوية... ولأن هذا العلم لم يوجد بعد، فإنه لن يمكن لأحد أن يقول ماذا سيكون هذا العلم، لكنه علم يملك الحق في أن يكون، ومكانه معد سلفا، والألسنية ليست إلا جزءا من ذلك العلم العام » (عبد الله الغذامي:52)، فالنحوية إذن إنما هي سيميائيات جديدة مطورة اقترحها « دريدا » بعد أن أرادها ملتقى العلوم، إنها نظرية تظهر « من كل مكان في آن واحد، وبذلك تحمل معها دليل عموميتها والبرهان على أنها ليست وليدة أية بنية إدراكية معينة » (وليم راي: 163)، وكذلك أرادت السيميائيات أن تكون مجمع العلوم المختلفة.

إن « دريدا » قد اعتمد على مفاهيم ومصطلحات كثيرة أنتجتها الألسنية وتبناها النقد البنيوي والسيميائي، لكنه حاول تطوير هذه المفاهيم بحسب وجهة نظره، وإضافة مصطلحات جديدة كمفهوم الأثر (عبد المالك مرتاض: 21) والأثر هو القيمة الجمالية التي تجري وراءها كل النصوص ويتصيدها كل قراء الأدب (عبد المالك مرتاض: 53)،

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 343

ويواصل « الغذامي » أن الأثر مفهوم جاء كبديل لإشارة « دوسوسير » التي ينبثق من قلب النص كقوة تتشكل بها الكتابة، ويصير (الأثر) وحدة نظرية في فكرة النحوية، ترتكز الفكرة بكل طاقتها عليه، ومن خلاله تنتعش الكتابة (الغذامي: 54) وكذلك تعاملت السيميائيات مع الإشارة[1].

إن أهم الأفكار التفكيكية التي تبناها « دريدا » – وهي نفسها الأفكار التي تقوم عليها السيميائيات – التأكد على قيمة النص الأدبي، حتى قال « لا وجود لشيء خارج النص »

(الغذامي: 56)، والحقيقة أن هذه المقولة بنيوية اعتمدت من طرف المدارس اللاحقة، وانطلاقا من هذا الرأي « فإن التفكيكية – كما يقول « ليتش » – تعمل من داخل الص لتبحث عن

(الأثر) وتستخرج من جوف النص السيمولوجية المخفية فيه، والتي تتحرك داخله كالسراب» (الغذامي: 56 – 57).

كما يتفق التفكيكيون مع البنيويين والسيميائيين أيضا على أن الكتابة تستقل بنفسها وعالمها، ولا شيء أبدا أصبح يأذن للناقد بأن يواجه الإبداع بالواقع من أجل الحكم بقيمته أو حتى الحكم بمقاربته الحقيقية (عبد المالك مرتاض: 22) وما يلاحظ على « دريدا » أنه لا يختلف عن « بارث » كان يتطور باستمرار فإذا هو بنيوي تارة، وألسني تارة أخرة، وسيميائي أحيانا – أم « دريدا » فإنه ناقد ثابت في آرائه، حيث نجده في كتابه « الكتابة والاختلاف» يقول: « النقد الأدبي في كل عهد بالجوهر والمصير» (عبد المالك مرتاض: 22)، وكل هذه الأفكار التي تبنتها معظم المدارس الحداثية، إنما هي مستمدة من جدول واحد هو الألسنية التي عملت على علمنة الدرس اللغوي، ليتبناها النقاد من

[1] - المرجع نفسه، ص 344

أجل علمنة النقد الأدبي، والقراءة التفكيكية « قراءة حرة ولكنها نظامية وجادة، وفيها يتوحد القديم الموروث وكل معطياته مع الجديد المبتكر، وكل موحياته من خلال مفهوم (السياق)، حيث يكون التحول » (الغذامي: 57)، ومبدأ إعطاء الحرية للقارئ، والتسليم بأن النص الأدبي ذو معان وإيحاءات متعددة تفهم من طرف المتلقي[1] مبدأ قال به السيميائيون من قبل، وتبنوه في كل قراءاتهم.

لم تكن التفكيكية في الحقيقة إلا وجها آخر من أوجه التفكير الغربي الذي لا يكاد يقف على رأي إلا وينقضه متجها صوب رأي آخر، دون أن يلغي تماما المرتكزات الأساسية لهذا الفكر، وقد لاحظنا هذا بجلاء مع مدرسة التفكيك التي رغم الكثيرون أنها ثورة حقيقية على المبادئ السابقة، لكننا لاحظنا أنها لم تكن إلا تطويرا لمبادئ البنيوية والسيميائيات.[2]

[1] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 345
[2] - المرجع نفسه، ص 346

الفصل الثالث

تطبيق المنهج السيميائي

عند النقاد العرب

إن الموازنة بين الغرب والعرب في تلقي المناهج النقدية الجديدة يكشف أنه تم تلقي المناهج التي نمت في التربة الغربية بشكل مألوف، لأنها نتيجة بحثية ضمن سيرورة عمل متسارعة نحو تطوير تلك المناهج، لتتناول معظم مجالات الحياة، وتحاول أن تصبح علماً بذاتها، في ظل الفاعلية المعرفية الغربية، وعندما عمدنا إلى نقل هذه الاتجاهات النقدية الجديدة دون تأمين الوسيط، فإننا نكون قد حكمنا عليها بالموت سلفاً، حيث تم تلقي المناهج في الثقافة العربية في اطار ما تتلقاه من متغيرات تطرأ عليها بصفتها مستقبلاً لمنتجات الغرب بعامة، والمنتج الثقافي والأدبي والنقدي بخاصة ضمن ظروف مغايرة كلياً، حيث يبقى لتلقي العرب للتطورات العلمية والمعرفية وضع خاص.

ولم يكن ما حدث مع السيمياء مختلفاً كثيراً، حيث إن المتتبع للحركة السيمائية في العالم العربي، يدرك أنها ظهرت في ظروف تختلف اختلافاً يكاد يكون جذرياً عن تلك التي رافقت ولادتها في البحوث الأوروبية، وهو اختلاف نلمسه على جميع الأصعدة.*1*

ولعل هذا أحد الأسباب في تأخر الثقافة العربية في توليد نظريات نقدية، ومن ثمة المراوحة في موقع التلقي السلبي غالباً، وعدم تجاوز الإفادة من موجة التطور العلمي والمنهجي والمعرفي.

وقد يقع التقصير في مواكبة المناهج العلمية والمعرفية والنقدية العالمية في جزء كبير منه على القارئ العربي الراهن ذاته، الذي لم يستطع تمثل تلك الثقافة على العكس من الأجيال السابقة كما يرى بعض المهتمين التي امتلكت عقلية تركيبية هاضمة استطاعت أن توائم بين القديم والجديد، وبين الأصيل والوافد حتى ضاعت الحدود الفاصلة بين الثقافتين.*2*

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 72.

2- المرجع نفسه، ص 73.

والمشكلة الكبرى اليوم أن الانكفاء على الذات لم يعد مقبولاً، لأن ثورة الاتصالات والمعرفة ولدت سياقاً ثقافياً اخترق قوانين التلقي وتجاوزها، وفتح الاحتمالات، وعصف بكل محاولات الإنحسار أو التضييق أو العيش المنعزل، وأنشأ هذا حالة تستدعي الإعتراف بضرورة الوعي الثقافي، وما دمنا نعترف بالأثار العظيمة المترتبة على النقلة الكبرى في وسائل الاتصال، علينا أيضاً الاعتراف بأهمية تفعيل الوعي على أصعدة الأفراد والجماعات.

وقد أمنت التقنيات الحديثة المزيد من فرص التقدم للمتلقي العربي، فأصبح يستطيع شراء كتاب حديث في لحظة توقيعه في أمريكا، ويرى بعضهم أن تلك التقنيات هي المعول عليها في جسر ما فات، وفتح باب الثقافة على مصراعيه، في مجال حيوي من مجالات سيمياء الكون، وهي تمثل نموذجاً يحدد شروط إنتاج وتبادل وتلقي الأخبار "المعرفة" التي تتمظهر على شكل خطابات أدبية وجمالية ومؤسساتية وسياسية وغيرها، هذه الشروط التي تقترن عامة بسيرورة كونية هي خرق الحدود بين الفضاءات والمجالات السيميوطيقية.[1]

ترسخ عند مشتغلين كثيرين في الثقافة العربية أن الحل الأمثل لمواكبة القصور في مناهجها المعرفية يكمن في الترجمة، فهي المنقذ لجسر الهوة الثقافية العربية حيث ستظل الترجمة الأدبية من القضايا المهمة في الحياة الثقافية العربية لأنها ليست فقط مكان حوار ولكنها أيضاً محاولة لإدراك موقعنا من حركة التاريخ، والترجمة تستدعي إن آجلاً أو عاجلاً التأليف.

ولم يقتصر دور الترجمة على كونها طريقة لتلقي المعرفة في الثقافة العربية، بل أخذت دوراً أساسياً في الحضارة الغربية ذاتها، ولم تتوان عن تلقي المعرفة من أي جهة كانت وبأي وسيلة.[2]

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية ، ص 73.

2- المرجع نفسه ، ص 74.

"فالترجمة" منذ القديم كانت احدى الوسائل المعرفية لتطوير المفاهيم، وتحسين المستوى الثقافي، كما في الحضارة الفرنسية ذاتها التي تقبلت الترجمات، وادب الرحلات وسواها، لتوسم باللغة المضياف حيث تعتني بحوالي ثلاثة آلاف كلمة مأخوذة من لغات شديدة الاختلاف.[1]

وربما لم تستطع الحضارة العربية الإفادة من حركة "الترجمة" بشكل مثمر، لكنها تبقى وسيلة لا بد منها كل ما نجده من مواقف متباينة، ومن الضروري تكثيف حضورها عبر وجود مؤسسات منهجية تنظم عمليات الترجمة، وتحدد مسارها بحسب حاجة الثقافة العربية، ومن ثم تتداول الإنتاج المترجم ضمن هيئات تختص بالحوار في مضمون النصوص المترجمة، وتضعه في خانات المعرفة العربية بشكل يتناسب معها.

ولم يمنع التأخر في الترجمة من وصول المعارف الغربية ومحاولة تبنيها، وصهرها مع التراث العربي في عملية تركيبية بطيئة حينا، وسريعة حيناً آخر بحسب حاجة المجتمع للوافد، ورغبته في تشرب الجديد.[2]

وظهر تأخر الثقافة العربية في ترجمة السيمياء في معظم الكتب منها كتب **امبرتوايكو** التي تأخرت ترجمتها كثيراً، فهذا كتاب "القارئ في الحكاية الذي صدر بلغته الأصلية عام 1979، ترجم للعربية عام 1996 أما "السيميائية وفلسفة اللغة" الذي صدر عام 1989، فقد ترجم للعربية عام2007[3]، أما أحدث توجهات السيمائية من مثل كتاب **ألجيرداس، ج. غريماس** و**جاك فونتنيي** "سيمائيات الأهواء" فقد صدر بلغته الأصلية عام 1991 وترجم إلى العربية عام 2010 وكتاب **جوزيق كورتيس** "مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية" صدر بلغته الأصلية عام 1996 وترجم إلى العربية عام 2007.

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية ، ص 74.

2- المرجع نفسه ، ص 75.

3- نفسه ، ص 76.

وكتاب **يوري لوتمان** "سيمياء الكون" صدر بلغته الأصلية عام 1984 ووصل للقارئ العربي في هذا العام 2011... الخ[1].

وصلت السيميائية إلى الثقافة العربية، كما المناهج النقدية الأخرى من خلال ترجمة الكتب أو المقالات المنشورة في الدوريات، أو عبر الدارسين الأكاديميين العرب الذين درسوا في الجامعات الغربية.

وأعيدت سيرة الثقافة العربية مع المناهج في اطار استقبال السيمياء، ومرت كغيرها بمرحلة زمنية حتى استطاع فريق من الدارسين تمثلها، ومحاولة الإفادة من معطياتها، وانشطرت إلى شطرين: شطر نظري، وشطر تطبيقي، وبدا أن الوضوح النظري لم يكن منفصلاً عن الدراسات التطبيقية، بل متكامل معها.[2]

ولم تمر فترة طويلة، إلا وبدأ الحديث عن سيميائيات متعددة اهتم كل منها بمظهر من مظاهر العلامة السيميائية (المظهر التواصلي) و(المظهر الدلالي) و(المظهر الثقافي) و(المظهر التداولي).

وتجدر الاشارة إلى بعض المحطات المفصلية في تاريخ استقبالها في الثقافة العربية بصفتها معرفة جديدة يمكن الإفادة منها في دراسة النصوص الأدبية، إذ تذكر بعض المصادر إلى أن أول من أشار إلى السيمياء في الثقافة العربية **زكي نجيب محمود** في كتابه "خرافة الميتافيزيقيا" عام 1953[3].

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية ، ص76.

2- المرجع نفسه ، ص 89.

3- نفسه ، ص 90.

بالاستناد إلى ما دعي بعلم الرموز كما أسماه الفيلسوف النمساوي الأصل الأمريكي الجنسية **رودولف كارنب** 1891-1970. وقد جاء في كتاب **زكي نجيب محمود** تقسيم كارناب للسيميائية.

1. البرجماطيقا pargmatics، وهي تبحث في المتكلم نفسه باعتباره أداة كلام.
2. السمانطيقا semantics وهي البحث في مدلولات الألقاظ.
3. السنتاطيقا syntax وتعني بالبحث في العبارات اللفظية نفسها من حيث تركيبها، وتكوينها بغض النظر عن المتكلم، وبغض النظر أيضاً عما تشير إليه الألفاظ من حيث مدلولاتها.*1*

وأخذ اصدار الكتب يتتالى ابتداء من منتصف الثمانينات خاصة على المستوى النظري من خلال تقديم السيميائية في اللغة العربية، أومن خلال ترجمة عدد من الكتب من لغاتها الأصلية، اضافة إلى محاولات متعددة لتطبيقها على الأجناس الأدبية المختلفة، قبل أن تبدأ دور النشر بنشر أطروحات اعدت غالباً في الجامعات المغربية جعلت من النص الأدبي العربي مادة للتحليل السيميائي تشي بالدور الريادي لعدد من الجامعات في نشر المعرفة وخدمة البحث العلمي.*2*

وتنبغي الإشارة كذلك إلى الدور المركزي الذي لعبته الدوريات في توطين حضورها في الثقافة العربية، وشكلت العقود الثلاثة الأخيرة مدار اهتمام بالسيمائية خاصة في العقدين الأخيرين*3*.

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية ، ص90.

2- المرجع نفسه ، ص90.

3 - نفسه ، ص90.

إذ لا تكاد الأعداد السنوية لدورية من الدوريات العربية النقدية والثقافية تخلو من مقالة حاولت التعريف بالسيميائية وبدورها المأمول في الثقافة العربية، أوسعت لتقديم قراءة في أحد النصوص العربية.[1]

وتدل قراءة الدوريات الرئيسية في الثقافة العربية على أن أول دراسة نشرت في دورية عربية وطبقت على الرواية للناقد سامي سويدان، إذ حاول الناقد الإفادة من عدد من المعطيات السيميائية لمقاربة الرواية الشهيرة "اللص والكلاب" واستعمل الناقد مصطلح السيميائية القصصية بديلا عن السيميائية السردية لأنها تقدم منهجية محدثة في فهم وتحليل النصوص الأدبية منها بشكل خاص، تعدو وثبة متقدمة على ما شاع فيهما حتى اليوم، إلى حد تكاد تتصدر معه واجهة الاهتمامات الرئيسية في ميادين البحث الحديث للنصوص ومعالجتها.

وقد تحدث الناقد عن العوامل والمستوى التركيبي والترسيمة والتحليل النحوي، والممثلين وأتبع دراسته المكثفة بثبت للمصطلحات المستعملة فيها وأشار إلى أن هذه الدراسة في صورتها الأولى جزء من أطروحة دكتوراه أعدها في باريس.[2]

وحاولت دراسة معجب الزهراني المعنونة في المقاربة السيميائية، الكشف عن جذور السيمياء وتسمياتها وامكانية الإفادة منها في قراءة الأدب العربي وهاهنا من المهم الإشارة إلى أن الدور المأمول الذي قامت به الدوريات العربية في ايصال السيميائية إلى الحركة العربية ليس بجديد عليها[3]

---

1 – آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية ، ص 90-91.

2 – المرجع نفسه ، ص91.

3– نفسه ، ص91.

فالمتأمل يجد أن أثر الدوريات في الثقافة العربية المعاصرة كان دوراً مركزياً منذ بداية إصدارها، ولعل من الادلة على أهمية ما نشر فيها من دراسات أن معظم ما كتب عن السيمياء ترجمة *1* وتنظيراً وتطبيقاً قد نشر في كتب لاحقة لكتابها.

وقد بقيت مجموعة من الإجراءات السيميائية في عدد من الدراسات العربية وفية للسيميائية الكلاسكية ولم تأخذ في الحسبان التطورات الجذرية التي تصدرت المبحث الأول في كتابه، الذي يشتمل على الاعتراضات المنهجية التي سجلها تلامذة غريماس بخصوص المربع السيميائي، المسار التوليدي، السردية. في ظل انتصار بعض المهتمين للنقد الإجرائي للتحليل المحايث الذي جاء في هيئة ردة فعل على "المناهج التي تعنى بدراسة إطار الأدب ومحيطه وأسبابه الخارجية"*2*.

وفي محاولة لتوصيف حضور السيميائية في الثقافة العربية يمكن القول إنها مرت بمرحلتين رئيسيتين:

المرحلة الأولى: كانت فيها حاضرة، لكنها غير فاعلة، وتمتد من السبعينيات إلى منتصف التسعينيات، وهذه المرحلة عنيت بتوطين الجانب النظري وتهيئة قبول للسيميائية، وقد اتجه قسم من الدراسات السيميائية نحو السيرة الذاتية، وقسم نحو الشعر مثل ما قام به (عبد الملك مرتاض)، وقسم منها نحو النص السردي التراثي كدراسته لنص من (ألف ليلة وليلة)، و**محمد الناصر العجيمي** في دراسته لنصوص (عبد الله بن المقفع) و(عبد الحميد بورايو) في تحليله لنصوص من (كليلة ودمنة)*3*.

1- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية ، ص 91.

2- المرجع نفسه ، ص 92.

3 - نفسه ، ص92.

وقد حار بعض الدارسين في تحديد أسباب الاختلاط في الاتجاهات، وتداخلها فـ "إذا كانت الساحة النقدية قد عرفت تخلفاً كبيراً في مجال ترجمة البحوث السيميائية، فإن السؤال الذي يطرح نفسه بحدة، يتعلق بطبيعة النصوص الغزيرة التابعة لمدرسة باريس التي يقع عليها الاختيار والأولويات التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان في عملية انتقائها."

والمرحلة الثانية: مرحلة الفاعلية والانتقال من الإطار النظري إلى الإطار التطبيقي، وقد تواكبت هذه المرحلة مع بروز حضور الرواية العربية، وإقامة الملتقيات الخاصة بالسيمياء في الجامعات الجزائرية والمغربية، والمختبرات والملتقيات والكتب التطبيقية والتنظيرية المتنوعة، التي أفرزت أعلاماً واتجاهات سيميائية.

وبيدا أن الدارسين العرب، الذين تتلمذوا على أيدي أعلامها مثل **غريماس** و**كورتيس** و**إيكو** و**بارت** قد بدأت نتائج أعمالهم تظهر، خاصة بعد انتشار ثقافة التأويل والتفكيك، وعدم الاكتفاء برصد العلامة، في ظل نظريات القراءة، والسعي لإنتاج الدلالة بدلاً من تفسيرها، والبحث في لا نهائيتها، وهنا يمكن التفريق بين نقاد سيميائيين محترفين أنجزوا دراسات تطبيقية شكلت علامات مفصلية في تاريخ النقد السيميائي مثل **سعيد بنكراد**. و**عبد اللطيف محفوظ** و**عبد المجيد نوسي** و**محمد الداهي** و**رشيد بن مالك**، ودارسين أنجزوا دراسات أكاديمية وغير أكاديمية نشرت في كتب أو مجلات حاولوا تطبيق السيميائية تطبيقاً مدرسياً حرفياً...*1*

والمهتمون بالسيميائية تتجاذبهم رؤيتان: الأولى هي توطين حضورها في الثقافة العربية، وشرحها للمتلقين، وتحويلها من مادة ثقافية متخصصة إلى معرفة يمكن أن تفيد منها شريحة واسعة.

1 – آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية ، ص93.

والثانية الخوف من أن مثل هذا التبسيط قد يقود إلى تجريدها من خصوصيتها العلمية، ويجعلها تتخلى عن عمقها، وتميزها المنهجي والمعرفي[1].

وعانت السيميائية مثل سواها من الاتجاهات النقدية من تباينات في استقبالها كما رأينا، فقبل أن يتعرف الجمهور إلى سماتها، ومصطلحاتها، وطرائقها التحليلية، بدأ تداخلها مع التأويل والتفكيك والنقد الثقافي يعلن عن نفسه بصفة هذه العلوم معارف متممة لاشتغالها خاصة في ظل بعض اتجاهاتها، لكن تداخلها مع المناهج النقدية والنظريات الثقافية نما في بعض مظاهره على ضعف في المعرفة، وهذا الضعف يجافي طبيعة النقد.

وأثيرت إبان تلقي السيميائية إشكالية تشتت الثقافة العربية بين الخصوصية الثقافية والتعددية، بما أن هذه القضية راحت تشغل بال باحثين عديدين ليس في الثقافات غير الفاعلة، بل حتى في الثقافات التي توسم بـ (المركزية) ويمكن العثور على عدد من الاتجاهات في النقد التطبيقي للسيميائية في الرواية العربية التي لا تعني إخلاص ناقد لهذا الاتجاه أو ذاك، بل تعني تطبيقات متداخلة حيناً، ونقية حيناً أخر مثل: الاتجاه الباريسي، والاتجاه الثقافي، والاتجاه التداولي، والاتجاه التوفيقي.[2]

والمتمعن في حركة النقد السيميائي العربي يجد أن عدداً من الدراسات حاولت الإفادة مما يمكن دعوته بالسيمياء العامة، وقراءة العلامات في ضوء فهمها، والتمعن في دورها وفلسفتها، دون الدخول في تفاصيلها، في حين أن عدداً آخر من الدراسات قدمت تطبيقات عربية في الرواية قائمة على الأرضية النظرية الثقافية العربية[3].

1- المرجع نفسه ، ص94.

2- آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية ، ص94.

3- المرجع نفسه ، ص94.

ورغم أهمية "السيميائية" في الفكر النقدي إلا أنها عرفت هي الأخرى هجوماً نقدياً من قبل النقاد كغيرها من المناهج الجديدة، وهذا ما نلمسه عند الناقد "حميد سمير" حيث اعتبر المناهج الفكرية والتيارات النقدية الأدبية والمدارس الفلسفية فب ظل النظام العلمي الجديد تستورد هي الأخرى وتجلب إلى العالم العربي الاسلامي بالجملة والتقسيط كما تجلب السلع والبضائع، منها ما هو صالح ومنها دون ذلك، بل إن بعضها قد انتهت مدة صلاحيته ولم تعد الثقافة الغربية نفسها تقبل به كما هو شأن المناهج البنيوية وما بعد البنيوية، تلك التي تدعو إلى اللامعنى واقصاء المقاصد، ولكنها في الثقافة العربية مازالت تستقبل بحفاوة كبيرة ويتلقاها المثقفون بإعجاب شديد، فالواقع كما يقول "شكري عياد" شاهد بأن "النخبة عندنا تقنع حتى في مجال الثقافة بآخر ما أنتجته المصانع الأوروبية أو الأمريكية، وقد تضع في أعز مكان في الصالون ما يلقيه الغربيون على جانب الطريق[1]".

ورغم هذا الهجوم النقدي إلا أن المنهج السيميائي تبوأ موقعاً متقدماً في انشغالات النقد العربي الحديث حتى أصبح منهجاً وتصوراً ونظرية وعلما لا يمكن الاستغناء عنه لما أظهر عند الكثير من الدارسين والباحثين من نجاعة تحليلية وكفاءة تشريحية في شتى التخصصات، ولعل من البديهيات أن المناهج النقدية الجديدة عندما تدخل ثقافة ما يتطلب قبولها زمناً يطول أو يقصر اعتماداً على عوامل التلاقي والاختلاف بين هذه المناهج وتلك الثقافة سواء على مستوى التراث أم المعاصرة، وقد أشرنا إلى أن ثمة روابط متينة بين السيميائية والثقافة العربية[2].

دعا أحد النقاد إلى الاعتقاد بـ "أن العربية تستطيع ما بين إرثها العلامي المبعثر والمتشتت، ووعيها بأهمية النسق والمنهج ونظرية العلاقات، أن تقيم للعلاماتية درسا علمياً،

---

[1]– حميد سمير، الحداثة المقلدة في النقد السعودي الحديث قراءة نقدية في تفكيكية محمد الغذامي مجلة علامات في النقد ملتقى قراءة النص الثاني عشر التحديث النقدي والأدبي في المملكة العربية السعودية ج2، م20، ع77، محرم 1435هـ، نوفمبر 2013، ص309.

2 – محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص163.

كما تستطيع أن تساهم في الجهد العالمي الذي صار يرى أن العلامية أم لكل العلوم بلا منازع".

ويبدو أن هذا الاعتقاد قد خفف من وطأة حداثة هذا المنهج على المستقبل العربي، فكان الناقد العربي يتعامل مع هذا المنهج، وكأنه جزء من الثقافة العربية وقد عمد بعض النقاد، ومنهم **عادل فاخوري** و**نصر حامد أبو زيد** إلى تأصيل الفهم السيميائي في الفكر العربي التراثي*1*، فجاءت نتائج هذا الاستقبال بشيء من الانجاز على مستوى "الشعر" و"النثر" مع وجود التفاوت، ولا سيما في ثمانينات القرن العشرين، وكان التناول السيميائي للإبداع القصصي أكثر مساحة من تناوله للشعر، وقد صرح هذا في وقت **مبكر عز الدين المناصرة** حين قال: "لقد حققت السيميائية بعض النجاحات المحدودة في الأقطار المغاربية لكن التطبيقات على النصوص العربية ما تزال ضئيلة وشكلانية، فالتطبيق في مجال السرديات السيميائية لاقى بعض النجاح.."، وإذا كانت السيميائية السردية قد لاقت بعض النجاحات في ذلك الوقت على الرغم من حداثة دخول هذا المنهج، فإنها فيما بعد أصبحت منهجاً نقدياً تبناه جمع كثير من النقاد الذين اخلصوا له في التنظير والتطبيق على حد سواء.

وعن إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث تناول عبد العالي بوطيب هذه القضية بإعتبارها قضية معقدة حيث تعتبر قضية المنهج من القضايا الشائكة التي كانت ولاتزال تحظى باهتمام كثير من الباحثين، على اختلاف مجالاتهم، وهو اهتمام لا علاقة له إطلاقا بها يطبع تعامل المبتدئين منهم مع بعض القضايا، من: " فضول فكري أو نشوة ذهنية" بقدر ما هو تعبير عن القيمة الحقيقية المتزايدة التي أخذت تحظى بها هذه القضية في مجال البحث العلمي بمختلف جوانبه ومستوياته لا باعتبارها:" مفتاح التحكم في كل بحث، ونجوع

1 – محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث ، ص163–164.

كل دراسة" والأداة المساعدة على استنطاق القضايا وتوليد الأفكار، كما يرى ياسبرز: " إن قدرتنا على الإبداع، تكمن في قدرتنا على إعادة توليد الأفكار التي تلقيناها عبر التاريخ، وبدون المناهج الصالحة تبقى المعطيات خرساء نستنطقها فلا تحبيب". وإنها لكونها أساسا وإضافة لكل ما سبق: قواعد مؤكدة وضابطة، إذا راعاها الإنسان مراعاة دقيقة، كان في مأمن من أن يحسب صوابا ما هو الخطأ، كما قال ديكارت.

وهو ما يفسر دون شك، التراكم الكمي الهائل الحاصل في حجم الدراسات المنجزة حول هذا الموضوع، سواء في شكل أبحاث أو رسائل وأطروحات. غير أن هذا التراكم العددي لا يرافقه للأسف الشديد أحيانا وعي نظري نوعي بعمق الإشكالية المطروحة في تشعباتها وابعادها المختلفة. مما يجعلنا نعتقد مخلصين، بأن هذا الموضوع، رغم ما ستنفذه من جهود، مازال في أمس الحاجة للمزيد من الدراسة والتمحيص فـ: "سؤال المنهج في سياقنا الثقافي الراهن (...) لا يزال مفتوحا ومطروحا، لم يستفرغ حمولته، ولم ينته إلى قرار"[1].

ومرد ذلك طبعا لعدة أسباب، منها ما له علاقة مباشرة بالطبيعة الخاصة للمناهج، باعتبارها أدوات إجرائية يجب أن تخضع دوما وأبدا للفحص والتطوير المستمرين في محاولة لتحسين مردوديتها، وجعلها مواكبة للتطورات الحاصلة في المجالات المعرفية الموظفة لخدمتنا، خصوصا و: " المقاييس المنهجية ليست في مأمن من كل نقد، إذا يمكن إعادة فحصها وتحسينها، وتعويضها بأفضل منها".

---

1 – عبد العالي بوطيب، إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، عالم الفكر تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، المجلد 23، العدد 01، 2 يوليو (سبتمبر، أكتوبر، ديسمبر 1994، ص 455.

ومنها ما يعود للممارسات النقدية العربية الحالة، وما تعرفه أحيانا من تعامل غير سليم ولاواع مع المناهج، قديمها وحديثها، مما انعكست آثاره سلبا على الخطاب النقدي العربي عامة، في شكل (ظواهر مرضية(اختلفت أسماؤها من باحث لآخر، والمسمى طبعا واحد، حاول تشخيصها أحد الباحثين بقوله: "إن ما يقال عن مقلديهم من العرب يكاد أن يفرغ محاولاتهم من كل لإيجاب، إذا تتضخم المآخذ لا سيما والمعطيات المشار إليها تكاد أن تكون غي ذات صلة بيئة الأدب العربي في بعدها الاجتماعي والنفسي والاقتصادي، دون أن نتحدث عن طبيعة اللغة.

ولعل خلف هذه الحقيقة، تكمن بعض أسرار التعثر الدي يعانيه النقد العربي الجديد، وهو يسعى إلى محاولة تطبيق تلكم المناهج، مما جعله غالبا ما يبقى في إطار التنظير ولا يقترب من النص إلا في نطاق محدود، وإذا فعل فإنه يزيد في إبراز مدى التنافر الذي يحول دون توظيف المنهج.

لهذه الأسباب كلها، ولأخرى تخرج عن نطاق حديثينا، تستمد مسألة تناول هذه القضية/ الإشكالية مشروعيتها واهميتها. خصوصا بعد الذي أشرنا إليه من مظاهر الازمة الراهنة، التي تتخبط فيها خطابنا النقدي، نتيجة الانفتاح اللامشروط الذي عرفته الساحة الثقافية العربية من السبعينات إلى الآن، على التيارات والمذاهب الفكرية المختلفة، وابتلاعها دون هضم ولا استيعاب أحيانا، مع ما صاحبها من تهافت على أحداث المناهج التي تعرفها الساحة الثقافية الغربية، دون استحضار ما يتطلبه ذلك من نقد وحرص شديدين، مراعاة لاختلاف ظروفها

التاريخية والمعرفية، ذلك أنه إذا كانت الحتمية التاريخية تفرض علينا الانفتاح على جميع المعارف، إن نحن أردنا مسايرة الركب الحضاري في وتيرة تقدمه المتسارعة، فإنه يجب علينا الحرص على أن لا تقتلع رياح الانفتاح جذورنا من تربتها، فتفقدنا خصوصيتنا، وتحولنا لنسخة مشوهة للآخر، عملا بنصيحة تاغور القائلة: " إني على استعداد لأن أفتح نوافذي في وجه الرياح، لكن شريطة أن لا تقتلعني هذه الرياح من مكاني"، لأن الانفتاح كما هو معروف أداة لاكتشاف الذات عبر الآخر، لا لإضاعتها وإذابتها فيه، كما هو حاصل الآن، وهذا ما أكد عليه أحد الباحثين بقوله: " لا بد من أن نقوم بعملية مسح شامل للمناهج المعاصرة، أي مناهج الأغيار، من أجل أن نكتشف سؤالنا ومنهجنا الخاص (...) أنا لا يمكنني أن أفحص تراثي إذا أغلقت بابي ونوافذي، وظلت داخل تراثي. " شريطة طبعا ألا يتحول الانفتاح: " لا نبطاح". مما عاينه وعابه صراحة أحد المفكرين على بعض القراءات*1* النقدية التي تحاول توظيف المناهج الغربية المستوردة في دراستها للادب العربي حين قال: "ونحن حين ننظر في محاولات نقادنا في المرحلة الحديثة المعاصرة، نجد أنهم سعوا إلى التوسل ببعض مناهج النقد الجديد، التي أعطت ثمارا كلية أو جزئية عند الغربين، ولكن سعيهم لم يتجاوز التجريب، الذي لم يتح له أن ينم دون الوقوع في الخلل، وهو الخلل مرده إلى أن التطبيق لم يكن متقنا وسليما، وما كان له أن يأتي على الوجه الأنسب بسبب الاختلاف الذي يمس نوع المعطيات، ومدى تأثيرها،

1 – عبد العالي بوطيب، إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، عالم الفكر، ص 456.

حين تكون مستخلصة من بيئة، ويحاول إلصاقها بيئة أخرى من جهة، والذي يمس طبيعة التعبير وأداته وكل ما يرتبط بهما من جهة أخرى".

ولتجنب خطابنا النقدي بعضا من هذه المثالب أرى من الواجب التذكير ببعض المبادئ الاساسية التي لا بد من استحضارها عند كل تعامل منهجي يتوخى استغلال إيجابيات المناهج الإجرائية في الحدود العقلانية والتاريخية الموضوعية لها بعيدا عن كل تهافت عشوائي تعود آثاره السلبية، إن آجلا أو عاجلا، على خطابنا النقدي العربي، ويمكن إجمال هذه المبادئ في النقط الأساسية الثالثة التالية:

1- ضرورة المنهج في شموليته:

إذا كان موضوع المنهج قد شغل، كما أسلفنا، حيزا كبير من اهتمام الباحثين، لما له من دور على صعيد كل بحث، فإن قدار كبيرا من المشاكل التي تعرفها هذه القضية، مردها أساسا، على ما أعتقد، لسطحية الفهم الذي يتم التعامل من خلاله معها، وما يترتب عنه من ملابسات، تنعكس آثارها السلبية على طبيعة البحث ونتائجه.

إذا غالبا ما نرى المفكرين العرب، والمبتدئين مهم على الخصوص، يعتبرون المنهج مجرد أدوات إجرائية تساعد الباحثين على ضبط خطواتهم في التعامل مع القضايا التي يدرسونها، سواء أكانت نصوصا أو موضوعات، مما يبقى الخلفية الإبستيمولوجية المؤطرة لكل منهج، خارج إطار تصورهم الضيق لحجم الشكل وتشعباته ولا تؤخذ بيعن الاعتبار في أي تعامل عملي ملموس، وكأن مسألة اختيار منهج من المناهج، مسألة في غاية البساطة، لا تتعدى

إطار تفضيل خطوات إجرائية على أخرى ليس غير، وبذلك تستوي البنيوية التكوينية بالشكلية، والتحليل النفسي بالاجتماعي. متناسين بأن: " كل مصطلح أو منهج إلا ويحمل في أحشائه، حتما خلفية فكرية، تختصر نفسها، ورؤيتها، وتحليلها، من خلال المصطلح النقدي، والمنهج الذي يلائمه وستعمل في إطاره، ويتبادل الخدمة معه" وهو ما يفسر سر تأكيد د. الجراري، في غير ما موضع من كتابه[1] (خطاب المنهج)، على جزئية هذا التصور وقصوره، لاعتبار المنهج نسقا من الادوات الإجرا المساعدة على ضبط خطوات البحث، ليس إلا، مما لا يمثل في رأيه سوى مظهره الخارجي، فق: " لقد شاع أن المنهج مجرد وسيلة للبحث عن المعرفة، وفحصها، أي مجرد خطة مضبوطة بمقياس، وقواعد، وطرق تساعد على الوصول إلى حقيقة، وتقديم الدليل عليها، هذه مجرد أداة إجرائية، وهي في نظرنا، لا تمثل إلا جانبا واحد من المنهج[2].

يقول أحد المنظرين: " المنهج: وننظر إليه، ليس باعتباره مجرد أسلوب وأو وسيلة، تضبطها خطة وقواعد، تنير السير في طريق البحث عن الحقيقة، وتساعد علة الوصول إلى نتائج معينة، ولكن باعتباره منظومة متكاملة، تبدأ بالوعي والرؤيا المشكلين لروح المنهج وكنهه اللامرئي، وتنتهي بالعناصر اللازمة لتحقيق تلك الرؤيان وذلك الوعي، من خلال الكشف والفحص والدرس والتحليل والبرهنة، للإثبات أو النفي.

---

1 – عبد العالي بوطيب، إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، عالم الفكر، ص 457.

2 – المرجع نفسه، ص 458.

بناء على ما سبق، يمكننا القول، بأن المنهج – أي المنهج– إنها هو أداة يتوسل بها الباحث، لتحقيق الأهداف المحددة والمسطرة سلفا للبحث المزمع إنجازه، ومن ثم فإن قيمته الحقيقة، لا تقاس إلا بما يختزنه من هذه الطاقة الإجرائية، شأنه في ذلك شأن باقي الأدوات والوسائل، بعيدا عن أي معطى لآخر، كيفها كان نوعه، ومصدره، (حداثة، معاصرة، أصالة، ايديولوجيا، يمين، يسار، ... إلخ من الاعتبارات التي قد تلمس آثاراها في تصنيفات بعض الباحثين للمناهج) إن نحن أردنا، فعلا، تطوير خطابنا النقدي، وتحريره، من كل ما يعيق مسيرته وتقديمه. كما يطالب بذلك بعض الباحثين/ وهو مالا يمكن تلمسه إلا من خلال التطبيق، والتطبيق وحده، وفيما عدا ذلك، تبقى كل المناهج صالحة بالقوة، وعلى قدم المساواة، مهما اختلفت منطلقاتها، وخلفياتها، المرجعية والايديولوجية، ما لم تثبت التجربة عكس ذلك، أي أن الإيمان، المطلق، والمسبق، بصلاحية منهج من المناهج، وتفوقه القبلي على باقي المناهج الاخرى، شيء غير معقول، يدخل في باب التشيع الاعمى، المنافي لأبسط قواعد البحث العلمي، فكما أن القانون الجنائي ينص على أن " المتهم بريء إلى أن تثبت إدانته"، فكذلك المناهج صالحة إلى أن يثبت العكس، وهو ما يؤكد عليه صراحة المؤلف الدكتور عباس الجراري، في أكثر من مكان من كتابه – خطاب المنهج– حيث يقول: " عن قيمة أي منهج ليست كامنة فقط في نوع الأدوات التي استعملها الباحث، سواء أكانت صالحة أو غير صالحة، لمجرد أن البحث، أو أن – موضة– تقتضي نوعا ما من المناهج، ولكن قيمة أي منهج، رهينة بما يحققه في نطاق رؤيته وهدفه"، كما يضيف قائلا: " أود أن ألفت النظر إلى قضية أساسية

ألح عليها، وإن أغفلها الكثيرون ممن يأخذون ببعض المناهج، وهي أنه يجب أن نعترف بتعدد هذه المناهج، وبأننا قد نقبل بعضها وقد نرفض البعض الآخر، ولكننا حين نفعل لا ينبغي أن نراعي منطلقاتها الفلسفية، وإنما علينا أن نراعي مدى صلاحيتها لموضوع الدرس"، وهو رأي نجد صداه في أكثر من كتاب، وعلى لسان غير ما باحث من الذين خبروا الإشكالية تنظيرا وممارسة، زمنا غير يسير، فتمكنوا من تلمس أبعادها وحدودها الإجرائية، المرتبطة أصلا بالتطورات المعرفية والعلمية، بعديا عن كل شوفينية ضيقة أو تشيع أعمى: " لأن المناهج، مهما تكن، يأتي *1* عليها يوم، بعد ان تعطي كل ثمارها، فتفقد خصوبتها وتصبح عاجزة، عن ان تفيدنا بشيء، أو أن تعرفها بجديد، ولذا فإن أنجع ما يكون حديثنا عن المنهج، ليس في ضبط قواعده وتحديدها أدق تحديد ولا " عندما يقوم وحده كصرح نسقي أو معياري، ولكن عندما يكون خصبا هنا والآن".

بمعنى أن الحكم على كفاية منهج من المناهج، ليس وقفا على تماسكه النظري وحده، بقدر ما هو مرتبط أساساً، بقدرته الإجرائية، مما لا يمكن تلمسه إلا من خلال التطبيق، وفي ارتباط بموضوع، وظرف تاريخي، محددين، فإذا ما أسعفنا على تحقيق الأهداف المرسومة للبحث، اعتبر ذلك حكما وشهادة لصالحه، وإلا أقصى استبدل بمنهج آخر، على أن نجاح في بحث مان لا ينبغي أن يتخذ ذريعة لإطلاق صلاحيته وتوسيعنا، لتشمل كل المواضيع على اختلاف أصنافها وأهدافها، دون قيد ولا شرط، لأنه: " لا وجود للمنهج الذي يمكن ان يقال عنه، إنه

1 – عبد العالي بوطيب، إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، عالم الفكر، ص 459.

الصالح والدائم، أو الأصلح والأدوم، بإطلاق، كما يظن كثير من الدارسين، والمبتدئين منهم بصفة خاصة، طالما أن المنهج، هو ذلكم الوعي، وتلكم الرؤية، وذلكم الهدف، أما الطريقة فقد تكون مجدية بالنسبة لموضوع، ولا تكون بالنسبة لغيره، وقد تكون مسعفة في فترة، ولا تكون لفترة ثانية".

أي أن كفاية المنهج أي منهج تبقى قضية نسبية في ارتباط تام بخصوصية الموضوع المدروس ومعطياته المرافقة الاخرى، كالظرف التاريخي والحضاري ... إلخ، بحيث لا يمكن مثلا، تطبيق المنهج البنيوي الشكلاني في دراسة ذات أبعاد سوسيولوجية، او العكس، وهو ما دفع العديد من الباحثين للتأكيد على ضرورة اعتبار خصوصة الموضوع، من حيث هو غاية وهدف، في عملية اختيار المنهج، بما يحققه الانسجام المطلوب بين رؤية المنهج من جهة وأهداف البحث من جهة ثانية: " فطبيعة الموضوع هي التي تحدد المنهج" لا العكس.

لأن المنهج، كيفما كان، ينبغي ألا يتجاوز دوره، حدود المعين والمساعد للباحث على إنجاز بحثه، ومن ثم وجب عليه أن يكون حذاري في التعامل معه، بحيث لا يترك نفسه عرضة للوقوع في حباله، مما قد يؤدي في النهاية لتحريف البحث عن طبيعته، وما رسم وسطر له سلفا من أهداف، فبدل أن يكون بحثا في قضية أدبية مثلا، يصبح دليلا على كفاية منهج ما العملية، أو سقوطا في (المنهاجوية) كما للبعض أن يسميها، والفرق كبير طبعا بين البحثين، ويؤدي حتما، وبالضرورة لتغير جذري في نوعية العلاقة المقامة بين المنهج، من حيث هو أداة بالموضوع، من حيث هو غاية وهدف، لأن طبيعة بحيث هو أداة، بالموضوع من حيث

الغاية وهدف، لأن طبيعة غايته التدليل على كغاية منهج ما الإجرائية– كما فعل كل من فرويد وماركس مثلا مع بعض الإعمال الأدبية– هي غير طبيعة بحث آخر لا يتجاوز دور المنهج فيه، حدود الأداة المساعدة، كما فعل جان بير ريشار مثلا مع أعمال مالارمي، فالدراسة الأولى[1]، تجعل من المنهج غاية، والموضوع وسيلة، ومن ثم تعطي لنفسها حق ومشروعية إدخال كل التعديلات الضرورية على الموضوع، قصد جعله مناسبا للهدف المرسوم للبحث، من حيث هو بحث يراد به الاستدلال على كفاية منهج الإجرائية، ليس إلا، دون الشعور بأي حرج مما قد يلحق الموضوع المدروس– وهو هنا وسيلة– من جراء ذلك، من تحريف وتشويه واختزال، إلى آخره من المظاهر المرضي، التي تطبع للأسف بعض ممارساتنا النقدية الحالية:

" ونحن حين ننظر في محاولات نقادنا في المرحلة الحديثة المعاصرة نجد أنهم سعوا إلى التوسل ببعض مناهج النقد الجديد التي أعطت ثمارا كلية أو جزئية عند الغربين، ولكن سعيهم لم يتجاوز التجريب الذي لم يتح له أن يتم دون الوقوع في الخلل، وهو خلل مرده إلى أن التطبيق لم يكن متقنا وسليما، وما كان له أن يأتي على الوجه الأنسب بسب الاختلاف الذي يمس نوع المعطيات ومدى تأثيرها حين تكون مستخلصة من بيئة ويحاول إلصاقها بيئة أخرى من جهة، والذي يمس طبيعة التعبير وأداته وكل ما يرتبط بهما من جهة، والذي يمس طبيعة التعبير وأداته وكل ما يرتبط بهما من جهة أخرى، بينما تقلب الدراسة الثانية المعادلة، أو تعبير أدق، تصححها بجعلها المنهج وسيلة مخرة لخدمة غاية هي الموضوع، خلافا لما كان عليه

1 – عبد العالي بوطيب، لإشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، عالم الفكر، ص 460.

الأمر في الدراسة الأولى، مع الاحتفاظ طبعا، بنفس قاعدة التعامل المرن والين مع الأداة، بما يناسب خصوصية الموضوع – الغاية والهدف. فالمنهج أداة، من طبيعة الاداة أن تكون ذات كفاية عملية ضيقة، ونسبية، لارتباطها بموضوعات متنوعة ومختلفة، خصوصا في مجال الأدب حيث: " كل أثر فريد من نوعه، لا يقاس به غيره"، ومن ثم فإن كل محاولة استعمال لهذه الأداة، التي هي المنهج، خارج نطاق اعتبار اختلاف الموضوعات وتميزاها، سيؤدي حتما، للسقوط في بعض الظواهر السلبية التي بدأنا نلمس بعض مظاهرها في الكثير من ممارساتنا النقدية من السبعينات إلى الآن. وهذا ما يضع الباحث، وهو يتهيأ لإنجاز بحث ما بين المطرقة والسندان، كما يقال، فإما أن يتعامل مع المنهج، ويحتفظ له بخصوصياته وجزئياته ولوكان على حساب الموضوع المدروس، بحيث تصبح غاية البحث التدليل على الكفاية الإجرائية للمنهج، ليس إلا، وإما أن ننزل المنهج عن عرشه، ونتعامل مه بنوع من الليونة والمرونة، التي تقتضيها خصوصية الموضوع، وبذلك نحافظ للبحث على هدفه، وللموضوع على طبيعته وتميزه، واضعين المنهج، من حيث هو أداة، مكانته الحقيقة التي ينبغي أن يوضع فيها، كما يشير بذلك أغلب الباحثين، ومن بينهم الدكتور عباس الجراري يقول: (... حين ننظر بعد هذا في المنهج أو المناهج التي ترسل الباحثون بها لإنجاز أعمالهم، نجد متأثرة بطبيعة موضوعات هذه الأعمال).

3- قضية المنهج والإشكال الحضاري العربي العام

لا شك أن التتبع للحركة الثقافية العربية عامة، يلاحظ بكل سهولة، التمزق الذي يطبع خطابها النقدي ويقسمه، ولو بشكل غير متساو لمجموعتين[1]:

– واحد تعتمد المناهج الغربية الحديثة، بكل ما لها من حمولة حضارية، فكرية وأيديولوجية، تجعل منه خطابا نقديا معربا أكثر منه عربيا، نلمس آثاره السلبية في شكل اغتراب جزئي أو كلي، يطبع مختلف أطرافه، (موضوعا وتأليفا، وتلقيا).

– وأخرى توظف مناهج عربية أصلية، تمد جذورها لتضرب في عمق التاريخ العربي، أيام ازدهار الحركة الأدبية عامة، والنقدية منها على الخصوص، مع أعلامها المرموقين أمثال الجرجاني والجاحظ وقدامة وابن سلام إلى آخر القائمة الطويلة.

وهو انقسام يجسد بصدق وعمق، التصدع والحيرة الذين طبعا ولا يزالان، توجهات المفكرين العرب حيال إشكالية النهضة التي واجهتهم منذ الحملة النابليونية على مصر إلى الآن، وما صاحبها من إحساس فظيع بعمق الهوى الحضارية الفاصلة بين غرب متقدم متطور، وشرق متخلف جامد: " فقد أمكن لأوروبا أن تعيش اليوم عصر النقد الادبي الذي يواكب التحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية، على أن الأمر لا يبدو كذلك بالنسبة للعالم العربي الذي لا يزال تائها في خضم ظروف سلبية تحتم على المثقف إعادة النظر في كل مستلزمات الحياة الثقافية، أو كما قال الباحث آخر مشخصا حجم هذا التباين الحضاري: " أرضية منهجية

1 –عبد العالي بوطيب، إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، عالم الفكر، ص 461.

واصطلاحية شاملة هناك، وأخرى محدودة وجزئية هنا، وإبداع علمي ولي وجهه شطر أولئك، وولي ظهره هؤلاء".

فانقسموا لفريقين: واحد يدعو للإنفتاح اللامشروط على الغرب، والثاني ينادي بالعودة للتراث والانغلاق عليه: " وكان ما كان مما آل إليه واقع الفكر العربي الإسلامي في المرحلة الحديثة والمعاصرة متخلفا عن ركب الآخرين المتقدم، لاهثا خلفه يريد المواكبة واللحاق، ومخلفا وراءه تيارين متعارضين مفترقين، كل منهما يصنم نفسه ويلغي الآخر:

أحدهما: يدعي الاصالة، ولكنه منغلق وعاجز.

والثاني: يزعم التفتح، ولكنه واقع في براثن التعبية والاستلاب" بمعنى أن الانقسام الذي يطبع خطابنا النقدي المعاصر ما هو في الحقيقة سوى مظهر من مظاهر المواقف المتباينة التي نتخذها من الإشكال الحضاري العام الذي نواجهه، ولا يمكن فهم أبعاده العميقة، ولا الدور الريادي الخطير الذي يمكن أن يلعبه المنهج في تجاوز هذا التحدي الحضاري، خارج هذا الإطار الشمولي المتكامل لما بينهما من تداخل عادة ما يطبع علاقة الجزء بالكل، كما يؤكد على ذلك الدكتور الجراري في مقدمة كتابه – خطاب المنهج– حيث قال: " تعتبر قضية المنهج في طليعة اهتمامات الدارسين والنقاد العرب، إذا يرونها حجر الزاوية لتجاوز الأزمة التي يعانيها الفكر، وكذا تخطي الواقع في شتى مظاهر معاناته، إلا أن عرضها مفصولة عن

السياق المعرفي ومجموع مكونات الذات وحواجز الإبداع[1]، يجعل التناول مبتور لا يفضي إلى رؤية صحيحة ومتكاملة، تبلور حقيقة المنهج، وتتيح التحكم فيه بحل إشكالية.

وهو تصور يشاطره إساه غير ما باحث: نكتفي هنا باستعراض نموذج واحد منهم فقط، يرى " أن إشكالية المنهج، من قبل ومن بعد، جزء من إشكالية شاملة كبرى، ما نفتأ نعاني من ثقلها ودوارها على أكثر من صعيد، تلك هي إشكالية البحث عن الذات في مهاب الأنواء والأهواء، لنبوئها مكانا لائقا تحت الشمس، ذلك بالتحديد هو قدرنا وإشكالنا المنهجي الأكبر".

وهو إشكال يستوجب أخذ البعد التاريخي، والخصوصية الحضارية الذاتية، بعين الاعتبار في كل حل موضوعي عقلاني يتوخى إخراج العالم العربي من وضعه المأساوي الممزق، بين غرب متقدم نتوق إليه، وتراث حضاري متجاوز نرتبط به، وهو ما ينقص الحلان السابقان الواقعان بحكم تعصبهما الاعمى لأحد الطرفين (الحضارة الغربية أو التراث العربي) إما في اغلال الانغلاق المكرس للتخلف، وإما في براثن الانفتاح اللامشروط الموقع في احضان الاستلاب، كما يجمع على ذلك اغلب المهتمين، وتؤكد النتائج العلمية السلبية لتطبيقاتها على المستوى الواقع، مما يفسر موقف بعض الباحثين الرافض لهما، بالنظر لعقمهما في حل معادلة التحدي الحضاري الصعبة، حيث يقول: " إن الانسياق لأحد التيارين لا يجدي في شيء".

لأن المنهج، شأنه باقي الإفرازات الحضارية الاخرى، إنما هو أولا وقبل كل شيء، ثمرة مرحلة تاريخية ذات خصوصيات اجتماعية واقتصادية وسياسية معينة، ومن ثم فإن كل تعامل معه

---

1 –عبد العالي بوطيب، إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، عالم الفكر، ص 462.

يغيب هذه الحقيقة، ويتولد عنه بالضرورة نوع من الانسجام بفعل اختلاف ظروف نشأته وميلاده عن ظروف تطبيقه، وهو ما يستدعي إعادة النظر المستمر في المنهج، لجعله مواكبا دائما لشروط تطبيقه الجديد المتجددة، مادام يستحيل تكييف هذه الأخيرة معه، حتى لا يبقى هناك نشاز وتنافر بين الاثنين، تنعكس آثاراهما السلبية على نوعية الدراسات والأبحاث، في شكل ظواهر مرضية، شبيهة بتلك التي تكتنف بعض ممارساتنا النقدية الحديثة، نتيجة تغيبها للبعد التاريخي في تعاملها مع المناهج الحديثة، كما يلاحظ ذلك الدكتور الجراري: "... إن ما يقال عنت مقلديهم من العرب، يكاد، أن يفرغ محاولاتهم من كل إيجاب، إذا تتضخم لمآخذ، لا سيما والمعطيات المشار إليها تكاد أن تكون غير ذات صلة بيئة الأدب العربي في بعدها الاجتماعي والنفسي والاقتصادي دون أن نتحدث عن طبيعة اللغة"[1]. فالمنهج كيفما كان، ليس بريئا، ولم ينزل من السماء، وإنما هو وليد شرعي وطبيعي لظروف تاريخية وحضارية معينة، ومن ثم فهو لا يمتلك كفاية إجرائية مطلقة، بحيث يمكن تطبيقه في كل العصور والأمكنة، بغض النظر عن حجم الفروق والاختلافات التي تفصلها عن ظروف النشأة والميلاد التي كان المنهج ثمرة لخصوصيتها، دون أن يتسم هذا التطبيق بطابع التعسف، ستكون له دون شك مضاعفاته السلبية على نتائج هذه الدراسات، في شكل ظواهر مرضية، أبرزنا بعض آثارها السلبية سابقا ...

1 --عبد العالي بوطيب، إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، عالم الفكر، ص 463.

أي أن المنهج، باعتباره وليد ظروف تاريخية وحضارية متميزة، يكتسب بفعلها طابع النسبية الإجرائية المرتبطة بخصوصية الظروف التي أفرزته، وكل تعامل معه خارج هذا الإطار، يحتم على الباحث الجاد، المهتم بقيمة بحثه وعلمية نتائجه، وكذا صلاحية الأداة الإجرائية المعتمدة في إنجازه، تحريره من ارتباطه السابق، عن طريق إعادة النظر فيه، على ضوء الخصوصيات التاريخية والحضارية لظروف التطبيق، وما يميزها عن ظروف النشأة والميلاد، شريطة طبعا، ألا يمس هذا التعديل جوهر المنهج وثوابته بالتحريف، وأن يقتصر فقط على عناصره المتغيرة.

وعليه، فإذا كانت ظروفنا التاريخية والحضارية الحالية تحتم علينا، بحكم التخلف الذي توجد فيه، لتجاوزها، الاقتباس في كل المجالات، بما فيها المناهج، ومن جميع الجهات (شرقية كانت أو غربية)، على حد سواء، ما دام الاقتباس في حد ذاته، يعتبر أمرا عاديا وطبيعيا بين الأمم والشعوب، لكون الفكر لا يعير كبير اهتمام للحدود السياسية والجغرافية المصطنعة المقامة بين الدول، وإنما العيب، كل العيب، يكمن في نوعية وطبيعة هذا الاقتباس، وأخص بالذكر هنا الاقتباس الأعمى) الذي لا يعير أي اعتبار للمتغيرات التاريخية والحضارية الناجمة عن هذه العملية، وبذلك يتجاوز حدود (الانفتاح) ليسقط في أحضان الانبطاح، والاستلاب، والتبعية، والاغتراب، إلى غير ذلك من الأوصاف السلبية المتولدة عن غياب ما أسماه الدكتور إدوارد سعيد (بالوعي النقدي) في اقتباساتنا الحضارية والفكرية : فنحن نحتاج إلى النظرية، بكل تأكيد، الأسباب متنوعة لا مجال لذكرها، أو تعدادها هنا، وما نحتاج إليه أيضا وعلاوة

على النظرية هو الاعتراف النقدي، بأنه لا توجد هناك نظرية قادرة على التغطية والتطويق والتنبؤ مسبقا، بكافة الأوضاع التي يمكن استخدامها فيها (....) وهذا يعني أنه ينبغي استيعاب النظرية في المكان والزمان اللذين تبرز كجزء منها، حين تعمل في الزمان ولأجله، وتتجاوب معه، وبناء على ما تقدم فإن المكان الأول يمكن قيامه ضد الأماكن اللاحقة، حين تبرز النظرية لكي توضع موضع الاستخدام، فالوعي النقدي هو إدراك للفوارق بين الأوضاع، وكذلك هو إدراك للحقيقة القائلة بأنه ما من ا من نظرية أو نظام، يستنضب (أو يغطي أو يسيطر الوضع الذي يـ ينشأ منه، أو يتم نقله[1]

إليه، وباختصار، فإن النظرية لا يمكنها، أبدا أن تكون تامة وكاملة، مثلما أن اهتمام المرء، في الحياة اليومية لا تستوعبه أبدا الصور الزائفة والنماذج أو التجريدات النظرية المستخلصة منها.

وهو نفس الموقف تقريبا الذي يجمع عليه أغلب المفكرين المتبصرين، لأنه إذا كان الانفتاح ضروري لكل تقدم ، فإنه سرعان ما يصبح انسلاخا وتبعية، إن هو لم يتقيد بشروط موضوعية تضبط حدوده وتوجهاته، وتحافظ للذات على خصوصياتها وتمايزاتها، التي بدونها لن تجد مكانا في الخريطة الحضارية الكونية، شريطة طبعا أن لا تبلغ هذه المحافظة، حد الانغلاق فتنقلب لتقوقع، يد الأبواب ويكرس التخلف، لأن: "النهضة لا تنطلق من فراغ بل لا

1 – عبد العالي بوطيب، إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، عالم الفكر، ص 464.

بد فيها من الانتظام في تراث، والشعوب لا تحقق نهضتها بالانتظام في تراث غيرها، بل بالانتظام في تراثها هي، تراث – الغير.

صانع الحضارة الحديثة، تراث ماضيه وحاضره، ضروري لنا فعلا، ولكن لاك – تراث – تندمج فيه ونذوب في دروبه ومنعرجاته، بل كمكتسبات إنسانية – علمية ومنهجية – متجددة ومتطورة ، لا بد منها في عملية الانتظام الواعي العقلاني النقدي في تراثنا".

وهو هدف لا يمكن أن يتحقق إلا باتخاذ موقف وسط توفيقي يأخذ بعين الاعتبار وضعنا الحضاري الراهن بكل أبعاده وخصوصياته ، بين تراث قديم من إفراز مرحلة لم يعد لها وجود، من جهة، وحضارة غربية حديثة تتجاوزنا معطياتها بمراحل كثيرة، من جهة أخرى، مما سيعمل دون شك على تمكيننا من ميكانيزمات المعرفة المعاصرة، ويؤصل جذورها في تربتنا، بعيدا عن كل تبعية أو استلاب، كما يؤكد على ذلك بعض الباحثين: "لكن لا بد من موقف وسط يركز الهدف فيه على صياغة علم إسلامي بما يستتبعه من مناهج ، حتى تتحقق مساهمة المسلمين في إغناء المعرفة التي أخذت اليوم أبعادا إنسانية عالمية، وهذا الموقف الوسط يقوم على توفيقية تكون مفضية إلى تأصيل المعرفة والمنهج ، وليس إلى التلفيق الذي كثيرا ما يخلط بينه وبين التوفيقية" . وهو ما لا يمكن ترجمته على مستوى الواقع، حسب الدكتور الجراري، إلا بالقيام بعمليتين متكاملتين تمد في كل واحدة منهما اليد الحضارة من الحضارتين العربية والغربية ، بنوع من الوعي التاريخي الفاحص، حتى يتحقق التلاقح المرغوب، بالانسجام والتوافق المطلوبين، دون نشاز ولا تنافر: "أولهما: الرجوع إلى تراثنا العلمي وسبر أغواره ،

واكتشافه من جديد لحصر العناصر المعرفية والمنهجية، واستحضار ما هو منها حي وملائم لتوظيفه كما هو، أو ما هو قابل للتطوير قبل التوظيف، وكذا لاستخلاص ما هو صالح لتنطلق منه أو نستوحي أو نستمد بعض ما يقوي فينا قدرة الإبداع أو يفتح أبوابه.

وثانيهما: التفتح بوعي وعمق وحرية على تراث الغرب، وبجد، في شتى نواحيه ومختلف ميادينه ، ليس لمجرد اتباعه والبقاء في مؤخرة الركب لا هثين خلفه ، ولكن لاكتساب المقومات التي[1]

أهلته للتقدم، وامتلاك المفاتيح التي يبقى مسدود أي باب في وجهه يريد دخوله وارتياده، وبدون هذا الامتلاك وذلك الاكتساب سوف نظل مجرد مستهلكين لما يتبقى من فتات يلفظه الغير، إن إجراء هذه العملية يتطلب وسائل وإمكانيات، تقوم على مدى إحساسنا بالواقع الذي نعيشه، ومدى الرغبة في تغييره، والقدرة على هذا التغيير، كما تقوم على معرفتنا بالذات، والكيان وتحديدنا للغايات والأهداف، ونظرتنا الموضوعية للآخر في غير قبول أو رفض مسبقين، وتقوم قبل هذا وبعده على الوعي الصحيح بالعملية لفهمها وإدراكها واستيعابها ، في حقيقتها وعمقها، بعيدا عن أي جدل عقيم، لا يستند إلا على مجرد التحيز والخصومة، وتلكم إشكالية أخرى.

1 عبد العالي بوطيب، إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، عالم الفكر، ص 465.

وبذلك يتحقق التعامل الواعي مع المناهج بعيدا عن كل تشيع أعمى أو شوفينية ضيقة، مما ستكون له عواقب إيجابية. على خطابنا النقدي وتنقذه مما يتخبط فيه من ظواهر مرضية.[1]

يعد المنهج السيميولوجي من مناهج ما بعد البنيوية، وإن كنا – تاريخيا سنرى أنها بدأت مع النبيويةتقريبا، والقضية الأولى التي تواجهنا فيما يتصل بالسيميولوجيا هي قضية المصطلح، وذلك لتعدد المصادر الثقافية في إطلاق الكلمات الدالة ابتداء من الاسم العلمي. سنجد أن المتحدثين باللغة الفرنسية يتبعون تقاليد مدرسة " جنيف" التي تزعمها " دي سوسير" ويطلقون على هذا اللون " السيميولوجيا"، وسنجد أن المتحدثين " بالأنجلوسكسونية" يتبعون تقاليد موازية تعود إلى " شال بيرس" الأمريكي المنطقي الشهير ويؤثرون مصطلح " السيميوتيك"، أما النقاد والباحثون العرب فهم يتوزعون على ثلاثة اتجاهات، بعضهم يؤثر مصطلح " سيميولوجيا" وله مبرراته في ذلك لمحاولة القرب من مصادر الفكر النقدي الحديث لصناعة مصطلحاتها طبقا للتقاليد العربية*2* القديمة لإبتلاع الإشارات اللغوية وتمثلها وتوظيفها بما يسمح بالتواصل العلمي مع بيئاتها العلمية.

ومنهم من يعتمد على المصادر الانجلوسكسونية فيفضل كلمة السيميوطيقا، وخاصة أنها تمضي على نفس النسق الذي كانت تمضي عليه عمليات التعريب كما انتقلت كلمات البيوطبقا وغيرها بهذا الشكل اللغوي.

---

[1] عبد العالي بوطيب، إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، عالم الفكر، ص446.

2 – صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، ميريت النهر والمعلومات، ط1، 2002، القاهرة، ص 121.

أما الاتجاه الثالث فهو يبحث في التراث العربي ذاته على الكلمات المناظرة والتي يمكن أن تؤدي بشكل تقريبي الدلالة اللغوية المطلوبة في العلم الحديث ويقع على السيمياء ويشتق منها السيميائية، مع أن السيمياء كانت تقترن في الأدب العربي القديم بالكهانة والسحر والسيمياء بالمفهوم القرسطي واقتفاء الأثر وغير ذلك من الإيماءات التي تبعده عن الإطار المعرفي الحديث ومع ذلك سنلاحظ أن مجموعة النقاد المغاربة يوشك أن يكون رأيهم قد استقر على هذا المصطلح " سيمياء" ومنذ حاولت في السبعينيات تعتيم المنهج البنيوي فقد أثرت مصطلح السيميولوجيا لمحاولة استزراعه في الثقافة العربية الحديثة بعدا عن مظنة اشتباهه بالمجالات العربية القديمة من ناحية وتوثيقا للعلاقة المعرفية مع الفكر النقدي الحديث وتيسيرا على المتلقين من ناحية ثانية.

وأيا ما كان الأمر فإن تسمية المصطلح مجرد منطلق، والمهم أن نبحث عن " ما هي السيميولوجيا؟" سنجد أن اثنين من الباحثين عاشا إبان النصف الثاني من *1* القرن التاع عشر وماتا في مطلع القرن العشرين وهما " دي سوسير" و" تشارل بيرس" بشرا كل بطريقته السيميولوجيا، حيث درس سوسير العلامة اللغوية ووضع خواصها الأساسية ورأى أنها تتدرج في منظومة أكبر هي العلامات بصفة عامة فإذا كانت الكلمة علامة على الفكر أو شيء، فإنها تقترب في ذلك من علامات أخرى سمعية وبصرية تدل على شيء آخر غير ذاتها، وأن المستقبل يعد نشأة علم كبير لنظم العلامات المختلفة، يعد علو اللغة جزءا منه ويخضع

1 – صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، ص 122.

لقوانينه، وكانت إشارات سوسير إلى المحاور الاستبدالية والتركيبية والعلاقة الاعتباطية الدال والمدلول هي العلامات في المجتمع بأسره.

في تلك الآونة ذاتها كان المنطقى " بيرس" يؤسس السيميولوجيا بتحليله لأنواع العلامات المختلفة وتميزه بين بين مستوياتها المتعددة حيث يحدد الفروق بين الإشارات وهي المتجاوزة في المكان مثل " السهم" الذي يبصره مشيرا إلى مكان معين ومثل حركة الأصبع عندما تشير إلى شيء أمامها باعتبار تلكك الإشارات مجالا لأنواع خاصة من العلامة تقوم بين الدال والمدلول فيها علاقة التجاور المكاني، هي ذات طابع بصري في مجملها ثم يميز بعد ذلك نوعا آخر من العلامة وهو " الأيقونة".

و"الأيقونة" تتمثل في الصور الدالة على متصور مثل صورة العذراء في الطقوس المسيحية أو صورة السيارة في إشارات المرور أو غير ذلك مما تحدده طبيعة العلاقة بين الدال والمدلول فيه على أساس التشابه. والأيقونة تشبه ما تشير إلية والعلاقة بينهما حينئذ علاقة تخييلية فلن تستطيع فهم العلامة الأيقونية ما لم تكن وعيت من قبل نظيرها المشابهة لها.

أما النوع الثالث فهو " الرمز" ونموذجه هو الكلمة اللغوية، ونموذجه الأول هو الكلمة اللغوية، والرمز يتميز بأن علاقته تجعلنا نصل بين مدلول الكلمة ودليلها الخارجي.

فالعلاقة في الرمز بين طرفي العلاقة اعتباطية تتم بالصدفة وليست علاقة سببية، وإن كان لها أن تكتسب بعد ذلك بأثر رجعي طبقا لكل ثقافة طابعا سببيا ملتحما، لكنها في البداية لم تكن بهذا القدر من الارتباط العقلي. ما يميز العلامة في كل أشكاله عند " إيكو" – وهو

ناقد أوروبي معاصر– هو قابليتها للكذب، فما يقبل الكذب علامة وما لا يقبل الكذب فهو ليس بعلامة. وبالطبع فإن قابلية الكذب تعني قابلية الصدق، لأنه قرينه وبديله أي إن العلامة هي كل ما يشير إلى غيره سواء كانت حقيقة طبيعية أو مصنعة من الإشارات الطبيعية كالدخان عنما يشى بالنار أو يدل على النار، والسحاب عندما يعد بالأمطار، لكن العلامات الثقافية هي موضع الدرس السيميولوجي في نظمها المختلفة التي تتناولها البحوث السيميولوجية وذلك مثل توظيف الإشارات اللونية والخطوط المختلفة، سيميولوجيا في علامات المرور حيث يلعب اللون (أحمر، أصفر، اخضر) والشكل*1* (من الرسوم والخطوط) والأيقونات وحركة التبادل بين الأشكال وتقاطعها مع الألوان، يلعب كل ذلك دورا هاما في منظومة علامات المرور، كذلك درسوا علامات المأكل في قوائم الطعام وعلامات الملبس في المناسبات الغجتماعية من أفراح واحزان، من ملابس ملائمة للصباح وأخرى للمساء، من قطع وألوان يؤثرها الرجال والنساء ودلالات كل ذلك بتشكيلاتها المختلفة.

ولعل السيميولوجيا أن تكون من أكثر مناهج الفمر النقدي الحديث قابلية لأن تنشر في دوائر الادب والفن والثقافة في إطارها الكلي الشامل إذا إننا سرعان ما سندرك أن هذه العلامات تختلف في دلالاتها من ثقافة إلى أخرى وإذا كان سوسير قد رأى أن علم اللغة جزء من منظومة كلية هي السيميولوجيا، فإن أحد تلاميذه غير مباشرين وهو " بارت" قد قلب هذه العلاقة عندما رأى أن ادق وأعقد وأكمل نظام سيميولوجي ابتداعه الإنسان إنما هو اللغة وأن كل نظام الأخرى

1 – صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، ص 124.

تكاد لا تستغنى عن اللغة وتعتمد في لأشكاله إلى كلمات فلا نكاد نفهم تلك الدائرة الحمراء بإطارها الأسود عندما نراها منتصبة عللى رأس الطريق دون أن ترد إلى إذهاننا كلمة ممنوع وهكذا فإن دخول اللون والحركة كان في اللغة الدلالية يقترن بالتوظيف اللغوي سواء كان ذلك صراحة أو ضمنيا، فاللغة هي النوذج السيميولوجي الأكمل ويكاد بارت ينتهي إلى اعتبار السيميولوجيا فرعا من فروع الدراسات[1] اللغوية، وما يعنينا هنا هو التركيز على علاقة السيميولوجيا بالنقد وهو المجال الذي نمعن فيه، ونجد أن لغويا آخر من الجيل الثاني هو الذي وضع هذه العلاقة بترسيمته الشهيرة عن عمليات التواصل الثقافي والاجتماعي، وهو " جاكوبسون" وقدم ترسيمة التواصل في كل النظام اللغوي والادبية التي سوف يعتمد عليها النقد في تحليل العلامات ودراسة العلاقات المائلة بينهما وتعتمد هذه على التميز بين المرسل والمرسل إليه وقناة الاتصال كخط مقطع بينها، لكن المهم هو بقية اطراف هذه الدائرة حيث نجد فوق قناة الاتصال، الطرف المتعلق بالسياق، وحيث نجد تحته قناة الاتصال والشفرات التي يتعين على الاطراف الاحتكام إليها لفهم مضمون الرسالة.

ساق

رسالة

مخاطب ـــــــــــــــــــلتصال ـــــــــــــــــــ مخاطب

شفرة

1 – صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، ص125.

عندنا إذن مرسل ومتلق وسياق وشفرات ثم قناة اتصال بين هذه الاطراف.[1]

السيميولوجيا علم حديث النشأة فقد أعلن فيردناد دوسوسير، منذ حوالي سبعين سنة أنه ينبغي تشكيل علم جديد اقترح له تسمية "**السيميولوجيا**":

"يمكننا إذن أن نتصور علما يدرس حياة الدلائل داخل الحياة الاجتماعية، علما قد يشكل فرعا من علم النفس الاجتماعي وبالتالي فرعا من علم النفس العام، وسوف نسمي هذا العلم بالسيميولوجيا (من **semeion** الاغريقية وتعني: "**الدليل**" ومن شأن هذا العلم أن يطلعنا على كنه هذه الدلائل وعلى القوانين التي تحكمها، ولأن هذا العلم لم يوجد بعد، فإنه لا يمكننا التكهن بمستقبله، إلا أن له الحق في الوجود، وموقعه محدد سلفا، إن اللسانيات ليست سوى فرع من هذا العلم العام، والقوانين التي ستكتشفها السيميولوجيا ستكون قابلة لأن تطبق على اللسانيات ..."."[2]

وفي نفس الفترة تقريبا، التي أفصح فيها سوسير عن هذه الأفكار في محاضراته بجنيف، أعلن تشارلز سندرز بورس بأنه رائد "**السيموطيقا**": "إني في حدود ما أعلم" رائد في العمل الهادف إلى إعداد حقل وفتحه، حقل أسميه ب"**سميوطيقا**" أي نظرية الطبيعة الجوهرية لكل سيميوزيس ممكن ونظرية تنوعاته الأساسية ..." "**سيميوزيس**": "السيرورة التي يشتغل فيها شيء ما بوصفه دليلا"، إن السيميولوجيا أو السيميوطيقا قد ولدت إذن، مرتين في بداية هذا

---

1 – صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، ص 126.

2 مارسيلو داسكال، **الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة**، ترجمة حميد حمداني، محمد العمري، عبد الرحمان طنكول، محمد لولي، مبارك حنون، سلسلة البحث السيميائي،مكتبة الأدب المغربي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1981، ص15.

القرن، ومن شأن هذه النشأة المزدوجة أن تفسر تطور "**مدارس**" متباينة داخل العلم الوليد، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد.

ولنبدأ بالإشارة إلى العناصر المشتركة بين مشروعي بورس وسوسير، ينبغي للعلم الجديد أن يهتم، في نظر مؤسسيه، بظواهر تشتغل فيها بعض الأشياء بوصفها "**دلائل**" إلا أن هذه الظواهر ظواهر شديدة التعقيد إلى درجة أن العديد من العلوم تطالب بدراستها: علم النفس، علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا، المنطق، اللسانيات، علم الحيوانات، نظرية الاعلام إلخ ... غير أن هذه العلوم حينما تهتم بالدلائل فإنها لا تدرس منها إلا بعض المظاهر المختارة بطريقة ملائمة والمعزولة عن مجموع الظواهر المرصودة، بينما تكون خاصية الغاية السيميولوجية، قبل كل شيء، وعلى عكس ما سبق، شاملة وعامة، فبدل انتقاء المظهر أو ذاك من الظواهر العلامية، فإن على السيميولوجيا أن تدرك جوهرها نفسه دون إغفال أي مظهر من مظاهرها الأساسية، ومن جهة أخرى فإن على السيميولوجيا ألا تقصي من مجالها، مسبقا أية ظاهرة تكتنف بالضرورة وجود "**دلائل**" ما، إن الأمر يتعلق بمعرفة "**كنه الدلائل**" **(سوسير)**، وبتحديد "الطبيعة الجوهرية لكل سيميوزيس.*1* ممكن ولتنوعاته الأساسية" **(بورس)** وهذا يعني أن السيميولوجيا لا تقصي دراسة أنساق الدلائل الخاصة، كما لا تقصي دراسة الدلائل انطلاقا من مظاهر خاصة، إلا أن هذه الدراسات ينبغي أن تواجه كدراسات تابعة (من زاوية نظر

1 مارسيلو داسكال، **الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة**، ترجمة حميد حمداني، محمد العمري، عبد الرحمان طنكول، محمد لولي، مبارك حنون ص17.

منطقية لا تكوينية) للسيميولوجيا العامة أو "**الخالصة**" أنها ستكون دراسات متصلة ب"**السيميولوجيا التطبيقية**" أو ب"**السيميولوجية الوصفية**".*1*

ورغم أهمية المشروع وآمال مؤسسيه الكبيرة، فإنه ينبغي الاعتراف بأن "**السيميولوجيا العامة**"، اليوم "كعلم ما تزال في طفولتها" وهذا يعني من ضمن ما يعنيه أنه لا توجد بعد سيميولوجيا واحدة ذات مجموعة من المفاهيم والمناهج متوفرة، على وجه الخصوص، على مشاكل تقويم الحلول ومعايير هذا التقويم، مجموعة من شأنها أن تكون مشتركة بين كل أولئك الذين يعتبرون أنفسهم "**سيميولوجيين**" وبعبارة أخرى فإن السيميولوجيا ما تزال في مرحلة ما قبل الأنموذج من تطورها كعلم، وفي مثل هذا الوضع فإن عدة "**مدارس**" تتعارض لا من حيث النظريات السيميوطيقية المتنافرة التي تقترحها فحسب، وإنما تتعارض أيضا من حيث تصورها لما يجب أن يشكل نظرية (**سيميوطيقية**) أو (**سيميولوجية**).*2*

ومن المحاولات التطبيقية التي حاولت تطبيق المنهج السيميائي والذي سلطنا عليها الضوء بالتحليل والدراسة:

1. محمد الناصر العجمي "في الخطاب السردي، نظرية **غيريماس** حيث حاول **محمد الناصر العجيمي** تطبيق المنهج السيميائي على نص الأرانب والفيلة من كتاب كليلة ودمنة لـ **عبد الله ابن المقفع**.

---

1 المرجع نفسه، ص17.

2 مارسيلو داسكال، **الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة**، ترجمة حميد حمداني، محمد العمري، عبد الرحمان طنكول، محمد لولي، مبارك حنون، ص18.

2. بومعزة رابح: الاتجاهات السيميائية المعاصرة نموذج غريماسي على مقطوعة نزارية، حيث حاول **بومعزة رابح** تطبيق المنهج السيميائي على قصيدة "اختاري" للشاعر الملقب بشاعر المرأة **نزار قباني**.

المبحث الأول : تطبيق المنهج السيميائي على مستوى السرد

إن عالمية التطلع إلى ثقافات الآخر وآدابه التي تأخذ أشكالا متنوعة وألوانا متباينة هي في أبسط تعاريفها "خروج الآداب من حدودها القومية، طلبا لكل ما هو جديد مفيد تهضمه وتتغذى به، واستجابة لضرورة التعاون الفكري والفني بعضها مع بعض، لها أسسها العامة التي تحدد سيرها"، وهي بذلك تزيح مبدأ القطيعة الابستمولوجية والحضارية التي قد تعلو صيحاتها من لدن الداعين لها والمدافعين عنها.

وعلى هذا فإن التتبع الكرونولوجي لانجازات الأمم على الصعيد الابداعي، والنظر إلى التفاوت على مستوى أجناسه وأشكاله أمسى أمرا غاية في الأهمية.

لهذا اعتبر "التاريخ مادة رئيسة لولوج الذات إلى صميم الحدث، وتحسس التجربة التاريخية من خلال المراحل التي يمر بها من لحظة التفكر فيه إلى فعله، إلى سرده بأدوات توسع فضاءات الادراك، وتفتح ميادين للتجربة والتطبيقات أكثر فأوعى".

ولا ضير أن تدفع أهمية السرد بالناقد **(جوناثان كوللر)** إلى أن يعده: "صيغة ضرورية لفهم نماذج السلوك، وأحداث الحياة (...) وعلى طريقة سرد الناس للأحداث تفهم القضايا والأفكار والتوجهات".

وبما أن الأمر يتعلق بالتنظير السردين فقد برزت أعلام نقدية اعتدت بهذا المبدأ المهم ومن جملة أولئك الناقد **(فلانيمير بروب)** الذي عد من أبرز رواد الشكلانية الروسية– في تأكيد منا على مبدأ العالمية الذي أسست معالمه عنده، إذ أن رحلة الكشف والتقصي عن خاصية المنجز الإداعي قد دعته إلى دراسة مادة الأدب الشعبي دون النظر والاقتصار على القصص الغربي المحض.*1*

ولعل صنيعه هذا لا يحيد عنه الناقد **(ليفي شترواس)** فقد تناول الأساطير– في شكلها العام– لأنها لا تقتصر على ثقافة دون أخرى.

وبما أن جوهر الابداع عند رواد الشكلانية كان متمثلا فيما أطلق عليه ب: **(أدبية النص)** أو كما يطلق عليها في لغتها الأصلية **(البويوطيقا)** حيث يتم النظر إلى البنية النصية بعدها كتلة مكتفية بذاتها، فإنه صنيعهم هذا لم يتأت إلا عبر إقصاء المنابع التي غذت النظريات الكلاسيكية حين مكاشفة المنجز الابداعي.

إن التأكيد على مبدأ الدراسة النصية المحايثة في النظرية السردية الحديثة يدفعنا إلى أن نجوب في رحاب المقولات والتنظيرات التي أقر بها الباحثون في هذا المجال الفسيح الذي تناقلته جملة الدراسات النقدية الغربية المنتجة ونظيرتها العربية المتأخرة والتي حاولت أن

---

1 أحمد موساوي، **المصطلح السردي عند عبد المالك مرتاض (كتاب في نظرية الرواية انموذجا)**، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي، تخصص النقد العربي ومصطلحاته جامعة قاصدي مرباح ورقلة، السنة الجامعية 1432– 1433هـ/ 2011– 2012م، ص25.

تتجاوب مع تلكم المباحث الكبرى التي نظر لها النقاد الغربيون في صرح البسيطة النقدية العربية.

وبما أن الحديث يتعلق بالنظرية السردية، فجدير بالاهتمام التعرض إلى المفاهيم العامة التي تطوق النظرية في شكلها العام دون النظر إلى مجالاتها أو تخصصاتها، فالنظرية عند **(عاطف حسين)** مثلا "تحدد تصورا ذهنيا شموليا اتجاه قضية، أو موضوع ما ويكون للنظرية قوة القاعدة أو القانون، حيث يؤكدها التطبيق العملي، كما هو الشأن في المسائل العلمية".

وفي المقابل فإن النظر إلى النظرية عند بعض يكمن في إقصاء المدى السياقي والمحيط الخارجي الذي يشوب نصوصها في محاولة إلى تكريس المد البنيوي الذي يضمن لها الثبات على شاكلة كتلة مغلقة مكتفية بذاتها.[1]

وهنا نقف أمام مقولة هامة للناقد **(بول دومان)** مؤداها ما يلي: "النظرية تولد عندما ينظر إلى النص من خلال جوهره اللساني، ويستبعد كل ما له علاقة بالتاريخ والاجتماع والنفس".

إن الاستبعاد لكل ما هو خارجي هو بمثابة إزاحة لمفاهيم كانت قارة ومتجذرة، وانطلاقا من ذلك تمسي النظرية– كما أفصح عنها **(ج. كوللر)** "انتقادا مشاكسا لأفكار المفهوم السائد (...) بوصفها انتقادا للحس العام واستقصاء لمفاهيم بديلة".

---

1 أحمد موساوي، **المصطلح السردي عند عبد المالك مرتاض كتاب في (نظرية الرواية انموذجا)**، ص26.

ولعل مسألة الانتقاد المشاكس الذي أشار إليه **(كوللر)** لا تتأتى إلا عبر تقصي مداخل النظرية المنتقدة، ومعرفة معالمها الأساسية ومسلماتها القائمة عليها على اعتبار أن "النظريات لا تحلل ولا تقول خارج مسلماتها العامة".

ولا يختلف الأمر في مسألة مصطلحات النظرية السردية، إذ أنه "من مظاهر الفوضى المصطلحية استخدام مصطلحات مختلفة لوصف الأسلوب السردي نفسه أو استخدام المصطلح الواحد لوصف أساليب سردية مختلفة".

ولعل ما ميز الشكلانيين ليس الشكلانية "باعتبارها نظرية جمالية، لا المنهج الذي يعكس نظاما علميا محددا، ولكن الرغبة في استحداث علم للأدب مستقل بذاته، ينبع من الخاصية المتميزة للمادة اللغوية والأدبية".

ولا مناص في أن الرجة العنيفة التي أحدثتها البنيوية في الصرح النقد الحديث، قد أدت ب**(تيري ايجلتون)** إلى أن يرى في انبعاثها خلقا جديدا لجملة الرؤى والتصورات التي تقوم على المنجز النصي، وبالتالي إحالتها لواقع نقدي جديد، إذ أنها لم تعكف على المنجز الشعري بل تعدته إلى الفن القصصي.[1]

وبهذا أسست معالم علم جديد أطلق عليه **(علم القص)** الذي هو مقابل لمصطلح **(السرديات)** أو لمقابلاتها العديدة التي شهدت تمايزا عند النقاد.

1 أحمد موساوي، **المصطلح السردي عند عبد المالك مرتاض كتاب في (نظرية الرواية انموذجا)**، ص27.

إن الالتفاتة الأولى للرواية تعود أساسا إلى الفلسفة الكلاسيكية المثالية الألمانية، في إطار تحديد النظريات البرجوازية، وعن ذلك يقول **(جورج لوكاتش)**:

"إن الفلسفة الكلاسيكية الألمانية هي التي طرحت من بين سائر النظريات البرجوازية مسألة الرواية بأكبر قدر من الصحة والعمق".

ولقد تضاربت الرؤى حول المعمار الفني للرواية، وبناء على ذلك تباينت النظرة إلى المكنات الداخلية للشكل "فهو عند البعض من النقاد الحدث والشخصية، وهو عند البعض الآخر اللغة وما يتبعها من آليات أو مكونات تعبيرية كالسرد والحوار واللغة والايقاع الشعري، وهو عند قسم (...) فضاء وزمن وحدث".

ومن هذا المنطلق فقد أضحت مسألة المصطلح السردي قضية جوهرية، وأخذت بذلك مساحة كبيرة من الاهتمام من لدن النقاد المشتغلين على الرواية وأشكال القص المتعددة، فتعددت بذلك الرؤى وتباينت أشكال التركيز على المكون السردي باعتبارها تقنية أساسة يعول عليها المبدع في بناء معمارية المنجز النصي.

ومما سبق سنحاول أن نبسط بإيجاز أبرز الأعلام النقدية التي اشتغلت على السردية.

نشير إلى الاحتفاء البالغ والكبير الذي حظيت به **(النظرية السردية)** من لدن الدارسين والباحثين، ومرد ذلك الدور المهم الذي لعبته في مجال البحث في فضاء المنجز السردي،

واقتحام المعالم الكبرى للنصوص السردية كشفا وتعرية[1] وتقصيا لتيماتها ومصطلحاتها المؤسسة لها، والتي توظف في مقاربة النصوص السردية إجرائيا.

ولقد حدد الناقد **(رويتر)** خاصية المقاربة بقوله: "إن المقاربة السردية" أو الداخلية" ذات خصيصتين رئيسيتين تتمثل أولاهما في الاهتمام بالقصص من حيث هي مواد لسانية بغض النظر عن إنتاجها وتلقيها (...) وتتمثل الثانية في صلاحيتها لدراسة جميع القصص على بالغ اختلافاتها الظاهرة في أشكالها الأساسية وفي مبادئ إنشائها (...) ومبادئها هي مدار البحث في علم السرد من حيث هو نظرية في القصة".[2]

2/ أعلام السردية وآليات اشتغال النظرية:

أ/ فلاديمير بروب:

إن السعي إلى التقعيد السردي، وتخريج مصطلحاته إلى ممارسات نقدية علمية كان انطلاقا من البحوث النقدية التي أفرزتها دراسات الناقد الشكلاني **(فلاديمير بروب)** النصية، والذي حرص على التناول الشكلي لمادة الحكي بعد أن كان التركيز على المضمون، ومن هنا شكلت دراسته "إنجازا معرفيا، ونقلة في مجال الدراسات النقدية للنص السردي، فبعد أن كان النقد الأدبي خطابا يصف النص أو يفسره، ويركز على مضمونه وكاتبه، صار خطابا يعنى ببنية النص، وخصائص الشكل".

---

1 أحمد موساوي، **المصطلح السردي عند عبد المالك مرتاض كتاب في (نظرية الرواية انموذجا)**، ص28.

2 أحمد موساوي، **المصطلح السردي عند عبد المالك مرتاض كتاب في (نظرية الرواية انموذجا)**، ص29.

وعليه فإنه من الدال أن نشير إلى أن الدراسة التي أقامها **(فلاديمير بروب)** على نماذج حكائية– والتي حفظها له مؤلفه **(مورفولوجية الحكاية الشعبية)**– قد كان الهدف منها "الكشف عن العناصر المشتركة المشكلة للمتن المدروس، أي الوصول إلى عزل العنصر الدائم والثابت عن التجليات المختلفة التي تشكل وفق تصوره سوى تنويعات لبنية واحدة".

لقد كانت اهتمامات **(فلاديمير بروب)** منصبة ما عرف عنده ب**(الوظائف)** وهو "اصطلاح استقاه من تركيب الجملة في النحو الوظيفي".

لقد عمدت الباحثة **(شلوميت كنعان)** إلى قراءة مباحث **(فلاديمير بروب)** السردية وفحصها، حيث خلصت إلى أن الوظيفة عنده هي بمثابة "العنصر الثابت الذي يستخرج من أحداث متماثلة، ومن القائمين بهذه الأحداث متماثلة، ومن القائمين بهذه الأحداث الذين هم أشخاص القصة".*1*

أو كما حددها **(جيزيل فالانسي)** في أنها "تحدد صحة تقسيم الأحداث وملائمته".

وبناء على ذلك "تظهر خصوبة نظرية بروب في كتابات الآخرين الذي ساروا في طريقه، ويعتبر كلود بريمون **clude bremond** وأ. ج. غريماس **A.J. Greimas** من النقاد الفرنسيين الذين استخدموا نظراته النافذة أساسا لنظريات أثمن".

فلا غرو أن مقاربة **(فلاديمير بروب)** لجملة من النصوص الحكائية الروسية، وعقد موازنات دقيقة بينها، قد جعله يخلص إلى جملة من الملاحظات (*) نبسطها فيما يلي:

1 أحمد موساوي، **المصطلح السردي عند عبد المالك مرتاض كتاب في (نظرية الرواية انموذجا)**، ص30.

1/ وجود قيم متغيرة وهي أسماء الشخصيات، أو ما يسميه بالوظائف (وهي التي تعوض الحوافز **les motifs (تشوماتشفسكي)** أو العناصر عند بيديه **(Bedier).**

2/ تمثل هذه الوظائف الأجزاء الأساسية للحكاية والعناصر الثابتة والدائمة مهما كانت الطريقة التي أنجزت بها هذه الوظائف.

3/ إن عدد هذه الوظائف المحتواة داخل الحكاية العجيبة محدود.

4/ إن تتابع هذه الوظائف متشابه في كل الحكايات.

5/ إن كل الحكايات الشعبية تنتمي إلى النوع نفسه فيما يتعلق ببنيتها.

وبذلك فإن الخطاب السردي المتمثل في **(الحكايات الشعبية)** عند **(فلاديمير بروب)** قد خضع لدراسة "لا تقف عند حدود تعيين مواضيع بل تهدف إلى مساءلة النص في ذاته ولذاته من خلال بنيته الشكلية".

ولا يمكن– بأي حال من الأحوال– أن تسلم النظرية النقدية أو أي ممارسة إجرائية من انتقاد، إذ أن ما قدمه الشكلاني **(فلاديمير بروب)** من تقعيد لمباحث السرد وفصوله المصطلحية عبر بحوثه القيمة أمر مهم للغاية، لكن الفكر النقدي يلوح دوما إلى مبدأ*1* الإزاحة وتقديم البديل وكذا إجلاء مواطن النقص والقصور في أي دراسة نقدية، فها هو **(غريماس)** يلمح إلى الرؤية المخطئة التي ظلت عالقة في ذهن كثير من الباحثين في النظرية السردية "عندما

1 أحمد موساوي، **المصطلح السردي عند عبد المالك مرتاض كتاب في (نظرية الرواية انموذجا)**، ص31.

يجعلون النموذج الدراسي الوصفي الذي وضعه **(فلاديمير بروب)** للحكاية الخرافية، وسيلة لتحليل الأشكال المعقدة من الحكي كالرواية".

ب/ جيرار جنيت:

يعد الناقد **(جيرار جنيت)** من أكثر الوجوه النقدية شهرة وانتشارا على المستوى العالمي وما دمنا في إطار السرديات فإننا ألفيناه باحثا متميزا، ولا أدل على ذلك كتاباته المهمة التي تمثل "المرتكزات التي تمحور حولها النقد الجديد في مقاربة النصوص السردية، ولعل هذا الحكم الجازم يملك مشروعيته اعتبارا لما تميزت به هذه الكتابات من عمق وتنوع في محاورة النصوص السردية، بهدف البحث عن قواعد ثابتة لبنية مجردة تتحكم في تشكيلها".

أما عن مؤلف **(جيرار جنيت)** الذي عمد فيه إلى دراسة قيمة أقامها على رواية **(بروست)** فإنه من الكتب المهمة في صعيد النظرية السردية "وتأتي أهمية كتاب **(جنيت)** في كونه يلبي الحاجة إلى نظرية منهجية للرواية، تتناول المصطلحات الأساسية للتقنية الروائية، مثل: وجهة النظر، والراوي المحيط بكل شيء، والقصة التي تروي بضمير الغائب، على نحو منهجي معا".*1*

ولعل التأكيد على هذه القامة النقدية التي حملت رؤى ثاقبة ونظرات نافذة "في التقعيد للسرد، والانقطاع له، البحث فيه، وفي جزيئاته التفصيلية على نحو زاد فيه على كثيرين"، مرده إلى أرصدته العلمية التي حرص الباحثون على تثبيتها في دراساتهم التي يقيمونها على

1 المرجع نفسه، ص32.

النصوص السردية عبر الركون إلى مصطلحات النظرية السردية التي سعى **(جيرار جنيت)** إلى أن يزيح عنها الغطاء ليتوغل في جنباتها في محاولة منه للامساك بعناصرها المكونة لها والدالة عليها، والكشف عن حجبها وإرساء معالمها.

ج/ غريماس:

إن محور الاهتمام عند **(غريماس)** في المجال السردي هو تجاوز حدود الظاهر البسيط قصد استنطاق الباطن المعقد، وهنا تتكشف مقدصية السيميائي الفرنسي التي نقلتها عنه الناقدة **(نادية بوشفرة)** من دراسته المعنونة ب**(la sémiotique du texte)** والتي يقول في إحدى فقراتها "حسب المبدأ الذي يدعو إلى الانطلاق من المعلوم إلى اللامعلوم، ومن الأكثر بساطة إلى الأكثر تعقيدا، نمر من الأدب الشفوي إلى الأدب المكتوب، ومن الحكاية الشعبية إلى العالمية".

ويؤكد **(غريماس)** في مختلف دراساته على الهدف الذي تنشده السيميولوجية هو "الامساك بالمعنى أو الدلالة، بغض النظر عن المظاهر الأخرى التي يتخذها هذا السرد".

أما بما يختص بتعقد مفاهيم الناقد السيميائي، فقد ردها **(عبد الملك مرتاض)** إلى "الحشد الكبير من المصطلحات المستوحاة أصلا من علوم: النحو والألسنية العامة والفلسفة والرياضيات، والتي سعى إلى محاولة تقنينها بمعان تأخذ شكل الدراسة السيميائية التي أصبحت علما، يشق طريقه من بين العلوم النقدية المعاصرة".

ولا ضمير أن تكون نظرية **(غريماس)** في تحليله السردي مشتغلة على أساس العوامل، حيث "اقترح تصنيف الشخصيات حسب أفعالها، وسماها العوامل واعتبر التحليل الوصفي والتحليل الوظيفي متكاملين".[1]

ولقد ذهب الناقد **(محمد عزام)** إلى أن التحليل البنيوي للرواية عند **(غريماس)** الذي يؤسس انطلاقا من **(العوامل)** "يعني **(الأشخاص)** لا ككائنات نفسية تتمتع بمزايا خلقية، وإنما كمشاركين لهم مكانتهم ومواقعهم داخل القصة، وهذا يعني أن النظر إليهم يتم كوظيفة نحوية".

لكن هذه النظرة إلى **(العوامل)** من زاوية نحوية قد لا تجد وفاقا مع ما أورده **(معجم السرديات)** بخصوص هذه المسألة، لأن **(غريماس)** يعتبر أن "السيميائية تتيح للسانيات أن تتخطى المسائل النحوية الصرفة، وأن تعالج البنى الدلالية الخارقة للعنصر اللساني على نحو ما يتجلى في القصة والأسطورة والشعر".[2]

ولقد أوفقت مدرسة باريس السيميائية الفرنسية جهود نقادها وروادها على تحليل "الخطابات والأجناس الأدبية من منظور سيميائي قصد اكتشاف القوانين الثابتة المولدة لتمظهرات النصوص العديدة"[3]، وفي مقدمتهم جان كلود كوكي وجوزيف كورتيسوألجيرداس جوليان غريماس.

---

1 أحمد موساوي، **المصطلح السردي عند عبد المالك مرتاض كتاب في (نظرية الرواية انموذجا)**، ص33.

2 المرجع نفسه، ص34.

3 كمال جدي، المصطلحات السيميائية السردية في الخطاب النقدي عند رشيد بن مالك، مذكرة من متطبات شهادة الماجيستر في اللغة العربية وآدابها تخصص النقد العربي ومصطلحاته / جامعة قاصري مرباح ورقلة السنة الجامعية 2012/2011، ص 33.

7- مشروع غريماس في السيميائيات السردية:

تتأسس أبحاث ألجيرداس جوليان غريماس السردية على "الإستعادة النقدية لأعمال بوب، ووضعها حصرا، ضمن منظور سيميائي وبنيوي، فالنص معطى تجريبي ويدرس الباحث السيميائي باعتباره محللا، التنظيم التركيبي للمعاني، أي التقطيع والتنظيم السرديين، ولقد أنشأ غريماس، لدراسة الخطابات السردية، علم دلالة أساسي، وعلم النحو أساسي".

إعتمد غريماس في بلوة مشروعه السردي، على أصول معرفية متنوعة يمكن تحديدها فيما يلي:

- الإرث اللساني السوسيري (مدرسة جينيف).
- اجتهادات بروندیلوهیلمسلف (مدرسة كوبنهاغن).
- ترتث الشكلانيون الروس (بوب).
- الجهود الفرنسية لـ: تينير وسوريو.

وينطلق غريماس في وضع مشروعه النقدي من ملاحظات نظرية ضمنها كتابيه: (في المعني) و(الدلالة البنيوية) منها أن "الذهن البشري ينطلق من عناصر بسيطة لكي يصل إلى خلق موضوعات ثقافية، ويسلك في هذا سبيلا معقدا، يواجه فيه إرغامات، عليه أن يتجاوزها واختيارات عليه ان يحدد موقفه ضمنها".

ويعتمد غريماس في معالجته للقصة على التحليل المحايث لعناصر المعني، الذي يبدو عند البنيات العميقة ثم البنيات السطحية وأخيرا بنيات التجلي.

وأورد محمد الناصر العجيمي في كتابه الموسوم بـ: في الخطاب السردي (نظرية غريماس) أن "النظام الدراسي عند غريماس ينتظم في مستويين:

1. **مستوى السطحي:** يتشعب بدوره إلى مكونين:

- **مكون سردي:** ويقوم أساسا على تتبع سلسلة التغيرات الطارئة على حالة الفواعل.

- **مكون تصويري (أو بياني):** ومجاله استخراج الأنظمة الصورية المثبوتة على نسيج النص ومساحته.

2- مستوى العميق: ويختص بدراسة البنية العميقة استنادا إلى نظام الوحدات المعنوية الصغرى[1].

ومن المعلوم أن غريماس إستلهم مرتكزات مشروعه السيميائي التحليلي من فلاديمير بروب، الذي يعد في مورفولوجيا الحكاية العجيبة (1928)" أول من شكلن القصة واعتبرها مجرد وظائف تظهر وتحتفي بحسب خصوصية النص"، ولكنه يحمل نظرة تختلف عن نظرة بروب للقصة "على أنها بنية دلالية مشاكلة للجملة، لا تتصاع للتحليل المناسب".

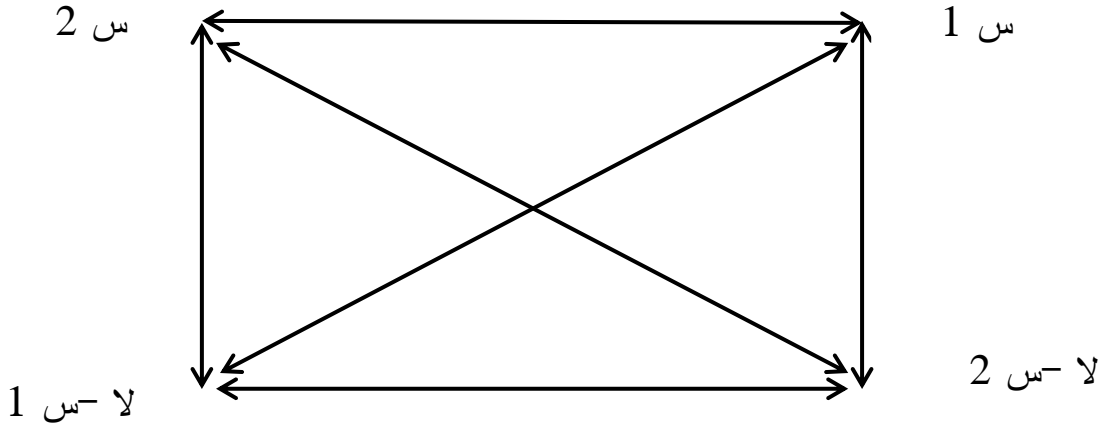
ويقترح غريماس نموذجا سيميائيا، يقوم على التقابل بين الأضداد الثنائية، ويرى أن" المعنى يقوم على أساس إختلافي، وبالتالي فتحديده لا يتم إلا بمقابلته بضده، وفق علاقة ثنائية متقابلة وقد صاغ غريماس أفكاره هذه، من خلال ما أسماه بالمربع السيميائي" الذي يعد من أهم العناصر في دراسة المنهج والبنية العميقة، وباعتباره حوصلة التحليل السيميائي.

1 كمال جدي، المصطلحات السيميائية السردية في الخطاب النقدي عند رشيد بن مالك، ص34.

كما "يعرف بورايو المربع السيميائي فيقول: أنه صياغة منطقية، قائمة على نمذجة العلاقات الأولية للدلالة القاعدية التي تتلخص في مقولات: التناقض والتقابل والتلازم فهو نموذج توليدي ينظم الدلالة"*1*، ويمكن أن نمثله على الشكل التالي حيث تمثل س علامة:

التضاد

س



ما تحت التضاد

ويقسم غريماس الأضداد الثنائية إلى ثلاث مجموعات "يتولد عنها الشخصيات التي يطلق على كل منها لفظ 'المؤدي' أي تتأدى هذه المجالات عن طريقتها في أي قصة من القصص... وهذه الفئات الثلاث هي النموذج الذي ينبني أساسا على البنية الأولية للتعبير بالعلامات"، حيث تتوزع الشخصيات حسب الثنائيات كما يلي:

(الفاعل– الموضوع)، (المرسل– المرسل إليه)، (المساعد– المعارض) كنموذج علامي.

1 كمال جدي، **المصطلحات السيميائية السردية في الخطاب النقدي عند رشيد بن مالك**، ص35.

ومن هنا يمكننا القول أن المربع السيميائي نموذج فعال في ضبط العلاقات القائمة في النص وفي الكشف مكامن بنياته العميقة المؤسسة له والمتحكمة في ظاهره، وبذالك فالمربع الغريماسي" يسمح بإعادة تمثيل المعمارية المعنى في النص ما وتشكل المحتوى "ليتضح بذالك إسهام غريماس– من خلال جهود مدرسة باريس– في إثراء البحوث السيميائية.

ومن الباحثين والنقاد العرب الذي تأسوا بهذا الطرح الغريماسي، واقتبسوا مصطلحاته في مقاربة النصوص السردية ذات المنشأ العربي نذكر: سعيد يقطين، محمد الناصر العجيمي، عبد الحميد بورايو، السعيد بوطاجين، ورشيد بن مالك الذي يعد من النقاد والمترجمين الذين تصدوا لشرح نظرية غريماس في الخطاب السردي وتبسيط مصطلحاتها وتطبيقها على النصوص السردية العربية[1].

يمكننا الإشارة إلى أن السيميائية منذ نشأتها وتفرعها بين الفلسفة واللسانيات تهدف– كمنهج نقدي– إلى إيجاد بدائل حضارية وفكرية تختلف في نظامها وأهدافها عما أرستها لمنطقة اللسانية" رغم أن اللسانيات بوصفها أكمل الأنظمة هي الأصل، وأن السيميولوجيا فرع منها"[2].

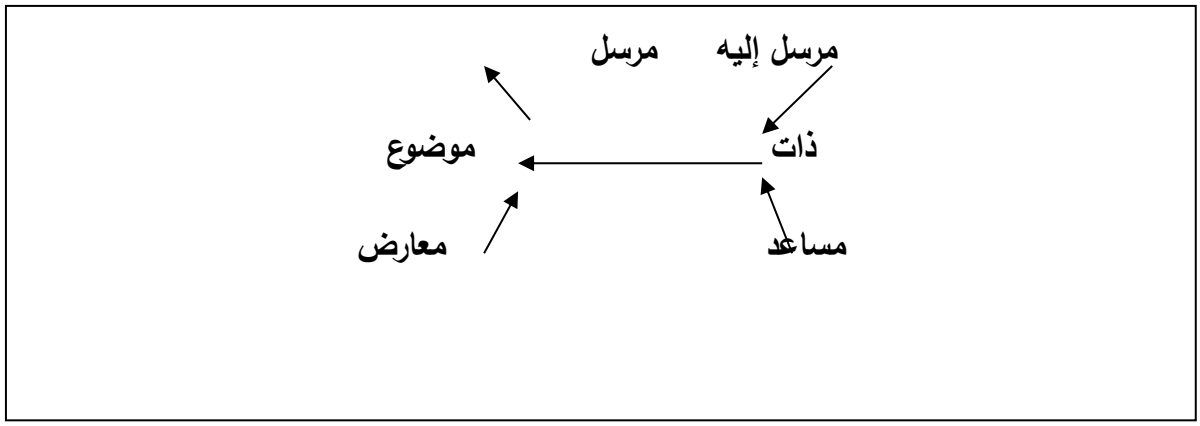
النموذج العاملي Actantial model:

هو بنية العلاقات الحاصلة بين العوامل **actonts** إن السرد تبعا لغريماس، كل دال لأنه يمكن استيعابه طبقا لهذه البنية، إن النموذج العاملي يضم ستة عوامل: الذات **subject**

1 كمال جدي، **المصطلحات السيميائية السردية في الخطاب النقدي عند رشيد بن مالك**، ص36.

2 كمال جدي، **المصطلحات السيميائية السردية في الخطاب النقدي عند رشيد بن مالك**، ص37.

التي تقوم بالبحث عن الموضوع،[1] والموضوع **object** (الذي تقوم الذات بالبحث عنه)، والمرسل **sender** الذي يدفع الذات للاتصال بالموضوع، والمرسل إليه **receiver** (أو متلقى الموضوع المتحصل عليه بواسطة الذات)، والمعارض **opponent** (الذي يحاول عرقلة الذات والحيلولة بينها وبين الاتصال بالموضوع)، وغالبا ما يتم التمثيل لهذا النموذج بالخطاطة التالية:[2]



السردية والسيمياء: la narrativité et la sémiotique

نرى إذن على قدر ما يتم قبول أن الدلالة ليست متباينة عن صيغ تجليها، يصبح ضروريا الاعتراف بطور بنائي **structurel**، مستقل، ميدان انتظام حقول واسعة للدلالة **signification**[3] التي يجب أن يتم إدماجها في كل نظرية سيميائية عامة، وبالضبط

---

1 جيرالد برنس، **قاموس السرديات**، ترجمة السيد: إمام ميريت للنشر والمعلومات، طبعة 1، 2003، القاهرة، ص9.

2 المرجع نفسه، ص10.

3 غريماس كورتيس باط، **النظرية السيميائية السردية، الكشف عن المعنى في النص السردي**، ترجمة: عبد الحميد بورايو، دار السبيل للنشر التوزيع، 2008، الجزائر، ص97.

في الحدود أين تضع هذه الأخيرة في الحسبان تمفصل العالم الدلالي وتجليه باعتباره جماع معنى ذي طبيعة ثقافية أو شخصية، في ذات الوقت، يتعرض الاقتصاد العام لأية نظرية لبلبلة، إذا من قبل أمكن النظر إلى المشروع اللساني باعتباره يقوم على وضع آلية **mécanisme** ذات طابع توليفي **combinatoire** أو توليدي **génératif**، يضع في الحسبان، انطلاقا من عناصر بسيطة وأنوية أصلية **Noyaux originaux** إنتاج عدد غير محدد من الملفوظات، هذه الأخيرة بدورها تتحول وتتآلف لتؤسس امتدادات ملفوظات باعتبارها خطابا.

لابد الآن، على العكس من تصور الهيئات اللازمة لنولد الدلالة، بحيث أنه انطلاقا من تجميع لمعنى متمفصل أقل ما يمكن الحصول، نزولا لأطوار متدرجة على تمفصلات **articulations** دالة متقنة شيئا فشيئا، من أجل بلوغ الهدفين معا الذين يرمي إليهما المعنى في تجليه، البروز كمعنى متمفصل **sens articule**، أي دلالة وكخطاب عن المعنى **discours sue le sens**، أي شرح واسع ينمي بطريقته جميع التمفصلات السابقة على المعنى، بعبارة أخرى توليد الدلالة، لا يمر أولا بإنتاج الملفوظات وتوليفها في خطابات إنه موصول، في مساره،*1* ببنيات سردية وهي ... توليد سردية، وهي التي تنتج الخطاب المعقول المتمفصل عبر ملفوظات.

---

1 غريماس كورتيس باط، **النظرية السيميائية السردية، الكشف عن المعنى في النص السردي**، ترجمة: عبد الحميد بورايو، دار السبيل للنشر التوزيع، 2008، الجزائر، ص98.

منذئذ، نرى أن إقامة نظرية للسردية تبرر وتؤسس بحق التحليل السردي كمجال للبحث المنهجي المكتفي ذاتيا، لا تتمثل فقط في تحسين وشكلنة نماذج سردية محصل عليها عن طريق وصف يتكاثر شيئا فشيئا ويتنوع، ولا في تصنيف لهذه النماذج يستوعبها كلها، ولكن تتمثل أيضا، وبالخصوص، في إقامة بنيات سردية باعتبارها هيئة مستقلة ذاتيا **instance autonome** داخل الاقتصاد العام للسيمياء، المتصور كعلم دلالة.*1*

لقد حاول **محمد الناصر العجيمي** تطبيق المنهج السيميائي على نص "الأرانب والفيلة" المأخوذ من كتاب "كليلة ودمنة" لـ **عبد الله بن المقفع** متأثراً بـ **غريماس**، وهذا ما سنحاول توضيحه في هذا المبحث لمعرفة مدى فاعلية المنهج السيميائي باعتباره المفتاح الذي ندخل به عالم النص محاولين به فهم النص وسبر أغواره، ولم يبق هذا المفتاح فقط في أيدي النقاد الغرب بل وصل إلى النقاد العرب الذين حاولوا بدورهم فتح أبواب النص من خلال كشف أسراره وخباياه مع اظهار مدى صلاحية هذا المفتاح على الثقافة العربية المحملة بالكثير من القيم والمعارف والخصوصيات.. الخ.

ويبدو أن كتاب "كليلة ودمنة" أدى دوره وبلغ الغاية المقصودة منه يومئذ، وذلك أن **ابن المقفع** لم يقتل بسبب ما جاء فيه، بل بسبب كتابه "رسالة الصحابة" الذي تحدث فيه عن حاشية الخليفة أبي جعفر المنصور مما أوغر صدور العديد من الناس عليه واتهموه بالزندقة.*2*

---

1 المرجع نفسه، ص99.

2– عبد الله بن المقفع، كليلة ودمنة، تقديم مرزاق بقطاش، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، 1988. الجزائر، ص 3.

ولعل المتصفح لكتاب **محمد الناصر العجيمي** في الخطاب السردي نظرية **غريماس** 1991 تونس يلمس مدى تأثر **محمد الناصر العجيمي** الواضح بـ **غريماس** وهذا ما سنحاول توضيحه فيما يلي:

1-النص:

"**الأرانب والفيلة**"

قال الغراب زعموا أن أرضاً من أراضي الفيلة تتابعت عليها السنون وأجدبت وقل ماؤها وغارت عيونها وذوى نبتها ويبس شجرها، فأصاب الفيلة عطش شديد، فشكون ذلك إلى ملكهن فأرسل الملك رسله ورواده في طلب الماء في كل ناحية، فرجع إليه بعض الرسل فأخبره أني قد وجدت بمكان كذا عينا يقال لها عين القمر كثيرة الماء، فتوجه ملك الفيلة بأصحابه إلى تلك العين ليشرب منها هو وفيلته وكانت العين في أرض للأرانب فوطئن الأرانب في أجحارهن فأهلكن منهن كثيراً، فاجتمعت الأرانب إلى ملكها فقلن له، قد علمت ما أصابنا من الفيلة قال ليحضر منكن كل ذي رأي رأيه، فتقدمت أرنب من الأرانب يقال لها "فيروز".

وكان الملك يعرفها بحسن الرأي والأدب فقالت: إن رأى الملك *1* ان يبعثني إلى الفيلة ويرسل معي أميناً ليرى ويسمع ما أقول ويرفعه إلى الملك لها فقال لها الملك أنت أمينة ونرضى بقولك فانطلقي إلى الفيلة وبلغي عني ما تريدين، واعلمي أن الرسول برأيه وعقله ولينه وفضله يخبر عن عقل المرسل، فعليك باللين والرفق والحلم والتأني فإن الرسول هو الذي يلين الصدور إذا رفق، ويخشن الصدور إذا خرق ثم إن الأرنب انطلقت في ليلة قمراء حتى انتهت إلى الفيلة، وكرهت أن ندنو منهن مخافة أن يطأنها بأرجلهن فيقتلنها وإن كن غير متعمدات فأشرفت على الجبل ونادت ملك الفيلة وقالت له إن القمر أرسلني إليك والرسول غير ملوم فيما يبلغ وإن اغلظ في القول قال ملك الفيلة فما الرسالة؟ قالت يقول لك إنه من عرف فضل قوته على

1- محمد الناصر العجيمي في الخطاب السردي نظرية غريماس، الدار العربية للكتاب تونس 1991، ص 111.

الضعفاء فاغتر في شأن الأقوياء قياسا لهم على الضعفاء كانت قوته وبالاً عليه، وأنت قد عرفت فضل قوتك على الدواب فغرك ذلك فعمدت إلى العين التي تسمى باسمي فشربت منها وكدرتها فأرسلني إليك فأنذرك أن لا نعود إلى مثل ذلك، وأنك إن فعلت يغشي على بصرك ويتلف نفسك وإن كنت في شك من رسالتي فهلم إلى العين من ساعتك فإنه موافيك بها فعجب ملك الفيلة من قول الأرنب فانطلق إلى العين مع "فيروز" الرسول، فلما نظر إليها رأى ضوء القمر فيها فقالت له فيروز الرسول خذ بخرطومك من الماء فاغسل به*1* وجهك واسجد للقمر فأدخل الفيل خرطومه في الماء فتحرك فخيل إلى الفيل أن القمر ارتعد فقال ما شأن القمر أرتعد أتراه غضب من ادخالي الخرطوم في الماء؟ قالت "فيروز" الأرنب : نعم فسجد الفيل للقمر مرة أخرى وناب إليه مما صنع وشرط أن لا يعود إلى مثل ذلك هو ولا أحد من فيلته.*2*

2- تحليل النص:

يخضع النص في شكله العام إلى بنية داخلية تقوم بين البداية والنهاية على تحول من وضعية اتصال انعكاسي (conjonction reflexive) لذات فاعلة (الفيلة) موسومة بالقدرة في مستوى الكفاءة المادية بموضوع قيم، (هو العين) افتكته عنوة من ذات حالية (sujet d état) هي الأرانب الموسومة في مستوى الكفاءة المادية بالضعف، إلى وضعية انفصال متعد (conjonction transitive) عن الموضوع بتحول الأرانب إلى ذات فاعلة، واسترجاعها ما سلبت إياه، وتردد الوضعية من الاتصال إلى الانفصال (أو العكس) يعد من المقومات الرئيسية المؤسسة لمفهوم الاختبار (epreuve) وفق النموذج العاملي (ciel modèle actan) على أن هذا التحول من وضعية إلى أخرى تم على مراحل سنعنى بضبط حدودها، لكن على أي أساس واستناداً إلى أي المقاييس؟*3*

1- المرجع نفسه، ص 112.

2- نفسه، ص113.

3- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 113.

من الواضح أن النص المكتوب في صياغته المادية وطريقة تنظيمه إلى فقرات لا يصلح مرجعا للتقسيم على نحو حاسم فبصرف النظر عن أن تنظيمه المادي هذا ليس من وضع مؤلف النص الحقيقي فإن النص عامة والأدبي بوجه خاص قائم على نسيج من النظم والمستويات المختلفة، وهو يحتمل تبعاً لذلك عدداً غير محدود نظريا من أوجه التقسيم، وعلى هذا فكل تقسيم مهما تكن وجاهته لا يستقيم بالضرورة منهجاً وحيداً ملزماً لنا باتباعه ذلك أنه يعتمد هذا النظام تارة وذاك تارة أخرى.

كما لا يستقيم اعتماد المستوى الزماني معياراً للتقسيم لخلو النص من إشارات تدل على صيرورة الأحداث في السياق الزمني، وليس حظ النص من الإشارات ذات المدى المكاني بأوفر من ذلك وإن أتاح لنا أن نعزل قسما أول استنادا إلى الإشارة التي تفيد بانتقال الفيلة من موطنها المألوف إلى موطن مجاور له طلباً للماء، ويتكون هذا القسم من جزئين سمينا كل واحد منهما "مقطعاً".

1. من بداية النص إلى قوله "عطش شديد" ويتضمن وصفاً لحالة الموطن الذي تقيم فيه الفيلة.

2. من "فشكون" إلى "هو وفيلته" وموضوعه تدمر الفيلة من سوء حالها والتماسها النصيحة من ملكها لإيجاد مخرج لها.

أما ما بقي من النص فنعتمد في تقسيمه تطور الحدث ومراحل صيرورته ويقودنا اعتماد هذا المقياس إلى استخراج قسم ثان يمتد من "كانت العين" إلى "إذا خرق" ومحوره تشاور الأرانب فيما بينها في طريقة مواجهة الوضع الطارئ الناشئ عن ورود الفيلة العين[1] المنتمية إلى فضائها المألوف، ويتكون هذا القسم من مقطعين الأول من وكانت العين إلى كثيرا

1- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 114.

موضوعه ما أحدثه قدوم الفيلة أرض الأرانب ووطؤها أجحارها من افتقار في ذات هذه، والثاني الممتد إلى نهاية القسم المعني يطلعنا على تهيؤ الأرنب "فيروز" بعد تلقيها إذناً من ملكها للقيام بإنجاز نقيض يهدف إلى محو الافتقار وإزالته.

أما القسم الأخير الذي يشمل بقية النص فيخص خطة "فيروز" لصرف الفيلة عن العين وقد تمت على مراحل أربع وسميناها كما يلي:

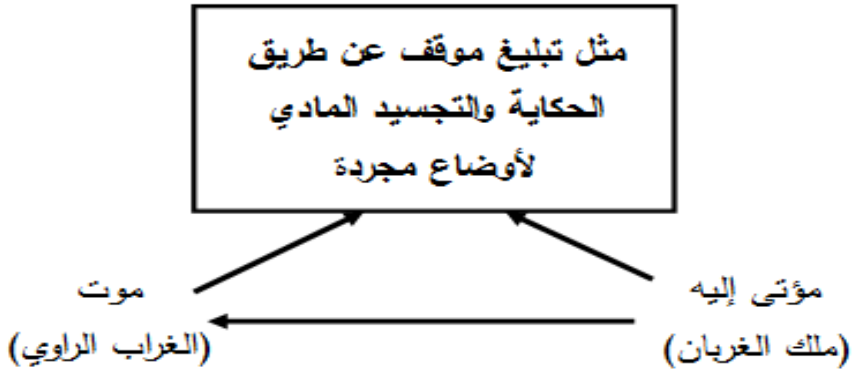
1. الاستعانة بالمساعد
2. الموضوع المؤهل
3. الخطاب
4. الجزاء

ولئن كان النص المدروس يجسد في حد ذاته عالماً مغلقاً مكتفياً بذاته فإنه موصول بسياق عرضي هو "باب الغربان والبوم" المضمن بدوره في سياق أوسع هو كتاب "كليلة ودمنة" وما النص سوى حلقة مندرجة ضمن حلقات أخرى يرتبط بعضها ببعض ارتباطا جدلياً ويحدد بعضها من بعض مداها وعمقها ما يهمنا الإشارة إليه في مجال السياق المباشر الذي ورد فيه النص أن جماعة من البوم استبدت بالغربان فتوجه ملك الغربان إلى ورائه ومعينيه داعياً إياهم أن يشيروا عليه ما يرونه صالحا لمواجهة الوضع واتقاء شر البوم فأشار عليه بعضهم بوجوب مهادنة العدو ودفع الفدية أو مغادرة المكان لأنه لا قبل لهم بمقاومة خصوم يفوقونهم قوة وبأساً[1].

إلا أن أحد الغربان أبدى موقفاً نقيضاً مؤكداً أن المرء قد يبلغ بالحيلة ما لا يبلغه بالقوة موصيا بالتوسل بها نسجا على منوال الأرنب التي زعمت للفيلة أن القمر وليها.

1- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 115.

وهكذا يعد النص توسعاً في الفكرة وتجسيداً سردياً لها وله بذلك مدى استقرائي بحكم أنه ينطلق من الخاص ليبلغ العام ويعرض للجزئي المحسوس ليصل إلى الكلي المجرد نلخص عملية التبليغ في الرسم التالي:



بيان هذا الرسم أن ملك الغربان يتوجه إلى غراب سائلاً إياه رأيه فيما ينبغي القيام به لمواجهة الوضع فيعبر الغراب المعني بالسؤال عن موقفه بطريقة القص والحكاية أي بالتبعيد بينه وبين موقفه إذ يعمد إلى خلق أحداث وشخصيات بعيدة عنه تفصح بطريقة غير مباشرة عن موقفه ايهاما بموضوعية هذا الموقف وواقعيته وسعياً إلى إقناع المؤتى إليه بجدواه ومنطقيته، وتوسم[1] عملية التبعيد هذه "بالوكل" (dèbrayage) أما المؤتى إليه (ملك الغربان) فهو مدعو إلى فك "سنن" الحكاية بمقتضى فعل تأويلي وإدراك غائيتها والموقف المعبّر عنه من خلالها. وهكذا يكتسي المثل طابعاً جدليا إذ يتردد بين التجريد والتجسيد المادي. فهو ينطلق من وضع قائم ليختزله ويجرده ثم ينقله إلى وضع واقعي آخر يشبهه أو يعادله وفي مرحلة ثانية يعمد إلى تأويل الوضع المجسد في المثل وتسقط النتائج النظرية المستخلصة على الوضع الأول المعني بالوصف والتجاوز.

المقطع الأول من القسم الأول "زعموا... عطش شديد"

1- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 116.

يطالعنا في مستهل النص ملفوظ وصفي يخص حالة فضاء مألوف للفيلة، له بالفضاء المحيط به أفقيا علاقة محتوى عليه بمحتو (englobé/englobant). ويتألف الملفوظ من جمل خمس تتكون كل واحدة منها من فعل وفاعل مضاف إلى ضمير متصل يعود على الموصوف "الأرض". وإذا استثنينا الاسمين الأولين فإن سائر الأسماء المضمنة في الجمل المذكورة موسومة في مستوى المحور التقويمي (systéme axiologique) بقيمة إيجابية: "ماء وعيون" و"نبت" و"شجر".

ما يستخلص من السياق بداهة أن الحيز الفضائي المألوف كان في مرحلة سابقة لزمن حدوث الجفاف في حال اتصال بالماء أي بالحياة (ماء٨أرض٨ حياة) وأضحى في المرحلة الراهنة منفصلاً عنه متصلاً بما يشبه الموت (ماء٧ أرض٨ ± موت).

إلى هذا نفترض أن للقائم بفعل (acteur) خفي، نعتبره[1] السماء، وسنوضح لماذا، دورا غرضيا (role thematique) يتمثل في أنه سالب إياها في حال الجود بالماء والعطاء، سالب إياها في حال الجفاف والإمساك ويتحدد في كلتا الحالتين بقدرته على أن يكون (pouvoir être). وإذا كانت الشبكة الصورية المنظمة حول الأسماء تبرز منه دوره الغرض الإيجابي، فإن الشبكة الصورية المجسدة في الأفعال نلخص منها دورها الغرضي السلبي ذلك أن تحليلا اعلامياً سطحياً لهذه الأفعال قل وذوى ويبس وأجدب وغار يقودنا إلى استخراج محور دلالي جامع لها مفاده الانتقال من الحياة إلى الموت أو (ما يشبه الموت) بالإيحاء بالنقصان حينا و(هو ما يستفاد من فعل "قل") وتردي النوعية حينا آخر و(يستخلص ذلك من فعلي "ذوي" و"يبس") وبالجمع بين الصورتين وتوليد صورة جديدة مزيج منهما مرة ثالثة و(يوحي بهذه الصورة فعلا "أجدب" و"غار").

1- المرجع نفسه، ص 117.

ويستوي الانتقال من وضع إلى وضع على محور زماني خطي فالماضي عطاء وحياة بينما الحاضر إمساك واقتراب ممتد على فترة تطول أو تقصر من الموت.

حياة ——±موت

وتختصر جماع الدلالات المستخرجة من الأفعال المعنية في المعالم التالية فعل (لازم نحويا منعكس دلاليا + فتور بالنقصان كميا أو تردي النوعية) ± موت + مضي فترة + احباط (Dysphorie).

ونعود إلى ما سبق أن ألمعنا إليه في موضع سابق لنشير إلى أن[1] اسنادنا دورا غرضيا إلى السماء تحديدا هو من قبيل تسمية الشيء مجازاً فمن المعروف بالفطرة أن السحاب هو المصدر الرئيسي للماء الواهب للحياة. وما يعرف بداهة أيضا هو أن السحاب قائم جهة السماء أي أنه يحتل في مستوى الخط العمودي موقعا فوقيا علويا. وإمساكه عن العطاء يجعل منه على الصعيد العاملي موتيا ضديدا (anti-destinateur) وهكذا نخلص إلى تقديم فرضية مفادها أن العلو يؤتي –عند الفيلة– الموت ويبعث البلاء، على أن يبين لنا السياق اللاحق صحة هذه الفرضية أم بطلانها.

بقي أن نسوق في خاتمة تحليلنا للمقطع الأول ملاحظة هي أن وضعية الانفصال التي تطالعنا في مستهل النص تفترض، وفق ما يعرف بالحقيقة الداخلية المؤسسة للنص (veridiction)، أن تعقبها حالة نقيضة يعاد بمقتضاها التوازن ويرتق الخلل.

المقطع الثاني من القسم الأول "فشكون.. هو وفيلته"

1– محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص118.

ارتياد الفضاء المحيط. طرأ تحول جوهري على نوعية العلاقة[1] القائمة بين الفيلة من حيث هي ذات حالية وفضائها المألوف نتيجة ما أصابها من عطش.

وبعد أن كانت العلاقة بين الذات والموضوع علاقة اتصال، أضحت بحكم الوضع الجديد علاقة انفصال. واذا رمزنا لعملية التحول بحرف (ت) وب (ف) للقائم بفعل التحويل وهو في الوضعية الراهنة السماء وب (ف)1 للذات الحالية وهي (الفيلة) وبـ "م" للموضوع و(هو الفضاء المألوف)، أمكننا صياغة الوضع السابق لزمن حدوث الجفاف والراهن على نحو ما يلي :

ت (ف) [(ف١ ◄ ٨ 2)] (ف١ ◄ ٨م)] أو ت (ف) [(ف١ ◄ ٨م ٧ف1)] ويعد الإقلاع عن العطاء من الوجهة العلامية هبة سلبية (don négatif) .أحدثت خللاً ذا مدى جسدى (وهو شدة العطش) ويؤول الافتقار عادة إلى الرغبة في القيام بمشروع نقيض (anti programme) تتحول الذات بمقتضاه من حالية إلى فاعلة (sujet de faire) فإن أنجز هذا المشروع وأفضى إلى جزاء (sanction) إيجابي بتحقيق الطلبة زال الافتقار وكان الانتشاء (Euphorie) وإلا ظل الافتقار قائما وحل الإحباط واشتكال الفيلة إلى ملكها تردي أحوالها يندرج ضمن الثنائية إنجاز/ فعل تأويلي، ويؤذن ذلك بالانتقال إلى مرحلة جديدة تقوم على السعي إلى محو الافتقار وسده.

نلخص إلى تحديد المدى العلامي للذاتين العاملتين المشتكي (مجموعة الفيلة) والمشتكى إليه (ملك الفيلة) فنلاحظ أن التماس الطرف الأول من الثاني النصيحة يفترض أن العلاقة بينهما تتبني على عقد يحرص بمقتضاه الطرف الثاني (المكون من قائم بفعل[2] واحد) على

1- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص119.

2- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 120.

خدمة الطرف الأول (المكون من قائمين بفعل كثر) وضمان أمنه متى وجد إلى ذلك سبيلاً، على أن يلتزم الطرف الأول بالطاعة والامتثال لما يمليه الحاكم من أوامر ويسديه من نصائح.

لكن من ناحية أخرى يتعين، لكي تكون العلاقة متوازية نوعياً عند الحاكم، كفاءة (compètence) تؤهله لتبوؤ مركز القيادة، ويدل السياق على أن لهذه الكفاءة مدى معرفياً مكتسباً من التجربة، وإذا كانت الشكوى الموجهة من الأوفر عدداً والادنى حظاً من المعرفة إلى الأقل عدداً والأسدى رأياً:

أ ← ب

قائمون بفعل كثر — أ ← ب — قائم بفعل واحد

أدنى حظاً من المعرفة — أسدى رأياً

موسومة بطابع "الالتماس"، فالتوصية الموجهة من الملك إلى الفيلة نسلك اتجاهاً عكسياً: (ب أ) مكتسية طابع التفويض (délégation) ما أشار به الملك على الفيلة هو أن نسعى في طلب الماء بارتياد الفضاء المحيط بفضائها المألوف ولا يطول بنا الانتظار إذ يختصر جزاء الانجاز في جملة واحدة قصيرة تفيد بعثور بعض من أنفذهم للبحث عن الماء على عين مما يؤذن بمحور الافتقار ولا يفوتنا أن نشير إلى أن المشروع العملي المنجز انعكاسي لأنه تحقق لفائدة الذات الفاعلة.[1]

ت(ف$_1$) ← [ف$_1$ ← ٧ م ٨ ف$_1$)

المقطع الأول من القسم الثاني:

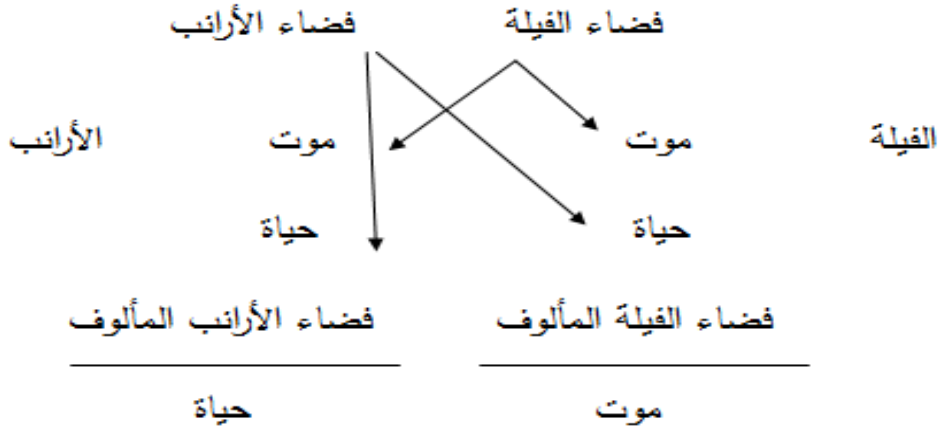
1- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 121.

وكانت العين فأهلكن كثيراً من ذات مفتقرة إلى مؤت ضديد.

اقترن القيام بالمشروع العملي السابق بمشروع ثانوي أنجز عرضاً وبدون قصد وذلك عندما وطئت الفيلة أحجار أرانب فهدمتها، وأفنت عدداً منها ويستدعي هذا الانجاز العرضي الذي سيكون له دور حاسم في تغيير مجرى الأحداث جملة من الملاحظات نجملها فيما يلي:

1. أن الفضاء الخارجي الذي ارتحلت إليه الفيلة وأقامت فيه هو فضاء الأرانب المألوف.

2. أن للفيلة في هذا الفضاء حياة فيما يعد تسلل فضاء الأرانب الخارجي إلى فضائها المألوف خرقاً لهذا وموتاً لها.[1]



3. أن الطرفين يتنازعان كما يتضح من البيان المرسوم فضاء واحدا تنهض فيه اسباب الحياة، هو فضاء الأرانب المألوف.

4. أن إنجاز الفيلة الثانوي هو بالنسبة إلى الأرانب بمثابة هبة سلبية منحها إياها مؤت ضديد هو الفيلة ويتولد منها شعور بالإفتقار يستدعي رد فعل لسده وفق مبدأ التبادل (Echange)

1- المرجع نفسه، ص 122.

5. في مستوى المحور التقويمي يعد انجاز الفيلة المعني سلبياً بحكم أنه خرق قيم العدالة المؤسسة نظرياً لعلاقة المجموعات "البشرية" بعضها ببعض ولا يخلو مجرى الاحداث اللاحقة من أحد الاحتمالات التالية:

1. أن ترضى الأرانب بالوضعية الطارئة وتواصل حياتها في ظل خطر جاثم تحتمله في صبر وأناة.
2. أن تقنع المغتصب بوجوب مغادرة المكان حتى تأمن شره.
3. أن تنتجع مكاناً قصياً طلبا للسلامة وحفاظاً على حياتها.
4. أن تحمل الخصم عنوة وإن أعوزتها القوة بالجنوح إلى الحيلة على التخلي عن فضائها.

ولما كان الاختبار (épreuve) أمراً حاصلاً لا محالة، وجب أن نضبط وإن في نظرة عاجلة الوضعيات المحددة لكفاءة كل من الطرفين فالفيلة تتميز من حيث وضعيتها العلامية بما يلي:

5. إنها كائنات ضخمة الجثة قوية البنية قادرة مادياً.
6. أنها مشبعة بالرغبة في الإقامة بمكان يضمن لها الارتواء[1].
7. أنها في وضع المسيطر غير الأبه بقيم "العدالة" علامة هذه السيطرة والدال عليها علو قامتها بالقياس إلى الآرانب.
8. أما الأرانب فتتلخص وضعيتها كما يلي:
9. أنها صغيرة الجثة، ضعيفة البنية بالقياس إلى الفيلة

1- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 122-123.

10. أنها مريدة حريصة على أمنها وسلامتها حرص الفيلة وسائر الكائنات الحية على البقاء.

11. أنها في وضع المسيطر عليه وضآلة حجمها يجعلها تحل في موضع المغلوب بالقوة.

12. أن شعوراً بالظلم بداخلها.

وبالجملة تنظم وضعية كلا الطرفين وفق الثنائيات التالية : قوة / ضعف + علو/ انبساط + مسيطر/ مسيطر عليه+ ظالم/ مظلوم (فيما يتوفر عند كليهما عامل الرغبة).

نستخلص استناداً إلى ما سبق أن احتمال إقدام الأرانب على استعمال القوة احتمال ضئيل بل مستحيل لعدم تكافؤ القوى لكن إذا نحن تقدمنا شوطاً في استقراء كتاب كليلة ودمنة جملة، تبينا أن من القيم الثابتة التي ينطوي عليها أن المتمتع بالقوة المادية ليس هو بالضرورة المتغلب في نهاية المطاف كما أن ضعيف البنية الجسدية قد لا يخطئه التوفيق والظفر، إن كان على الاخذ بحقه من المغتصب، حريصاً وكان على حظ أوفر من الخصم من المعرفة والفطنة هذا يسلمنا إلى إدراج ضمن الثنائيات المذكورة، ثنائية جديدة تحتل منها مكانة هامة، إن لم نقل مرتبة الصدارة هذه الثنائية هي جهل/ معرفة والخلاصة أن بؤرة الصراع تنتظم في محاور ثلاثة.[1]

قوة ظلم جهل . محور القيم المتدهورة

ضعف عدل معرفة محور القيم السامية

موضوع النزاع تحدد العين من النزاع المحتمل الوقوع موضوعه الرئيسي ولما لم يكن بوسع إحدى المجموعتين حسب ما يدل عليه السياق الاستغناء عنه أو استبداله بموضوع آخر

1- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 124.

نظير له من حيث الاهمية، جاز عده موضوعاً ذا قيمة غير قابل للاشتراك فيه (objet non participatif).

وفي ظننا أن تعيين المتلفظ العين باسمها – والحال أنه نادراً ما يعمد إلى ذلك ليس من قبيل الترف أو التحلية البريئة كما سيتجلى من تحليلنا التالي فالإسم المعني يتكون من لفظين (lexème) هما "العين" و"القمر" يرتبط أخدهما بالأخر بالإضافة الدالة في هذا السياق على الانتماء والملكية (ملكية القمر للعين) وللعين دلالات متعددة نقف منها على المفهوم المعني في النص، وهو عين الماء المكونة من المعانم التالية: ثقب غائر في الأرض+ شكل دائري أو شبه دائري+ يصدر منها الماء+ موسومة بقيمة ايجابية لأنها واهبة للحياة. أما لفظ "القمر" فيتألف من معانم أهمها أنه: كائن في موقع علوي+ دائري الشكل + مضيء + يرى في الليل واعتمادا على ما كنا افترضناه، من أن الموقع العلوي يتحدد بقدرته على أن يكون أي على الإيذاء وإيتاء البلاء إن شاء، أمكن أن نضيف معانم "إحباط" والحاصل أن اسم العين يشتمل على محورين دلاليين متناقضين ومتلازمين بحكم الإضافة وهما:

حياة وموت ونؤسس هذه الثنائية، كما سيتضح بنية الخطة*1* المعتمدة لإقصاء الفيلة وإبعادها عن هذا الفضاء.

المقطع الثاني من القسم الثاني:

فاجتمعت إذا خرق ملك الارانب تنتظم بين الارانب وملكها علاقة موازية للعلاقة القائمة بين الفيلة وملكها فهي تعود إليه في ما حزب من أمر، ونلتمس منه النصيحة وهو يوجهها وفق ما تمليه عليه مصلحتها ويرجع إليها بالنفع، ومع ذلك لا يخلو العقد المنظم لعلاقة طرفي كلتا المجموعتين من اختلاف نوعي، ففيما تدل قرائن من النص على أن العقد المنظم للعلاقة بين الفيلة وملكها موسوم بطابع "الفردية" (contrat individué) يتبوأ بحكمه الملك مركز

1- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 125.

الآمر المتفرد بالرأي، يكتسي العقد الجامع بين الارانب وملكها ميسم "العقد الشوري التفاوضي" أية ذلك أن الملك لم يبت في الأمر بمفرده، عندما تقدمت إليه الأرانب تسأله رأيه، إنما أهاب أن تدلي بموقفها وتشير عليه بما تراه صالحاً، فانبرت إحدى الأرانب واسمها فيروز مبدية رغبتها في أن يسمح الملك لها بالتصرف حسب ما يمليه عليها اجتهادها فأجابها الملك إلى سؤالها وفوض المسؤولية إليها.

وهكذا يسلك الانجاز / الفعل التأويلي اتجاهات متعاكسة يلخص الجدول التالي بعض وجوهها

المؤتى إليه	⟵	المؤتى
أرانب	⟵	ملك (انجاز التماس)
ملك أرانب	⟵	(فعل تأويلي استشارة)
فيروز	⟵	ملك (نجاز= التماس + فعل اقناعي (faire persuasif)
فيروز	⟶	ملك (فعل تأويلي : استجابة وتفويض)[1]

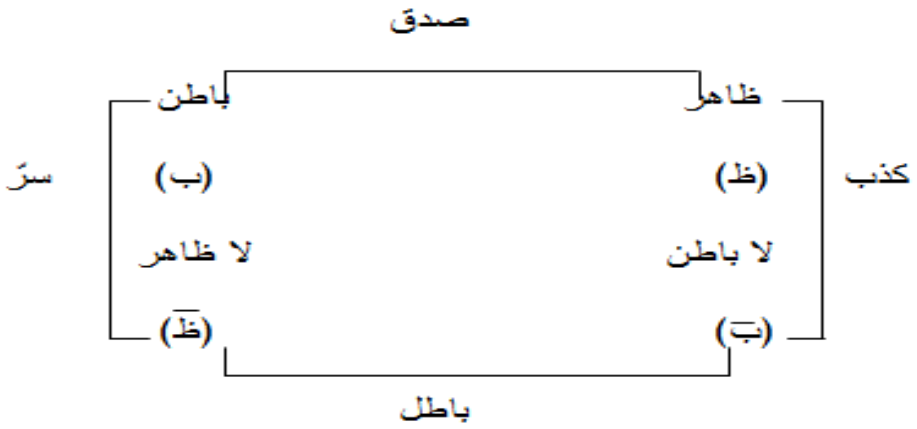
أهم دور غرضي يضطلع به ملك الأرانب هو الاتصال الوثيق بـ "المحكومين" والحرص على مصلحتهم واستشارتهم في ما يهمهم من شؤون ويشفع هذا الدور ذو القيمة الإيجابية في المستوى التقويمي بدورين غرضيين موصولين به ومتفرعين منه، الأول ينتظم حول شبكة صورية قوامها الخبرة والمعرفة بما يتمتع به بعض أفراد مجموعته من روية ونبصر ومنحه

1- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 126.

هؤلاء ثقته، أية ذلك استجابته لعرض فيروز المذكور دون أن يسألها عما تعتزم القيام به أو أن ينفذ صحبتها رقيبا وشاهدا على ما تقوم به وتقوله.

أما الثاني فيخص أسلوب تعامله مع المجموعات المجاورة له. وينبني هذا الدور على شبكة صورية تجمع معانم المسالمة والحلم والانضباط والروية وما يندرج ضمنها من القيم الدالة على الفضيلة في مفهومها الواسع.

ولنا أن نتساءل هل أن جنوحه إلى اللين والمهادنة مرده إلى أنه في وضعية المسيطر عليه الضعيف العاجز عن مواجهة خصم يفوقه قوة فيكون تصرفه من قبيل الخداع (ظاهر + لا باطن ظ+ ب) أم أنه يظهر ما يبطن حقا فيحتل مرتبة الصدق من مربع الحقيقة العلامي[1]:



1 – المرجع نفسه، ص 127.

إن استقراء سريعا للكتاب يفيد بأن القيم المذكورة على لسان ملك الأرانب تستوي في محل رفيع من سلم القيم المضمنة فيه، لذا نفترض افتراضا شبيها باليقين أن ملك الأرانب يتكلم من موقع صدق.

فيخما يخص دور الأرانب العاملي (role actanciel)، ما يستخلص في حدود المقطع المعني، أنها ذات فاعلة مفوضة من المؤتي (الملك)، ومن حيث كفاءتها يستفاد من قرائن من النص خاصة منها تلك التي تفيد بأنها تحظى بتقدير أصحابها واحترامهم لسداد رأيها أنها عارفة كما أن السياق نفسه يدل على أنها مريدة آية ذلك أنها عرضت أن نقوم بالمهمة بمفردها وهكذا تتلخص كفاءتها في المواطن التالية:

معرفة + إرادة + وجوب الفعل.

وسيبين لنا السياق اللاحق كيفية توظيفها المعرفة لتعويض ما تفتقر إليه من قدرة مادية خدمة لمصلحة الجميع ووصولاً لتحقيق الهدف المقصود وهو صرف الفيلة عن فضائها المألوف، وإذا رمزنا للأرنب الفاعلة بحرف (ف3) ولمجموعة الأرانب بحرف (ف2) وللفيلة بـ (ف)، أمكننا اختصار المشروع الذي تتهيأ "فيروز" للقيام به في الصياغة البيانية التالية:

ت(ف3) ——[(ف2 ٧ م) (ف2 ٨ م)]

[(ف1 ٨ م) (ف1 ٧ م)]

——[(ف2 ٧ ف1) (ف1 ٨ م ٧ ف1)]

ولا يفوتنا أن نشير في خاتمة تحليلنا المقطع المعني إلى أن الأرنب[1] "فيروز" تبدو كيانا بلا ظاهر (ب+ ظ) وعلى هذا فهي تحتل من مربع المصداقية العلامي مرتبة السر

1. **المقطع الأول من القسم الثالث:** "ثم أن الأرانب..... انتهت إلى الفيلة"

2. الاستعانة بالمساعد (adjuvant)

يفيدنا هذا المقطع بأن الأرنب شرعت في تنفيذ خطتها في ليلة مقمرة وليس من الواضع فيما ينطق به النص أحصل هذا اتفاقا، وعلى سبيل المصادفة المحض فلا تتعدى دلالة الملفوظ إذاك على التعريف بالظرف الزمني الذي لابس تنفيذ المشروع وربما أكسب الحدث إضافة إلى ذلك مدى واقعيا وزاد في الإيهام به، أم أن فيروز تعمدت الخروج في ذلك الوقت بالتحديد تطبيقاً لخطة معدة مسبقاً مقصودة والسياق اللاحق يثبت أنها أتت فعلها عن عمد إذ سيكون للقمر والضوء الصادر عنه دور المساعد في إنجاز المشروع وتحقيق الطلبة وبذلك يكتسي المقطع مدى يتجاوز مجرد الإشارة العرضية العابرة ليوصل لكفاءة الأرنب المعرفية.

ولعله من المفيد أن نتعرف عون البث بالنسبة إلى هذا المقطع فمن الجلي أن الملتفظ به يظهر متجرداً ناقلاً للخبر بموضوعية وأمانة، إلا أن مزيداً من التمعن فيه يتيح لنا كشف باث آخر خفي مقنع، وهو المنظم لحقيقة النص الداخلية ولقيمه الباطنة.

3. **المقطع الثاني من القسم الثالث:** "وكرهت ..... الجبل" الموضوع المؤهل[2]

تعمدت الأرنب، في المرحلة الثانية من تنفيذها الخطة، تسلق الجبل والإشراف منه على الفيلة خشية أن تدوسها فيما يصرح به النص أقدام الفيلة، وإن عن غير عمد إن هي اقتربت منها وبذلك يربط المتلفظ بين الإنجاز (تجنب الاقتراب من الفيلة) والفعل التأويلي (الخوف من أن تطأها الفيلة) ربطا عليا هذا يبرر ذاك ويقتضيه لكن إن نحن حاولنا النفاذ إلى ما وراء

1- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 127-128.

2- المرجع نفسه، ص 129.

الظاهر تبينا دلالات غير صريحة ولنتذكر في هذا الصدد ما كنا قدمناه افتراضا من أن العلو يتحدد بقدرته على أن يكون، أي على إيتاء الأذى وبعث البلاء والموت إن رام، وإشراف الأرنب من قمة جبل على الفيلة يكسبها قدرة ما كانت لتكتسبها أو كان يعز عليها ذلك في وضع آخر ويؤهلها من ثم لمخاطبة الملك كما سيتضح من موقع المسيطر (أو المفوض عن المسيطر) المنذر بحلول البلاء، ويلخص لنا الجدول التالي وضعية كلا الطرفين في المرحلة السابقة.*1*

1.	علو (قدرة على الكينونة قوة وحياة)	دنو (عدم قدرة ضعف وموت)	قدرة الجسدية البنية	ضعف البنية
الأرانب	−	+	−	+
الفيلة	+	−	+	−
II				
الأرنب فيروز	+	−	−	+
الفيلة	−	+	+	−

2.**المقطع الثالث من القسم الثالث:** "ونادت ...فإنه موافيك بها"

الخطاب

1. ملابسات الخطاب

1- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس ، ص 130.

تطلعنا الدراسات المختصة في حقل التلفظ أن الملابسات الحافة بعملية التلفظ دورا حاسما في تكييف صيغة البلاغ، فهذا لا يفهم فهما عميقا إلا في ضوء تلك وعلى أساسها، ما يهمنا في مجال تحليل ملابسات الخطاب المعني هو أن نتعرف وضعية كل من المتخاطبين من حيث الكفاءة كما يوهم بها ويفهمها هذا الطرف أو ذاك، وقد ذكرنا في موضع سابق أن الحلول في موقع علوي موضوع مؤهل يكسب صاحبه قدرة، وهذا ما يفسر استعمال "فيروز" في مخاطبتها ملك الفيلة لهجة تتصف بالحدة، لهجة من يمتلك السلطة أو يأنسها في نفسه أو يتصنعها، ولناقد أن يلاحظ معترضا، لكن الأرنب التمست لنفسها العذر موضحة أنها رسول ناقل رسالة متوخية، في مستهل خطابها أسلوب اللين، وردنا أن هذا الأسلوب فرضته أيضا ملابسات الخطاب فالأرنب تدرك أن الفيل يحتقرها لضآلة حجمها، لذا وجب الجنوح إلى اللين تمهيدا للتعريف بهويتها ضمن خطة مدروسة تقول فيروز في تعريفها لهويتها أنها مرسلة من القمر معنى هذا علاميا أنها تدعي القيام بدور عاملي هو أنها فاعل مفوض (sujet délégué) من مؤت ضديد يفترض أنه يمتلك القدرة بحكم علو موقعه.

أما مضمون الطلب فيتلخص في إصدار المؤتى الضديد أي القمر أمرا يقضي بأن تخلي الفيلة موطن الأرانب ويشفع بتهديد[1] صارم مفاده أن عصيان أمره يؤول إلى إنزال العقاب وإلحاق الأذى بها، وتنهي الأرنب خطابها للملك بدعوته إلى التثبت من صحة ما تقول استدراجا له لتصديقها وإمعانا في المغالطة والخداع أي الإقناع ببراءة المفوض وصدقه.

التلاعب بين الظاهر والباطن (الفعل الإقناعي)

يتضح من مضمون خطاب الأرنب وأسلوبه أنها تدعي ما ليست هي أي أنها انتحلت لنفسها دوراً عاملياً زوراً وخداعاً وعلى هذا فهي ظاهر وليست باطناً (ظ+ ب). تنتصب في حكم مربع المصداقية العلامي في مرتبة الكذب بعد أن كانت تحل في مرتبة السر(ظ+ب).

—

1- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 130-131.

ولنا أن نتساءل هل الكذب مباح في حكم الحقيقة المؤسسة للنص في جوهره؟ وما هو موقف المتلفظ الخفي المنظم لهذه الحقيقة منها؟ تتبادر إلى الذهن إجابة أولى هي أن الكذب من القيم المتدهورة المرفوضة في النص لكننا نسارع فنضيف أنه يصبح مشروعاً في حالات خاصة، من ذلك أن الضعيف المغلوب على أمره إن لم يجد بداً لرفع الظلم عنه والأخذ بحقه من المتسلط الظالم من التحول بالخدعة والكذب جاز له ذلك ولم يعد خرقاً للقيم السوية التي يدعو النص إلى الأخذ بها لتستقيم حياة المرء وتصلح بل ينطوي النص على دعوة صريحة حينا وضمنية حينا أخر إلى الجنوح إلى الحيلة في مثل هذه الظروف القصوى وإلى توظيف المعرفة لخداع القوي المتسلط واسترجاع الحق المغتصب منه، ولما كانت "فيروز"، ومن خلالها مجموعة الأرانب*1*، في وضعية المغلوب على الذي افتك حقه منه عنوة وبالباطل، كان من المشروع، بل الواجب أن تعمد إلى الحيلة لاسترداده.

2. **المقطع الرابع من القسم الثالث:** من "يتعجب" إلى نهاية النص

3. الفعل التأويلي والجزاء: يعتبر الخطاب الموجه إلى ملك الفيلة فعل كلام يقصد به الإقناع بوجوب الامتثال للأوامر الصادرة من المؤتي الضديد ضمن مفهوم المناورة، ولا يخلو رد الملك التأويلي من أحد الاحتمالين التاليين: إما أن يصدق قولها وإما يرفضه فإن صدق فهو مدعو إلى التصرف وفق ما يمليه عليه صاحب البلاغ من أوامر، أو رفض ذلك في الحالة الأولى هو ممتثل مطيع، وهذا ما ترجوه الأرنب ونأمله وعاص متمرد في الحالة الثانية وهو ما تخشاه وترغب عنه لأنه يبطل خطتها ويحبطها.

لقد دعت "فيروز" ملك الفيلة في خاتمة خطابها إلى أن يصطحبها إلى العين كي يتثبت بنفسه ويتبين صحة ما تقول وقبول الملك مبدأ التثبت يدل على أنه انخدع بكلام الأرنب وحسبها صادقة وعلى هذا يكون جهله مساعدا لها وعونا على تنفيذ الخطة وفق النهج المرسوم.

1- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 132.

بقي لكي تتم الخطة بنجاح أن تهتدي الأرنب إلى حيلة تقيم بها الدليل على صحة ما تقول وسيتضح مرة أخرى أم معرفتها من ناحية وجهل ملك الفيلة من ناحية أخرى كانا عونا لها على الخلاص من البلاء المحيق والظفر بالنجاة، فكما انتحلت لنفسها ما ليست هي متلاعبة بين الظاهر والباطن موظفة معرفتها بذكاء،*1* كذلك عمدت إلى التلاعب بحقائق الطبيعة وتمويهها بيان ذلك أنها دعت ملك الفيلة إلى أن يدخل خرطومه في ماء العين الذي تنعكس على صفحته صورة القمر المضيء مدركة أن تحريكه الماء بخرطومه يسبب بمقتضى عملية فيزيائية آلية إرباك الصورة فيرتاع الملك لذلك ظنا منه أن القمر ارتعد غضبا وهو ما سبق أن أوهمته به قولا وبمشاهدته فعلا– والمشاهدة أسمى آيات البرهان يداخله يقين بصحة ما أخبرته به الأرنب وهو ما حدث فعلا وكان لها ما أرادت إذ تعهد الملك بألا يعود هو ولا فيلته إلى العين ثانية.

النتيجة أن المعرفة معرفة عن كيان الآخر (l'être savoir sur) ومعرفة بحقائق الطبيعة أسعفت الأرنب بالقدرة وأهلتها لتحقيق ما لم يكن بوسعها أن تحققه لولاها.

الحصيلة في مستوى بنية النص السطحية

طالعنا في النص عدد من القائمين بفعل أهمهم ملك الفيلة وملك الأرانب وفيروز وننتظم بين بعض هؤلاء وبعض علاقات حاولنا في معرض شرحنا النص استجلاءها وإبراز مقوماتها ولما كان لكل قائم بفعل دور غرضي أو أكثر، أي أنه يحقق شبكات صورية وعلى امتداد جميع المشاريع العملية، أو في بعضها رأينا من المفيد حصر هذه الأدوار الغرضية وما يوافقها من مشاريع في جدول جامع*2*.

المشاريع العملية	ملك الفيلة	ملك الأرانب	فيروز

1– محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 133.

2 – محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس ، ص 134

مشروع (1) شكوى الفيلة إلى الملك حالها	– ناصح – حريص على مصلحة رعيته		
مشروع (2) توجه الفيلة إلى العين واهلاكها عددا من الأرانب	– ظالم –معتد على فضاء غيره	– معتدي عليه وعلى رعيته – عاجز عن المقاومة	
مشروع (3) استشارة ملك الأرانب "رعيته" وعرض فيروز القيام بمهمة لدى الفيلة لصرفها عن العين		4. يعامل أعوانه ورعيته برفق 5. مسالم في علاقته بالآخر	6. مبدية استعدادها لخدمة المجموعة
مشروع(4) تنفيذ فيروز خطتها	7. غبي 8. جاهل 9. مطيع		10. عارفة 11. ذكية

الأقطاب الدلالية (isotopies)

تخترق النص مجموعة أو مجموعات من المعانم يتعالق بعضها مع بعض، ويتولد بعضها من بعض، ويحيل بعضها على بعض، مكسبة النص بهذا النسق من التواتر اتساقاً

ووحدة مع[1] التنويع يطلق على هذه المجموعة من المعانم المتألفة والمبثوثة على امتداد النص أو جزء منه تسميه "القطب الدلالي" وتعكس الأقطاب من النص بنيته الداخلية العميقة المؤسسة لتركيبته النحوية التي تتجلى على السطح، والتي حاولنا في الجزء السابق من تحليلنا بسطها والكشف عن شبكاتها في النص المعني بالدرس.

من الصور التي طالعتنا في معرض تحليلنا النص ما يأتلف حول نواة دلالية مشتركة هي الفضاء في مداه الطبيعي (فضاء مألوف/ فضاء خارجي– فضاء علوي – فضاء مسطح) (قمة الجبل/ سفح الجبل– القمر/ العين) ويتراوح هذا الفضاء من حيث وظيفته بين فضاء ينذر بالموت، هو الفضاء العلوي بالنسبة إلى الفيلة، والفضاء الخارجي بالنسبة إلى الأرانب، وفضاء يمنح الحياة هو فضاء الأرانب المألوف بالنسبة إلى كلتا المجموعتين، إضافة إلى الفضاء العلوي بالنسبة إلى الأرانب التي أحسنت توظيفه.

كذلك طالعتنا صور تنتظم حول الثنائيات : عطش/ ارتواء – قوة البنية الجسدية / ضعفها – خوف الأرانب من الهلاك تحت أقدام الفيلة/ خوف ملك الفيلة من أن يتلف القمر عينيه ويهلكه وتلتقي هذه الصور جميعاً حول قطب دلالي له مدى جسدي (سلامة الجسد / هلاك الجسد)، ويتفرع هذا القطب عن قطب دلالي أرقى، هو تنازع البقاء والصراع ابتغاء ضمان سلامة الجسد واتقاء التلف ومن أهم الأقطاب الدلالية المضمنة في النص في مستوى آخر تلك المتصلة بعلاقات الشخصيات بعضها ببعض[2].

وعن هذا القطب الرئيسي ينشأ قطبان فرعيان: للأول دلالة سياسية ودلالة اجتماعية أخلاقية للثاني وينقسم الأول بدوره ضربين : داخلي وخارجي يهم الضرب الأول نوعية العلاقة

1– محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 135.

2– محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 136.

القائمة بين الراعي والرعية والسمة الدلالية المطردة والمميزة لعلاقات الأطراف الحاكمة والمحكومة في كلتا المجموعتين الاتصال والتواصل.

أما الضرب الثاني فيخص علاقات المجموعات المنتمية إلى فصائل متباينة ويختلف موقف مجموعة من الأخرى اختلافاً بيناً.

فإذا عالجنا موقف الفيلة من الأرانب، لاحظنا أنه يتأسس على نظرة احتقار واستعلاء بحكم عدم وجود مصلحة مشتركة تجمعها بها علاوة على أنها لا تخشى منها رداً يزعجها لعدم تكافؤ القوى، وعلى هذا فعلاقتها بها علاقة "لا اتصال" وليست كذلك نظرة الأرانب إلى الفيلة ولا كذلك موقفها منها فمع أن الفيلة منحتها هبة سلبية تمثلت في هدمها أجحارها واهلاكها عددا منها واغتصاب العين عنوة، فإن السياق يدل على أن ملك الأرانب، المجسد لضمير الجماعة واختيارها "السياسي" لا يضمر حقداً للفيلة ولا يروم الانتقام منها أو الحاق الأذى بها إنما همه اتقاء شرها مع الحرص على إرساء علاقات صداقة مخلصة، وعلى هذا فموقف الأرانب من الفيلة أقرب إلى الاتصال منه إلى الانفصال.

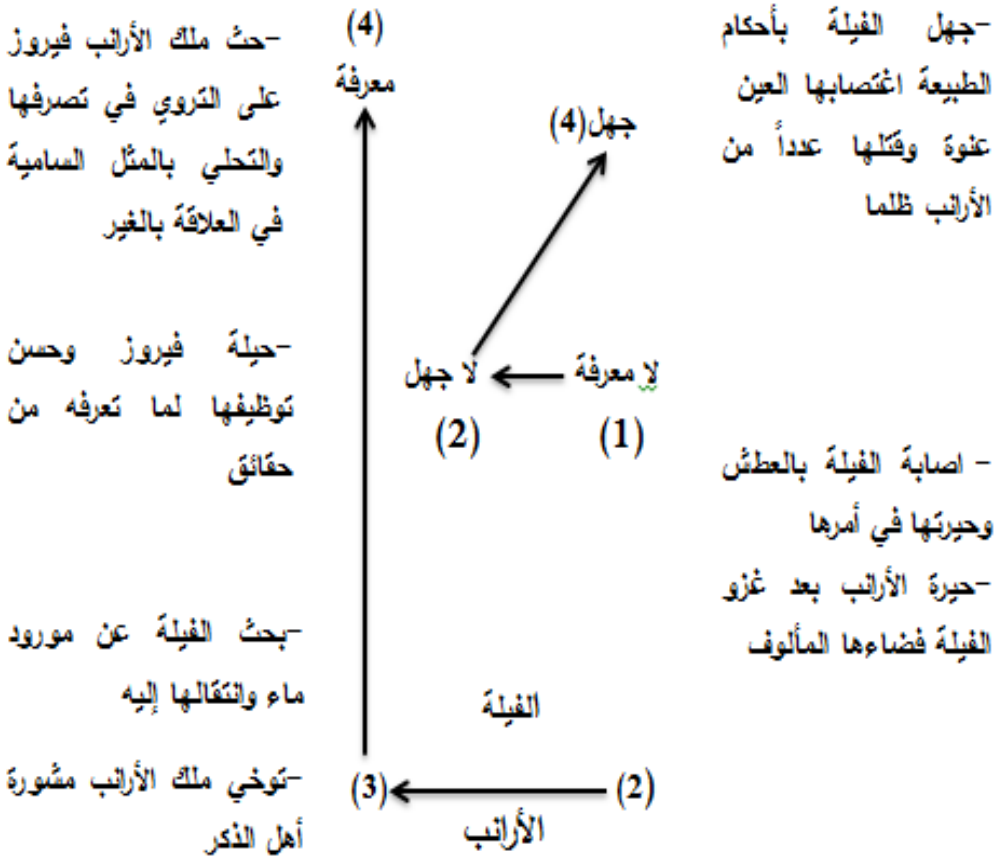
وهذا النمط من السلوك المنبني على محبة "الآخر" يسلمنا إلى القطب الدلالي الاجتماعي المندرج ضمن محور علاقات الشخصيات بعضها ببعض ويستقرأ القطب المذكور أساسا من[1] خطاب ملك الأرانب الموجه إلى الأرنب "فيروز" ولئن كان المقصود بهذا الخطاب إسداء النصيحة إلى فيروز التي تستعد للاتصال بالفيلة حتى توفق في مهمتها، فإنه يحوي من الدلالات ما يجعله يتجاوز السياق العرضي الظرفي ليوصل بالقيم الأصيلة المؤسسة للنص من جوهره ونأتلف جماع المعانم المكونة لهذا القطب الدلالي من الثنائيات التالية: توخي الانضباط/ تجنب التسرع–الحلم/الجهل–المروؤة/ الأنانية– الرفق/ العنف. ويمكن اختصار هذه

1– محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 137.

الثنائيات في ثنائية واحدة جامعة لها هي التحلي بالفضيلة / التحرر من الرذيلة والغاية من ذلك دفع الضرر وجلب المنفعة مما يفضي إلى تحقيق السعادة سعادة الفرد وسعادة الجماعة.

محور دلالي أخر يخرق المحاور الدلالية المذكورة ويضمها وهو التردد بين الحيواني والإنساني فكل ما يدل على تنازع البقاء ويؤمن به يحيل على عالم الحيوان أما ما يتصل بكيفية تنظيم الحياة وتيسير شؤونها وصولاً إلى تأسيس عالم يسوده العدل وتحكمه الفضيلة والمثل العليا فهو يعكس رؤى الإنسان وما هذا التردد بين المرجعين، وجعل أحدهما يحيل على الآخر، سوى تحفظ التوازن وتضمن الاستقرار في تعادلية مطلقة.

نخلص في نهاية التحليل إلى تحديد الثنائية الرئيسية المولدة للنص، والجامعة للثنائيات الدلالية بمختلف تفرعاتها وفي ظننا أن النص ينبني في جوهره على الثنائية التالية: معرفة/ جهل فالمرء ينال حظاً من السعادة بمقدار ما يصيب من المعرفة وإذا أسقطنا هذه الثنائية على المربع العلامي أمكننا استخلاص النتائج المبنية في الرسم التالي.*1*



1- محمد

تتجلى الفيلة في المشروع الأول غير عارفة بكيفية معالجة الوضع المتأزم الحاصل بسبب الجفاف وبتوفقها في العثور على مورد ماء.

نتبين أنها تتصرف وفق ما يمليه الموقف وتستوي بذلك في محور اللاجهل، إلا أننا نكتشف في المرحلة التالية (المناسبة للمشروع الثاني والرابع) جهل الفيلة بالقيم الأخلاقية النبيلة من ناحية، وبالأسس المعرفية الطبيعية من ناحية أخرى.

أما الأرانب فتتكشف على امتداد النص على نحو آخر، فهي في المشروع الثاني وإلى حدود الثالث تبدو مأزومة لا تعرف طريقة تكفل لها تجاوز الوضع ثم تطالعنا مجسدة في خطاب ملكها في نهاية المشروع الثالث متشبثة بالقيم الأخلاقية النبيلة عارفة[1] بأصول التعامل السليم مع "الآخر" ويتأكد عنصر المعرفة عند الأرانب في المشروع الرابع في صورة أخرى وذلك أنها تحسن توظيف ما تعرف من حقائق للإيقاع بالخصم واتقاء شره.

الخاتمة:

هكذا يتضح أن فعل القص الذي يعمد إليه الغراب يستهدف تحقيق غاية معينة تقوم على الاستدلال بالمثال الحي على امكانية تغلب الضعيف على القوي إن صح منه العزم وتوسل بالمعرفة موظفاً إياها بحذق وكفاءة ومن الميسور أن نستشف من خلال النص حضوراً خفياً لكن فاعلاً للمؤلف، وكما أن فعل القص عند الغراب ليس بريئاً، كذلك فعل القص المجسد في الكتابة والمولد لكتاب "كليلة ودمنة" ليس مجانياً ولعلنا لا نحتاج إلى نفاذ رؤية لنتبين من خلال الفيلة صورة الحاكم المتسلط الطاغية.

1- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس، ص 139.

والأرجح أن المعني هو أبو العباس أو أبو جعفر المنصور الذي يتهدده مصير شبيه بمصير الفيلة، مصير يؤول إليه كل من أسس حكمه على الظلم خارقاً بذلك العقد المنظم لعلاقات الحاكم بالمحكومين، محدثاً تصدعاً في توازن الكون المحكوم بقواعد أزلية.[1].

يعد "النص السردي" من بين النصوص التي إهتم بها الباحثون في مجال السيميائيات sémiologie ويحاول علم السرد narratologie من حيث هو فرع من علم النص textologie إلى ضبط منهجه وجعل الظاهرة الأدبية تتسم بالعلمية، وذلك بإبعادها عن التأويل غير المعلل.

ولعل أبرز تحديد لعلم السرد هو مفهوم "ميك بال" miek bal حيث اعتبر علم السرد علم السردية narrativité أو العلم الذي يقبل صياغة النصوص السردية في بنيتها السردية، و ذهب "ميك بال" إلى أن النص السردي يمكن أن يلاحظ من خلاله ثلاثة أنواع:

1. النص السردي texte narrative
2. الحكايةRécit
3. القصة Histoire

والسردية يعدها نصاً بحسب مفهوم "ميك بال" هي الأسلوب أو الطريقة التي بها تفكك شفرات النص، وينتهي إلى أن السردية محددة بالعلاقات الرابطة بين النص السردي" والقصة والحكاية.[2]

1- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غريماس ، ص 140.

2- دفة بلقاسم، التحليل السيميائي للخطاب السردي في رواية الربيع العاصف لنجيب الكيلاني، محاضرات الملتقى الثالث السيمياء والنص الأدبي، 19،20 أفريل 2004، ص 55.

وقد أدى الاهتمام بهذه الموضوعات والسيميائيات بخاصة الاستعاضة عن فكرة "الوظيفة" la fonction بالملفوظ السردي والاعتراف بوجود وحدات سردية تتصل أحياناً بالجدول الإدراجي، وتتصل أحياناً أخرى بالجدول التعاقبي Diachronique فتنشئ العلاقات التي تربط بين الملفوظات السردية في علاقتها المختلفة.

وكان من نتائج السيميائيات بحسب الوجهة التعاقبية أن جنحت إلى تحليل القصة، واعتبرتها بنية سردية، أي شبكة من العلاقات الكبرى، وهي التي تشكل البنية السطحية للنص[1].

ويقوم المنهج الذي يقترحه التحليل السيميائي للخطاب السردي على اعتماد نماذج لغوية تحكم البنية السطحية والعميقة للمسار السردي[2].

لقد اهتم "النقاد السيميائيين العرب" بالسرد وظهر هذا من خلال تطبيقاتهم ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر **محمد الناصر العجيمي** في كتابه "في الخطاب السردي نظرية غريماس" الدار العربية للكتاب، تونس 1991".

لقد حاول **محمد الناصر العجيمي** حسب **رشيد بن مالك** في اطار التوجه السيميائي وتحديداً نظرية **غريماس** أن يقدم دراسة تتوخى الدقة في ضبط المفاهيم الاجرائية والمصطلحية السيميائية، فنظر إليها على أساس أنها حقائق ثابتة دون أن يلزم نفسه في ذلك مناقشة بعض القضايا الجديرة بالطرح والمساءلة، وانتقل في القسم الثاني من هذه الدراسة إلى تحليل حكاية (الأرانب والفيلة) وهو نص مأخوذ من كليلة ودمنة.

وقد التزم الباحث خطة واضحة في فحص النص، بدءاً من تقطيعه وتحديد مستوياته والنظر في بنيته على الصعيدين السطحي والعميق، ولاحظنا في أثناء قراءتنا لهذه الدراسة أن

1- دفة بلقاسم، التحليل السيميائي للخطاب السردي، ص 56.

2- المرجع نفسه، ص 56.

الباحث يقوم باستعراض ترسانة من المصطلحات لا نلقى فيها ما يتوافق مع الترجمات المستعملة في الخطاب السيميائي العربي، ويعترف الباحث نفسه بأنه واجه "القدر الكبير من المصطلحات بمجهود فردي أساساً"، إن هذه الطريقة في التعامل مع المصطلح ستؤدي من دون أدنى شك إلى تضخيم لا يساعد في جميع الحالات على اقامة وصلة علمية حقيقية بالقارئ، وتوحي الطريقة التي تم بها التعامل مع النص سيميائياً بأن الباحث بذل مجهوداً خيالياً حتى يكون التحليل وفيا للنظرية التي وضعت أصلاً لمعالجة الإشكالات التي يطرحها النص السردي على وجه الخصوص.*1*

وقد لاحظ الباحث في خاتمة هذا البحث أن القارئ لا يحتاج إلى نفاذ رؤية –ليتبين من خلال الفيلة صورة الحاكم المتسلط الطاغية، والأرجح أن المعنى هو أبو العباس أو أبو جعفر المنصور الذي يتهدده مصير شبيه بمصير الفيلة، مصير يؤول إليه كل من أسس حكمه على الظلم، خارقاً بذلك العقد المنظم لعلاقات الحاكم بالمحكومين محدثاً تصدعاً في توازن المحكوم بقواعد أزلية.*2*

إنه يتعامل مع **عبد الله بن المقفع** كما لو أنه كاتب النص، فينزع بتأويله مباشرة إلى المجتمع العربي الاسلامي وينظر من خلال النص إلى العلاقة التي تربط الحاكم بالمحكوم في هذا المجتمع، يمكن أن يستغل منهجياً هذا الاسقاط في مناقشة اختيار "عبد الله بن المقفع" لترجمة نص تعمل مضامينه، انطلاقاً من تحليله على تجلية العلاقة بين الملك والرعية في المجتمع الهندي ويتجه التأويل بعد ذلك إلى ادراك القيم من حيث القواسم المشتركة بين المجتمعين في اشكالية تسيير الفعل السياسي*3*.

1– رشيد بن مالك، السيميائيات السردية، دار مجدلاوي ط1 عمان 1427هـ، 2006، ص 38– 39.

2– المرجع نفسه، ص 39.

3– رشيد بن مالك، السيميائيات السردية، دار مجدلاوي ، ص39.

وكتاب "كليلة ودمنة" موضوع على لسان الحيوانات والبهائم وهو يتعرض للعديد من القضايا المتعلقة بالحكم والحاكم ورجال الحاشية وطرق التعامل مع الساسة والمسؤولين الكبار وغيرها من المسائل الأخرى.*1*

ولعل أهم ميزة لكتاب "كليلة ودمنة" في تاريخ الأدب العربي هو أنه يمثل البداية الحقيقية للنثر الفني العربي في القرن الثاني الهجري هذا النثر الذي ارتقى بعد ذلك على أيدي كبار البلغاء من أمثال: **الجاحظ**، و**ابن حزم**، و**ابن خلكان** وغيرهم، وبالفعل فما أسرع ما صار هذا الكتاب نموذجاً يحتذى بفضل أسلوبه السهل وطرافته.

ثم إن هناك ميزة أخرى لكتاب "كليلة ودمنة" لها علاقة بالوضع الحضاري الاسلامي العربي الشامل يومئذ، فبعد الكتابات التي وضعت خلال القرن الأول الهجري في مجال السيرة النبوية والغزوات والفقه والعلوم النحوية، جاءت ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية دليلاً على التفتح الحضاري الاسلامي على الثقافات المجاورة قديمها وحديثها، دون عقد أو أحكام مسبقة، ومن ثم يمكن أن يعد من المؤلفات الأولى التي انتقلت إلى اللغة العربية.*2*

إن **رشيد بن مالك** في رؤيته النقدية لكتاب **محمد ناصر العجيمي** تحتاج إلى نظر، حيث يرى **رشيد بن مالك** أن **محمد ناصر العجيمي** نظر إلى مستويات التحليل السيميائي (على أساس أنها حقائق ثابتة دون أن يلزم نفسه في ذلك مناقشة بعض القضايا الجديرة بالطرح والمساءلة)، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن **العجيمي** أول مؤلف يتناول نظرية غريماس في كتاب يجمع بين التنظير والتطبيق، فوقف بشكل دقيق عند كل مفردات هذه النظرية، بغية نقلها إلى المتلقي العربي، بأسلوب بسيط يقوى على فهمه المتلقي، والذي كان يتلقف هذه النظرية عن طريق البحوث القصيرة والمجزأة، فركز جل اهتمامه على شرح النظرية شافعاً هذا الشرح بجانب تطبيقي على نص سردي عربي قديم هو حكاية "الأرانب والفيلة"، احدى حكايات

1- ابن المقفع، كليلة ودمنة، تقديم مرزاق بقطاش، ص 3.

2- المرجع نفسه، ص 4.

(كليلة ودمنة)، وإنا إذ نتساءل إذا كانت عملية تمثل نظرية غريماس واستيعابها استغرق وقتاً طويلاً تصل إلى أكثر من خمس عشرة سنة، فقد ألفا المعجم في 1979، وجاءت اعتراضات **كورتيس** بعد وفاة **غريماس** وفي منتصف تسعينات القرن العشرين فكيف **للعجيمي** أن يشك في نظرية مازالت في أوج قوتها عند الغربيين وفي بداية دخولها وتمثلها عند نقاد العرب؟

فـ **العجيمي** ألف كتابه في 1991 أي بعد وفاة **غريماس** بسنة واحدة، وبهذا يكون اعتراض **رشيد بن مالك** غير مقنع للقارئ العربي.*1*

والمتأمل لكتاب كليلة ودمنة يلاحظ مدى عمق الأفكار الموجودة فيه بالإضافة إلى كثافة الرمز المختفية وراء ألسنة الحيوانات والبهائم، ونظراً لأهمية هذا الكتاب كان محل اهتمام النقاد والباحثين من خلال جعله محل دراسة وبحث، وهذا ما نجده عند الناقد **رشيد بن مالك** في دراسته المعنونة ب قراءة سيميائية في كليلة ودمنة لـ **عبد الله بن المقفع**.

واختياره هذا صادر عن قناعته بأن حكايات "كليلة ودمنة" لا يمكن أن تفهم إلا إذا قرأناها قراءة "معمقة" *2*.

ويتحقق ذلك عن طريق "السيميائية" باعتبارها منهج نقدي له أسلحته النقدية التي تحاول فك شفرات النصوص والخطابات بمختلف أنواعها، وهذا ما نلمسه في اختيار **رشيد بن مالك** القراءة السيميائية لأنها تخدم النص المدروس من جهة، ولمعرفة مدى فاعلية هذا المنهج من جهة أخرى، وفي اختياره هذا يتقاطع مع **محمد الناصر العجيمي** الذي اعتمد المنهج السيميائي لتحليل نص الأرانب والفيلة من كتاب كليلة ودمنة متأثراً بغريماس ويظهر ذلك جلياً من خلال عنوان دراسته المعنون بـ "في الخطاب السردي نظرية غريماس" الصادر سنة 1991 تونس

1- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 192.

2- رشيد بن مالك، قراءة سيميائية في كليلة ودمنة لعبد الله ابن مقفع، بحوث سيميائية، مجلة علمية، ع2، ديسمبر 2006، جامعة أبو بكر باقايد تلمسان، ص29.

هذا من جهة، ويظهر تأثره بـ **غريماس** من جهة أخرى من خلال اعتماده مفاهيم وآليات اجرائية تبرز مدى تأثره بالاتجاه الفرنسي وبالتحديد غريماس الذي ترأس هذا الاتجاه بدون منازع ويظهر ذلك من خلال الأقلام المشتغلة بالدراسات السيميائية عند الغرب، ولم يبق هذا التأثر حبيس الفكر النقدي الغربي، بل وصل إلى الأقلام العربية التي حاولت هي الاخرى فهم هذا المنهج وتتبع تطوره ومعرفة مدى نجاعته من خلال تطبيقه على النصوص والخطابات بمختلف أنواعها، ولكن هذا لا يمنع من وجود نقائص قد تظهر من خلال التحليل السيميائي للنصوص والخطابات، وهذا ما نجده عند **محمد الناصر العجيمي** حيث غيب المضمون الدلالي للنص المدروس أحياناً نتيجة عدم وجود روابط بين المقاطع المتناولة أحياناً ويعود هذا لخصوبة المنهج السيميائي في التسعينات، ولكن هذا لا ينفي الجهد المبذول من قبل محمد الناصر العجيمي الذي خطى خطوات غريماس في تحليله السيميائي مبرزاً آلياته الإجرائية التي تسمح بمساءلة النص المدروس واستنطاقه.

المبحث الثاني: تطبيق المنهج السيميائي على مستوى الشعر

لقد تأثر **رابح بومعزة** بالاتجاه الفرنسي، ونخص بالذكر **غريماس** ويظهر ذلك جليا من خلال عنوان دراسته حيث حاول في هذه الدراسة تقديم تحليل سيميائي لقصيدة اختاري للشاعر الملقب بشاعر المرأة **نزار قباني** حيث تعكس هذه القصيدة حسب **بومعزة رابح** معاناة المرأة العربية الفاقدة لحريتها التي تتلاقى أفعالاً أمرية وهي صامتة ليس لها الحق في حرية التعبير في ظل الحرية المسلوبة المصادرة بقرار يكون اجتماعيا وقد يكون سياسياً...

كما أن المرأة حسب **بومعزة رابح** رمز مشفر يقصد به فلسطين أو أي دولة عربية قرارها ليس بيدها، كما حاول **بومعزة رابح** استخدام المربع السيميائي باعتباره آلية اجرائية توضح لنا الثنائيات الضدية التي تعبر لنا عن معنى القصيدة...الخ

وسنعرض فيما يلي تحليل **بومعزة رابح** السيميائي بالتفصيل لقصيدة اختاري وعنوان هذه الدراسة "الاتجاهات السيميائية المعاصرة نموذج **غريماسي** على مقطوعة نزارية ".

إختاري

إني خيرتك.... فاختاري

ما بين االموت على صدري

أو فوق دفاتر أشعاري

إختاري الحب.... أو اللاحب

فجبن أن لا تختاري

لا توجد منطقة وسطى

ما بين الجنة والنار..*1*

إرمي أوراقك كاملة...

وسأرضى عن أي قرار

قولي... إنفعلي...إنفجري

لا تقفي مثل المسمار

لا يمكن أن أبقى أبداً

كالقشة تحت الأمطار

1- نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الأول منشورات نزار قباني، بيروت لبنان، الطبعة 15 تشرين الأول (اكتوبر) 2000، ص 645.

إختاري قدراً بين اثنين

وما أعنفها أقداري

مرهقة أنت....وخائفة

وطويل جداً... مشواري

غوصي في البحر...أو ابتعدي

لا بحر... من غير دوار

الحب.... مواجهة كبرى

إبحار ضد التيار

صلب، وعذاب، ودموع

ورحيل بين الأقمار..*1*

يقتلني جبنك...يا امرأة

تتسلى من خلف ستار

إني لا أؤمن في حب

لا يحمل نزق الثوار

لا يكسر كل الأسوار

لا يضرب مثل الاعصار

1- نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 646.

آه... لو حبك يبلعني

يقلعني مثل الإعصار..

*

إني خيرتك.... فاختاري

ما بين الموت على صدري

أو فوق دفاتر أشعاري

لا توجد منطقة وسطى

ما بين الجنة والنار..*1*

تحليل سيميائي لمقطوعة من قصيدة "اختاري" للشاعر الملقب "بشاعر المرأة" "نزار قباني" على ضوء منهج السيميائي.

وحيث أن المنهج يعني الوقوف على آلة التحليل، أو ما يسمى بأدوات التحليل لم يكن مناص من أن تحاول هذه المداخلة لبومعزة رابح إيضاح هذه الآلية الإجرائية ممثلة في المربع السيميائي المتكئ على الثنائيات الضدية.

في هذه المقطوعة يعرض الشاعر لمشكلة عصية لطالما عانتها المرأة العربية، وهي "الحرية" التي هي مظهر من مظاهر الرشد الذي يعد أحد مبادئ الحداثة.

هذه الحرية المسلوبة المصادرة بقرار قد يكون اجتماعياً، وقد يكون سياسياً.

1- المرجع نفسه، ص 647.

إذ ما ذهبنا إلى أن المرأة في هذه المقطوعة هي رمز مشفر يقصد به "فلسطين" أو أي دولة عربية قرارها ليس بيدها.

وينطلق نص القصيدة بلافتة العنوان اختاري (12) ممثلة مفتاحاً أولياً هو بمثابة بؤرة تتولد وتتنامى وتتفرع لتبوح عن مكنونات تثير عدداً من الإيحاءات والتأويلات على مستوى البنية العميقة.[1]

ثم يبتدئ النص بأمر موجه إلى "المرأة العربية" لتمارس حق حرية الاختيار، وهي إشارة تنم عن فضاء ضمني يقف بين حرية الاختيار وحتمية الإجبار، فالمخاطب ممثلاً في "المرأة العربية" مأمور لا ليختار سبيلاً أو منهجاً،بل ليسلك أحد النجدين لا ثالث لهما، وهو موقف ينبئ عن استلاب كامل لحرية الإرادة، تفسره الخلفية الثقافية والتقاليد الاجتماعية المترسبة في مرجعيات وخلفيات الناص في شكل وصاية أبدية فهل تستطيع "المرأة العربية" التي اعتادت على الامر أن تتمرد لتختار أو لتكسر قيود حتمية الاختيار؟

أن **نزار قباني** لا يمهل "المرأة" لتختار، بل يتوجه إليها بالاختيار المحدد، وهي التي لم تختر مصيرها يوماً، أليست هي التي تختار لها دميتها وهي طفلة، وتختار لها جبتها وهي مراهقة، ويختار لها بيتها وعريساً وهي راشد؟ وهو "اختيار جبري" يلزمها باتباع أحد النجدين كلاهما جبر.[2]

اختاري

إني خيرتك فاختاري

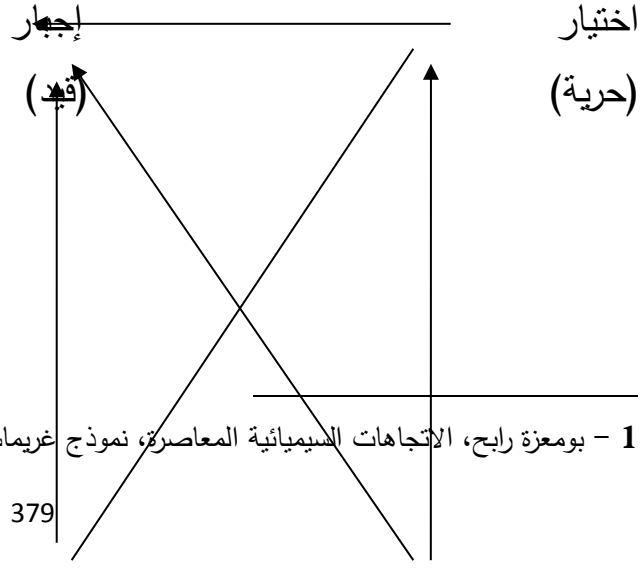
1- بومعزة رابح، الاتجاهات السيميائية المعاصرة، نموذج غريماسي على مقطوعة نزارية، محاضرات الملتقى الرابع، السيمياء والنص الأدبي 28-29 نوفمبر 2006، ص 5.

2- بومعزة رابح، الاتجاهات السيميائية المعاصرة، نموذج غريماسي على مقطوعة نزارية، ص6.

ما بين الموت على صدري

أو فوق دفاتر أشعاري

وتتأكد حتمية جبرية الاختيار في معتقد الشاعر، إذ تأتي الجملة الابتدائية الافتتاحية للقصيدة بعد العنوان جملة اسمية مركبة مؤكدة للدلالة على ثبات الحالة واستمرارية الانقياد، متبوعة بجملة فعلية حركية تؤكد تثبيت قرار الاختيار في الماضي، ليكون الاختيار فيما اختير مسبقاً، مما يشكل ثنائية ضدية لا تتلاءم وواقع الاختيار الحر المعلن عنه في البنية السطحية، ما بين الموت على الصدر التي تعني كسر القيود الماضي ومواكبة العصر، والموت على دفتر الأشعار التي يقصد بها الرسوف في قيود التقاليد، وهو قرار يصدره الشاعر دون أن يترك للمرأة فرصة في الحاضر لتبدي رأيها أو تقول كلمتها (إني خيرتك) وليس (إني أخيرك) في المضارع، فالخبر في هذه الجملة الاسمية المركبة في بنيته السطحية طلبي، ولكنه في بنيته العميقة إنكاري، لأن البنية العميقة للوحدة الإسنادية الماضوية (13) المؤدية وظيفة الخبر هي "قد خيرتك" المحولة بحذف الوحدة اللغوية "قد" المفيدة للتوكيد ذلك أن الشاعر لئن تظاهر بأنه غير متفائل من حيث استجابة هذه المرأة لمطلبه، فإنه لا يفتأ يكرر محاولاته للوصول بهذه "المرأة" وهي مفتكة لحريتها، ذلك أن "الحرية" مظهر من مظاهر الرشد الذي يعد أحد مبادئ[1] الحداثة وتستشف الوصاية الراسمة للمعالم المحددة على مستوى البنية العميقة التي تتقاطع ضدياً في ثنائيات تسفر عن الإجبار اللاشعوري كما يتضح من المربع السيميائي الآتي:



1 – بومعزة رابح، الاتجاهات السيميائية المعاصرة، نموذج غريماسي على مقطوعة نزارية، ص 6.

لا اختيار إجبار

(خيرتك) ——————(اختاري)

إن استنطاق الثنائية الضدية(خيرتك– اختاري) تظهر تناقضا في تكريس الوهم المنشود المتمثل في إظهار حرية الإرادة التي هي مسلوبة ومصادرة بقرار لاشعوري، اجتماعياً وسياسياً، حيث يلغي الاختيار المسبق من الآخر فمفعول الفعل الاختياري (اللا فعل) يصبح معادلاً لموضوع (الحرية) التي تبدو منبثقة عن اللاحرية، وتتماهي الحرية في القيد معلنة اللااختيار.

وفي المقطع الموالي يقدم الشاعر عرضاً يلغي فيه كل الحلول النسبية ضمن ثنائية ضدية ذات بعد ديني اجتماعي، تكمل الثنائية السابقة وتؤكدها *1*.

اختاري الحب أو اللاحب

فجبن ألا تختاري

لاتوجد منطقة وسطى

ما بين الجنة والنار

ويظهر على مستوى الحوار التواصلي الأفقي حذف المخاطب ضمنياً من البنية السطحية، حيث جاءت ذاكرة الناص لتمثل مرجعية واقع "المرأة العربية" في معطى باهت حيث ظلت مغيبة وصامتة مستمعة، لم تمنح فسحة للتعبير عن الرأي، وظلت متلقية سلبية صاغية

1– المرجع نفسه، ص 7.

تتلقى ركاما من الأفعال "الأمرية" المبثوثة على مستوى الفضاء البصري الخطي في أحياز مستقلة [1].

ارمي أوراقك كلها وسأرضى عن أي قرار

قومي..

انفعلي

انفجري

لا تقفي مثل المسمار.

"فالمرأة العربية" التي يريد لها الشاعر أن تتحرر يسجل أنها لا تسعى من الثابت إلى المتحول، فهي مازالت خلف الستار تتلقى الأوامر والنواهي (قومي، انفعلي..) وهو ما يشير إلى أن حريتها مرهونة بنطقها، وهي لا تقوى على النطق ما لم تتعلم وتمزق ستار الجهل، وتتجاوز حدود قيد الماضي ذلك شرط لبداية تحررها، ويلاحظ أن الناص لم يمنحها حتى حق الرغبة في إبداء الرأي.[2]

وعلى مستوى الحوار الخارجي جاء الحوار أحادي القطب، أي (نيابيا) عموديا حيث لم يسمع "للمرأة" كلمة واحدة عبر أبيات القصيدة كلها، فالحوار يسير واصفا واقع المرأة المشدودة إلى الماضي طورا، وأمرا ناهيا تارة أخرى.

وتتعادل مرجعية الشاعر وترسبات واقعه (لا يمكن أن ابقي...كالقشة)، مع واقع المرأة (لا تقفي مثل المسمار) الفاقد لحرية الإرادة والمشدود بأغلال التقاليد مما يمنع تحول العطالة إلى حركة لإزاحة الثبات وعدم الركون إلى المقدر.

1- بومعزة رابح، الاتجاهات السيميائية المعاصرة، نموذج غريماسي على مقطوعة نزارية ، ص 7.

2- بومعزة رابح، الاتجاهات السيميائية المعاصرة نموذج غريماسي على مقطوعة نزارية، ص 8.

لا يمكن أن أبقى أبداً

كالقشة تحت الأمطار

مرهقة أنت وخائفة

وطويل جدا مشواري

غوصي في البحر أو ابتعدي

لا بحر من غير دوار

الحب مواجهة كبرى

إبحار ضد تيار

صلب، وعذاب، ودموع، ورحيل بين الأقمار يقتلني جبنك يا امرأة

تتسلى من خلف ستار..[1]

وفي هذه المقطوعة المشتملة على الجملة الطلبية "يقتلني جبنك يا امرأة" المحولة بتقديم المفصح عنه من النداء، وهو الجملة المضارعية "يقتلني جبنك" يلاحظ فيها أن المنادى وهي "المرأة العربية" المعنية "بالخطاب" قد جاء نكرة غير مقصودة منصوبة والتوجيه الدلالي لذلك يسفر عن أن هذه المخاطبة هي امرأة أيا كانت هذه المرأة، فهي مخاطبة مطلقة لا متناهية، وهي ليست امرأة بعينها، ومن ثم فالمعنية بالخطاب هي كل امرأة موصوفة بأنها تتسلى من خلف ستار، وهو يرى أن هذه المرأة المعنية بالنداء التي يفصح عن أن جبنها يقتله، وأنها لا تقوى على التسلي إلا من خلف الستار هي امرأة تشكل السواد الأعظم من المجتمع العربي.

1 – بومعزة رابح، الاتجاهات السيميائية المعاصرة نموذج غريماسي على مقطوعة نزارية، ص 8.

وهذا بخلاف ما لو جاء المنادى "امرأة" مبنياً على الضم، حيث تصبح هذه المخاطبة محدودة معروفة بالإمكان تجاوز الإشكالية العصية التي تعانيها، ومن ثم احتواؤها، وحينئذ يتحول الناص من متشائم إلى متفائل وذلك مدعاة لأن تتحول الوحدة الإسنادية الماضوية "قد خيرتك" المؤدية وظيفة الخبر إلى وحدة إسنادية مضارعية "أخيرك" ولكن لما لم يحصل ذلك ظلت المسحة التشاؤمية ملقية بظلالها على لغة هذه المقطوعة.[1]

إن الانفتاح على ثقافة العصر وابداعاته ومستحدثاته، وكسر حدود الزمان للمجتمعات الأحادية الزمن من مواجهتها، وهو انفتاح مس كل القيم الحضارية سواء أكانت وضعية أو شرعية، ومس حتى صور وأنماط السلوك والعيش لمواكبة البشرية في مسارها الحضاري أحدث صدمة حضارية عنيفة لم تتمكن والعادات والتقاليد.. ولقد استطاعت بعض المجتمعات أن تخوض بشجاعة التصدع المبتدي في كيان الحضارة والتراث، كما أصيب البعض الآخر من المجتمعات بصدمة فلم يميز حيالها بين الهوية الشرعية والهوية التقليدية.

فالسطر المبتدأ بالجملة المضارعية "تتسلى من خلف ستار يعزز ذلك، ويبين أن طائفة من الرجال المثقفين في مجتمعاتنا، وفي عصرنا هذا ما زال الرجل منهم يترفع على نحو تستحي فيه من مرافقة زوجته في الشارع، وكثيرا ما يتركها تسير خلفه، بل ظل إلى وقت قريب مثل هذا السلوك مدعاة للوقار والهيبة، وتعد مخالفته مناطاً للسخرية.

فقد قدر للمرأة العربية في سجل التقاليد ألا تشتري حاجتها بنفسها، وألا تجلس إلى مائدة الضيوف ولو كانوا من الأقارب، وألا تتحدث معهم، وإنما يكون كل ذلك يتم خلف ستار حجرتها، تسترق السمع، وتتسلى بأحاديثهم ومسامراتهم.[2]

وتأتي الوحدة القرائية الآتية:

1- المرجع نفسه، ص 9.

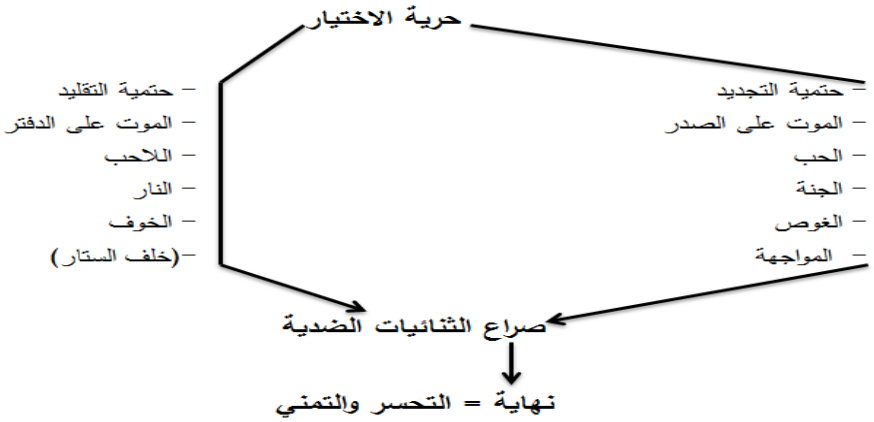
2 – بومعزة رابح، الاتجاهات السيميائية المعاصرة، نموذج غريماسي على مقطوعة نزارية ، ص 9.

يقتلني جبنك يا امرأة

تتسلى من خلف ستار

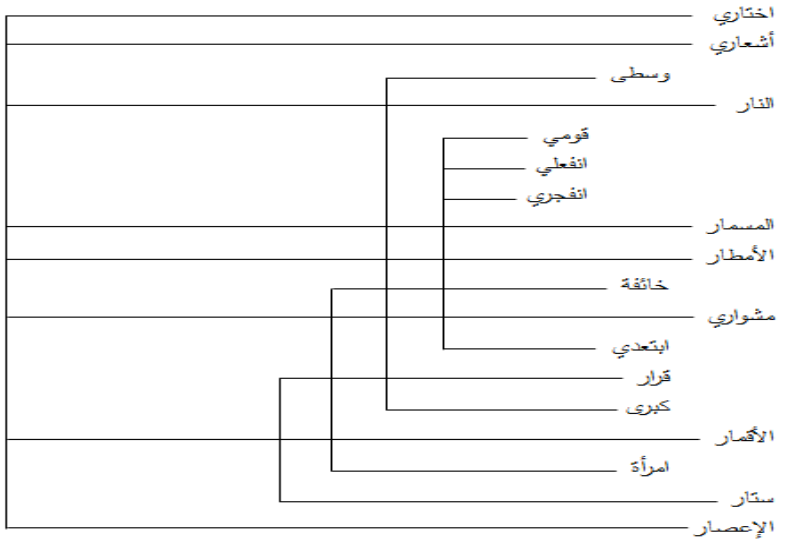
لتطرح معنى خفياً ومسكوتاً عنه، وهو قضية اللباس العربي التقليدي، وبعض الألبسة الأخرى الوافدة على مجتمعاتنا العربية والإسلامية، مثل النقاب واللحاف والحائك، وهي ملابس فرضها النظام التركي على "المرأة العربية" وبذلك انقلبت القيم، فبات الدخيل أصيلاً، والأصيل دخيلاً، كما هو الشأن بالنسبة إلى السروال الطويل المضبوط على الجسم، حيث صمم في بغداد في أوج الحضارة العربية الإسلامية أيام المأمون، وأصبح درجة سائدة إلى أن تفككت الخلافة الإسلامية، وسرعان ما انتشر في أوروبا بدل الجبة بسبب ملاءمته ومناسبته لحركة الجسم، ومع ذلك وجدنا بعض البيئات العربية تعتقده دخيلاً، بل وصل الأمر إلى اعتبار مرتديه خارجاً عن التقاليد والقيم والأعراف الاجتماعية.

لذلك تبدو أقطاب الصراع في هذا الخطاب غير متكافئة، وأحادية التأثير، فجاء التوتر من جانب واحد هو جانب المرسل الذي يملي على المتلقي، مما يؤكد الوصاية والأمر السلطوي الذي ما انفك يمارسه العقل الذكوري على الأنثى، كما تبرز الثنائيات الضدية مشكلة صراعاً درامياً بين تقاليد الماضي الجاثمة على مصير "المرأة العربية" وقدرها (اللاحب، الموت فوق الدفتر، الخوف، النار، التسلي من وراء ستار...) وبين حرية الإرادة، القدرة على التغيير والتجديد (الحب، الموت على الصدر، الجنة، الغوص، المواجهة).*1*



1- بومعزة رابح، الاتجاهات السيميائية المعاصرة نموذج غريماس على مقطوعة نزارية، ص 10.

أما الإيقاع الموسيقي فجاء خارجياً محمولاً على تفعيله الخبب التي جاءت سريعة متلاحقة مترددة يواكبها صوت الراء التكراري، وعلى الرغم من اهمال نظام البحر والقافية وحرف الروي جاء النص متشاكلاً ملتزماً بروي واحد تتوازى فيه ايقاعات القوافي التي تتعانق دون أن تتقاطع، لتحاضر داخلها ايقاعات أخرى ثانوية تقاطعها ولا تشكلها، كما يتضح من الرسمة الآتية *1*:



وقد أضفى هذا التواز يدعو إليه، وهو دخول المرأة الأنثى أو المرأة الرمز إلى العالم الذي حاول أن يرسم فضاءاته المؤملة، لتنتهي القصيدة وتشوق إلى روح التغيير، ولكن عن طريق التمني اللامتناهي في اتجاه الساعية إلى مغادرة الواقع في نفس الآخر رغم **الانشداد الدائم إليه**.

أه لو حبك يبلغني..

يقلعني مثل الإعصار*2*

لقد حاول **بومعزة رابح** اظهار معاناة "المرأة العربية" التي فقدت حريتها نتيجة الظروف الصعبة، وهذا ما ترجمته قصيدة "اختاري" فالمخاطب في القصيدة مأمور ممثلا في "المرأة العربية" التي تفرض عليها أوامر ليس لها فيها حق "الاختيار" وهي في هذه الوضعية المزرية تشبه حالة "فلسطين" أو أي دولة عربية مصيرها ليس بيدها، و"بومعزة" بهذا التحليل وضع يده

1 – بومعزة رابح، الاتجاهات السيميائية المعاصرة نموذج غريماس على مقطوعة نزاري، ص 11.

2– بومعزة رابح، الاتجاهات السيميائية المعاصرة نموذج غريماس على مقطوعة نزارية، ص 12.

على الجرح الذي لطالما أرهق المرأة العربية المغيبة والصامتة على حقها المسلوب بالقوة وكذا الدول المغلوبة على أمرها، ولن يشفى هذا الجرح الأليم حسب رأي إلا برد الحرية المسلوبة بالقوة وكذا تحقيق العدالة باعتبارها مطلب كل انسان يحاول أن يكون سعيداً بالإضافة إلى تحقيق مبدأ الإتحاد على الخير لأن في الاتحاد قوة، وإذا تحققت هذه الأمنية تعيش الأمة العربية في سلام وأمن بعيداً عن الصراعات والأحقاد...الخ.

كما يعرض لنا **بومعزة رابح** المربع السيميائي كأداة اجرائية تعبر عن الثنائيات الضدية التي تحملها القصيدة، والأشياء بأضدادها تتضح، حيث حاول **بومعزة رابح** استنطاق هذه الثنائيات الضدية باعتبارها تظهر لنا الحرية المفقودة والمصادرة بقرار اجتماعي وسياسي..، وكأن "بومعزة رابح" بهذا التصور يحاول البحث عن الحرية المفقودة التي عبرت عنها القصيدة من خلال تحسين الوضع الذي تعاني منه "المرأة العربية" والدول المستضعفة...الخ.

والملاحظ عموماً على تحليل **بومعزة رابح** السيميائي أنه يمتاز بالاقتضاب أحيانا في مواضع تحتاج إلى نوع من التوضيح والتفصيل، حيث نجده مثلا في دراسته للعنوان لم يقف طويلاً عنده بل اكتفى فقط بذكر أهميته ولم يتعمق في فك شفراته باعتباره مفتاح النص كما أنه تكرر في القصيدة عدة مرات وهذا التكرار لم يكن عشوائياً، ولكن هذا لا يلغي كلية الهدف المنشود من الدراسة وهو مساءلة النص عن طريق استخدام التحليل السيميائي كآلية اجرائية تحاول فهم النص.

إن اختيار **بومعزة رابح** للنموذج "الغريماسي" كأداة للتحليل السيميائي ينم عن تأثره البالغ بالاتجاه الفرنسي وعلى وجه الخصوص **غريماس**، ويتضح تأثره بالسيميائية من خلال مقال له بعنوان "من مظاهر إسهام مدرستي باريس والشكلانيين الروس في تطور السيميائيات السردية" حيث يؤكد فيه على أهمية "السيميائيات" باعتبارها من أهم المناهج النقدية الغربية التي حاولت التفرد في تحليلها النص الأدبي، وبدأت تشق طريقها إلى الجامعات العربية الحديثة، انطلاقاً من أن موضوع "السيميائيات" الأساسي هو دراسة الأدب، ووسائل التعبير

الخاصة بالنص، فقد أصبح كثير من الدارسين يؤثر هذا المنهج، ويجتهد في رسم معالمه وتأصيل مفاهيمه ونشر قواعده بين الطلاب...الخ.*1*

وينطلق **بومعزة رابح** في تحليله السيميائي لقصيدة "اختاري" من العنوان باعتباره مفتاحاً أولياً فهو بمثابة بؤرة تتولد وتتنامى وتتفرع لتبوح عن مكنونات تثير عدداً من الايحاءات والتأويلات على مستوى البنية العميقة المذكور سابقاً.

والحديث عن "العنوان" واهميته في التحليل يجرنا إلى نقاد آخرين حاولوا ابراز هذه الاهمية ونذكر منهم على سبيل المثال وليس الحصر ترجمة **عبد الحميد بورايو** لـ **جوزيب بيزا كامبروني** في دراسته المعنونة بـ "وظائف العنوان" حيث تحدث عن وظائف العنوان التي تتمثل في الوظيفة التعيينية واللغوية الواصفة والاغرائية *2*.

ومن بين الوظائف الثلاث للعنوان الأكثر لفتا للانتباه من وجهة النظر "السيميائية" هي الوظيفة اللغوية الواصفة وذلك لثلاثة أسباب يشير إليها عبد الحميد بورايو في خاتمة ترجمته، ولكنه ابتعد نوعا ما عن التوضيح والتبسيط في ذكره للأسباب*3*.

لقد اهتم "علم السيمياء" اهتماماً واسعاً بالعنوان في النصوص الأدبية باعتباره علامة إجرائية ناجحة في مقاربة النص بغية استقرائه وتأويله.

لقد أبدى "علم السيمياء" أهمية "العنوان" في دراسة "النص الأدبي"، وذلك نظراً للوظائف الأساسية التي تحدث عنها **رومان جاكبسون** (المرجعية، والإفهامية والتناصية) التي تربطه

1- بومعزة رابح، من مظاهر اسهام مدرستي باريس والشكلانيين الروس في تطور السيميائيات السردية، محاضرات الملتقى الوطني الثاني السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر بسكرة، 15، 16 افريل 2002، ص 215-216.

2- جوزيب بيزا كامبروبي، وظائف العنوان ترجمة عبد الحميد بورايو، بحوث سيمائية، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان العددان 5 و6 ماي 2009، ص62.

3- المرجع نفسه، ص 67- 68- 69.

بهذا الاخير وبالقارئ، ولن نبالغ إذا قلنا إن العنوان يعتبر مفتاحاً إجرائياً في التعامل مع النص في بعديه الدلالي والرمزي.

ولعل القارئ يدرك أن "العنوان" يرتبط أشد الارتباط بالنص الذي يعنونه لذلك يعد من مظاهر الإسناد والربط، وبالتالي فالنص إذا كان بأفكاره المشتتة مسنداً، فإن العنوان مسند إليه، فهو الفكرة العامة، بينما الخطاب النصي يشكل الأفكار الأساسية للفكرة العامة، التي يحتويها العنوان، و"العنوان" في رأي **جون كوهن** يرتبط بالنص النثري الأدبي والعلمي، لأن "النثر" يتسم بالإنسجام والإتساق، بينما "الشعر".

-ويخص القديم هنا- فيمكن أن يستغنى عن "العنوان" لأنه في الأغلب يفتقر إلى الفكرة العامة التي توحد النص*1*، فقد يكون مطلع القصيدة عنواناً، وهكذا فالعنوان في رأي "كوهن" يرتبط "بالنثر" أكثر منه في "الشعر" إذ يقول نلاحظ مباشرة أن كل خطاب نثري علميا كان أم أدبياً، يتوفر دائماً على عنوان، في حين أن "الشعر" يقبل الإستغناء عنه.

إن "العنوان" بالنسبة للسيميائي يعد نواة أو مركز النص الأدبي، يمده بالمعنى النابض، يقول **محمد مفتاح** "إن العنوان يمدنا بزاد ثمين لتفكيك النص ودراسته، ونقول هنا إنه يقدم معرفة كبرى لظبط انسجام النص وفهم ما غمض منه إذ هو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد انتاج نفسه وهو الذي يحدد هوية القصيدة فهو إن صحت المشابهة بمثابة الرأس للجسد، والأساس الذي تبنى عليه".*2*

1- بلقاسم دفة، التحليل السيميائي للبنى السردية رواية "حمامة" سلام للدكتور نجيب الكيلاني أنموذجا محاضرات الملتقى الوطني الثاني السيمياء والنص الأدبي جامعة محمد خيضر بسكرة 15،16 أفريل 2002، ص 34.

2- المرجع نفسه، ص 35.

غير أنه إما أن يكون طويلاً فيساعده على توقع المضمون الذي يتلوه، وإما أن يكون قصيراً، وحينئذ فإنه لا بد من قرائن فوق لغوية توحي بما يتبعه[1].

"فالعنوان" إذن هو الموجه الرئيس للنص بنوعيه والعنوان من خلال طبيعته المرجعية والإحالية يتضمن غالبا أبعاداً تناصية، فهو دال إشاري وإحالي يوحي إلى تداخل النصوص وتلاحقها وارتباطها ببعض، عبر المحاورة، ويعلن كذلك عن قصدية المبدع أو المنتج وأهدافه الإيديولوجية والفنية، إنه إحالة تناصية وتوضيح لما غمض من علامات وإشارات، فهو إذن النواة المتحركة التي خاط المؤلف عليها نسيج النص.[2]

إن العنوان يحيل على نص خارجي، يتلاقح معه شكلاً ومضموناً، يرى **روبرت شولز** أن العنوان هو الذي ينشئ القصيدة حيث نجده يتساءل عن الذي يجعل منها "قصيدة" فلولا، عنوانها لما كانت قصيدة غير أن "العنوان" وحده لن يؤلف "النص الشعري" ولهذا على المتلقي أن يبحث عن مكونات القصيدة.

إن "القصيدة" تبنى على مقومات ثلاثة العنوان، بؤرة القصيدة، النهاية، فالعنوان إذا هو الموجه الرئيس للنص "الشعري" أما البؤرة أو النواة فتتمركز في وسط القصيدة، وهي بمثابة القلب للجسد، والخاتمة نتيجة النص ونهايته، وهي تعود على بدء القصيدة، ومن ثمة "فالعنوان" في القصيدة المعاصرة يعكس غالباً مضمون النص.[3]

إن النجاح الذي حققه "البحث السيميائي السردي" في ثمانينات القرن العشرين مقارنة بالبحث السيميائي الشعري مرده إلى تصورا الناقد العربي، بأن المهنج السيميائي هو منهج في دراسة "السرد" ولا يصلح لدراسة "الشعر" إلا إذا توفرت بعض عناصر "السرد" في النص

1- نفسه، ص 35.

2-نفسه، ص 35.

3- بلقاسم دفة، التحليل السيميائي للبنى السردية رواية "حمامة" سلام للدكتور نجيب الكيلاني أنموذجا ، ص 43.

"الشعري"، وهذا ما أكده **محمد مفتاح** في كتاباته الأولى ولا سيما في كتابه (في سيمياء الشعر العربي القديم).

وإن ما كتبه الناقد فيما بعد من مؤلفيه (تحليل الخطاب الشعري) أو (دينامية النص) لم تكن كتباً تعتمد "المنهج السيميائي" بشكل أساسي بل جعلته منهجاً مساعداً، ولذا لا يمكن عدها من الكتب السيميائية لأنها اعتمدت مناهج كثيرة حاولت توظيفها في دراسة "النص الشعري العربي" من بينها "المنهج السيميائي"[1].

انشغل "النقاد العرب" في ثمانينات القرن العشرين بالتنظير السيميائي، فتناولوا أطروحات **سوسير** و**بورس** و**بارت**، وكان ذلك عن طريق "الترجمة والشرح لهذه النظريات، ولا نجانب الصواب إذا قلنا إن مدة الثمانينات من القرن العشرين كانت مدة جس نبض واختيار لهذا المنهج لإمكانية تطبيقه على "النص العربي" فجاءت تطبيقاته غير صافية أو خالصة لهذا "المنهج"، بل نجده يأتي مشتركاً مع مناهج أخرى "كالتفكيكية" كما فعل **عبد المالك مرتاض** في تحليله لقصة **حمال بغداد**[2]، بل نجده أيضا يدخل "التفكيكية" في تحليله لرواية "زقاق المدق" تحت عنوان "تحليل الخطاب السردي معالجة تفكيكيه سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق" حيث يشير **عبد المالك مرتاض** إلى فكرة مفادها السيميائية تركيبية الطبيعة حيث أنها تتركب من "مفاهيم بيولوجية، ومفاهيم فيزيائية، ومفاهيم الذكاء الاصطناعي" فهاجس "التركيب" موجود عالمياً، ولكنه ينبني على توحد "ابستمولوجي" فلقد انبثقت "السيميائية" إذن عن ميراث مركب من اللسانيات البنوية، ودراسة الفلوكلور والميثولوجيا، من أجل ذلك نجدها تبدي أي خجل من الافادة من كثير من المصطلحات النقدية والنحوية، واللسانية، والفلسفية... فتحتويها،

1- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 164.

- المرجع نفسه، ص 164-165. **2**.

وتكيفها مع اجراءاتها ومفاهيمها فتعالجها بالتطوير والتغيير، حتى انني أزعم أن "السيميائية" في حقيقتها وريثة للسانيات البنوية مقدمة في تقليعة جديدة[1].

والمتأمل لهذه الفكرة المذكورة سابقا التي تناولها **عبد المالك مرتاض** في كتابه "تحليل الخطاب السردي معالجة تفكيكيه سيميائية مركبة لرواية، زقاق المدق" يجده وكأنه يبرر لنفسه إدخال "التفكيكية" مع "السيميائية" كمعالجة مركبة لرواية "زقاق المدق" والجمع بينهما على اختلافهما، يجعل "السيميائية" في معركة صعبة يصعب التنبؤ بنهايتها، لأنها دخلت في صراع مع التفكيكية لتثبت نفسها كآلية إجرائية فعالة في تحليل النصوص و الخطابات ولكن هذا صعب، لأن الناقد لا يستطيع أن يكون وفيا ومخلصا "للسيميائية" في ظل اعتماده على "التفكيكية".

وتعتبر هذه الأخيرة –في جدود علمي– مجرد استراتيجية في التفكير ولم ترتقي بعد إلى اعتبارها منهجا نقديا له آليات اجرائية واضحة ومحددة. .الخ.

وإذا كان منظر و"السيميائية" في الغرب قد صرحوا بمعضلة السيميائية، فإن "النقاد العرب" الذين أسسوا "للسيميائية" في وطننا العربي لم يتوانوا في ذلك، وهذا ما يجسده اعترافهم بأزمة هذا النقد، فـ **محمد مفتاح** يتساءل عن فعالية النقد السيميائي فيجيب عن استخدامه للسيميائية بعضها آفاقا لا واقعاً.

و**عبد المالك مرتاض** المهموم بال"السيميائية" يتساءل وفي أكثر من موضع من أين؟ وإلى أين؟ وبأي منهج نقتحم النص؟ تساؤلات قادت ما تقود الناقد **عبد المالك مرتاض** إلى المزج في كثير من الأحيان بين السيميائية والتفكيكية، وهذا ما نلاحظه في دراسة السيميائية التفكيكية مثلا لقصيدة "أين ليلاي" لـ **محمد العيد آل خليفة**، الذي ألفه سنة (1987) ونشره

1– عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية، زقاق المدق، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون الجزائر 1995، ص7– 8.

(1992) وكتاب "تحليل الخطاب السردي معالجة تفكيكية" "سيميائية" مركبة لرواية "زقاق المدق" المدة التي ألفها فيها سنة (1989) ونشره (1995)[1].

إن هذا التضافر بين السيميائية والتفكيكية في عملية اجرائية واحدة نعده من دون هوادة مغالطة نقدية، لأنها تكشف عن قصور الحقلين ويتمظهر ذلك التركيب الاستدعائي بين السيمياء والتفكيك، فلو كانت السيميائية قادرة على استنباط الروح الجمالي للنص ما كان مثل هذا الاستدعاء[2] والناظر إلى هذا الاستدعاء بعين ناقدة يجده غير مبرر ويعبر عن الخلط المنهجي.

إن أول ما تلاحظه من خلال عنوان كتابي **عبد المالك مرتاض** (دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أنت ليلاي وألف ليلة وليلة تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد) هو الجمع بين منهجين، قد يعدان بعيدين عن بعضهما كثيرا من الناحية النظرية، فإن السيميائية لا تلتقي مع التفكيكية منهجيا، لأن الأولى تعطي السلطة للنص، أما الثانية تحول السلطة المطلقة للقارئ، وهو ما يشكل نقيضا يصعب الجمع بين أطرافه وعلى الرغم من اختياره المنهج السيميائي في كتابه الأول إلا أنه يذهب للحديث عن منهج آخر، يعتمده في قصيدة "أنت ليلاي" يطلق عليه اسم "المنهج المستوياتي" [3].

لقد حاولت بعض الدراسات النظرية التي تناولت "السيميائية السردية" ولا سيما في مدة التسعينات من القرن الماضي والمتمثلة في قراءات **سعيد بنكراد** و**رشيد بن مالك** وصولاً إلى محاولات **عبد اللطيف محفوظ** بناء منهج سيميائي سردي عربي ويستند ذلك إلى جملة من العوامل أهمها:

1- بشير تاوريريت، أبجديات في فهم النقد السيميائي مفاهيم واشكالات، ص 209.

2- المرجع نفسه، ص 209.

3- حفناوي بعلي، التجربة العربية في مجال السيمياء دراسة مقارنة مع السيميولوجيا الحديثة، محاضرات الملتقى الوطني الثاني، السيمياء والنص الأدبي، 15، 16 أفريل 2002، ص173.

1. يمثل كتاب (مقدمة في السيميائية السردية) للناقد الجزائري **رشيد بن مالك** باكورة التنظير السيميائي السردي في النقد العربي واختلافه عما سبقه من أنه تناول السيميائية السردية موضوعا مستقلا عن المنهج السيميائي.

2. اخلاص الناقد المغربي **سعيد بنكراد** للسيميائية السردية، ولا سيما مؤلفاته الكثيرة سواء على مستوى التنظير أو على مستوى التطبيق، ولا نغالي إذا قلنا إنه الناقد الأول في "السيميائية السردية العربية".

3. المحاولات الجادة التي قدمها **عبد اللطيف محفوظ** بغية ايجاد تصور سيميائي للسرد من منظور عربي، وكان ذلك في سلسلة من المؤلفات المكملة وهي تجمع بين التنظير والتطبيق معا.

4. يمثل هؤلاء النقاد سلسلة التلقي التاريخي لمنهج "السيميائية السردية العربية" ابتداء من مرحلة استقبال هذا المنهج ولا سيما في بداية التسعينيات وصولا إلى مرحلة التفكير في ايجاد "تصور سيميائي عربي"، فالدارس لهذا "المنهج السيميائي" لا يمكنه غض الطرف عن هؤلاء "النقاد" مع وجود المحاولات الأخرى كدراسات **عبد الحميد بورايو** و**عبد المجيد نوسي**[1].

5. سعي هؤلاء النقاد وغيرهم إلى ترسيخ "الفهم السيميائي" في "النقد العربي الحديث" عن طريق تأسيس الجمعيات الأدبية التي تتخصص "بالبحث السيميائي[2]"، فضلاً عن تأسيس الأقسام العلمية في المؤسسات الأكادمية باسم الدراسات السيميائية والمنتديات الأدبية والمجلات العلمية المحكمة، ولاسيما في المغرب والجزائر ومنها على سبيل المثال لا الحصر مجلة (علامات) المغربية، والذي يشرف عليها الناقد المغربي "سعيد بنكراد وهي مجلة تكاد تختص بالدراسات السيميائية وما حولها من موضوعات لها علاقة "بالسيميائية"، وكذلك مجلة

1- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 165-166.

2- المرجع نفسه، ص 166.

(ايقونات) الجزائرية فضلا عن المواقع الالكترونية ومنها الموقع المتميز (موقع الناقد سعيد بنكراد) و(موقع الناقد محمد الداهي)، و(موقع عبد القادر فيدوح) وغيرها من المواقع...إلخ.[1]

زيادة على ما تقدم فقد كثرت دراسات هؤلاء النقاد في ميدان البحث السيميائي، حتى غدوا ايقونة هذا المنهج في النقد العربي الحديث، وهذه الأسباب هي ذاتها التي رجحت كفة "النقد السيميائي المغاربي" على أخيه في "المشرق" بعد البداية الطيبة التي ابتدأها النقد المشرقي والمتمثلة في كتاب (أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة مدخل إلى السيميوطيقا مقالات مترجمة ودراسات) بإشراف **سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد**، والمعروف بين النقاد باسمه الثانوي (مدخل إلى السيميوطيقا) وهو كتاب مهم ومبكر في ظهوره، فقد بدا العمل به في سنة 1983، ونشر في سنة 1986 فهو ثري في مادته ومبتكر في تأليفه لكن هذه الخطوة لم ترفد بأخرى وبقيت يتيمة حتى تجاوزها المغاربة في الكم والنوع، إلا أنها تبقى من العتبات المهمة التي وقف عليها "البحث السيميائي العربي"[2].

على الرغم من هذه الخطوة المهمة في مسيرة "البحث السيميائي العربي" المشرقي إلا أن البحث السيميائي المغاربي فرض نفسه على "النقد العربي الحديث" وأصبح "المشرق العربي" مستقبلاً لترجمات "المغاربة" وتطبيقاتهم حتى شعر نقاده بعجزهم إزاء ما يطرحه "الناقد المغاربي" ولا سيما أن هذا الأخير يتسلح بثقافة فرنسية فضلاً عن إجادتهم للغتها اجادة تكاد تكون مطلقة، كل هذا ساعد على تلقف "المنجز السيميائي الفرنسي"، ومنها أطروحات "مدرسة باريس السيميائية" التي على غرار نحو اللغة فنتج عن ذلك نظرية العامل، ومن ثم "المربع السيميائي"، وبما أن اهتمامات "غريماس" كانت سردية في أغلبها فإن "الناقد المغاربي" طبقها على ميدان "السرد" أكثر من الميادين الأخرى وربما يعلل هذا، النجاح الذي حققه "المنهج السيميائي" في ميدان "السرد"، ولا سيما بعد دخول "المنجز الغريماسي" في نهاية ثمانينات القرن العشرين، إذ

1- نفسه، ص 166.

2 - محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث ، ص 166.

يمكن عد هذه المدة بداية التوجه نحو "سيميائية السرد في النقد السيميائي السردي العربي" وفيها تجاوزت "السيميائية السردية" التطبيقات في الأجناس الأخرى، وضحت منهجاً نقدياً مستقلاً يشار إليه بالرقي والإزدهار، ومن أهم أعلامه **سعيد بنكراد، رشيد بن مالك** و**عبد مالك محفوظ** بوصفهم انموذجاً سبق الآخرين في "التنظير والتطبيق"*1*.

لقد أخذت "السيميائية السردية" في التنظير النقدي العربي حصة الأسد وانعكس ذلك على تطبيق المنهج، حيث اهتم النقاد العرب "بالسرد" أكثر من "الشعر" في الثمانينات والتسعينات ولكن مؤخراً بدأت تظهر محاولات تطبيقية للمنهج السيميائي عند النقاد العرب المعاصرين على مستوى "الشعر"، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

6. سيميائية العنوان واستراتيجية المفارقة في قصيدة المهرولون للشاعر **نزار قباني** لـ **تاوريريت بشير**، محاضرات الملتقى الثالث السيمياء والنص الأدبي جامعة محمد خيضر بسكرة 19،20 أفريل 2004.

7. كما نجد محاولات تطبيقية اهتمت حتى "بالتراث الشعبي" وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية المنهج السيميائي وتطوره ونجاعته نذكر منها:

قصيدة حيزية... قراءة سيميائية في شعرية العشق والموت، ل حفناوي بعلي، محاضرات الملتقى الثالث. جامعة محمد خيضر بسكرة 19،20 أفريل 2004.

واللافت للانتباه أن اصدارت ملتقيات "السيمياء والنص الأدبي" في الجزائر، جامعة محمد خيضر بسكرة تشهد حركية واسعة تعكس مدى محاولة "النقاد العرب" مواكبة التطور الحاصل في النقد الغربي ونقله للمتلقي العربي، وهذا يبين حرص "النقاد العرب" على تطوير الفكر النقدي العربي من خلال دراساتهم "السيميائية".

1- المرجع نفسه ، ص 167.

والمتأمل للمحاولات التطبيقية العربية "للمنهج السيميائي" على مستوى "الشعر" و"السرد" يجدها تتأرجح بين محاولات جادة ومحاولات لا تزال خصبة، ويعود هذا للتقدم السريع الذي تشهده الساحة النقدية الغربية، وإمساك النقاد العرب بهذا الكم المعرفي المتدفق كالسيل يستغرق وقتاً طويلاً وهذا استلزم من النقاد العرب وقتاً طويلاً لفهم "السيميائية" بكل ما تحمله من مفاهيم واشكالات... الخ.

وهذا ينفي وجود قطيعة معرفية بين النقد الغربي والعربي، واللقاء بينهما هي حتمية تفرضها متطلبات البحث.

ويبدو أن السيميائية منذ ظهورها في الساحة النقدية العربية كانت في حال أفضل في "المغرب العربي" منه في "مشرقة"، وما يؤكد ذلك هو اعتماد هذا المنهج في الدراسات الأكادمية (دراسة علي العشي)، وكذلك ظهور أول كتاب نقدي عربي يحمل اسم السيمياء وهو كتاب (في سيمياء الشعر القديم دراسة نظرية تطبيقية)، لـ **محمد مفتاح** في عام 1982، ويمكننا عد ظهور هذا الكتاب في ذلك الوقت دليلاً على تقبل النقد العربي للمنهج السيميائي.

يمثل هذا الكتاب بداية طيبة للمنهج السيميائي في النقد العربي الحديث، وتأتي أهميته من جانبين: الآول بوصفه باكورة التأليف السيميائي، حيث مرحلة التخوف من الولوج في مغامرة كهذه، فهو يتبوأ مرحلة تأسيسية تحدث فيها المؤلف عن جملة من القضايا النقدية منها "المربع السيميائي" مما أزال التخوف من الخوض في منهج يعد في ذلك الوقت من أحدث المناهج النقدية وأخصبها[1].

والجدير بالذكر أن "النقاد العرب المعاصرين" المشتغلين بالدراسات السيميائية وعلى وجه الخصوص، "المغاربة" تأثروا تأثراً بالغاً "بالإتجاه الفرنسي" ولعل ذلك يعود لأسباب تاريخية تتمثل في الاستعمار الفرنسي الذي استعمر المغرب العربي لفترة طويلة، حيث حاول الاستعمار

1- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص 124.

الفرنسي فيها طمس الهوية عن طريق تهميش اللغة العربية ونشر اللغة الفرنسية، ولا يمكن أن ننكر أن بقاء الاستعمار الفرنسي في دول "المغرب العربي" فترة طويلة خلف الكثير من الانعكاسات في جميع المجالات بما فيها الفكرية، لأن اللغة حاملة للفكر، وتأثرهم باللغة الفرنسية وتمكنهم منها انعكس في مؤلفاتهم وترجماتهم فيما بعد وهو ما يسمى حاليا "بالتبعية الفكرية"، دون أن ننسى القرب الجغرافي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد أثبت "الاتجاه الفرنسي" نجاعته خاصة في تحليل النصوص والخطابات بمختلف أنواعها.

يمكننا أن نعد **رشيد بن مالك** في طليعة النقاد الجزائرين الذين عنوا "بالنقد السيميائي"، وجاءت عنايته بسيميائية "السرد" في وقت مبكر، إذ ألف كتاباً وسمه بـ "مقدمة في السيميائية السردية" 1992، وفيه يعرض الأصول اللسانية والشكلانية للمنهج السيميائي، وتناول في دراسة للحصول على شهادة الدكتوراه موضوع "السيميائية بين النظرية والتطبيق 1994" فضلاً عن ترجماته لعدد غير قليل من دراسات النقاد السيميائين الغربيين من أمثال **أن اينو** و**ميشال أريفية** و**جان كلود كوكي** و**جوزيف كورتيس**.

فتصدى لجل ما كتبه هؤلاء النقاد عن **سوسير** و**بيرس** و**كرستيفا** و**بارت** و**غريماس** ليكون القارئ على وعي بهذا المنهج الحدثاوي.*1*

أما المصطلح السيميائي السردي فقد خصه بكتاب يحمل عنوان (قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص) 2000 وهو كتاب يتناول المصطلحات السيميائية السردية التي تعتمد في تحليل النصوص الإبداعية، فكان لهذا الأثر الإبداعي أهميته البالغة والمتمثلة (في وحدة الموضوع الذي يعالجه، فهو يقدم مصطلحات المادة السيميائية بطريقة علمية يسهل على القارئ العربي فهمها والاستعانة بها)، وقد حظيت الترسيمات و الأشكال باهتمام المؤلف،

1- محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص189.

فضلا عن الشرح والتفسير والتحليل اعتمادا على مصادر أثبتها المؤلف في المتن، يضاف إلى ذلك ربط المواد مع بعضها بالإحالة إلى المصطلحات التي تحمل دلالات متقاربة.[1]

تناول **رشيد بن مالك** أكثر المصطلحات السيميائية السردية فكان هذا المؤلف خطوة جادة ومضافة لجهود الناقد في ساحة المصطلح السيميائي العربي، ومن بحوثه المميزة في "سيميائية السرد" بحث بعنوان (البنية السردية في النظرية السيميائية)[2].

وفيه يتناول بنية المكون السردي وكيفية تحليله عن طريق عرضه لنظرية التلفيظ التي جاء بها **جوزيف كورتيس** بعد وفاة **جوليان غريماس**.

ويبدو أن الجهد الكبير الذي قدمه **رشيد بن مالك** في السيميائية السردية على مستوى التنظير والتطبيق قد جعله ناقداً متميزاً من مثل **بشير تاوريريت** يصفه بأنه (واحد من أساطين التأسيس للسيميائية السردية في الجزائر)، ولا نغالي إذا قلنا إن **رشيد بن مالك** يقف في طليعة النقاد العرب الذين أسسوا "للسيميائية العربية" بفضل الجهود التي قدمها تأليفاً وترجمة للقارئ العربي.[3]

ومن مؤلفاته الأخرى في سيميائية السرد كتاب (السيميائية السردية) ويمكننا تقسيمه على قسمين الأول تنظيري تناول فيه المؤلف موضوعات مهمة تخص البحث السيميائي الغربي والعربي على حد سواء، ويقف في قسمه الآخر على بعض النصوص السردية العربية القديمة والحديثة محللاً وناقداً، وما يهمنا في هذا الموقف الجانب التنظيري الذي يخص "السيميائية السردية العربية" بيد أن ما يمكن تسجيله أن الناقد انشغل في هذا الجزء بتناول التطورات التي أحدثها "النقاد الغربيون" بعد وفاة **غريماس** 1992، ولا سيما **جوزيف كورتيس**، فضلاً عن

---

1 – المرجع نفسه ، ص 190.

2 – نفسه، ص 190.

3 – محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث ، ص 190.

قراءاته لمستقبل المنهج السيميائي في النقد العربي، ونحى جانباً السيميائية السردية التي أخلص لها في الجانب التطبيقي، وكنا نأمل منه أن يقدم لنا منهجاً في قراءة السرد سيميائياً، إلا أن ذلك لم يحدث، وإنما اكتفى فيه المؤلف بالوقوف على بعض المؤلفات، فوقف الناقد عند جهود كل من **عبد الحميد بورايو** في كتابه (التحليل السيميائي للخطاب السردي)، وعند **محمد الناصر العجيمي** في كتابه (في الخطاب السردي نظرية غريماس و"محمد القاضي" في (تحليل النص السردي)*1* و**سعيد بنكراد** في كتابه (ممكنات النص ومحدودية النموذج).

وعلل الناقد سبب اختيار هذه المؤلفات لكونها اعتمدت (بعض حكايات كليلة ودمنة موضوعاً للممارسة النقدية)، إلا أن ما يلحظ على هذه الاختيارات أن الناقد لم يذكر النص السردي الذي اعتمده "سعيد بنكراد" في كتابه بل اكتفى بالإشارة إلى التطورات التي طرأت على الفهم السيميائي عند **سعيد بنكراد** وأخذ عليه (أن النتائج التي انتهى إليها على أهميتها، لم تنهض على الإحاطة الشاملة باعتراضات السيميائيين أنفسهم على بعض الطروحات النظرية... لو تم الاطلاع على هذه البحوث لنحت الدراسة نحواً أخر)، ولا نعتقد أن ناقداً مثل **سعيد بنكراد** لم يطلع على اعتراضات السيميائين الغربيين، بل نرجح أن **بنكراد** لديه وجهات نظر إزاء هذه الاعتراضات التي يعود تاريخها إلى ما بعد وفاة **غريماس** التي ضمنها في مجمل مؤلفاته.*2*

أما رؤيته النقدية لـ **محمد ناصر العجيمي** فقد تطرقنا لها في المبحث الأول من الفصل الثاني، المعنون بـ '(تطبيق المنهج السيميائي على مستوى السرد)، أما وقوف الناقد عند كتاب (تحليل النص السردي) "لمحمد القاضي" فجاء سريعا ومستعجلاً وعلى غير رضا مما كتبه المؤلف في تحليله لحكاية (الأسود وملك الضفادع)،*3* وعلى العكس من ذلك فإن وقوف الناقد

---

1 – نفسه ، ص 191.

2 – محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص191–192.

3 – المرجع نفسه، ص 192.

عند كتاب (التحليل السيميائي للخطاب السردي) لـ **عبد الحميد بورايو** استغرق صفحات كثيرة على الرغم من أن الكتاب نشر متأخراً 2003 مقارنة بمؤلفات العجيمي والقاضي التي يحسب لها السبق في التناول والتنظير، وذهب **ابن مالك** إلى أن ما يميز دراسة **بورايو** (هو أن الباحث التزم حدود النص.. واستطاع.. صياغة خطاب نقدي يوفق فيه بين القيود التي يفوضها الجهاز السيميائي وتطلعات القارئ العربي إلى نص نقدي تيسر له سبل الاتصال بالمناهج الحديثة)[1].

والمتمعن في هذا النص يصل إلى أن **بورايو** قدم قراءة سيميائية لنص سردي راعي فيه خصوصيته القارئ العربي للنص، ولم يراع فيها خصوصية النص المدروس دراسة سيميائية، وبذا فإن المؤلف يطوع النص والمنهج معاً في سبيل أن يقدم قراءة ميسرة يفهمها المتلقي العربي الكسول، وهذا الأمر هو إساءة ابتداء للقارئ العربي قبل أن يكون إساءة للمنهج والنص على حد سواء[2].

8. إن عسر الفهم لهذه النظريات، إنما يأتي من المصطلحات واللغة التي يطوح بها النقاد يميناً وشمالاً لا من المبادئ الأساسية للمناهج، وليس من النصوص الإبداعية، فبإمكان الناقد أن يقدم قراءة نقدية سيميائية وفقاً للمبادئ العامة للمنهج السيميائي ولنصوص سردية عربية وبلغة يفهمها المتلقي العربي المتوسط الثقافة، وهذا ما يميز بعض كتابات النقاد عن بعضهم الآخر، ونذكر منهم على سبيل المثال كتابات **عادل فاخوري** إذ قدم المنهج السيميائي ومنذ وقت مبكر 1985 بلغة مفهومة وغير معقدة مازال كثير من النقاد يرجعون إليها لفهم هذا المنهج.[3]

---

1 – نفسه، ص 192–193.

2 – محمد فليح الجبوري، الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث ، ص 193.

3 – نفسه ، ص 193.

9. إن تجربة **رشيد بن مالك** النقدية تبين مرجعيته النقدية وكذا تأثره الواضح بالنظرية السيميائية الغربية وبالأخص ذات التوجه الغريماسي، ويعود هذا لتلقيه للمعرفة السيميائية من منابعها الأصلية أثناء الفترة التي قضاها في فرنسا.

10. لا يخلو منهج من المناهج أو اتجاه من الاتجاهات من النقد، وكذلك فمن البديهي ألا تسلم "السيميولوجيا" من النقد..

11. وكذلك النقد الذي وجه لكافة من اهتموا واشتغلوا بهذا الاتجاه على كافة المستويات..

فبالنسبة لـ **تودروف** لا يمكن الحديث عن بناء علمي متكامل، وبالرغم من أعمال **بيرس** و**سوسير** و**ايرك بويسنس** و**بارت** و**هيلمسليف** و**كارناب** وغيرهم فإن "السيميائيات" تظل مجموعة من الاقتراحات أكثر منها علماً أو كياناً معرفياً مؤسساً تأسيساً سليماً.

وقد اعترف **رولات بارت** قبل تودروف بأن السيميولوجيا كما هي في حدودها "ليست فخاً ميتافيزيقياً"، وإنما هي علم من بين علوم أخرى تعتبر ضرورية، لكنها غير كافية".*1*

وقد خطا **مارسيلو داسكال** خطوة أخرى في نقده لهذا المنهج حينما اعتبر أن الدراسات السيميولوجية المعاصرة على كافة اتجاهاتها لا تزال في طفولتها وهي لم تتحول إلى سيميولجيا واحدة متوفرة على تجانس منهجي ومفاهيمي، ومن ثم فإن "السيميولوجيا" لا تزال في مرحلة ما قبل الأنموذج من تطورها كعلم.*2*

1 – عصام خلف كامل، الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، ص 38.

2 – المرجع نفسه، ص38– 39.

لقد اعترض **بارت** على أطروحة **سوسير** القائلة بأن اللغة ليست إلا جزء من علم العلامات العام، داعياً إلى قلب هذه الأطروحة والنظر إلى علم العلامة بوصفه فرعاً من علم اللغة العام وبالضبط ذلك القسم الذي يتحمل على عاتقه كبريات الوحدات الخطابية الدالة...إلخ.*1*

إن "المنهج السيميولوجي" من المناهج الوافدة إلينا حديثاً، ومن ثم فالإشكالية الأولى حول المنهج تمثلت في نقل المصطلح وترجمته...*2*.

وبالرغم من كافة الانتقادات التي وجهت إلى **سوسير** و**بيرس** باعتبارهما من أهم من دعا إلى قيام هذا الاتجاه السيميولوجي، فإن النظرية السيميولوجية تعد الأكثر اقترابا من تحليل النصوص بقواعد واضحة ومفاهيم متشعبة وقد أخذت هذه التحليلات السيميولوجية نصيباً طيباً في الجهد النقدي.*3*

السيميائية اختصاص لم يسجل حضوره إلا أخيرا بين الاختصاصات المعترف بها داخل حقل العلوم الانسانية والتي هي موضوع للتعليم: فإذا كان وجودها قد تحدد منذ بداية القرن العشرين من قبل الفيلسوف الأمريكي شارل ساندرس بيرس من جهة، واللساني الجينيفي فرديناند دوسوسير من جهة أخرى فإنها ابتداء من **1960** فقد أصبحت اختصاصا رسميا.*4*

لقد كان التعدد والاختلاف من نصيب السيمياء منذ لحظات ميلادها بوصفها العلم الذي يدرس العلامات والنظم الثقافية، وفي الحقيقة فإنها شهدت لحظتي ولادة في مكانين وزمانين

---

1 – نفسه، ص 126.

2 – نفسه، ص 121.

3 – عصام خلف كامل، الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر ، ص 42.

4 جان ماري كلينكنبزغ، **الوجيز في السيميائية العامة**، ترجمة أ. د جمال حضري، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط1، 1436هـ/ 2015، ص15.

مختلفين، ففي الوقت الذي كان فيه عالم اللغة السويسري فيردينان دي سوسير **(1857-1913)** يدرس علم اللغة معتقدا أنه سيكون جزء من علم أكبر هو السيميولوجيا، كان المنطقي الأمريكي تشارلز بيرس **(1839- 1914)** يبشر بميلاد علم جديد يكون أساسا للمنطق هو السيميوطيقا أو السيمياء، وفي حين جعل سوسير نظامه ثنائيا، جعل بيرس نظامه ثلاثيا، ثم طور تلاميذ كلا العالمين مشروعيهما كلا بمعزل عن الآخر، فطعم الشكلانيون الروس، ولغويو مدرسة براغ، وبنيويو مدرسة باريس لسانيات دي سوسير، بينما استمر مشروع بيرس لدى موريس وكارناب وسواهم، وما زال الأوروبيون (ولا سيما في العالم الناطق بالفرنسية) يؤثرون مصطلح دي سوسير، بينما يؤثر الأمريكيون مصطلح بيرس، ويزداد انقسام السيميائيين فيما بينهم بالقضايا المتعلقة بالأدب، إذ تختلف المقاربات ليس فقط باختلاف الأجناس الأدبية، بل باختلاف المدارس أيضا.

وإذا كانت السيمياء موضوعية منذ نشأتها، فإن التأويل لم يكن كذلك، لأنه بدأ في الأساس، ربما مع بدء اللغة، من الاهتمام بالبحث عن المعنى القصدي الذي يخفيه المؤلف في مكان ما من نصه.

ولذلك فقد احتضنت التأويل الاتجاهات الفلسفية والأدبية الذاتية والشخصانية والظاهراتية، التي تهتم بذوات المؤلفين في محاولة لترميم[1] المعاني الكامنة ضمنا في نصوصهم، غير أن هذا "**التأويل**" سرعان ما تعدد وانقسم أيضا، وهكذا ظهر التأويل بمعانيه

---

1 روبرت شولز، **السيمياء التأويل**، ترجمة سعيد الغانمي المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دار الفأس للنشر والتوزيع، ط1، 1994، ص9.

الموضوعية والذاتية والنصية واللغوية والتشريعية، لينافسه فيما بعد ما وراء التأويل، وضد التأويل، وتأويل التأويل.

يعد كتاب "**السيمياء والتأويل**" محاولة للمزاوجة بين السيمياء الموضوعية والتأويل الذاتي، وبين علمية المقروء وفاعلية القارئ، إنه مراجعة للمدارس النقدية الحديثة في ضوء اهتمامها بهذين الحقلين، ومحاولة لتلمس الحدود المشتركة بينهما، ويمتاز الكتاب بقدرته على مخاطبة القارئ المتوسط، ولكنه في الوقت نفسه يثري فهم القارئ المطلع، ويثير أمامه كثيرا من الأسئلة، ولا يخفي المؤلف أنه يصل عند بعض النقاط إلى ما يمكن اعتباره نقطة قطيعة مع الموروث السيميائي، ولا يكتفي الكتاب بطرح التصورات والمفاهيم النظرية، بل يلاحقها في لحظة اشتغالها الفعلية على النصوص، ويقابل بينها على مستويات متعددة، مضيئا كل مقترب بما يماثله أو يخالفه ومحاولا في الوقت نفسه تقديم وجهة نظر شخصية تتابع التفصيلات الدقيقة، في الوقت نفسه تقديم وجهة نظر شخصية تتابع التفصيلات الدقيقة، دون أن تغفل الانتباه إلى تمحيص أسسها.*1*

لقد كان القارئ منسيا في نظريات الأدب الكلاسيكية .... نظريات "**التلقي**" و"**التأويل**" أعادت له حقه وأهميته ووضعته في رأس قائمة أولوياتها، لأنه منتج النص ومؤوله.

وهكذا انتقلت سلطة الأدب من "**الكاتب**" و"**النص**" إلى "**القارئ**" الرأس الثالث للمثلث الذهبي الأدبي، بعد أن أعلن "**موت الكاتب**" ووضعت القوانين الضابطة القراءة، فجعلت القارئ

1 روبرت شولز، **السيمياء التأويل**، ترجمة سعيد الغانمي، ص10.

محكوما باستراتيجية الجماعة التي ينتمي إليها، ومدفوعا إلى التحذير من الوقوع في رد الفعل الذي يوقع في أسطورة القارئ بعد التخلص من "**أسطورة الكاتب**" و"**النص**"، ومن أجل ذلك تم التساؤل عن جدوى تعدد القراءات، وهل كلها صالح ينتج تأويلات صائبة؟، وتم التنبيه إلى أن القارئ قد لا يتخلى عن ذاتيته ورغباته، وبالتالي فإن هذه كلها ستنعكس على تأويلاته القرائية.

هكذا أصبح النص لا وجود له دون قارئ يمنحه بنياته وعلاقاته ودلالاته وأصبح "**النص**" بناء ينتظر القارئ الذي يخلق منه المعنى الذي يريدونه ولم يعد "**القارئ**" مجرد متلق سلبي، أو مستهلك خاضع لسلطة النص، وإنما هو خالق النص، وبهذا تصبح القراءة عملية انتاجية إلا عملية تلقى دون فعل، ولهذا جاءت "**جماليات التلقي**" لتؤكد تصور قراءات النص الواحد ولا نهائية دلالاته.[1]

وإذا كانت السيميائيات "**علما من بين العلوم**" أو "**العلم كلة أو نقدا للعلم وللايديولوجيات**" في منظور بعض الاتجاهات السيميائية وإذا كانت قد مورست وفق هذه التصورات الثلاثة في الغرب، فإنها ما تزال في وطننا العربي بعيدة عن أن تناسب أي تصور من هذه التصورات الثلاثة لأنها لم تعالج بعد مجموعة من الميادين ولم تنطلق من أرضية علمية، ومعرفية شمولية كتلك التي ينطلق منها السيميائي الايطالي امبرطوايكو

1 محمد عزام، **النقد بين النص والمتلقى**، بحوث سيميائية جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، ص309.

amberkoeco فعسى أن تطعم السيميائيات النظرية بسيميائيات تطبيقية تطال مختلف أوجه حياتنا.*1*

ورغم اعتراف أنصار "السيميائية" أنفسهم بقصورها لا يمكن أيضا أن ننفي أن "السيميائية" ماهي إلا مجهود بشري يتخلله النقص وانطلاقا من هاته الحتمية نتساءل هل يمكن فعلاً للمحلل السيميائي أن يلغي التجربة الإنسانية أثناء تحليله؟، ورغم ذلك لا يمكن الاستغناء عن "السيميائية" لأنها اهتمت بكل مجالات الفعل الإنساني.

لعل محاولة الإحاطة بكل ما أفرزه "البحث السيميائي العربي" صعب جداً، ولكننا استطعنا في هذا البحث أن نقف عند بعض محطات "التجربة السيميائية العربية" لكشف مالها، وما عليها، ولكن هذا لا يكفي لأن المخزون العربي للدراسات السيميائية مازال يحتاج إلى الكثير من القراءات النقدية و المساءلة الواعية، ولكن مواكبة التطور النقدي الحاصل لا يعني التجرد من الانتماء العربي والركض وراء كل ما أحدثته آخر الموضات والمديلات الغربية حتى يشعر "الناقد العربي" بمدى تطوره، لأن الشعور بالإنتماء يحتم على "الناقد العربي" إدراك خصوصيات هذا الانتماء.

ورغم كل الممارسات النقدية لفهم "السيميائية" إلا أنها لم تستطع إحداث نقلة نوعية يمكن بمقتضاها القول بوجود "تصور سيميائي عربي" بمعنى الكلمة لأن تجديد الخطاب السيميائي لا ينحصر في متابعة مختلف التحولات التي تشهدها السيميائية الغربية من خلال تحديد خلفياتها واجراءاتها المنهجية في سبيل الاستفادة منها في تحليل النصوص والخطابات بمختلف أنواعها بل تتطلب من "الناقد العربي" رفع مستوى طموحاته إلى إنشاء "مشروع سيميائي عربي" يحاول فهم "المنجز الغربي" تنظيراً وتطبيقاً من جهة ومن جهة أخرى معرفة مدى مشروعيته

---

1 حنون مبارك، **دروس في السيميائيات**، دار البيضاء ط1، دار توبقاي، للنشر مكتبة الأدب المغربي الدار البيضاء، ط1، 1987، ص6.

وصلاحيته على الثقافة العربية؟ مع توظيف "نقد النقد" كوسيلة لفهم المنظومة النقدية العربية، لأن الحديث عن "تطور الخطاب النقدي" يجعل منه خطابا قابلاً للدراسة والتحليل وهو ما يعرف "بنقد النقد" مع ضرورة تفعيل دور المخابر الجامعية والمجامع اللغوية...الخ والعمل على تشجيع البحوث والدراسات المنشغلة "بالسيميائية"، ولا تتوقف عند حدود إعطاء كلمات تشجيعية بل تتعداها إلى تثمين هذه الجهود من خلال فتح منابر الحوار بين الأقطار العربية من أجل التنسيق ودعوتهم إلى تظافر الجهود وتوحيدها.


خـاتمـة

خاتمة:

أصبح الاهتمام "العلاماتي" عصب الحياة في المجتمعات، ولئن كان البعض يعتبرها مجرد موضة من الموضات، ولكن هذا الوصف لا ينقص من قيمتها كمنهج نقدي؛ ويعود هذا لأهميتها مما جعل "السيميائية" تمر عبر تخصصات عديدة ومجالات متنوعة، ومع تزايد أهمية "السيميائية" في النقد المعاصر، وجدنا أنه من الضروري مساؤلة "الخطاب السيميائي العربي" وهي ضرورة فرضتها التحولات الفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية التي يشهدها العالم، وهذه المساءلة لا نقصد من وراءها وضع محاكمة "للنقاد" بل هي مساءلة تقدم صورة عن فاعلية و حيوية "الخطاب السيميائي العربي" في بعض جوانبه، ولكن غياب الوعي بخصوصية الثقافة العربية أوقع "الخطاب السيميائي العربي" في أزمة التأصيل المنهجي بين محاولات تتأرجح بين الدعوة إلى التأصيل بالتمسك بالتراث في حالته السكونية، وبين محاولات سلمت نفسها للغرب فأوقعتها في التبعية الفكرية، ووسط هذه المحاولات يجد القارئ نفسه في حيرة.

إذا اعتبرنا "السيميائية" غربية المنشأ فهذا يحتم على "الناقد العربي" فهم الحمولة الفلسفية والفكرية والثقافية التي رافقت نشأة "السيميائية" منذ مخاض ولادتها وتوقيع شهادة ميلادها إلى نموها وتطورها، وهذا ما يجعلنا نتساءل : هل فهم التربة التي نشأت فيها "السيميائية" يتلاءم مع خصوصية الثقافة العربية؟

إن مهمة "الناقد العربي" حالياً صعبة جداً، خاصة في ظل التسارع الكبير الذي تعرفه الساحة النقدية الغربية، ورغم ذلك برزت بعض الأقلام العربية خاصة في المغرب العربي التي لمعت بجدارة في الحراك النقدي الحاصل، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على محاولة النقاد العرب الجادة –عند البعض– لمواكبة التطورات التي تشهدها الساحة النقدية، ويقودنا هذا إلى رسم معالم الرؤية النقدية العربية المنشغلة بالدراسات السيميائية، وهذا ما يجعلنا نتساءل: هل يوجد خطاب سيميائي واضح المعالم في النقد العربي؟

ورغم كل المحاولات العربية لفهم "السيميائية" إلا أنها مازالت خصبة –عند البعض– ويعود هذا للتقدم السريع الذي يعرفه "النقد الغربي" الذي يخطو خطوات عملاقة نحو الأمام في هذا المجال، في حين مازال "الناقد العربي" يمشي بخطى متثاقلة نوعاً ماً، ورغم صعوبة المهمة إلا أنها ليست مستحيلة، وهذا ما لاحظناه أثناء اطلاعنا لعدد من المؤلفات المنشغلة "بالسيميائية" وهذا يدل على سلامة الانطلاقة التي تبشر بغد أفضل.

ويبدو أن اشكالية "التعدد المصطلحي" خلفت أزمة في النقد المعاصر، فأصبحت هاجس ومعضلة كل حقل معرفي، فهي ليست حكراً على "السيميائية"، مما زاد من أهمية "المصطلحات" في جميع التخصصات باعتبارها تمثل مفاتيح العلوم، وامتلاك المفاتيح الصحيحة والمبررة في يد الباحث والناقد يسهل عمليه فهم أي حقل معرفي من خلال وضع "المصطلح" مثلا من قبل الباحثين والدارسين المنشغلين بالدراسات السيميائية في حلبة الاستعمال ليصارع المصطلحات الأخرى من أجل البقاء على مائدة ثقافية مبنية على الحوار الفكري البناء والجدل المنطقي والمبرر ليثبت المصطلح في الأخير وجوده أو العكس.

إن أهم ما لمسناه من خلال رحلتنا بين المؤلفات العربية المتعلقة بالدراسات السيميائية هو صعوبة الإلمام بجميع الإشكالات التي أفرزتها عملية تلقي "الخطاب السيميائي" تنظيرا وتطبيقاً لتراكم المعرفة السيميائية العربية، ولكننا حاولنا السيطرة على البحث من خلال اعتمادنا على مجموعة من المؤلفات والدراسات في هذا المجال استخلصنا منها جملة من النتائج وهي كالآتي:

- "السيميائية" لم تنشأ من العدم بل نشأت نتيجة تراكم جملة من المؤثرات والخلفيات المعرفية التي ساهمت في نشأتها، وهذا ما دعا "النقاد" المهتمين "بالدراسات السيميائية" الوقوف عندها بالدراسة والتحليل باعتبارها بمثابة المنطلقات والمرتكزات التي يستند عليها "الناقد" لفهم "السيميائية" وهذا ما حاولنا توضيحه في الفصل الأول من خلال الوقوف عند اهم خلفياتها المعرفية؛ (الأصول الفلسفية القديمة: العلامة في فلسفة أفلاطون وأرسطو،

- العلامة في الفكر الرواقي، العلامة في فكر جان لوك، دافيد هيوم، العلامة في التراث العربي...)،(الخلفيات المعرفية الحديثة: الإرث الألسني "السوسيري"، الإرث الشكلاني...).
- تحاول السيميائية باعتبارها علم قائم بذاته رغم الصعوبات على مستوى الممارسة النقدية تقريب العلوم الإنسانية وخصوصاً الأدب واللغة من العلوم التجريبية فتحولها من مجرد انطباعات وتأملات إلى علوم بمعنى الكلمة فتبتعد بهذا الأحكام من سلطة الإنطباعية إلى آراء نقدية يشهد لها العقل بالصحة والخطأ، ولكن إذا سلمنا بأن كل منهج ناقص لأنه في الأول والأخير مجهود بشري، وكل ناقص يفتقر للكمال اقتنعنا بضرورة تظافر الجهود من أجل إيجاد مقاربة تبتعد ما أمكن عن النقص والخلل وهذا ما حاول فعله بعض النقاد السيميائين.
- اللقاء المعرفي والنقدي بين العرب والغرب هي ضرورة تفرضها متطلبات البحث ومسايرة التطور الحاصل، حيث حاولنا في هذا البحث تقديم صورة عن هذا التفاعل وحيويته وتمظهر هذا اللقاء في المثاقفة والترجمة والتناول النقدي..إلخ.
- الاضطراب المصطلحي "في العالم العربي"، ويكفي أن نقرأ بعض الدراسات السيميائية لنتأكد من الاختلافات الموجودة بين الباحثين والدارسين، فنجد ركاماً من المصطلحات نذكر منها السيميائية، السيميولوجيا، السيمياء، علم السيمياء، السيميوطيقا، العلامية، علم العلامات، الإشارية، علم الإشارات، الرموزية، علم الدلائل، الدلائلية... الخ.

وهذا "التعدد المصطلحي" يؤثر سلباً في تبليغ الرسالة العلمية ولكن البعض يرى أن مصطلح "السيمياء" هو الأفضل لأنها كلمة متعارفة على وزن عربي خاص بالدلالة على العلم. ولكن السيمياء "لا تعني أكثر من "العلامة" أما علم هذه العلامة فينبغي أن نعبر عنه ب (علم السيمياء) أو بصيغة المصدر الصناعي "السيميائية" وإن كان هذا الأخير هو أقرب المصطلحات وأكثرها استعمالا.

- لقد تأثر "النقاد العرب" وعلى وجه الخصوص "النقاد المغاربة" بالاتجاه الفرنسي ولعل ذلك التأثر الواضح يعود لأسباب تاريخية تتعلق بالإستعمار الفرنسي وتمكنهم من اللغة

- الفرنسية وللقرب الجغرافي هذا من جهة، ومن جهة أخرى هو إثبات هذا الاتجاه نجاعته خاصة في تحليل النصوص والخطابات بمختلف أنواعها.
- إن الحديث عن إنشاء "مشروع سيميائي عربي" يتطلب الكثير من الصبر والوعي بخصوصية الثقافة العربية من جهة، ومعرفة أهمية "نقد النقد" من جهة أخرى باعتباره الوسيلة الأمثل لفهم المنظومة النقدية العربية وتطويرها مع تفعيل دور (المجامع العلمية، الجامعات، هيئات، مؤسسات، نوادي، رابطات، جمعيات...الخ)

ونرجو في الأخير أن نكون قد وفقنا ولو بقليل في هذا العمل المتواضع، فإن أصبنا فلنا أجران؛ أجر المحاولة والنجاح فيها، وإن أخطأنا فلنا أجر المحاولة بإذن الله تعالى.

ونسأل الله السداد والتوفيق.


قـائمـة المصـادر
والمراجـع

قائمة المراجع :

أولا: الكتب

1- أحمد طالب، المنهج السيميائي من النظرية إلى التطبيق، منشورات دار الغرب للنشر والتزيع، وهران، د.ط، 2005.

2- أحمد يوسف، السيمائيات الواصفة المنطق السيميائي وجبر العلامات، منشورات الاختلاف، الجزائر ط1، 2005/ 1426هـ.

3- آراء عابد الجرماني، اتجاهات لنقد السيمائي للرواية العربية، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، ط1، 1433هـ /2012.

4- جان ماري كلينكنبزغ، **الوجيز في السيميائية العامة**، ترجمة أ. د جمال حضري، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط1، 1436هـ/ 2015.

5- جيرار دولودال، بالتعاون مع جويل ريطوري، السيمائيات أو نظرية العلامات، ترجمة عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط2، سوريا، 2011.

6- جيرالد برنس، **قاموس السرديات**، ترجمة السيد: إمام ميريت للنشر والمعلومات، طبعة 1، 2003، القاهرة.

7- حنون مبارك، **دروس في السيميائيات**، دار بيضاء للنشر مكتبة الأدب المغربي الدار البيضاء، ط1، 1987.

8- دانيال تشاندلر، الأسس السيميائية، ترجمة طلال وهبة، مراجعة ميشال زكريا، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، ط1، 1434هـ/2013.

9- رشيد بن مالك، السيمائيات السردية، دار مجدلاوي، ط1، عمان، 1427 هـ/2006.

10- روبرت شولز، **السيمياء التأويل**، ترجمة سعيد الغانمي المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دار الفأس للنشر والتوزيع، ط1، 1994.

11- سعيد بنكراد، السيمائيات السردية، مدخل نظري، منشورات الزمن، الدار البيضاء، المغرب، د/ط، 2001.

12- الصادق حشاب، التعريب وصناعة المصطلحات، دراسة تطبيقية في القواعد والاشكالات، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، 2016.

13- صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، ميريت النهر والمعلومات، ط1، 2002، القاهرة.

14- عبد الله بن المقفع، كليلة ودمنة، تقديم مزراق بقطاش، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة رغاية، الجزائر 1988.

15- عبد المالك قجور، مبادئ في السيمائية، ط1، د/ن، الجزائر، 2013.

16- عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي معالجة تفكيكية سيمائية مركبة لرواية "زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عنكنون، الجزائر، 1995.

17- عصام خلف كامل، الاتجاه السيميولوجي، نقد الشعر، دار فرحة للنشر والتوزيع، د/ط، 2003.

18- غريماس كورتيس باط، **النظرية السيميائية السردية، الكشف عن المعنى في النص السردي**، ترجمة: عبد الحميد بورايو، دار السبيل للنشر التوزيع، 2008، الجزائر.

19- فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر 1431 هـ/2010.

20- مارسيلو داسكال، **الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة**، ترجمة حميد حمداني، محمد العمري، عبد الرحمان طنكول، محمد لولي، مبارك حنون، سلسلة البحث السيميائي، 1981.

21- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية غرريماس، العربية للكتاب تونس، 1991.

22- محمد عزام، **النقد بين النص والمتلقى**، بحوث سيميائية جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان،ديسمبر 2007.

23- محمد فليح الجبوري، التجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، ط1، 1434هـ/2013.

24- مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، سلسلة عالم المعرفة، ع 1993، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، د/ط، الكويت، 1995.

25- نزار القباني، الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء الأول، منشورات نزار القباني، بيروت لبنان، ط 15، تشرين الأول (أكتوبر) 2000.

ثانيا: المجلات العلمية:

1- بشير تاوريريت، أبجديات في فهم النقد السيميائي، مفاهيم واشكالات، محاضرات الملتقى الوطني الثاني، السيماء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر بسكرة، 16/15 افريل 2002.

2- بلعباس عبد القادر، بين سوسير وبورس، بحوث سيميائية مجلة علمية محكمة، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، ع5 و6، ماي 2009.

3- بلقاسم دفة، التحليل السيميائي للبنى السردية رواية حمامة سلام للدكتور نجيب الكيلاني أنموذجا، محاضرات الملتقى الوطني الثاني السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر بسكرة16/15/أفريل 2002.

4- بلقاسم دفة، التحليل السيميائي للخطاب السردي في رواية الربيع العاصف لنجيب الكيلاني، محاضرات الملتقى الثالث السيماء والنص الأدبي، 20/19 أفريل 2004.

5- بلقاسم دفة، علم السيمياء والعنوان في النص الأدبي، محاضرات الملتقى الوطني الأول، السيماء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر بسكرة، 8/7 نوفمبر 2000.

6- جان كلود دومينجوز **(مدرسة الفنون التزيينية) المقاربة السيميولوجية**، ترجمة جمال بلعربي، بحوث سيميائية، مجلة علمية، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان الجزائر ، ع 3، 4 جوان ديسمبر، 2007.

7- جوزيب بيزا كامبروبي، وظائف العنوان، ترجمة الحميد بورايو، بحوث سيميائية، جامعة أبو بكر بقايد، تلمسان، العددان 5و6، ماي 2006.

8- جوزيف كورتيس، **إشكاليات عامة في السيميائية**، ترجمة: كريمة بوعمرة، سليمة بن مدور، صونية بكال، بحوث سيميائية، مجلة علمية، ع3، 4، جوان ديسمبر 2007.

9- جون ماري كليكيارغ، **السيميولوجيا أو السيميائية؟، موضوعات والأهداف**، ترجمة رشيد بن مالك، بحوث سيميائية، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، الجزائر، ع 4،3، جوان، ديسمبر 2007.

10- حسين خمري، سيميائية الترجمة،بحوث سيميائية، مجلة علمية، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، الجزائر ع4،3.

11- حفناوي بعلي، التجربة العربية في مجال السيمياء، دراسة مقارنة مع السيمولوجيا الحديثة، محاضرات الملتقى الوطني الثاني، السيماء والنص الأدبي، 16/15 أفريل 2002.

12- حميد سمير، الحداثة المقلدة في النقد السعودي الحديث، قراءة نقدية في تفكيكية محمد الغزامي، مجلة علامات في النقد، ملتقى قراءة النص الثاني عشر، التحديث النقدي والأدبي في المملكة العربية السعودية، ج 2، م 20، ع 77، محرم 1435هـ/ نوفمبر 2013.

13- رابح بومعزة، الاتجاهات السيمائية المعاصرة، النموذج غريماسي على مقطوعة نزارية، محاضرات الملتقى الرابع، السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر بسكرة، 29/82 نوفمبر 2006.

14- رابح بومعزة، من مظاهر إسهام مدرستي باريس والشكلانيين الروس في تطور السيمائيات السردية، محاضرات الملتقى الوطني الثاني السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر بسكرة، 16/15 أفريل 2002.

15- رشيد بن مالك، الأصول اللسانية والشكلانية للنظرية السيمائية، ملتقى علم النص، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، دار الحكمة، ع 14 شعبان 1420هـ/ ديسمبر 1999.

16- رشيد بن مالك، قراءة سيميائية في كلية ودمنة لعبد الله بن المقفع، بحوث سيميائية، مجلة علمية، ع 2، ديسمبر 2006 جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان.

17- سعيد بن كراد، **السيميائيات وموضوعها**، بحوث سيميائية، مجلة علمية ، ، بالجزائر، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر،ع3، 4، جوان ديسمبر 2007.

18- شرشار عبد القادر، **قراءة لقاموس التحليل السيميائي للنصوص، عربي انجليزي فرنسي**، للدكتور رشيد بن مالك، السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيبر، بسكرة، 8،7 نوفمبر، منشورات الجامعة، دار الهدى، 2000.

19- صالح مفقودة، السيميولوجيا والسرد العربي، محاضرات الملتقى الوطني الأول، السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر بسكرة، 8/7 نوفمبر 2000.

20- عبد العالي بوطيب، إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، عالم الفكر تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، المجلد 23، العدد 01، 2 يوليو (سبتمبر، أكتوبر، ديسمبر 199.

21- عبد القادر سلامي، من أصول التفكير الدلالي عند العرب، بحوث سيميائية، مجلة علمية محكمة، ع5 و6، ماي 2009، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان.

22- قادة عقاق : **سيمياء النص السردي في النقد الجزائري المعاصر، بحوث سيميائية**، مجلة علمية ، بالجزائر، جامعة أبوبكر بلقايد، تلمسان الجزائر، ع3، 14 جوان ديسمبر 2007.

23- قادة عقاق، ملامح الدرس السيميائي في الموروث العربي الفكري واللغوي، ما هي العلامة وطبيعتها في التراث العربي الاسلامي؟ محاضرات الملتقى الوطني الأول، السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر بسكرة، 8/7 نوفمبر 2000.

24- مولاي متقدم، السيميائيات، السيميولوجيا قراءة في المفهوم والمصطلح، مجلة التواصلية، منشورات مخبر اللغة وفن التواصل العدد التاسع، ربيع الأول 1438 هـ الموافق لـ ديسمبر 2016، جامعة المدية.

الرسائل الجامعية:

أحمد موساوي، **المصطلح السردي عند عبد المالك مرتاض (كتاب في نظرية الرواية انموذجا)**، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي، تخصص النقد العربي ومصطلحاته جامعة قاصدي مرباح ورقلة، السنة الجامعية 1432- 1433هـ/ 2011-2012م.

1- بن علي خلف الله، النقد السيميائي في الجزائر، اتجاهاته وأصوله رسالة الماجستير في النقد الجزائري المعاصر، جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس، السنة الجامعية 1428-1429هـ /2007-2008.

2- كمال جدي، المصطلحات السيميائية السردية في الخطاب النقدي عند رشيد بن مالك، مذكرة من متطبات شهادة الماجيستر في اللغة العربية وآدابها تخصص النقد العربي ومصطلحاته / جامعة قاصري مرباح ورقلة السنة الجامعية 2012/2011.

3- هيام عبد الكريم عبد المجيد علي، دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية، شعر البردوني نموذجا قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، أيار 2001.


فهرس المحتويات

فهرس المحتويات:

شكر

إهداء

مقدمة..... أ

الفصل الأول: السيميائية، المفهوم، النشأة، التطور..... 01

المبحث الأول: الخلفيات المعرفية للنظرية السيميائية..... 02

2- الخلفيات المعرفية..... 03

1-2-الأصول الفلسفية القديمة..... 03

1-1-1 العلامة في فلسفة أفلاطون وأرسطو..... 04

2-1-1 العلامة في الفكر الرواقي..... 10

3-1-1 العلامة في فكر جان لوك (1632- 1704)..... 16

4-1-1 دافيد هيوم (1711- 1776)..... 18

5-1-1-العلامة في التراث العربي..... 20

2- الخلفيات المعرفية الحديثة..... 46

1-2- الإرث الألسني (السوسيري)..... 46

2-2- الإرث الشكلاني..... 76

المبحث الثاني: إشكالية المصطلح السيميائي..... 95

الفصل الثاني: اتجاهات السيميائية وعلاقتها بالعلوم الاخرى..... 119

المبحث الأول: اتجاهات السيميائية..... 120

الاتجاه الأمريكي..... 121

الاتجاه الفرنسي..... 132

أ-السيميولوجيا السوسيرية..... 132

ب-سيميولوجيا الدلالة..... 138

ج-اتجاه التواصل..... 145

د-مدرسة باريس السيميوطيقية..... 151

هـ- جماعة (تل كل)..... 154
و- السيميولوجيا الرمزية..... 156
الاتجاه الروسي..... 158
الاتجاه الإيطالي..... 169
المبحث الثاني: السيميائية وعلاقتها بالعلوم الأخرى..... 173
السيمياء والفلسفة..... 173
السيمياء والرياضيات..... 189
السيمياء واللسانيات..... 192
السيمياء والدلالة..... 196
السيمياء والنقد الثقافي..... 209
السيمياء وعلم الاجتماع..... 217
السيمياء وعلم النفس..... 222
السيمياء والإرث الشكلاني..... 230
السيمياء والشعرية..... 237
السيمياء والظاهراتية..... 250
السيمياء والبنيوية..... 257
السيمياء والأسلوبيات 265
السيمياء والتفكيكية..... 276
الفصل الثالث: تطبيق المنهج السيميائي عند النقاد العرب..... 287
المبحث الأول : تطبيق المنهج السيميائي على مستوى السرد..... 325
1-النص: "الأرانب والفيلة"..... 343
2- تحليل النص..... 344
المبحث الثاني: تطبيق المنهج السيميائي على مستوى الشعر..... 374
إختاري..... 375
خاتمة..... 408

قائمة المصادر والمراجع..... 413

فهرس المحتويات..... 420

ملخص

ملخص:

تناول البحث كيفية تلقي "النقاد العرب" الخطاب السيمائي وهذا ما تجلى في أعمالهم النقدية من حيث التنظير والتطبيق من خلال البحث عن الخلفيات الفلسفية والمعرفية للنظرية السيمائية مرورا بإشكالية المصطلح مع معرفة اتجاهات السيمائية بالتركيز على الاتجاه الفرنسي، بالإضافة إلى معرفة علاقة السيمائية بالعلوم الأخرى، كما حاول النقاد العرب تطبيق المنهج السيمائي على مستوى الشعر والسرد، وهذا ما تطرقنا له في هذا البحث.

وما ينبغي توضيحه أن انفتاح النقد العربي على أفق جديد لم يأت دفعة واحدة، وإنما استغرق وقتا طويلا والبحث السيميائي العربي يعكس هذا الانفتاح الفكري الذي تشهده الساحة النقدية العربية، ولعل المنهج السيميائي من أبرز معالم التجديد النقدي، فالنص حامل للكثير من الأسرار عن آليات جديدة لقراءة النص، فحدث الانفجار النقدي بميلاد السيمائية التي طرأت عليها الكثير من التحولات والتطورات.

إن الحديث عن انشاء مشروع سيمائي عربي يتطلب مراعاة الثقافة العربية بما تحمله من خصوصيات مع توظيف النقد، لأن تطور الخطاب النقدي جعل منه خطابا قابلا للدراسة والتحليل.

The research entails the arabic critics's recreption of the semiotic speech, which was found in their critical works through theorizing and application by looking through the philosophical and cognitive background of the semiotic theory by analyzing the term's problematic and knowing the semiotic directions with focusing about the french direction. In addition to knowing the relation between semiotics and other sciences, the research stated that the arabic critics tried to apply the semiotic syllabus in poetry and prose. What should be explained is that the opening of the arabic criticism as a new prospect wasn't established all at once, though it had taken a long time, and the semiotic-arabic research contradicts this intellectual opening witnessed by the arabic and critical arena, and maybe the " semiotic syllabus " wold become one of the most noticeable milestones in the critical renewal, as the text holds an extraordinary amount of secrests that explain its critic's foundation, and that had driven the critic to find new mechanisms to read the text, wich led to the critical explosion by the birth of "semiotics " wich had taken a lot of transformations and improvements.in order to speak about the institution of the " semiotics " wich had taken a lot of transformations and improvements. In order to speak about the institution of the "semiotic-arabic project" , we must considerate the arabic culture with what it holds specialties with the application of criticism because the critical speech has been made eligible for analyzing and studying thanks to its development.